

عبد السلام محمد بن العفّا

بين الصحافة والأدب



د. عبد العزيز هرف

د. محمد عبد المنعم خفاجي

عبد السلام محيى العظمى

بين الصحافة والأدب

د. محمد عبد النعم ففاجى د. عبد العزيز شرف

مكتبة الأنجلو المصرية
١٦٥ شارع محمد فهدى القاهرة

تقديم

بقلم الكاتب الكبير : جلال الدين الحمامصي

الشخصيات الصحفية ليست كلها في مرتبة واحدة عند الجمهور ، بعضها يظهر ، ويكتب ، ويقرأ له القراء ، ولكن لا تلبث أن تختفي باختفاء انتاجها ، ولا يذكره الناس الا اذا ارتبط اسمه بواقعة ما ، ثم ينطوي بعد ذلك في عالم النسيان .

والبعض لتظل يظهر ، ويكتب ، ويقرأ له القراء بشغف ومتابعة نادرة ، ومع هذا فان ذكره لا تختفي . واذا توقف عن الكتابة ، أو دخل السجن ، أو احيل بينه وبين قرائه ، أو انتقل الى رحمة الله متمما كان قد أدى واجبه العام .

ومن هؤلاء .. أو على رأس هؤلاء « عباس محمود العقاد » ولعل أهم المميزات التي حققت لعباس محمود العقاد هذه الميزة على غيره من الكتاب الصحفيين تمسكه بكرامته ، وبرايه ، وباحساسه بأن الحاجة الى لقمة العيش لاتعني أن يحوس هذه الكرامة ، وأن يبذل رايه كما يبذل الفرد العادي حذاءه .

ومن هذا الواقع القوي .. بدأ العقاد دائما « كالعلاق » أو « كالجبل » الذي تنتسج من قمته أضواء القوة والحق والكرامة في كل الظروف والأوقات والأزمات .

عرف العقاد الحياة بمرها وحلوها .. بل أنه عاش حياته كلها على مزيج المر والحلو من هذه الحياة .. ولهذا نجح في أن يظل دائما الرجل الذي يواجه العواصف أيا كانت ، ولا يبطئ لها رأسه ، أو أن يسمح للعاصفة بأن تمر دون مواجهة ، فاما أن تهزمه أو أن يهزمها .. ولقد كان رصيد حسابه من هذه المعارك كلها في جانبه دون أن يتطلع مرة واحدة الى الجانب المادي البحت في هذا الرصيد أو أن يتساءل : « كم أملك ؟ .. وهل أستطيع أن أعيش « بما أملك » ؟ »

ولهذا عاش العقاد متواضعا ، ومات في تواضع . يسير على قدميه ويركب الخرو من صاحبة مصر الجديدة ، اما الى مقر عمله - اذا كان يعمل في احدى الصحف ، أو الى واحدة من مكاتب القاهرة ليجمع منها أحدث ما وصل اليها من الكتب في كل فرع من فروع العلوم والأدب والاجتماع والسياسة .

وكانت له في صباح يوم الجمعة من كل أسبوع ندوة في منزله للتواضع
بضاحية مصر الجديدة يجلس إليه فيها مجموعات من الشباب والشيوخ
يستمعون إليه ويناقشونه في الآراء المختلفة ، ولم يكن يتردد - قط - في أن
يقول رأيه صريحا واضحا محددا ، لأنه كان يعتبر نفسه - وبحق - صاحب
رسالة .. وصاحب الرسالة يسقط عنه حقه في التثيثر بهذه الرسالة إذا
فقد شجاعته أو لم يقل رأيه صريحا واضحا لا لبس فيه ولا إبهام .

وكان العقاد يعتبر نفسه - مع تواضعه « كبيرا » .. وكان يصير على
أن يضع تحت عنوان مقاله : « بقلم الكاتب (الكبير) عباس محمود
العقاد » .. وأعترف أنني كنت أظهر دهشتي من هذا الإصرار من جانبه ،
ومع هذا فإنه وضح لي ، مع مرور الزمن ، وازدياد معرفتي بصلابة الرجل
وقوته أنه كان محقا في هذا الإصرار ، بل لقد ذهبت إلى أبعد من هذا ،
نازددت إيمانا واعتقادا بأن العقاد لا يستحق أن يتمسك فقط بكلمة « الكبير »
بل أنه كان جديرا بأن يقال أنه « الكاتب الأكبر » .

ذلك لأن هذا الرجل لم يكن هو الكاتب الوحيد في الصحف ، بل أنه
عاش في زمن تعدد فيه الكتاب وكثروا .. ومعظمهم كان على مستوى كبير
من العلم والثقافة ، ولكن العقاد تميز عنهم بالشجاعة والإصرار على
الدفاع عن رأيه وضرب الحزبية بحذائه ، إذا ما لعبت هذه الحزبية بما
اعتادت أن تنادي به أو خرجت على مبادئها الأصلية .

لم يكن العقاد في يوم ما من أصحاب « الولاء المزدوج » أو « الولاء
المتعدد الاتجاهات » بل كان ولاؤه واحدا للرأي الذي آمن بأنه يخدم به وطنه
وشعبه .

وقد يفهم من هذا أن العقاد كان متكبرا ومتعاليا .. ربما كان الأمر
كذلك ، ولكن هل يعاب على العقاد ذلك ، وهو يرى نفسه فعلا يؤدي
واجبه بصورة تكاد أن تصل إلى مرتبة السمو والكمال ؟

ومع هذا فأسارع فأقول : إن صورة العقاد الظاهرية كانت تبدو فعلا
متعالية أو متكبرة ، ولكنه كان يحمل داخل نفسه صرورة العالم المتواضع
البسيط الذي ينبع من صميم صعيد مصر ، وعلم نفسه بنفسه ، ثم ارتفع
بعلمه إلى مرتبة « العظماء » لا في مصر وحدها ، بل في كافة أنحاء العالم
العربي ، ثم عرفه العالم الخارجي بما بنتج ويتكلم .

الم يكن العقاد بشرا ؟ وهل يستطيع بشر واحد أن يرى نتائج ما تحقق
على يديه في كافة مجالات المعرفة ، وأن يرى الاقبال يزداد على مدرسته

« الخاصة » ٠٠ ولا يحس بفخر واعتزاز ، فسرته قلة من الناس بأنه : « تكبر » ٠٠

ولقد سرتنى أن أجد الزميل الدكتور عبد العزيز شرف مؤلف الجانِب الصحفي في هذا الكتاب يبذل هذا الجهد الكبير في متابعة بعض الممارك الصحفية التي خاضها العقاد في حياته ٠٠ ولذا أحسست وأنا أقرأ هذه الصفحات ٠٠ التي عشت معظمها مع العقاد : أن المؤلف حرص حرص الحرص كله على أن ينقل إلى قراء الجيل الذي لم يسعده أن يعيش في « عصر العقاد » - صورة لما كانت عليه مقدرة وعظمة كتاب هذا العصر ، ٠٠

ولعل تراء هذا الجيل يتسألون بعد أن يقرأوا هذا الكتاب : أليس ممكناً أن تتكرر الصورة ، وأن يكون منا في الحاضر والمستقبل مثل العقاد أو في القليل من قد يكون على مستوى العقاد من العلم والقدرة ٠٠ والشجاعة

« جلال الدين الحامصي »

مارس ١٩٦٤

1

2

3

4

5

6

7

8

الباب الأول
العقاد والصحافة

الفصل الأول

صورة الصحافة في مطلع القرن العشرين

حديث عن العصر

مرت حياة العقاد الصحفية بثلاثة أدوار ، يتميز كل دور منها بطابع خاص وتفرّد مميز ٠٠ وقد رأينا أن تسير دراستنا لحياة العقاد الصحفية وفق هذا التقسيم حتى تتفق الدراسة ومجرى هذه الحياة الصحفية التي عاشها العقاد وعاشها بقلمه وفكره لمدة تزيد على نصف قرن بكثير ٠

أما المرحلة الأولى من مراحل الحياة الصحفية للعقاد فهي تبدأ من سنة ١٩٠٧ حتى ١٩١٤ ، ويمكننا أن نوسع هذه الفترة قليلاً فنقول : أنها بدأت من بداية حياته الصحفية حتى الحرب العالمية الأولى ٠

والمرحلة الثانية تبدأ مع ثورة ١٩١٩ حتى سنة ١٩٣٦ ، وتبدأ المرحلة الثالثة من هذه السنة ١٩٣٦ حتى وفاته في مارس ١٩٦٤ ٠

وتتنسم المرحلة الأولى بما يمكن أن نسميه ظاهرة « الصراع » في كل نواحي الحياة المصرية ، وينعكس هذا الصراع يوضوح على مرآة الصحافة ، على اعتبار بديهي وهو أن الصحافة مرآة عصرها وزمانها ٠

■ فالاحتلال البريطاني يجثم على قلب مصر :

ويصدر صحيفة يومية يسميها « المقطم » وينتقى شابين سوريين ليقوما بإصدارها هما يعقوب صروف وفارس نصر ، بالاشتراك مع شاهين مكاريوس وذلك في أوائل عام ١٨٨٩ م ٠

وكانت هذه الصحيفة لساناً إنجليزياً صرفاً يقف في وجه كل دعوة وطنية ، وما أيسر عندما أن تصف الوطنيين بـ « الخونة » وعلى هذا القياس يمكن رد جميع مواقف هذه الصحيفة من الحركات الوطنية في هذه المرحلة ، وطوال المدة التي صدرت فيها ٠ فقد بدأت حياتها بمهاجمة العربيين ، وقد مزق موقفها من حادث دنشواي القنّاع الشفاف عن وجهها فهي ترى أن في هذا الحادث التاريخي « عارا ارتكبه رعاع من أسفل طبقة من طبقاتها ٠٠ ولا خلاف في أن أهل دنشواي قد ارتكبوا ذنبة يجبل عنها كل شرقي وتابعاها نفس كل مصري وهي ضربهم الضباط بالعصى والطوب حتى جرحوهم وقتلوا واحدا منهم » (١) ، ولم تال المقطم جهداً في الرد على كل ما يكتب عن بريطانيا والذفاع عن مصالحها في مصر ٠

(١) المقطم : عدد ١٩ يونيو ١٩٠٦ ٠

والواقع ان الصلة التي تربط المقطم بسلطات الاحتلال . لم تكن خافية على احد ، ولذلك كانت الجهات الحكومية تؤثر على غيرهما من الصحف ، ويبلغ الأمر بهذه الصحيفة انها كانت تنشر أحيانا بعض الأحكام في القضايا الوطنية قبل النطق بها بعدة أيام .

والصحف التي عاصرت المقطم لم تتجاهل هذه الصلة بين المقطم وسلطات الاحتلال ، فتصفتها جريدة « الشعب » لامين الزاوي وهي جريدة وطنية بأنها « سياسية انجليزية صرفة ، تكتب بحروف عربية ، بلغت بها ثقة الاحتلال حدا متناغيا واصحاب المقطم اغنى الصحف مالا وأكثرهم اطيانا ، ورغم ان الصحافة في مصر مجلبة خسارة فانهم جمعوا بها ثروة يعجز عن جمعها أكثر ارباب المشروعات . وعم اندر الصحفيين في الضغط على عواطفهم ودمى أشد الطاعن واكبرها افغاما بالسوموم في قالب نصيحة مرقشة » (١) .

وتشارك المقطم في الدفاع عن الاحتلال جريدة « الوطن » التي استقبلت الاحتلال بحماس شديد ، وحملت على قيادة الثورة العربية في شتماته يشوبها شيء غير قليل من التعصب الديني (٢) .

وقد وصفتها جريدة « الشعب » الوطنية كذلك ، بأنها « سياسية احتلالية أكثر من المقطم ، حتى ان محررها كان يدعو الانجليز الى ضم مصر الى المستعمرات الانجليزية ورفع الراية عليها - ولا يخلو عدد من أعدادها من الطعن في الوطنيين والمسلمين وإيلاء عواطفهم ، وهو اول من أحدث الشقاق بين المسلمين والاقباط » (٣) .

وكما رحبت بالاحتلال البريطاني ومزينة العربيين ، عللت للحماية البريطانية على مصر سنة ١٩١٤ ، وهي تحمد الله « لأننا خلصنا من تهوسات الفتية الذين كانوا يطلقون على أنفسهم اسم « الحزب الوطني » والوطن برى منهم ، أولئك الذين كانوا يدعون في الظاهر بانهم يريدون استقلال مصر عن كل سيادة . وفي الباطن يعملون لتسليم مصر للأتراك غنيمية باردة . واذا كان المصريون قد جنوا كل هذه الثمرات الطيبة والانجليز محتلون احتلالا مهددا بالانقضاء فكم ينتظرون من آيات السعادة والانجليز باقون هنا الى الابد » (٤) .

(١) الشعب : عدد ٨ مايو ١٩١٢ .

(٢) راجع : د . احمد حسين الصاوي : معالم تاريخ الصحافة المصرية - محاضرات بكلية

الآداب جامعة القاهرة ١٩٦٣ .

(٣) الشعب : عدد ٨ مايو ١٩١٢ .

وكان من أسس سياسة الاحتلال التي خططها دوفرين وطبقها كرومر ترك شئ من الحرية بالنسبة للصحف - تنقيسا عما قد يعن لمخبريها من آراء أو ملاحظات قد تفيد منها سلطات الاحتلال ٠٠ مع أغفال قانون المطبوعات ، وكان كرومر يؤمن بأن الصحف المصرية مهما تنقل فلن تستطيع أن تغير من الأمر الواقع شيئا ٠٠ ثم أن الحكومة شديدة التقيظ لكل ما تنشره للصحف ، وجيش الاحتلال في نظره كفيل بحماية السلطة الاستعمارية من أي تطرف قد تندفع إليه الصحافة(١) .

وما لبث الوطنيون اثر صدور المظلم أن أحسوا بأن ثمة فراغا في الحقل الصحفي يجب أن يملأ ، حتى يمكن مواجهة هذا الاستعمار الصحفي للبلاد الذي عبر بوضوح عن مطامع الاحتلال البريطاني ، ولذلك اتفقوا على إصدار صحيفة تكون لسانا لهم ، ومن ثم ظهرت صحيفة « المؤيد » اليومية في نهاية عام ١٨٨٩ ، وهو نفس العام الذي ولد فيه عباس العقاد لأبوين مصريين بمدينة أسوان .

ويمكن القول أن طرقي الصراع في هذه الفترة هما الاحتلال البريطاني بصحفه من جهة ، ومن جهة أخرى الكفاح الوطني للشعب المصري ، الذي ما لبث أن تمخض عن تيارات ثلاث ، تشكل أطراف الحركة الوطنية التي نهضت في مواجهة الاحتلال البريطاني والنفوذ الأجنبي .

وكانت صحيفة « المؤيد » ممثلة للتيار الأول من هذه التيارات الوطنية الثلاثة ، وما لبثت معالم هذا التيار أن تحددت واتسمت بسمات مميزة له عن غيره ولعل أهمها ويميزه تاييده للخديو عباس حلمي الثاني في الحل الأول وهذا ما حدا بالقائلين إلى القول بأن الشيخ علي يوسف صاحب المؤيد كان « نصفه للأمير ونصفه للجماهير » .

والشيخ علي يوسف استطاع بذكائه وموعبته ودماء الصحفي الفطري فيه وتفكير الشيوخ ، أن يكسف المحافظين - أن صحت هذه التسمية - من المصريين والأترك في « المؤيد » .

وقد استلقت الشيخ علي يوسف أنظار عديد من مفكرى الغرب فعلى الرغم من نشاطه الأزهرية فإنهم يشهدون له بالتفوق الصحفي الذي يقتضى مواهب عديدة لا تتوقع الا في أمثال السيد علي يوسف .

(١) د. أحمد حسين الصاوى : معالم تاريخ الصحافة المصرية .

أنظر كذلك : د. خليل صابات : الصحافة رسالة واستعداد وفن وعلم الطبيعة الثانية ص ٩٥ وما بعدها .

« كان السيد على يوسف صحفيا ماعرا له دهاء ومكر أحيانا ولقد رفع المؤيد إلى مكان الصدارة في العالم العربي ، فأحاط الخديو عباس هذه الصحيفة برعايته وشملها بحمايته وأصبح السيد على يوسف يسير في ركاب الخديو حيث سار وأخلص له إخلاصا يفوق إخلاص مصطفى كامل لهذا المجلس على العرش . وقد وجه السيد على يوسف سياسة المؤيد وجهة خاصة ، فجعله يوما للدعوة إلى الرأي الحافظ ، وكان في نظر خصومه - على الأقل - يهيج كوامن التعصب الديني » . وكتب الخديو عباس عنه في مذكراته يصور علاقته بجريدة المؤيد : « كنت أود أن يكون لي صحيفة تصدر علي أن تثير الشعب المصري وتقوده شيئا فشيئا إلى إدراك أكثر وضوحا لكلمة الوطن والواجبات المواطن فدعوت كاتباً من كتاب اللغة العربية كنت قد سمعت عن صفاته ومزاياه - هو الشيخ على يوسف ، وكان خارجاً من الجامعة الأزهرية وكان قد لفت إليه الأنظار - أن لم يكن باتساع أفقه الفكري فبحماسة في المناقشة وبموهبة الحفيفية في الجدل . وبقدرة المعرفة في هضم المسائل وخاصة إذا ذكرنا أنه لم يكن يتكلم إلا العربية ، ولم يدرس إلا في الجوامع » .

وهذا التيار العالي، للخديو لم يواكب التجمع الوطني الذي كان في كل يوم جديد يزداد قوة ، فمصطفى كامل يخطب في أوربا ويندد بالاحتلال في كتاباته وخطبه ، وكانت حاجة الجماهير ملحة إلى صحيفة من لون جديد فأصدر مصطفى كامل جريدة « اللواء » في أول عام ١٩٠٠ ، وكان الأعداد لها ضخماً من حيث المال والإدارة والتحرير حتى تتمكن من مناقشة الصحف الأخرى .

وتمثل « اللواء » التيار الثاني من تيارات الحركة الوطنية ، وقد قامت بدورها في نشر الوعي الوطني ومحاربة الاحتلال والدعوة إلى حياة دستورية سليمة ، وقد كتب مصطفى كامل في افتتاحية العدد الأول محددا اتجاه اللواء فيبين أن هدفها هو « خدمة الوطن والاسلام بأشرف السبل وأنفعها والسعي وراء الاتحاد والاتفاق بين المصريين وبعضهم من جهة وبين كافة المسلمين من جهة أخرى » والعمل لتربية أبناء مصر أحسن تربية وطنية وترقية التجارة والصناعة » .

وهذا التيار الوطني ، انفتحت وطنيته بمعاطة اسلامية ، فوقف إلى جانب الخلافة العثمانية ، وأيد استمرار مصر بها روحيا . وقد أكد

مصطفى كامل هذا الاتجاه عندما قال : « حقا ان سياسة التقرب من الدولة
الطليّة لأحكام السياسات وأرشدنا » (١) .

ويرى الدكتور أحمد حسين الصاوي أن هذا الاتجاه من « اللواء »
والحركة السياسية التي تعبر عنها راجع إلى أن مفهوم الوطنية المصرية في
ذلك الوقت لم يكن قد خُصّ تماما من فكرة التبعية الروحية لخليفة المسلمين
والى أن مصطفى كامل كان يحتاج إلى تأييد الباب العالي في كفاحه ضد
الاستعمار البريطاني وهو ما افتقرت إليه الثورة العربية .. وعلى أي حال
فقد خلصت كتابات مصطفى كامل الوطنية في اللواء قبيل وفاته من شائبة
الاتجاه نحو الباب العالي .. وبرزت وطنيته المصرية خالصة تستهدف
تحرير البلاد من الاحتلال البريطاني والسيادة العثمانية معا ، ويمثل
توقيع الاتفاق الودي بين إنجلترا وفرنسا عام ١٩٠٤ نقطة تحول خطيرة
في اتجاهات الصحافة .. فقد توطد مركز الإنجليز في البلاد ، واشتد ضغطهم
على الحريات ، ومن ثم ازدادت لهجة « المؤيد » هدوءا وليناً وفترت حماسة
غيرها من الصحف الوطنية بينما علقت « المقطم » والتزمت « الأهرام »
السلبية .. أما اللواء فسرعان ما أفاق من الصدمة بعد أن كشفت فرنسا
عن نفسها وأعلن فيها مصطفى كامل أن الدول الأوروبية كلها سواء وأن
المصريين يجب أن يعتمدوا على أنفسهم في الكفاح الوطني .. وتؤكد هذا
الاتجاه من « اللواء » يفقور العلاقة بينها وبين الخديو بعد أن تنازل
أمام الضغط البريطاني وبذلك ازدادت اللواء نسوة وشعبية وأصبحت أولى
الصحف الوطنية المكافحة ، غير أن « اللواء » مع تخلصها من فكرة التماس
تأييد فرنسا ومن صلتها بصاحب العرش ظلت متمسكة بفكرة الخلافة
الاسلامية وارتباط مصر بها ، حتى قبيل وفاة مصطفى كامل .. ثم بدا
من كتاباته الأخيرة تخليه إلى حد كبير عن هذه الفكرة واتجاه دعوته نحو
تخليص البلاد من الاحتلال البريطاني والسيادة العثمانية معا .

وتتمخض الحركة الوطنية عن تيارها الثالث ، وهو التيار الداعي لأن
تكون « مصر للمصريين » والذي تزعمه أحمد لطفى اللسيدي ، ومثله جريدة
« الجريدة » التي صدرت عام ١٩٠٧ .

وقد اختلفت الجريدة لنفسها تيارا متميزا مختلفا تمام الاختلاف عن
التيارين الأولين ، فكانت دعوتهما للتومية انصرية الخالصة باعتبارها هدف
الاستقلال الصحيح ، دعوة جديدة تتميز بطابع فكري .
والى جانب ذلك أخذت الجريدة بالمذهب « الليبرالي » الذي يدعو إلى

(١) عبد الرحمن الرافعي : مصطفى كامل ص ٢٥٠ ط ٢ القاهرة .

زيادة نصيب الأفراد من الحرية وتحديد تدخل الحكومة في مختلف القطاعات حتى تعتمد الأمة أن تعتمد على نفسها بدلا من الاعتماد على الحكومة في كل أمورهم .. ومن هنا نادت بحرية التعليم والمرأة والصحافة والقضاء، وما إلى ذلك .

ويربط الأستاذ رجاء النقاش بين هذا التيار وبين الفايين في إنجلترا لا من ناحية الأهداف والمبادئ، ولكن من ناحية الأسلوب ، ذلك لأن الخلاف كان كبيرا بين الفايين وبين تيار لطفي السيد وحزب الأمة الذي ينتسب إليه ، بل ويعتبر زعيمه الروحي ومفكره الأكبر ، فالفاييون اشتراكيون بمعنى من معاني الاشتراكية ، ولطفي السيد مع أعضاء حزب الأمة لم يتحدثوا عن الاشتراكية بأي معنى من المعاني ، بل كان مطالبهم الأساسي هو تحرير مصر سياسيا من السيطرة الانجليزية ، ولكن الانشقاق الأساسي بينهم وبين الفايين هو الاعتدال والتدرج (١) .

وتنفرد « الجريدة » بدعوتها الوطنية لأن تكون « مصر للمصريين » ومعارضتها لفكرة الجامعة الإسلامية التي تزعم وتنادي بحرب مصر بتركيا وهي الفكرة التي كانت تؤمن « المؤيد » بها واختلطت الفكرة العثمانية بوطنية « اللواء » إلى حد ما .. وبذلك كانت الجريدة تمثل تيارا جديدا يمكن أن نطلق عليه « التيار المصري » بلا تحفظ ، لأنه يتخلص من الارتباط بجانب معين أو التماس التأييد من أية قوة داخلية أو خارجية .

ونصل من هذا الحديث إلى أن الصحافة مثلت التيارات المتصارعة تمثيلا صادقا فرائنا كيف أن التيار المعادي للإنجليز مثلته « اللواء » وبرز على قمته مصطفى كامل ، والتيار المؤيد للخبو مثلته « المؤيد » وصاحبها السيد علي يوسف ، والتيار الداعي إلى أن « تكون مصر للمصريين » مثلته « الجريدة » ومحررها لطفي السيد .

وتستلقت النظر في هذه الفترة ظاهرة عربية فريدة في نوعها .. فمن المؤلف لدينا اليوم أن تنشأ الأحزاب أو ثم تثبت أركانها ، وبعد ذلك تتخذ من الصحافة وسيلة لنشر مبادئها والدفاع عنها وفق مخططات مرسومة لا تحيد عنها .. هذا هو الأمر الطبيعي في نشوء الأحزاب ، لكن نشأة الأحزاب في مصر شذت عن نشأتها في غير مصر ، فنشأت الأحزاب في أحضان الصحافة . وكانت الصحافة هي الأم ، فصدرت « اللواء » في سنة ١٩٠٠ م وما لبثت أن نشأت في أحضانها « الحزب الوطني » ، وتبيل اللواء صدرت « المؤيد » سنة ١٨٨٩ ، وما لبث أن تكون حولها حزب « الإصلاح على المبادئ الدستورية » وفي سنة ١٩٠٧ صدرت « الجريدة » ثم احتضنت « حزب الأمة » .

(١) رجاء النقاش : مقال بمجلة الكاتب - نوفمبر ١٩٦٤ .

والتأمل في هذه الفترة يدرك مدى ما بلغته الدعوة القلمية في مصر من نسوة تصل إلى حد احتضانها الأحزاب ٠٠ هذا من جهة ٠٠ ومن جهة أخرى كان هناك لون آخر من الصراع جعل العصر أشبه ما يكون ببرج بابل على حد تشبيه العقاد ٠

وتبرز حركة الإصلاح الديني التي قام بها الإمام محمد عبده بعد أن يؤس من السياسة أثر مزيمة العربيين ، وبعد أن هاجر أستاذه جمال الدين الأفغاني من مصر مخلفاً فيها بذوره التي ما لبثت وترعرعت في كل ميادين الإصلاح - السياسي والديني والفكري ٠

وكان محور حركة الإصلاح الديني عند الأستاذ الإمام هو إزالة التناقض الشكلي ، الذي روج له أصحاب المصلحة من وراء ذلك ، بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية ٠

وكانت آراء الأستاذ الإمام متحررة إلى حد كبير من قيود التقليد والجمود ، وقد ساهم بقسط كبير في الدعوة لتحرير المرأة وتعليمها ، وقد بلغ بأعدائه الادعاء إلى حد القول بأنه هو الذي ألف كتابي قاسم أمين المعروفين « تحرير المرأة » و « المرأة الجديدة » وأنه تخفى تحت اسم قاسم أمين حرصاً على مركزه الديني ٠

* * *

ووسط هذا الصراع نجد عباس العقاد يبدأ حياته مستقلاً عن الأحزاب « كنت من فريق الشباب القلائل الذين نفروا من الأحزاب منذ اللحظة الأولى فلم يكن لي حزب أتعصب له وأنتهي إليه ، ولم تكن لي صحيفة اتسع لسياسيتها ومنهجها في كتابتها ، ولكنني كنت أفضل « الجريدة » في جانب الثقافة ، وأفضل « اللواء » في شدته على الاحتلال والوزارة ، وأقرأ « المؤيد » لثألاته الشرقية والإسلامية واعتقد أن الخطأ المثلّي في خطة « مصر للمصريين » تمييزاً لها من خطة المحافظة على السيادة العثمانية وكان بعضهم يترخص في تسمية هذه الخطة وأصحابها باسم « حزب الفتى » لأن الأستاذ الإمام محمد عبده رحمه الله ، كان أشهر المعروفين بذلك الرأي في تلك الفترة وهو في ذلك سعد زغلول وأحمد لطفي السيد(١) ٠

(١) عباس مدهود العقاد : رجال عرفتهم ص ٢٧ ٠

والوقف الذى اتخذته عباس العقاد من هذه التيارات المتصارعة يستند على أساس قوى من شخصية عباس العقاد ، وتفضيله لاتجاه على آخر انما يرجع الى مكونات هذه الشخصية ، واذا نظرنا الى موقفه لزاء « اللواء » وصاحبها وحزبه الوطنى الذى اجتذب اليه معظم الشبان المصريين ، نجد فى نفس عباس العقاد الشاب المتطلع الى الاشتغال بالصحافة ، بشاى من حادث لم يستطع نسيانه يجعله لا يميل الى مصطفى كامل .. ذلك ان مصطفى كامل اصطحب معه الكاتبة الفرنسية « مدام جوليت آدم » وكاتبة انجليزية من حزب الأحرار تدعى « مسز يونج » لزيارة أسوان ، وكان ناظر ادرسة التى يعمل فيها عباس العقاد مدرسا ، يرأسل « اللواء » فما لى ان دعا مصطفى كامل الى زيارة مدرسته ومعه رفيقته .. ودخل غرفة السنة الرابعة وفيها درس اللغة العربية فجلس مكان التلميذ الذى كان يكتب على اللوحة وأملى عليه هذا البيت لأبى العلاء ليعربه ويشرح معناه :

والمرء مالم تنفد نفعاً أقامته

غيم حمى الشمس لم يمطر ولم يسر

وترجم مصطفى كامل هذا البيت الى اللغة الفرنسية فى طلاقة وثقة ، وناقش التلميذ فى شرح معناه فتعلم التلميذ ولم يجب بطائل فاسمعه العقاد معتذرا له بأن الغيم الذى لا يمطر فى أسوان ولا يسير نعمة محبوبة ، وأن الغيم المطر وغير المطر عندها قليل !
ولاح لى أن « الباشا » لم يسترح لهذا التعقيب ، ولم يتقبل منه الإشارة الى خطئه فى اختياره ! وأن لم يكن فى الأمر غير فكاة تلاتى فيها التخطئة والتصويب ..(١)٠٠

كان لهذا الحادث اثر واى أثر فيما بعد فى تكوين صورة لمصطفى كامل فى ذهن العقاد .. لقد أبقظ هذا الحادث البسيط فى محتواه كوامن التحدى لدى الشاب الباحث عن المثل الذى ينشده للزعيم ، ولذى يتفق معه فى تكوينه الفكرى والعقلى .

■ صورة مصطفى كامل التى بقيت فى خلدى مدى الحياة هى الصورة التى أنطبعت فيه من أثر هذه الرؤية الأولى ..

■ حركاته كلها كانت تتم على احساسه بدقة تكوينه ، يبدو ذلك من

(١) عباس محمود العقاد : المرجع السابق ص ٤٤ .

شموخه وزعموه كما يبدو من طول طربوشه وارتفاع كعبه ، ومن سقرة
« البنجور » التي كانت لا تلائم سنه وهو دون الثلاثين ..

وهذا البيت من قصيدة أبي العلاء - الـيس فيه تعريض بالأجسام
التي تسد عين الشمس فتحجب الفضايا ، ولا تجود بقطرة من الماء ؟

وربما شغلته دقة تكوينه بسمت الوتر ، فلم تسمح له بمجارة
روح الفكاهة ولا سيما الفكاهة على حسابها ، والفكاهة التي فيها تخطئة
لاختباره (١) .

والزعيم الذي ينشده عباس العقاد هو « المصرى » في طباعه وأفكاره ،
وأهم ما يميز المصرى هذه الروح الفكاهية التي اقتدما عند مصطفى كامل
لجديته وأخذ الأمور مأخذ الجد ، وعزوفه عن روح الفكاهة بصورة مطلقة
وهذه الروح التي تميز المصرى لم يفتقددها العقاد عند سدد زغلول مثلاً
وكانت سمة من سمات مصريته ، والتي تربطه بالمصريين تماماً .

« وليست اللبساقه وبراعة الحديث ولطف النادرة وحسن المؤانسة
بالخصال المستغربة في أمة قديمة الحضارة عريقة الآداب منصرفه في أكثر
الاحيان الى السلم والمعيشة الوادعة ، وأخلق بهذه الخصال وحدها أن
تكون ينبوعاً فياضاً للنكتة والباقة التعبير في الجد والهزل على السواء ،
فإذا أضيفت إليها عبر الأيام ونفائض التاريخ وأطوار الحوادث التعاقبية
ففى ذلك مدد للفكاهة لا ينضب وأغراء بالترويح عن النفس لا يزال يهديها
الى التبسيط والمزاج .

« لذلك كن المصرى مزاحاً بحكم لباقته الاستفادة من قدم الحضارة ،
ومزاحاً بحكم الحوادث التي تلجئه الى التخفيف وقلة الاكتراث ، ومزاحه
في جميع الأحوال متمسم بالصيغة المصرية ، مطبوع بطابع تعليمه وتاريخه ،
بحيث يذم على خصائصه الفكرية والنفسية ويميزه نمطاً وحده قليل
النظائر بين أنماط الفكاهة والتكثيت » .. نقول أن الزعيم الذي ينشده
العقاد هو ذلك المصرى الذي يتمتع بطبيعة مصرية فهو مناضل وجياش
الطبيعة على مقربة من الأيدان الذي يدعوه الى الفضال ، وهو - لأنه حى
جياش الطبيعة - حسن المودة والأنس بالناس والارتياح الى المعاشرة ،
والزعيم الذي يحبه العقاد هو ذلك الذي يكون في مجالسه الخاصة من أندر

(١) عباس محمود العقاد : المرجع السابق ص ٤٥ .

الناس على مؤانسة الجلوس، بأحدث الشائقي والفكامة الحاضرة والحدب
الطوبوع (١) .

هذه الشخصية « المصرية » التي يحبها المقاد ، لم يجد لها مصطفى
كامل ، وإنما وجدها فيما بعد لدى سعد زغلول الذي تمتع بمميزات
الشخصية المصرية فكاهته حاضرة على الديدية يستعين بها على لطف
مؤاخذه أورد مكيدة أو الزام حجة أو صرف حادثة مؤلة بكلمة مضحكة ،
فهو تارة يلسم جراح وتارة عدة كناع ، وهي مؤنة تصلح حيناً
لمساجلة الأصدقاء كما تصلح حيناً لمناجزة الأعداء (٢) .

وسنرى أن عباس العقاد يسير في تيار الاستاذ الامام محمد عبده
وتلاميذه من بعده ومنهم سعد زغلول لأنهم بحثوا عن الشخصية المصرية
ووجدوها وسط التيارات المتصارعة التي كادت الشخصية المصرية فيها أن
تتلاشى . فمصطفى كامل لا يرى غضاضة في ارتباط مصر بالدولة العثمانية ،
وتلاميذ الشيخ يرون أن استقلال مصر عن كل ارتباط من شأنه أن يقيدها
هو الهدف المنشود من وراء كفاحهم ونضالهم الفكري والسياسي .

لم أشارك في الحزب (الوطني) بعد اعلان تأليفه كما أشارك فيه
زملاؤنا الصحفيون ٥٥ ولا يخطر لي الآن ، ولم يخطر لي قبل الآن أن تلك
الصورة التي ارتسمت في ذهني من لقاء مصطفى كامل للمرة الأولى هي التي
أخرتني عن طلب الاشتراك في حزبه ، فلم يزل مصطفى كامل أحب المجاهدين
اليسا في حومة القضية الوطنية بين أصحاب الصحف وأعلام القضية
المصرية يومذاك ، وكنت أنتشيع له إذا نشبت المعركة بينه وبين خصومه . .
وفي المصارك التلمية كنت أجد نفسي الى جانب مصطفى كامل ، كلما نشبت
الخصومة الحامية بينه وبين علي يوسف - صاحب المؤيد - وبعد أن عرفت
من حقائق الدعوة الوطنية وحقيقة نفسي ما لم أكن أعرف ، أستطيع أن
أقول أن اختلاف الطبيعة البعيد تد رسم امامي مثالا للامامة المذهبية غير هذا
المثال ، فإن مصطفى كامل كان من أصحاب الطبيعة الخطابية الشعبية
وكانت الطبيعة الأدبية والفكرية أقرب الى وادعي بالاتباع ، فضلا عن نفور
أصيل عندي من التقيد بالحزبية في الرأي أيا كان مقصدها في السياسة أو
الأدب أو الثقافة على الاجمال (٣) .

(١) عباس محمود العقاد : نفس المرجع ص ٥٥٠ .

(٢) عباس محمود العقاد : المرجع السابق ص ٥٥٠ .

(٣) عباس محمود العقاد : سعد زغلول ص ٣٠ .

والخلاف الطبيعية هو الذى جعل لى سبيلا فى المسائل القومية غير
السبيل اتي كان يختارها مصطفى كامل فى كثير من مواقفه العامة .. فلم
يعجبنى موقف المصرى المتوسل أمام تمثال فرنسا يناجيها ويناديها :

يا فرنسا يا من رفعت البلييا
عن شعوب تهزها ذكرك
افتذى مصر ان مصر بسوء
وارفعى النيل من مهاوى الهلاك

« ولم يكن ادب فرنسا ، ولا ما اطلعنا عليه من تاريخ ثورتها ، داعيا
عندنا للثقة بنجديتها واستعدادها لانقاذ مصر أو سواها ، ولم تكن طبيعيتي
التي تأبى طلب المصونة من القادرين عليها كما تأبى طلبها من العاجزين
عنها مما يقتضى بإمكان التمويل فى قضية الاستقلال على معونة دولة قط ،
من الدول الكبير أو الصغار(١) » .

ولهذا أيضا لم يعجبنى تطبيق الاستقلال المصرى بالسيادة العثمانية ،
لأننا على عطفنا الدائم على الدولة العثمانية فى مكافحتها للتعصب الأوروبى
لم تكن نفهم أن هذا العطف ينتهى بجهدنا الى الرضا باستقلال تشرف
عليه سيادة دولة أخرى ، وقد كان مصطفى كامل يمزج كثيرا بين المصرية
والعثمانية حتى فى أحاديثه الخاصة .. كما قال فى جوابه لسؤال الجنرال
« بارنج » شقيق لورد كرومر : هل أنت مصرى أو عثمانى ؟ فكان جوابه ا
مصرى عثمانى ، وعجب الجنرال يارنج فعاد يسأله : وكيف تجتمع
الجنسيتان ؟

قال مصطفى : ليس فى الأمر جنسيتان ، بل فى الحقيقة جنسية واحدة ،
لأن مصر بلد تابع للدولة العلية ، والتابع لا يختلف عن المتبوع فى شئ من
أحكامه(٢) .

وكان العقاد ينشد من ثورة مصر أن تبدل النظم الاجتماعية أو
السياسية .. وهذا ما يأخذه على ثورة مصطفى كامل فى أنها تنحصر فى
الثورة على الاحتلال فلم يكن فى نزعات نفسه ، ولو قيس ضعيف من

(١) عباس محمود العقاد : رجال عرنتهم ص ٤٦ وما بعدها .

(٢) عباس محمود العقاد : المرجع السابق ص ٨؛ وما بعدها .

الثورة على المساوي، الخديوية، ولم يختلف في كثير ولا قليل عن أبناء عصره في تعظيم الألقاب الرسمية واعتبارها «إنعامات» مشرفة لمن يتلقاها(١).

ولعله من المفيد في هذا الصدد أن نذكر أن وطنية مصطفى كامل كانت وطنية عاطفية فكان خطيباً قبل أن يكون مفكراً، أو بمعنى آخر كانت عقلية ثورية تقترب من عقلية الأستاذ الإمام عقلية تطورية لا ثورية، وهو ما يمكن تسوله بالنسبة لعقلية عباس العقاد، فهي عقلية تطورية بمفهوم هذه الكلمة الواسع.

وعندما فكر عباس العقاد في أي طريق يختار كان يدرك أن الزعامة السياسية لا تخلو من أخطاء في الحياة العامة أو الخاصة وربما كانت زعامة مصطفى كامل أقل الزعامات خطأ في أوائل دعوتها!

يقول العقاد: «لست أذكر أنني تبينت هذه الأخطاء أو تبينت غيرها من الأخطاء السياسية بحثاً وتفكيراً وإمعاناً في تحقيق المطالب الوطنية وتحقيق أساليب العمل لها والوصول إليها...» فإن هذا البحث جهد لا يطيقه عقل صبي في الخامسة عشرة أو شباب فيما دون العشرين وهي سنن يوم عملت في الصحافة اليومية، فلا أذكر - إذن - أنني أحججت عن الاشتراك في حزب مصطفى كامل بعد البحث المفصل والموازنة الواعية بين مقاصد الزعامات السياسية وطرائق الزعماء في ذلك الحين، ولكن الذي أذكره جيداً أنني كنت أقرأ مقالات مصطفى كامل وأسمع خطبه فأحمد له غيرته وأعجب بصحته في جهاده، ولكنني أراني أمام منهج من الكتابة والقول غير المنهج الذي أتلقى منه رسالة الفكر والمعاطفة وتستجيب إليها بديهتي المتطلعة إلى الوعي والمعرفة فإن ذلك الأسلوب «الخطابي الشعوري» الذي كان له أبلغ الأثر في جمهور مصطفى كامل لم يكن هو ذلك الأسلوب المختار الذي عهدته فيما أعلمت عليه من كلام مقروء أو كلام مسموع.

ولعل شهر الأمثلة للأسلوب «الخطابي الثوري» الذي كان ذريعة التأثير الكبرى في خطاب مصطفى كامل قوله في خطبة زيزينيا الكبرى وهي آخر خطبه وآخرها قبل وفاته إذ يقول:

«بلادي... بلادي... لك حبي وفؤادي، لك حياتي ووجودي، لك دمي ونفسي، لك عقلي ولساني، لك لبي وجناني، فأنت أنت الحياة، ولا حياة إلا بك يا مصر...»
ويعقب العقاد على هذه الخطبة قائلاً:

«فإن هذا الاطناب وما شابهه لا يعطيني ما أتطلبه من الانتعاش ولا

(١) عباس محمود العقاد: المرجع السابق ص ٤٨.

من العبارة الأدبية عن المواطن ، وإنما هو أنسبه بصفات النفر تذكر على وتيرة واحدة لتحفظ بأعصاب السامعين في طبقة مشدودة من الانفعال والفتية . سواء كان هذا الانفعال للوطنية أو لغربا من العقائد الشورية(١)»

ونخلص من ذلك الى أن مصطفى كامل – كما يقول العقاد بحق – كان نعم الزعيم على منهجه وسجيته ، ولكن زعامته كانت تتسع في عصره – وبعد عصره – لأعضاء آخرين على مناهجهم وسجاياهم ، لأن الوطنية المصرية كانت تشمل مصطفى كامل بكل ما احتواه من غيرة وحماسة ، ولكنه رحمه الله لم يكن يستوعب الوطنية المصرية بكل ما تحتويه أو ينبغي أن تحتويه(٢)

ويجد العقاد ما يفتقده في الحزب الوطني ، لدى تيار « مصر للمصريين » الذي ارتفع فناديا به صوت لطفي السيد في حزب الأمة ، مع خيرة من تلاميذ الأستاذ الامام .

وفي الواقع لقد كانت « الجريدة » مدرسة فكرية استقامت على مذهب ودعوة واسلوب ، وقد جذبت اليها كثيرا من الرواد الذين اعتنقوا مذهبها ودعوتها واسلوبها كما التفت حولها ونشأ في رحابها كثير من الشباب النسابه من الجنسين وكانوا موضع رعاية وعناية رئيس تحريرها أحمد لطفي السيد فكان من اهتمامهم بهم أن أفسح لهم مجال الكتابة على صفحات الجريدة ، كما تمهد أساليبهم ومعارفهم بالفضل والتعذيب وقراءاتهم بالتوجيه والارشاد ، بل بلغ به هذا الاهتمام أن كان يستقدم لهم خيرة المحاضرين في مختلف العلوم فيحاضرونهم في دار الجريدة .

وقد فتحت صفحات « الجريدة » للكتابة الأدبية بأقلام ناشئة الجيل الحديث ، وكانت تفسح في صفحاتها الأولى – الى جانب المقال الافتتاحي – موضعا لقصيدة عاطفية أو مقال طريف من مقالات الوصف والنقد اللغوي ، وترددت على صفحاتها أسماء محمد حسين هيكل وطه حسين ومحمد السباعي وعبد الرحمن شكرى وإبراهيم عبد القادر المازني والغاياتي وسلامة موسى ومحمد توفيق دياب وعباس العقاد .

وكان عباس العقاد يرسل مقالاته أو مقطوعاته الشعرية بالبريد فتنتشر

(١) عباس محمود العقاد : رجال عرفتهم ص ٥٠ .
(٢) عباس محمود العقاد : المرجع السابق ص ٥١ .

بعد يوم أو يومين من وصولها ، ويذكر العقاد ، أنه قدر لأحدى مقالاته أنها لا تحل عند قلم التحرير محل الترحاب إذا وصلت إليه محاولة من مدير التحرير ، فتعتمد أن يسلمها إلى المدير بدا بيد ، ولم يجد صعوبة في لقائه عندما قصد إلى مكتبه على غير ميعاد . . . وكانت المقالة نقداً لكتاب الأستاذ محمد لطفي جمعة عن « كلمات نابليون » . . . وكان الأستاذ جمعة قد نقل بعض هذه الكلمات كما ترجمها العقاد بحروفها ولم يشر إلى هذه الترجمة ، كما ذكر العقاد ، ولما نيه إلى ذلك في تعليقه على كتاب الأستاذ محمد لطفي جمعة تذكر أنه صحيح لأكثر المحررين « بالجريدة » . . . فكان ذلك من دواعي التفكير لدى العقاد في لقاء لطفي السيد لتسليمه المقالة ، ولا رضا ، فضول للشباب برؤية ذلك « الفيلسوف » الأخير الذي كان الشباب يفرزون له ولا يرونه .

ويذكر العقاد أن مدير الجريدة استقبله استقبال الرعاية والترحاب ثم تصفح المقالة على عجل وأمر بارسالها إلى الطبعة على الأثر ، وهو يقول مبتسماً : ألا تخاف من نابليون يا ابنى ؟ . .

قال العقاد وهو يعلم أن كلمة الديمقراطية من أحب الكلمات إلى لطفي السيد وأكثرها تردداً على لسانه وقلمه : « الحمد لله على نعمة الديمقراطية (١) » . .

والواقع أن هذا التيارات كان أقرب ما يكون إلى العقاد ، لما يتسم به من طابع فكري وعلمي ، وهذا الطابع يتفق مع تكوين العقاد الفكري والثقافي ويديهته المتطلعة إلى الوعي والمعرفة .

ولكن هل انتمى العقاد إلى تيار حزب الأمة وجريدة الجريدة ؟ !
الواقع أن العقاد لم ينتم إلى هذا الحزب كما لم ينتم إلى أي حزب آخر من الأحزاب الثلاثة .

ويرجع ذلك إلى تكوين العقاد الاجتماعي قبل كل شيء ، وتكوين حزب الأمة الاجتماعي الذي ضم بين أعضائه أبناء العائلات وفئة كبيرة من السراوات وأصحاب الجاه والثراء في البلاد ، وكانت الصلة الجامعة بينهم كافة أنهم من « غير الأرض » عنهم في قصر الأمير (٢) . ولذلك فقد كان العقاد كواحد من أبناء الطبقة الوسطى الصغيرة في تكوين المجتمع المصري ، يحس بأن أعضاء هذا الحزب بعيدون عن الشعب الحقيقي تماماً .

(١) عباس محمود العقاد : رجال عرفتهم ص ٢٢٧ .

(٢) عباس محمود العقاد : المرجع السابق ص ٢٢٦ .

ونرجح أن الموقف الذي اتخذته العقاد من التيارات المتصارعة كان متفقاً تماماً مع شخصيته ومتسقاً مع تفكيره ، وكان لابد من البحث عن طريق جديد يتنسقه العقاد وسط هذه التيارات العنيفة التي كان وجودها مجتمعة ضرورة اقتضتها الحركة الوطنية في ذلك الوقت .

خلفية الصورة

إذا كان لاختلاف الإيديولوجيات أثرها العميق في توجيه الجريدة من الجرائد فإن هناك جانباً لا ينبغي إغفاله له أعرق الأثر في خط سير الصحيفة ، ونعني به القوميات المادية التي تعتمد عليها الصحيفة في القيام بتكاليفها ، فسان الصحيفة التي يتفق عليها حزب ذو برنامج معلوم غير الصفحة التي تتفق عليها شركة تجارية ، وغير الصحيفة التي تقوم على التوزيع أو تقوم على الإعلانات أو تقوم على الاشتراكات السنوية والدورية ، ويمثل هذا الجانب ما يمكن أن نسميه « خلفية الصورة » .

وإذا كنا في الفصل السابق قد حاولنا رسم القوميات السياسية التي تمثل الملامح الرئيسية للعصر ، فإننا نجد في خلفية الصورة ظلال أشخاص « كالوكلاء » مثلاً لهم دورهم في حياة الصحيفة من الصحف ، بينما المحررون ذوو الأقلام هم الشخصيات ذوات السمات المحددة .

ولقد كتب العقاد فصلاً عن « الصحافة قبل خمسين سنة » في مذكراته ، عالج فيه الصحافة من بابها الخلفي ، والواقع أن هذه الزاوية ما كان للمؤرخ الذي لم يعاصرها أن ينفذ إليها .

ولقد كانت الصحافة في هذه الفترة – كما يجب استأنان الدكتور عبد اللطيف حمزة – أن يسميها « في عهد البداوة » فلقد كان يكفي لرجل من رجال الصحافة العربية في القرن الماضي – كإديب إسحق – أن يقول أنه يريد أن يصدر صحيفة وأن يصدر بالفعل هذه الصحيفة وليس معه آن ذلك أكثر من عشرين فرنكاً(١) .

كما كان يكفي لرجل كالسيد عبد الله النديم أن يحصل على أمر من نظارة الداخلية بإصدار مجلة أو جريدة حتى يصدرها في اليوم التالي وليس في جيبه إلا بضع جنيهاً هي جزء من تكاليف الورق والطباعة (٢) .

(١) د. عبد اللطيف حمزة : مستقبل الصحافة ط ١ ص ٣٠ وما بعدها .
(٢) نفس المرجع السابق .

ويحدثنا التاريخ عن السيد على يوسف أنه أصدر صحيفة المؤيد اليومية وهي الصحيفة التي لعبت دوراً كبيراً في حياة مصر السياسية والاجتماعية واستمرت تلعب هذا الدور الخطير زمناً خمس وعشرين سنة كاملة - ولم يكن عند السيد على يوسف من المال كثير ولا قليل فافترض من صديق له هو الشيخ أحمد ماضي - مائة جنيه أصدر بها الجريدة . ثم اختلف الرجلان بعد ذلك . . . وكادت المؤيد أن تتوقف عن الصدور لولا أن قبض الله إذ ذاك رجلاً عظيماً من رجال مصر هو « سعد زغلول » فأمد صاحب المؤيد ببعض المال الذي سدد به دين صديقه الشيخ أحمد ماضي . . . وبالجاء الباقي من هذا المال القليل استمر في إصدار الجريدة (١) .

ومن المعروف أن موارد الصحيفة تتكون من خمسة مصادر رئيسية ، منها ثلاثة مشروعة واثنان غير مشروعين .

فأما المصادر المشروعة فهي :

١ - التوزيع والاشتراكات .

٢ - الاعلانات .

٣ - عطيات الطباعة التجارية لحساب آخرين .

وأما المصدران غير المشروعين فهما :

١ - المساعدات المالية من الدول الأجنبية ، التي تستغل الصحيفة لأغراض الدعاية لها .

٢ - الرشوة سواء من الداخل أو الخارج ، من الحكومات أو الهيئات الأعلى والأفراد (١) .

وفي الواقع لقد كانت الصحف في عهد بدايتها قليلة التكاليف والمطالب ، ولكن هذه المطالب مهما كانت قليلة ، فإن الموارد التي كانت تعتمد عليها الصحيفة من الصحف كالاشتراكات وثمان النسخ الموزعة وأجور الاعلانات ، وهي موارد مشروعة ، هذه الموارد لم تكن تكفي للاتفاق على الصحيفة إلى أمد طويل ، ولكنها مع ذلك لم تكن خالية من عقباتها وموانعها ولا من جرائر الخلل الدائم في وسائلها ومواعيدها . . . فلم يكن للصحيفة المنتظمة بد من مورد آخر غير الاشتراكات وغير البيع وغير الاعلانات ، وهو كذلك مورد

(١) نفس المرجع السابق ص ٣٢ .

(٢) د. حسنين عبد القادر : إدارة الصحف ص ٤٧ .

مضطرب معرض بطبيعته للفوضى ونزحل الأحوال ويعنى به مورد « الاعلانات السريه » من اصحاب الدعايات ، ومعظمها دعايات تصدر من قصور الملوك ولامراء او من دواوين وزارات الخارجية والسفارات (١) .

ويعتبر التوزيع في حقيقة الامر المصدر الاساسى لايرادات الصحف .
مالصحيفة تطبع اولا قبل كل شئ ليشتريها القراء ويدفعوا ثمنها نقدا ،
سواء عن طريق الاشتراكات التى تدفع مقدما او عن طريق البيع بالنسخة واستلام الثمن في الحال (٢) .

وكانت الاشتراكات للصحف قبل خمسين سنة - من الموارد الثابتة المنتظمة بالقياس الى موارد الصحف في العصر الحاضر لان الصحف في العصر الحاضر تعتمد على البيع في الاقاليم ولا تعمل كثيرا على الاشتراكات ولم تكن وسائل البيع في الاقاليم ميسورة للصحف اليومية فضلا عن الاسبوعية او الشهرية الى زمن قريب(٣) .

ويقول العقاد ان الاشتراكات كانت خليفة ان تصد الصحف بمورد نافع لو حلت من موانعها وعثراتها ولكنها كانت في الواقع مولودة بموانعها وعثراتها .

وكانت الاشتراكات تعكس ظاهرة اجتماعية ، فاعيان الريف يحبون ان يشتركوا في الصحف اليومية لانها مظهر من مظاهر الوجاعة و « الأهمية » في القرية أو البلدة الصغيرة ولم يكن بالتقليد بين مظاهر الوجاعة اليومية ان يحضر ساعي البريد الى الدار يوميا ليدين الباب على مسمع من الجيران وينادي بصوت مسموع يشبه صوت الحادى باسم « الحكمة » في ساحة القضاء :

— « بوســــطة » ! —

فاذا بالحي كله يتربق « سماعا » جديدا بعد هذا النداء ، يحيط بانبياء الأرض والسماء ويتحدث عن المسكوف و « الانجلطيرا » وملك « فرنسا » أو الجمهور كما كانوا يسمعون عنه منذ أيام حملة نابليون ، ويتخللها بالأسطورة الطريفة التى تسمى بالترنسفال وبينها وبين السودان الوف الأميال ، وياله من « واقع » وراء الخيال ! ..

(١) عباس محمود العقاد : حياة تلم ص ٧٤ وما بعدها .

(٢) د. حسين عبد القادر : نفس المرجع ص ٤٨ .

ولم يكن الوجه الرئيسي يماثل الصحيفة بقيمة الاشتراك حبا في المطال . فلم يكن يخل بثمن هذا المظهر ولكنه يوجد به عن طيب خاطر لو وجد امامه من يقيضه لحساب الصحيفة واين هذا الذي يقيضه لحساب الصحيفة ويؤديه بالامانة والوفاء(١) ؟ ..

ولقد كانت الصحف تنشر بين اونه واخرى ، خيرا مكررا عن الوكيل « فلان » انذى المي نوكيه واصبح غير معتمد في تحصيل الاشتراكات .. وكانت هذه الصحف تنشر قبل ذلك اعلانا موجهما الى وكيلها في هذا الاقليم او ذلك تنبيهه الى موعد اسداد وتلوح له بالتهديد والاذار .. وقد ينفع التهديد مرة ولا ينفع مرات ، ولكنه يعاد تم يعاد ويتجدد مع الوكيل الجديد مرة ومع الوكيل القديم تارانت ولا تستغنى الصحيفة عن مراجعته الوكيل لتقديم لقلة الوكلاء المتخصصين لهذه الصناعة او المربين عليها في معاملة الصحف والمشاركين والموظفين وافراد « الجمهور الصحفي » على التعميم . ويذكر العقاد ان الوكيل كانت له غفون في معاملة الموظفين واغرائهم بالثناء او تهديدهم بالتشهير والانتقاص ولا غنى له عن هذه الغفون لانه كان يستعين على الدوام بالموظف الكبير والموظف الصغير في تحصيل « حق » الصحيفة و « حقه » هو في سوقه السوداء من وراء الستار ..

والواقع ان الصحف كانت مضطرة على مضيض ان تقبل الوكيل في تحصيل الاشتراكات ولا حيلة في قبوله على معاملاته ، لان معاملات الصحف لم تكن في ذلك العهد قد ثبتت ذلك الثبات الذي يسمح « بتكوين » طائفة من الاعوان المربين ينقطعون لها ويثابرون عليها ، فاذن نجح من الوكلاء واحد من عشرات فانما ينجح بعد ابتلاء الصحيفة بخسائر هؤلاء العشرات ، على دفعات ! ..

ويذكر العقاد ان الوكيل على عيبه هذا - لا يستطيع ان يعمل في بلاد يجهلها ولا يفهم بين ظهرانيها .. فلا بد له من مواطن في اقليم يعرفه ، ولا يتسع هذا الاقليم الجديد لآكثر من مفتي مشترك على أكبر تقدير .

ولا يصل الى خزنة الصحيفة الا القليل .. جد القليل ، من بعد المطال والعمولة والسوق السوداء ! ..

وكل صحيفة احتاجت الى هذا القليل ، فقد كان عليها ان تقبل وسائله وتتجرع غصصه وتغضى عما تعمله من عيوبه ومخطوراته .. ويذكر العقاد

(١) عباس محمود العقاد : حياة ظلم ص ٧٥ .

منها ان الصحيفة تنشر كل ما يصل اليها من رسائل الوكيل او من مدائحه واماجيه في الواقع لانها « عدة الفعل » التي يعمل بها ، ولا عمل له غيرها ، بين الاعيان والموظفين ٠٠ فمن تصدى لتحصيل الاشتراكات – وتحصيل غيرها في السوق السوداء – فلا امل له في محصول ينفعه وينفع الصحيفة بغير تخويف واعراء ، ولا ضمير بالتخويف والاعراء في سبيل الخدمة العامة والمصلحة القومية ولكنه الضير دال الضير على الوكيل « الاريب » الذي يستطيع ان يجمع انتابات من نذعه هنا واخوبه هناك ثم ينزحها لينبع بعثرت وما دون العشرات(١) .

ويذكر العقاد صحافة تخصصت في « الهجاء الاجتماعي » وأصحاب هذه الصحافة كانوا يقومون « بتحصيل ضريبه الوجاهه والهيبة » في المجتمع المصري اذ ذاك .

وكان « احمد غزؤاد » صاحب صحيفة الصاعقة اشهر الصحفيين من ابناء جيله في تمثيل ذلك الدور الذي عرفناه في صحافتنا بعد ظهور الصحف السيارة عندنا وانتشارها في اواسط القرن التاسع عشر ٠٠ ويرى العقاد ان « غزؤاد الصاعقة » كان ممثلا في المجتمع المصري لدور واحد على صورتين : صورة تظهر في محيط الادب الشعبي وهي صورة « الادبائي » المتجول بين بين بلاد الريف والحضر ٠٠

وصورة « مفصحة » من هذا الادبائي وهي صورة الاديب « الاريب » المحتال لعيشه في لغة المقامات ، واسم « ابو زيد السروجي » في مقامات الحريري عنوان عليه (٢) .

والصورة التي يرسمها العقاد لوكيل الصحيفة ليست قائمة الى هذا الحد ، فهو يذكر ايضا انه رأى في ذلك العهد اناسا عملوا في وكالة الصحف يدينون انفسهم بنزاعة القاضي وامانة الطبيب ، ويشغلون بهذه الصناعة لانها (حواية) تصلا الفراغ بالرحلات والمقابلات في غير عاف ولا اضطراب ولكنهم شذوذ القاعدة الذي بيعت فيها التفاوض كلما اطبقت علينا ظلمات الشؤم والقنوط ٠٠ اما القاعدة المطردة يومئذ فقد كانت صفحة من صفحات الصحافة الحالكة في طورها الأخير ، كما يقول العقاد ، وكانت « تصنيفة » الوكلاء الصحفيين في القرن العشرين تدل على المورد الذي تتسرب منه اشتراكات الأتاليم فهي « تصنيفة » يتلاقى فيها الكاتب العمومي المتجول

(١) عباس محمود العقاد : حياة قلم ص ٧٤ .

(٢) عباس محمود العقاد : رجال عرفتهم ٢٦٤ .

وقسارى: الأعراس والمآتم وماذون الشرع المفصول . وصاحب الصناعات
التي لا تحصى ٠٠ لأنه « منتشر » عام يشغل بجميع الصناعات (١) ٠٠!

التوزيع :

وأما من حيث التوزيع فكانت النسخ توزع عن طريق المتعهدين الذين
يقسمون النسخ على الصبية من باعة هذه الصحف في الطرقات العامة ،
ويذكر العقاد في مذكراته عن الصحافة من ٥٠ سنة أن التوزيع بأيدي الباعة
كان موردا للصحف اليومية أعم من مورد الاشتراكات وأيسر منه في متاعب
التحصيل ، ولكنه لم يجتمع برمته من جميع الصحف الكبرى التي كانت
تصدر في القاهرة قبل خمسين سنة ، لما كان فيه الكفاية لإصدار صحيفة
يومية واحدة في هذه الأيام .

ويذكر العقاد أن أربعة أخماس النسخ المعدة للبيع كانت توزع في
القاهرة وضواحيها ٠٠ ولولا أن الاسكندرية كانت مستعدة بموزعيها المستقلين
ببيع الصحف الأجنبية لما تاتي تدمير مسألة التوزيع فيها ٠٠

وفي الحديث عن التوزيع يصور العقاد شخصية « المعلم عكريشة »
وهي وإن كانت تكمن اليوم كظل خافت في خلفية الصورة الى جانب صور
« الوكيل » وغيرهما من الشخصيات التي تمثل دور الظلال في تاريخ الصحافة
المصرية ، كانت في وقتها تتربع في مقدمة الصورة .

يقول العقاد أن المعلم عكريشة كان يجلس الى ناحية المكتب وفي يده
الجوزة التي لا تفارقه ، وأثناء الى الكاتب الذي يسأل « أولا فأول » عن
عدد الوارد من كل صحيفة ، الى أن يتم الوارد من جميع الصحف اليومية
ثم تبدأ عملية التفریق على المساعدين من المتعهدين فأنصاف المتعهدين غالبية
المتفرقين ولا يكلفك الأمر أكثر من جولة سريعة بالنظر في هذه الزاوية الضيقة
لتحصر كل ما صدر من صحف مصر الكبرى في ذلك النهار : المؤيد واللواء ،
والأهرام ، والمتطعم ، والوطن ، ومصر ، والظاهر ، والراوى ، والجوانب
المصرية ، والمحرسة في بعض الأحيان .

وكانت هذه الصحف تصدر معا في وقت واحد بين الساعة الثانية
والساعة الثالثة في المساء ، ويحملها عمال عكريشة أو عمال الصحف
من مطابعها الى الزاوية المعروفة فلا تلبث « عملية » النقل والصف والتفريق
أكثر من ساعة واحدة بنصف حملتها ٠٠ وما كانت صحف القاهرة الكبرى

(١) عباس محمود العقاد : حياة تلم ص ٧٤ وما بعدها .

تحتاج الى مكان للتوزيع اوسع من « زاوية عكريشة » على جانب من
رصيف المحكمة المختلطة بجوار العتبة الخضراء ..

ولم تكن « زاوية عكريشة » هذه مكتنبا ولا شبه مكتب ، ولكنها
كانت منفذة من مناضد الكتبة العموميين على ذلك الرصيف .. وكان المعلم
« عكريشة » متعمد بيع الصحف جميعا يستعيرها في مبدأ الأمر من كاتبها
الذي يستغنى عنها بعد الظهور – أى بعد الفراغ من كتابة المرائض للمحكمة
وكتابة الرسائل لصندوق البريد – ثم بدا له أن يشتريها وكاتبها جملة
واحدة ، لاتساع دائرة العمل وزيادة الاقبال على الصحف اليومية بعد قيام
الأحزاب السياسية . على أثر قضية دنشواى ..

ثم يخلو الرصيف الا من المعلم عكريشة وكاتبه ومنضحته وقلمه الذى
يحمله وراء أذنه الى أن يودعه مكانه في الدواة النحاسية الصفراء .. ومتى
خلا الرصيف هناك لم يبق مكان في القاهرة خلوا من صبي من صبيان

المعلم الكبير ، تكاد تحسبهم اسرع من التزام لانهم يصلون حيث لا يصل
ال التزام ، وتكاد تختلط أصواتهم بأصوات بائعى الخضر والفاكية ، ومنها
النداء على « الوطن ومصر العسال » (١) !

ولم يكن توزيع الصحف في ذلك الوقت يزيد على خمسة آلاف للصحيفة
الواحدة ، لأنه الحد الأقصى الذى تبلغه طاقة المكنتات الطباعية ، قبل وصول
مكنتات البخار والكهرباء . وان كانت جريدة « المؤيد » سبقت في استخدام
ماكينة الروتاتيف ، وقد ارتفع رقم توزيعها عن الصحف الأخرى الى حد
كبير . ويذكر مؤرخوا الصحافة في مصر (٢) أن عدد شراء الصحف قد بلغ
في الوقت الحاضر أضعاف اضعاف ما كان عليه في أواخر القرن الماضى .
وكان هذا نتيجة طبيعية للعوامل الآتية التى خلقت وعيا قوميا جديدا في
الشعب :

أولا : زيادة عدد السكان ونضاعتهم فقد قفز عددهم من ٩٥ مليون
نسمة تقريبا في سنة ١٨٩٧ الى ما يزيد على ١٩ مليون نسمة سنة ١٩٤٧
وهو الآن يربو على ٤٧ مليون نسمة . ويعنى أن عدد السكان قد بلغ
نحو خمسة أمثال ما كان عليه في مطلع القرن العشرين .

(١) عباس محمود العقاد : المرجع السابق .

(٢) راجع ، د. حسنين عبد القادر : إدارة الصحف ص ١٥٦ .

ثانياً : النهضة التعليمية في مصر خصوصاً بعد دستور (سنة ١٩٢٣) والتعليم الإلزامي للجنسين وإنشاء الجامعات المصرية وفتح أبوابها للجنسين والتوسع في التعليم الابتدائي والمتوسط والثانوي والفنى مما جعله بالجان ، ومكافحة الأمية بين أفراد الشعب من الذكور والإناث ، وإنشاء إدارات للثقافة الجماهيرية التى تنشر الثقافة بين الكبار اللعين بالقراءة والكتابة ، مع الزيادة الهائلة في عدد المدارس الحرة الابتدائية والثانوية وإعانة الحكومة لها ، وتكفل الدولة بدفع مرتبات مدرسيها .

ثالثاً : تضاعف عدد موظفى الحكومة والهيئات الشببية بالحكومة والشركات والمصارف للتوسع في الأعمال العمرانية ، وتحسين مرتباتهم في السنوات الأخيرة مجاورة لروح العدالة الاجتماعية ، التى تسود هذا العصر .

رابعاً : النهضة الاقتصادية في مصر وزيادة الدخل التومى وتحول البلاد تدريجياً نحو الصناعة بجانب الزراعة . والزيادة المطردة في عدد العمال والصناع . . . ومعروف أن المجتمع الصناعى يكون عادة أكثر حيوية وامتصاصاً بالمسائل العامة والحياة الثقافية من المجتمع الزراعى ، وذلك بحكم ارتفاع مستوى المعيشة نسبياً بين الصناع . ومعنى هذا أن التطور الصناعى في مصر جلب ثمة جديدة من قراء الصحف لم تعدها الصحافة المصرية من قبل .

خامساً : دخول المرأة المصرية ميدان العمل بجانب الرجل ومساهمتها في النهضة السياسية والاجتماعية والثقافية . وقد بدأ هذا على نطاق ضيق بعد الحرب العالمية الأولى . ثم أخذ يتزايد بالتدريج بين الحربين العالميتين ، وتضاعف بعد الحرب العالمية الثانية . فهؤلاء النساء يكون قسماً لا بأس به من قراء الصحف(١) .

الإعلانات :

مما لا شك فيه أن الصحافة الحديثة أصبحت تعتمد على « الاعلان » اعتماداً كلياً ، فأصبح الاعلان يشكل ٦٠٪ من دخل الصحيفة وأموالها وأما الـ ٤٠٪ الباقية فمن طريق التوزيع والاشتراكات . . . ولذلك فالصحيفة لا تستطيع أن تسقط الاعلانات من حسابها ثم تطمع في البقاء واستيفاء أبواب الأخبار والتعليقات ، ولكن الصحيفة في عهد البداوة كانت تستطيع - كما

(١) د. حسني عبد القادر : المرجع السابق ص ١٥٧ .

يقول المتقاد - بلا تردد أن تسقط اعلاناتها من عدما الأول ثم لا تفقد شيئاً يعوقها أسبوعاً عن الصدور .

ويرجع ذلك في نظر المتقاد ، الى وجود عائقين طبيعيين لظهور « الاعلان الصحفى » الى سنوات قليلة مضت ، لعلها هى السنوات التى ظهرت فيها أول شركة للاعلان الصحفى في هذه البلاد . وهذان العائقان الطبيعيان هما التقاليد الموروثة والأمية معا .

كان من التقاليد الموروثة أن يشتري الانسان لوازمه (المهمة) من حيث اشتراها أبوه وجده . .

وكان الريفى ينزل القاهرة لشراء لوازم الفرح ، أو لوازم البناء والأثاث فيذهب الى أمكنة معروفة باسمائها لا تتغير من جيل الى جيل ، وكلهم يعرف عناوين مذكور والموردى والجمال والحمصانى ومخازن الحدائد والأخشاب في ناحية التلمسة وسوق السلاح ، ولا نطن أن متجراً من متاجر القاهرة المشهورة نشر اعلاناً واحداً ليكسب به « زبوناً » لم يكن يعرفه قبل ذلك الاعلان(١) . .

أما المتاجر الصغيرة التى تباع فيها لوازم البيوت اليومية ، فقد كانت معروفة في أحيائها وقراها بغير حاجة الى اعلان مكتوب .

لهذا بقيت اعلانات الصحف سنوات عدة وهى مقصورة على اعلانات البيوع الفضائية اعلانات الوفيات أو اعلانات « ختمى فقد منى وليست على ديون ولم أوقع على سندات أو كمبيالات » .

ويقول المتقاد أن « اعلانات (الاختام) وحدها عنوان صادق لنصيب الصحف من قراء الاعلانات . . لأنها عنوان للأمية التى تعجز عن كتابة الاسماء ومع هذه الأمية لا اعلان ، ولا قراء للاعلان ! » .

والاعلانات كمورد من موارد الصحفية مورد مشروع ، ولكن الحكومات السابقة في مصر حولتها من مورد مشروع الى مورد غير مشروع ، ويذكر

(١) عباس محمود المتقاد : نفس المرجع .

الأستاذ سلامة موسى أن الإعلانات كانت توزع على الصحف المصرية لا لانتفاع بانتهابها حتى تصل إلى المحتاجين إليها فيعرف منها المقاول مثلا أخبار الزائدة أو المفاضة أو نحو ذلك ، وإنما كانت توزع « بالمحابة » الصريحة بحيث تعود هدية أو رشوة من أحد الوزراء لأحد الصحفيين نحسب .

أما خدمة الدولة في مصالحها المالية فلا شأن لها أي شأن في نظر الوزير . بل كانت هناك مجلات اسبوعية لا يتكلف إصدار العدد منها خمسين قرشاً يحمل من الإعلانات الحكومية ما كانت تبلغ قيمته عشرين جنياً أو أكثر . وبعض الجرائد ، في بعض الأحيان ، يزيد ثمن الورق الذي تطبع به على ثمنه وهو جريدة مطبوعة . بل يزيد أضعافاً في بعض الأحيان . وإنما يحصل أصحاب الجريدة على الربح من الأجور العالية للإعلانات (١) .

وقد ذكرنا مصدريين غير مشروعين من موارد الصحافة ، وعما الساعدت المالية من الدول الأجنبية التي تستغل الصحافة لأغراض الدعاية لها ، والرشوة سواء من الداخل أو الخارج ، من الحكومات أو الهيئات الأعلى والأفراد ، ويذكر العقاد في مذكراته أن مصاريق الصحف كانت على التحقيق أكبر من مواردها التي تدل عليها حساب البيع والاشتراكات والإعلان . ولولا أنها اعتمدت في وقت من الأوقات على مورد « الإعلانات السرية » لما طال بها الأجل شهوراً ، فضلاً عن سنوات . وقد يتضح مبلغ الحاجة إلى هذه الاعانة إذا علمت أن شركات البرق - كشركة روترومافاس - كانت تتلقى اعانة رسمية من الحكومة المصرية ، وأن مطبوعات السفارات كانت تحال علانية إلى بعض الصحف لطبعها ، مع وجود المطبعة الأميرية . ولم تكن مصادر الاعانة مجهولة بين العاملين في الصحافة والسياسة ، وإن لم تبلغ من الصراحة في زمن من الأزمان مبلغ الاعتراف المكتوب .

وربما انقسمت هذه المصادر في جملتها إلى مصدرين اثنين على شئ من الدوام والانتظام وهما القصور الملكية ودواوين السفارات ووزارات الخارجية ، وقصر « يلز » في الاستانة كان مصدر القسط الأوفر من إعانات الصحافة والصحفيين المتطوعين . وقصر « عابدين » بمصر كان المصدر الآخر الذي يناقسه يوماً بيوم ويعمل معه بدأ بيد في عامة الأيام .

(١) سلامة موسى : الصحافة حرفة ورسالة ، ص ٢٨ .

ويضيف العقاد الى ذلك أن نجمل عباس المشهور كان يغفل يده عن التبرع بالمال من خزائنه الخاصة فكان يحيل أعوانه من الصحفيين تارة الى ديوان الأوقاف وتارة الى ديوان الرتب والنياشين(١) .

وبعد .. هذه صفحة مطوية من تاريخ الصحافة المصرية ساعدنا العقاد في الاطلاع عليها بما كتبه في مذكراته ، وكشفه للصحافة في بدء تطورها من الباب الخلفي ، رأينا أن نسردها لهذا المكان لنرى بعد ذلك ، كيف اندفع العقاد بكل ثقله الى احتراف الصحافة وهي المهنة المزدرة ، وهل هبطت به صناعة الصحافة ، أم أن عباس العقاد وهو الذي ارتفع بصناعة الصحافة .

ونقول أن الصحافة كانت مهنة « مزدرة » لأنها غير الصحافة التي نعرفها اليوم ، ويكفى أن نذكر هنا عدة أمثلة نبين كيف كانت هذه المهنة « مزدرة » تماما كمهنة « الحمامة » التي لم تكن بالمهنة الشريفة التي نعرفها اليوم ، وإنما كانت صناعة وضيعة مبتذلة يشتغل بها من لا يحسب (المرافعة) الا مجالا للذد، وطول اللسان ، ومن لا يحسب النجاح في القضايا الا ضربا من الاحتيال و (الشطارة) يغش به القاضى ويغش به الأوكل ، ويعتمد فيه على الكذب والمراوغة والاختلاس ، ولم تكن للمحامى منزلة في نظر القضاء ولا في نظر الملوية ولا السواد(٢) .

يذكر الفكر المصرى الكبير سلامة موسى الذى عمل بالصحافة في الفترة التي عمل بها العقاد ، أنه في سنة ١٩٢٣ احتاج الى أن يستاجر مسكنا بالقاهرة ، وتصد اليه وعائنه وارفضاه بأجرة شهرية قدرها سبعة جنيهات ، وشرع في كتابة عقد الايجار . وماهو أن فهمت مالكة المسكن أنه صحفي حتى انتفضت من مقعدها وهي تقول : « جرنالجي » ويدفع مئتين سبعة جنيهات في الشهر ؟ ورفضت التوقيع على العقد . ولم تجد معها المناقشة والشرح .. يقول سلامة موسى : « وخرجت وأنا أتعثر في ثوب الخيبة » (٣) .

والواقع أن هذه الحادثة توضح بجلاء مدى نظرة المجتمع المهنة « الصحفي » ، ولم يكن احتراف الصحافة أمرا مقبولا مستساغا عند الناس فقد كانوا يطلتون على الصحفي اسم « الجرنالجي » وهو الاسم الذي كان يطلته السادة الأتراك على أصحاب هذه المهنة . وانتقلت عدوى الحط من قدر هذه المهنة وعدم الاعتراف بها كمهنة شريفة الى المصريين .

(١) عباس محمود العقاد : نفس الرجوع ص ٧٦ وما بعدها .

(٢) عباس محمود العقاد : سعد زغول سيرة ونحية ، ص ٧١ .

(٣) سلامة موسى : الصحافة حرفة ورسالة ، ص ١٧ .

وكان « الصحفي » ك « المحامي » يأنف كل رجل « مستور » الحالة من معاملته فضلا عن مزاملته ومصاهرته .. وإذا نظرنا لمغزى قضية زواج الشيخ على يوسف صاحب أكبر جريدة في الشرق الاسلامي ونقصد بها « المؤيد » وتتلخص هذه القضية في أن الشيخ على يوسف تزوج من بنت الشيخ السادات على غير علم .وقدم السيد السادات بلاغا الى النيابة يتهم فيه الشيخ على يوسف بأنه غرر بابنته .. وبحثت النيابة الموضوع فوجدت أن السيدة صفية قد بلغت سن الرشد فمن حقها شرعا أن تزوج نفسها .. وقد حضر القرائن عدد كبير من أقارب العروس ، فليست هناك أية شبهة يمكن أن يستنتج منها أن الشيخ قد غرر بالسيدة صفية .. وحفظت النيابة البلاغ ..

ورفع السيد السادات دعوى عليه يطلب الغاء الزواج استنادا الى ان التشريعية تشترط لصحة الزواج وجود تكافؤ بين الزوجين .. وقال السيد السادات أنه يطمئن في كفاءة على يوسف لابنته من ناحيتين : النسب .. والحرفة ! .. فالشيخ على يوسف من ناحية النسب لا ينتسب الى نسب رفيع كالسادات ، وهو من ناحية الحرفة يحترف « مهنة الجرائد » التي هي كما قال في صحيفة دعواه - « أحقر الحرف .. وعار وشنار عليه ! (١) » وحكمت المحكمة الشرعية بالغاء الزواج على هذا الأساس أي أن الصحافة مهنة غير شريفة ، ومحترفها لا يليق أصاورة أسرة شريفة .

وانظر الى محامي السادات يتسارن بين موكله المحترم الذي يعيش على أملاك واسعة تركها له آباؤه الأماجد (وهذه الفاظ المحامي) ، وبين الشيخ على يوسف الذي يضطر الى العمل لكسب رزقه ، ويحترف مهنة حقيرة هي الصحافة !! ..

ثم أفتى المحامي بأن « حرفة الصحافة في ذاتها دنيئة ويحرمها الدين الاسلامي ! ، ولماذا ؟ ، لأنها تقوم على الجاسوسية والاشاعة وكشف الأسرار وهذا منهي عنه شرعا ! »

ويحوى هذه القصة أن المجتمع المصري في مطلع هذا القرن كان ينظر الى حرفة الصحافة على أنها حرفة مزدرة في حدد ذاتها .. وان قضية زواج الشيخ على يوسف تبين أن الشراء لا ينفي عنه تهمة احتراف الصحافة ، لكي نتقبله الأوساط الشريفة .

(١) راجع قضية زواج الشيخ على يوسف بالتفصيل في كتاب الأستاذ احمد بهاء الدين « أيام لها تاريخ » .

ولقد كان للحكومة الاستعمارية الاستبدادية اثرها في تكوين هذه الفكرة لدى المجتمع المصري ، فهي كما يقول سلامة موسى ، كانت تطارد الصحافة باعتبار انها تحصل راية النقد لادارة يجب ان تبقى مستقرة عن اعين الجمهور . وكانت ايضا تدعو الى جلاء الانجليز المحتلين لبلادنا . ثم كان تاخر التعليم وتحديد عدد المدارس الحكومية يعمم الامية او يكاد بين طبقات الشعب فكان جمهور القراء صغيرا لا يغزو جريدة يومية او اسبوعية كثيرة النفقات فكانت اجور الصحفيين ، تبعا لذلك ، منخفضة . ولذلك كانت جرائدنا على الدوام في افلاس بين التعطيل والفرامة وحبس الحريين والخبيرين . ولم تكن في حالتها هذه تتيج للصحفي ان يتربى للتربية الصحفية . وقد مات للسوء . ومات بعده المؤيد ، ثم الدستور ، ثم الجريدة ، وهذا غير عشرات الجلات . . . واصبح الاعتقاد السام ان الصحافة مهنة خطيرة تؤدى الى الحبس كما هي مهنة الفلمسين او الوشكين على الافلاس . ولذلك لم يكن يقبل عليها الاكفاء الذين يجدون عملا آخر يتيح لهم اطمئنانة والكسب(١) .

بل واكثر من ذلك - يقول سلامة موسى ، كثيرا ما كنا نجد الشبان يلجأون الى الصحافة كما لو كانت معبرا يعبرون منه الى وظيفة حكومية . وكثيرا ما حدث هذا . فان المحرر أو المخبر باتصالاته بالوظفين كان يجد الفرصة لأن يثب من الصحافة الى الوظيفة . ويترك الصحافة في غير أسف(٢) .

رضى عباس العقاد أن ينتمى الى طائفة مزدارة ، وهو يعلم ان « الكرامة الشخصية » كافية وحدها لتكريم صاحبها « على الرغم من ضعف الصناعة التي ينتمى اليها وشيوع المعرف باحتقارها بين عليا الناس وسوادهم » رضى العقاد أن يحترف الصحافة لأنه آمن « أن ألف دجال باسم الطرق الصوفية لا يمسحون من الضمائر قداسة الدين ، وأن ألف دجال باسم الصحافة لا يمسحون قداسة « الكلمة » الحية بين اناس يحتاجون الى الكلمة حاجتهم الى العمل في ساعة اليقظة من سباتهم الطويل . .

وعلى غير عادة الشبان - في ذلك الوقت - لم يتخذ عباس العقاد من الصحافة معبرا الى وظيفة حكومية ، وانما هجر وظيفة الحكومة ليحترف الصحافة وكان بذلك أول موظف مصرى - فيما نرى - يستقيل من وظيفة حكومية بمحض اختياره « يوم كانت الاستقالة من الوظيفة والانتحار في طبقة واحدة من الغرابة وخطل الرأي عند الأكثرين ، بل ربما كانت حوادث الاستقالة أندر من حوادث الانتحار » .

(١) سلامة موسى : الصحافة حرفة ورسالة ص ١٩ .

(٢) المرجع السابق .

وعباس العقاد لم يولد في أسرة غنية توفر أقل ضرورات الحياة أو أبسطها وقد اضطر إلى قطع التعليم - كما نعلم من سيرة حياته - للعمل بجنهيات قليلة في وظيفة حكومية متواضعة . يقول العقاد في مذكراته أنه تلقى خبر قبوله في الوظيفة الأولى التي أكرمه الظروف على طلبها « كأنه تلقى خبر الحكم بالسجن أو الأسر أو العبودية » .

وفي المقال الذي نشره في « الجريدة » (١) قبل استقالته يصف « الوظيفة » بأنها رق القرن العشرين . . . وقد استغرق هذا المقال نصف العمود الأول والثاني من الصفحة الثانية بالجريدة - وتلمع في هذا المقال تحدى العقاد للظروف التي تضطره وإمالة إلى أن « يلزموا أنفسهم وهم مطلق الحرية اطاعة رئيس متصرف ، أو محاسبة رقيب متصرف ، في عمل لا ينبغي طوا لانجازه انبساط الزارع لحصاده ، والتاجر لاقتصاده » ويمضى العقاد في هذا المقال بروح ساخرة يصف هذا السرقة الجديد للانسان :

« كذلك يصبح الشاب إذ تدور عليه دوائر الحكومة في سلسلة عمل : تتغير الطيبة من جذب إلى خصب ومن غيظ إلى فيض ، وهو لا يذوق طعم التجدد ولا يبصر إلا أوارقا تذهب وتعود ، وإفادات تصدر وترد على صورة واحدة وبكيفية متجانسة لا يدرى معها كيف يصرف ما أودع الله في عقله من بعد نظير ودقة فهم . . . فهو إذا أسرع في الكتابة فالمطبعة تنفقه في الاسراع ، أو استوعب كلام رئيسة فالحاكي بيده في اتقان السماع . أو لارم المواعيد فالساعة أدق منه في حفظ اليعباد ، أو انتقاد الأوامر فالآلات أمثل للطاعة وأميل للانقياد ، ولا يكاد يعمل بنفسه لنفسه الا تحت ستمار الليل حيث بيتاع لقمة يقيم بها أوده ، أو ملبسا يستر به جسده . وحيث يسلم نفسه لسلطان النوم يخرج بها من عالم مجبول بالأذى إلى لحظة من أسعد أوقاته ، والذ ما يجد في حياته » . ويستمر في وصف حالة الموظف فيقول : « حسبه من دهره أنه يكبح شهرا ليفتات أسبوعا ، وينفق قوته ليتصور جوعا ، عدا عجره ويجره ، ولا يروك منه بزة لو فحست غزلها لوجدتها منسوجة من عروقه ، مصبوغة بدم كبده » .

« وكأنه يشعر بأن حياته ليست له وأنها ودیعة عنده لرؤسائه فهو لا يأسف على ماضيها ويستعجل آتيها ، ينهب الساعات تلو الساعات ليذهب النهار فترتاح من تعبها ، وينقضي اليوم عقب اليوم حتى يأتي يوم الجمعة فيتنفس قليلا من كربها ويعود الأسبوع بعد الأسبوع إلى أن يفتنى

(١) نشر هذا المقال بعنوان « الاستخدام - أو رق القرن العشرين » بجريدة « الجريدة » العدد ٨٤ - ١٧ يونيو ١٩٠٧ م - السنة الأولى .

الشهر فيسر بالنظر الى مرتبه ، ويلتزم الشهر وراء الشهر طمعاً في علاوة
تأتيه آخر العام ، ويتناول السنة في ذيل السنة حتى يستحق المكافأة أو
الماش ، وهو بين الموت والحياة لا يملك من نهار عمره ما يجلو به تلك
الصفحة السوداء ، وبينما هو على هذه الحال من اليأس اذا بالتاجر يدعو
الله أن ينتهب الحرب بين يوشع والموريين كل مساء ، والصانع يتمنى
لو يقص جناح الزمن فلا يطير به ولا يجعل باطفاً لهبه ومع ما عرف
عن الاستخدام من عيئه بالواجب وذمابه بالمعارف ترى أن فريقاً من الشبان
ينضجون عقولهم لتطرح على هذه المائدة فلا يستلم أحدهم شهادته باليمين
حتى يسلمها باليسار * ولا يتكامل نفسه بعد مواصلة الدرس والذاكرة الا
عند أبواب المصالح يفتش الجرائد وينبش الاعلانات عن مقعد خال بين
مقاعدنا الى أن يعثر به فيحسب أنه أدرك ما تمنى * .

ويستقيل العقاد من الوظيفة الحكومية ليحترف الصحافة ، يترك
خدمة الميرى « ليحترف المهنة الزدادة » فاداً أردنا أن نعرف كيف تكون
« الكرامة الشخصية » والكبرياء العظيم وشدة التمسك بالأهداف والمبادئ،
كافية لتكريم صاحبها على الرغم من ضعة الصناعة التي ينتمي اليها
وشيوع العرف باحتكارها بين علية الناس وموادم ، فعباس العقاد في
مهنة الصحافة هو المثل البارز لتلك الكرامة الشخصية وشدة التمسك
بالأهداف والمبادئ، * فتقاوم الطغيان وتصدى لأخطر رجال في البلاد وحارب
الفساد الذي استشرى في ائناء حكم الأحزاب والملوك * وأصبح عباس العقاد
بشهادة سعد زغلول « الأديب الفحل ، صاحب القلم الجبار » ما قرأت
له بحثاً أو رسالة في جريدة أو مجلة الا أعجبت به غاية الإعجاب * وهو
لا يعالج موضوعاً الا احاط به جملة وتفصيلاً احاطة لا تترك بعدما زيادة
لمستزيد * .

الفصل الثاني
المقاد يحترف الصحافة

ميلاد هـ، حفي

ـ « ما أجدر هذا أن يكون كاتباً بعد » ـ

لقد مست هذه العبارة شغاف الفتى الاسواني الذي يجلس في حجره الدرس بين أقرانه من الصغار ، عندما قالها ذلك الشيخ المجدد في صمت العالم المتنبئ، الواقف مما يقول . . . نطق الأستاذ الامام محمد عبده بهذه العبارة ولم ينس أن ينطق « بعد » بضم الدال غير واقف على السكون على حد قول القائلين : سكن تسلم .

وكانت أسوان قليلة العظماء من جميع الأرجاء في موسم الشتاء ، واتفق أن قام الأستاذ الامام بزيارة المدرسة التي التحق بها عباس العقاد تلميذاً صغيراً ، وكان من عادة أستاذ الانشاء بالمدرسة أن يعرض كراسات عباس العقاد التي يكتب فيها موضوعات الانشاء على كبار الزوار . واثني الأستاذ الامام على التلميذ الصغير وتنبأ له النبوءة التي صدقت .

وكانت موضوعات الانشاء تختار عادة من موازنات بين الفصول كالصيف والشتاء أو بين بعض المبادئ كالذهب والحديد ، وكان العقاد يتف دائماً مع أضعف الطرفين في الموازنة ، ليظهر قدرته العقلية في اعلاء الطرف الضعيف ببراهينه المتقنة ، وهي قدرة نلمسها في كل كتاباته من بعد . واصبحت تالزمه في كل ما يكتب . وكان موضوع الدرس يوم أن زار الأستاذ الامام مدرسة أسوان « الحرب والسلام » فكان من الطبيعي أن يختار العقاد جانب « الحرب » وعجب الأستاذ الامام حين رآه يفضل الحرب محتجاً بأنها مجال لظهور التضحية والبطولة وأنها تقوم بتنقية المجتمع من عناصره الضعيفة . وهنا سأل الأستاذ الامام : كيف تفضل الحرب ؟ واخذ يوضح له أضرارها ، وشرح العقاد وجهة نظره فسر الأستاذ الامام ونظر نظرتة الواثقة ، وربت على كتف الغلام : « ما أجدر هذا أن يكون كاتباً بعد » .

ولهذه العبارة سحرها الخاص في نفس عباس العقاد ، ليس لما تحمل في طياتها من تشجيع فحسب ، ولكن لأن تائلها ممن يتق العقاد بهم ويعتز برأيهم ، فالأستاذ الامام عند العقاد هو أعظم رجل ظهر في مصر وما جاورها من خمسة قرون ، وقد اطلع العقاد على معظم ما كتب الأستاذ الامام في شئون الدين والدنيا ، ويذكر أنه أعجب بخلقه فوق أعجابه بعلمه

« فإني الاقتداء بخلفه نافع لكل إنسان كائنًا ما كان مذهبه في الدراسة والتفكير ، ولكن العلوم والمعارف تتعدد بين فريق من الناس فلا يفتتح المرء إلا بمن يماثله في معارفه وعلومه » .

لذلك كله كان لمعاراة الأستاذ الإمام سحرها في نفس الفتى الاسواني الصغير ووجدت لها مؤازرا من موثاة الطبع والرغبة الكامنة في الطوية من أيام الطفولة لأن العقاد عرف أنه يجب الكتابة ويرغب فيها قبل العاشرة ، ولم ينقطع عن هذا الشعور بعد ذلك إلى أن عمل فيها واتخذها عملا دائما مدى الحياة .

لقد كانت الظروف المحيطة بالعقاد في طفولته مشجعة له ، فوالده يقرأ كتب الفرائض والعبادات وبعض كتب التاريخ والسيرة النبوية وتراجم الأولياء والصالحين ، وكان والده من أنصار الحركة العربية . ولذلك يحتفظ بمجموعة كبيرة من أعداد « الأستاذ » وغيره من مجلات عبد الله النديم ، ومعهما مجموعة قليلة من « أبو نضارة » و « المعروة الوثقى » ونشرات الثورة التي كانت توزع في الخفاء .

وكانت مجلة « الأستاذ » للنديم تحظى لدى العقاد يومذاك بمكان الصدارة ، وكانت حاسته الصحفية تجذبه إلى العناوين في صحف النديم ، واعتبره العقاد « أستاذ زمانيه » ، بل لعله استاذ من أساتذة العناوين في كل زمانه » .

من عناوينه عنوان : « كان يكون ، للترجمة » ، وعنوان : « التنكيث والتبكيث » لاسم صحيفة ، وعنوان : « المسامير » لكتاب هجاء ، وعناوين أخرى بهذه البراعة لعشرات من الفصول والأخبار .

ويذكر العقاد أن هذه العناوين البارعة لفتته فقرأ كل ما وجده من صحف النديم ، ووجد نفسه ذات يوم يقطع الورق قطعاً على قدر الجملة ويعمد إلى مكان العنوان منها فيكتبه بخطه متافقا ويمارض عنوان « الأستاذ » بعنوان « التلميذ » وافتتحها بمقال عنوانه « لو كنا مثلكم لما فعلنا فعلكم » معارضة لمسال النديم المشهور « لو كنتم مثلنا لفعلتم فعلنا » موجهها الخطاب إلى الأوربيين .

يقول العقاد في حياة قلم « انني منذ بلغت سن الطفولة وفهمت شيئا يسمى المستقبل لم أعرف لى أملا في الحياة غير صناعة القلم ، ولم تكن أمامي صورة لصناعة القلم في أول الأمر غير صناعة الصحافة » .

ويذكر العقاد أنه تناول في مقالته فقرات النديم واحدة واحدة ، وفحوى ما يدل عليه العنوان ، أننا نحن الشرقيين لو كنّا مثلكم – أيها الغربيون – فأتاحين منتصرين لما فعلنا فعلكم من نهب الأموال واستباحة الحقوق وإفتراء الأكاذيب والتلطل بالمواعيد ، ولكننا لسنا مثلكم ولا نريد أن نفعل فعلكم ، وسترون فعلنا عما قريب(١) ٠٠

وقد أصدر العقاد من صحيفته المخطوطة « التلميذ » بضعة أعداد ، كان قراءها لا يتعدون زملاء في المدرسة وأتساربه المشجعين أو المنتهدين المتفكرين ، « ولم يكن لها من اشتراك غير تعب النسخ إن يراها مستحقة لهذا الثمن ٠٠ » .

وفي السادسة عشرة من عمر العقاد كان قد عمل في وظيفة حكومية وكان عليه أن ينتظر سنتين قبل التثبيت ، لأن الوظائف الدائمة لا تثبت قبل الثامنة عشرة ! وقد عرفنا – رأى العقاد في الوظيفة الحكومية ونعته لها بأنها رق الترن العشرين ٠٠ يذكر لنا العقاد أنه قد خطر له ذات مرة قبل أن يستقيل أن يتوفر على إصدار صحيفة أسبوعية باسم « رج الصدى » ليربح نفسه من انتظار التثبيت في الوظيفة ٠ واتخذ مستشاره لهذا العمل « كتيبيا » بحى الأزهر كان يشترى منه الكتب الأدبية بأرخص الأثمان ، وقال له الكتيبى الناصح :

– إياك أن تفعلها وتترك خدمة « الميرى » من أجل هذه الصناعة الملعونة ! وفي الفصل السابق رأينا كيف كانت هذه المهنة مزدرة ، وفي هذا المشهد شهد العقاد بعينه أنها في الحق صناعة ملعونة كما قال الكتيبى ، وكانت على الأقل ملعونة ٠٠ إلى ذلك الحين !

فقد كانت على مقربة من المكتبة مطبعة صغيرة وتطبع فيها صحيفة أو اثنتان من الصحف الأسبوعية ، ويئف فيها « مدير الصحيفة » ينتظر الوكيل الذى أرسله إلى المشتركين للحصول وسداد حق المطبعة من محصول الاشتراكات ٠

وحضر الوكيل ٠٠ وهو كما يصفه العقاد ، مخلوق أشعث أغبر ليس على بدنه كسوة من قطعة واحدة ، ولحيته مرسله بغير قصد منه ، لأنها معلقة على قرش واحد يؤديه للحلاق ، ولا سبيل إليه ٠ وبادره المدير سائلا :

(١) العقاد : حياة قلم ص ٢٧ ٠

– ماذا صنعت ؟ ..

فأخرج له إيصالاً معاداً من أحد المشتركين ، وقال له :

– إن صاحب هذا الإيصال قد أثبتني أنه سدد الاشتراك لك قبل الآن وعنده إيصال بالسداد .

قال المدير :

– وأين الإيصال الآخر ؟ ..

قال الوكيل :

– قطع الرجل ورماه في خلقتي !

فانتهره المدير وهم بضربه ، وقال له :

– مستحيل !! إن هذا الرجل من يخافون الكتابة عنهم خوف البرد ، ومسألة بنته أو أخته معروفة يخشى منها الفضيحة .. فلا تقل لي أنه قطع الإيصال ورماه في خلقتك الشريفة .. بل قل أنك قبضت الاشتراك وسكرت به كعادتك .

ويختتم هذا المشهد بخفاقة بين « الوكيل » و « مدير الصحيفة » ويردد عباس العقاد لنفسه قول الكتّبي الناصح :

– انها صناعة ملعونة وإيم الله !

يقول العقاد ، أن هذه المناظر المخجلة حقرت في نظره طائفة من المتطفلين على الصحافة ، ولكنها لم تحقر صناعة الصحافة ، ولا نزلت بأعلامها النابهين إلى منزلة أولئك المتطفلين ، « ولست اعتقد أنني كنت مطلقاً أن احتقر هذه الصناعة من أجل ذلك المظهر الخجل ، ولو كنت من المستخفين بها ، والزاحدين فيها .. لأن قوة الدعوة القلمية في تلك الفترة قد بلغت في القاهرة مبلغاً لا يدانيه ما بلغته في عاصمة من عواصم الشرق والغرب(١) » .

« منظر الحساب بين مدير الصحيفة الأسبوعية ووكيلها قد يصح أن يثني عن طبع العدد الأول من صحيفتي المطوية وإن يضعف أمل في تحصيل تكاليفها بعد عدد أو عديدين .. »

« ولكن هل تراه يذعنني عن هذه القوة الهائلة أو أنا أحسها من حولى كاللحمة اللينة في لجة البحر الموار بالأمواج والرياح ؟ .. »

(١) العقاد : حياة قلم ص ٥٧ .

بعد هذا بدأ العقاد حياته الصحفية « مصاحفا » يكتب للمصحافة من « منازلهم » فكتب إلى « الجريدة » أحرقها لطفى السيد ، وقد أشرنا إلى المقال الأول الذي نشرته له الجريدة عن « الاستخدام أو رق القرن العشرين » ، وكتب قبلها إلى صحيفة « الظاهر » التي كان يصدرها محمد أبو شادى المحامى ، وكتب كذلك إلى صحيفتى « المؤيد » و « اللواء » .

وأخيرا يجد العقاد أنسب مكان له ، وهو العمل في جريدة « الدستور » التي أصدرها محمد فريد وحدى ، وهى أول جريدة يومية عمل العقاد في تحريرها .

وكان في مكانه أن يعمل في تحرير « اللواء » أو في قلم الترجمة باللواء على الأصح . لأنه علم أنهم يطلبون مترجمين يعرفون الإنجليزية أو الفرنسية بعد تفكيرهم في إنشاء « الاستندارد » و « ليتندار » . وكان العقاد يجيد الإنجليزية ، ويذكر العقاد أنه لما علم أن « اللواء » يطلب مترجمين يعرفون الإنجليزية خطر له أن يستقيل من وظيفته وأن يرشح نفسه للعمل فيه . ولكن العقاد تردد ، وفضل ترك هذه الفرصة ، وانتظار فرصة غيرها لسببين(١) :

أولهما : أنه إذا أقدم على مجر الوظيفة الحكومية مفضلا عليها الصحافة فليكن ذلك ليكتب لا ليترجم ، « فانى أحببت الصحافة ، لا لأنها مورد رزق أفضل من موارد الوظائف الحكومية ، ولكننى أحببتها لأنها مجال للكتابة أو صناعة القلم بغير وساطة من صناعة النقل أو الترجمة ! » .

والسبب الثانى : شخصية مصطفى كامل رحمه الله ، وقد بينا في الفصل الأول مدى الاختلاف بين شخصية مصطفى كامل وشخصية العقاد ، أضف إلى ذلك الحادثة الأولى التى نمت بينهما لم تشجع العقاد على مزاملته في عمل دائم ، وصورته لى رجلا معنذا بذاته ، ضيق الحظيرة ، لا يسمح حتى للمكاهمة أو « للغانية » أن تفتح عليه بابا لتصح قولة قالها أو رأيا ارتاه .

وعلى الرغم من أن « الدستور » كانت تعد « اللسان الثانى » للحزب الوطنى بعد « اللواء » لسانه الأول . إلا أن صاحبها امتار بحرية عقلية واسعة وكان من رأيه عند تأليف الحزب الوطنى أن يكون تبليغ تاليفه والاحتجاج على الاحتلال عاما غير مقصور على الدولة البريطانية فلم يقبل

(١) العقاد : حياة قلب ص ٦٤ .

مصطفى كامل اقتراحه ، وظل فريد وجدى يؤكد رايه في « الدستور » حتى
أصابها الضعف بسبب معارضتها لمصطفى كامل ..

في « الدستور »

صدر العدد الأول من جريدة « الدستور » اليومية في يوم السبت ١٦
نوفمبر ١٩٠٧ لتكون اللسان الثاني للحزب الوطني بعد اللواء ، وصاحب
« الدستور » هو العالم الاسلامي المعروف محمد فريد وجدى الذى كتب
كتابات ضافية يرد بها على كتاب الغرب وفلاسفته المنكرين لحقوق المسلمين
وفضائل الاسلام ، وكانت له شهرة بالاطلاع على ثقافة الدين وثقافة العصر
الحديث .

ويوم صدور « الدستور » استقبلتها الصحف المصرية على اختلاف
اتجاهاتها ، استقبالا يشوبه شئ غير قليل من الاحترام .

فكتبت « اللواء » (١) : تقول :

« ظهرت أمس هذه الصحيفة الجديدة لصاحبها حضرة الكاتب المبراني
المجيد محمد بك فريد وجدى - وهى تتباهى في حلل الآداب مرتدية بذلك
الثوب القشيب من مملوء الآراء ومثانة التراكييب وكل مصرى بل وشرقى لا يسمعه
الا أن يعترف معنا لحضرة صاحبها البليغ بذلك الفدح المعلى في سمو
الأفكار وقوة المعارضة وسعة الاطلاع . فلا غرو وبعد ذلك أن قوبل
الدستور بلهفة عظيمة وشوق زائد من أول يوم من حياته الصحافية ، (هكذا
يجد كل مخلص لأمته صادق في خدمتها ما تفر به عينه وينشرح له فؤاده) .
فالصحافة المصرية الوطنية قد تعزز جانبها بدخول هذا العضو النافع في
هيئتها الصالحة ، وقد تصدر العدد الأول من الدستور مقالة شائعة
جمعت من الآراء صائبها ومن الأبحاث الاجتماعية ارتفاعا فخللت الأحوال
المصرية تحليلا دقيقا بالبرهان الدامغ والحجة القوية مما لم يترك مجالا
لمضلل منافق أو انتقادا لموه مكابر » . وقد اقتطعت اللواء بعض الفقرات من
مقالات الدستور ونوعت بها ، وكتبت تحت عنوان (سرور الأمة بجريدة
الدستور) مما ينم عن مدى تقبل الرأي العام لها ونشرت بعض الرسائل التى
بعث بها القراء يشيدون بالدستور .

(١) ١٧ نوفمبر ١٩٠٧ .

وكتبت « المؤيد » تقول :

ظهر العدد الأول من جريدة الدستور لحضرة منشئها الفاضل محمد فريد أفندي وحدى صاحب مجلة (الحياة) وصاحب الباحت الشهيرة في الأديان والعمران وهو من أكثر الشبان المتطمين كتابية في المواضيع المختلفة أنشأ حضرة جريدة سياسية يومية صدر العدد الأول منها أمس وقد تسال في مقدمته مايلي :

« أما بعد فنحن بإصدارنا لهذه الجريدة لا نرى أن في الصحافة العربية فراغا جئنا لنسده فإن في ذلك غمطا لحق من تقدمنا من العاملين بل نقول أنا نزيد في صوت الدفاع عن حقوق مصر صوتا جديدا لا يختلف في النغمة عن سائر الأصوات المخلصة إلا في أنه سينتطر بعقبة من السلم الاجتماعي ، فما الدستور والحالة هذه إلا محاميا جديدا انتدبته الأمة بأقبالها على أعدادها للمرافعة في قضية مصر بأسلوب علمي ليصبح صوت الدفاع حاصلا على كل ما يجعله محترما مسموعا » .

واستقبلت « الجريدة » (٢) صحيفة الدستور بقولها :

« بزغ أمس في عالم الصحافة نجم جديد نرجو أن يغير ناحية من أنحاء ما نحن فيه من ظلمات الآراء . . . نعلم به جريدة الدستور التي يقوم بإدارة سياستها حضرة الكاتب الفاضل محمد أفندي فريد وحدى . ظهر عددها الأول مصدرا بمقالة ضافية بأن حضرة الكاتب في الحال الاجتماعية والسياسية لمصر . وحمل فيها لأول يوم من ظهوره على آراء المعتدلين فسفرتها بأدلة كاذلة اللواء ، فلا مندوحة لمفرد « الدستور » من أن يقول بأنه من اللواء بمنزلة « المنبر » من « المؤيد » . . . ولقد تنم تحيته للجرائد الأخرى على أنه لم يات إليها بخطة جديدة من اصلاح ذات البين وتقتصر مسافة الخلف بينها أو رتق فرجة المعاكسة والمكابرة في غير مصلحة بل جاء على العكس من ذلك يزيد في طنبور التفريق نغمة وينصح لشيخ حزب الأمة أن يستعصموا بأراء بنينهم وأحفادهم من الشبيبة ويطلب بجمع الأمة الى زعامة سعادة مصطفى كامل باشا بحجة أن الجرائد الأجنبية قد التت إليه مقاليد تلك الزعامة » .

وانا لتحدي « الدستور » بتحية أحسن من تحيته إيماننا ونرحب بقومته ترجيب من يعلم أن الجرائد مهما كانت خطتها السياسية فإنها الوسائل

(١) ١٧ نوفمبر ١٩٠٧ .

(١) العدد ٢١٢ . ١٧ نوفمبر ١٩٠٧ .

الأولى لتوفير الانهزام وحل ثيود الأفكار وسلم رتى الأمم . ونرجو
للدستور أن يبارك الله عليه ويقرن خدمته بنفع الأمة ويحله من الثقة
والانتشار ما يرجوه هو لنفسه » .

وموقف الصحف الثلاث من « الدستور » يبين لنا عندما نتسأل عن
اختيار اسم الصحيفة « كان » اسم « الدستور » يغضب قصر (بلذ)
ويغضب قصر « عابدين » ، ويغضب قصر « الدويرة » . . .

وكان الحزب الوطنى يطلب الدستور ولكنه يتحرج من الدعوة العامة
اليه ، لأنه ينكر مقاصد المطلبين به من رسايا الدولة العثمانية ، ويشفق
من غضب السلطان عبد الحميد .

وقد كتبت الصحيفة « اللواء » عن المطلبين بالدستور في تركيا ، قبل
اغلانه عنك بيوم واحد ، فقالت أنهم قوم يسيجون في الخيال . . .

« وكان الخديو يحرض على طلب الدستور سرا كلما أراد بالتحريض
عليه إحراج الانجليز والحد من سلطة المذوب البريطانى والمستشارين ،
ولكنه كان يرفض الاصغاء الى هذا الطلب كلما تاب الى شئ من الوفاق
بينه وبين المحتلين . . . ولهذا كان حزب القصر يسمى نفسه « حزب الإصلاح
على المبادئ الدستورية » . . . ولا يخفى الفارق بين الدستور واصلاح
اندواوين على مبادئ الدستور ! » .

وكان حزب « الأمة » كما يدل عليه اسمه يعارض الحكم المطلق
للعرش في مصر وللعرش في عاصمة الدولة العثمانية ، وكان ينادى بالاستقلال
التام فيهدده المؤيد بحكم القانون لأن السيادة العثمانية مقررة فيه ، ولكن
حزب الأمة على مناداته بحصر الحقوق كلها في الأمة لم يخل من انطباع
مخلصين كانوا يحسبون المفطرة في الحكم النيابى خطرا حقيقا بالخطر
والاجتناب(١) . . .

ولختيار اسم الدستور اسم « يدل على كثير » اذا ما راينا موقف
التيارات المختلفة التي كانت توجه السياسة المصرية ، ادركنا ان هذه
الصحيفة كانت صاحبة رسالة دل عليها الاسم ودلت عليها خطتها
السياسية .

والواقع ان الدستور لم تكن لساننا ببغاويا للحزب الوطنى كما وصفتها
الجريدة ، ذلك ان صاحب الدستور فريد وجدى كان رجلا صاحب « مبدأ »
لا ينحرف عنه قيد شعرة ، وهو الجهر بالرأى ولو خالف القوة والكثرة

(١) المقاد : حياة قلم ص ٦٨ .

وخالف أحب الناس إليه ، وقد كان من رايه عند تأليف الحزب الوطني أن يكون تبايع تأليفه والاحتجاج على الاحتلال عاما غير مقصور على الدولة البريطانية فلم يقبل مصطفى كامل مقترحه ولم يستطع فريد وجدي عن تأييد رايه ، فانصرف قراء اللواء عن قراءة الدستور ولم يكن للدستور قراء من الشيع السياسية الأخرى ، فكدت الصحيفة وعجزت عن النهوض بتكاليفها ولم يقبل صاحبها أن يعرض الخسارة بالمعونة المروضة عليه من الجهات السياسية التي لا يوافقها .

والذي يؤرخ لصحيفة من الصحف لا يمكن أن يغفل تاريخ مقوماتها المادية التي تعتمد عليها في القيام بتكاليفها ، فإن الصحيفة التي يتفق عليها حزب ذو برنامج معلوم كالجريدة ، واللواء ، غير الصحيفة التي تتفق عليها شركة تجارية ، وغير التي تقوم على التوزيع أو تقوم على الاعلانات ، والاتراكات السنوية والدورية .

يذكر العقاد أن صاحب « الدستور » لم يكن على شهرته بالظريات ، مجردا من الدراية الحسنة في تنظيم الاعمال ، فاخترع طريقة الاشتراك الشهري بالاذونات مع خصم رسوم البريد من بعض هذه الاذونات ، وافادت هذه الطريقة قليلا ولكنها كانت ، على أحسنها ، فائدة تاجيل للقضاء المحتوم (١) .

وكسدت سوق الصحيفة بعد الخلاف بين الدستور واللواء ، فكدت الادارة عدد المطبوع من النسخ على الطلب اليومي ، ولم يزل هذا الطلب اليومي يتناقص من اسبوع الى اسبوع ..

ومن لطائف الأستاذ فريد وجدي - وكان يمزح أحيانا ولا يتول الا صدقا - أن موظف الادارة فاتحه في نقص أجور الاعلان فقال مقطعا : الا تحمد الله لاننا لا نفرم حتى الآن اعلانات في الصحف عن ظهور الدستور (٢) ؟ ! ..

أما الاعلانات السرية - فيذكر العقاد أن الدستور كان خليقا أن يجمع منها الكثير لولا أن الأستاذ فريد وجدي رحمه الله كان بحسب أنه يسخر اصحاب الدعايات لرسائله الدينية ولا يفهم أنهم يسخرونه لدعايتهم السياسية .. وقد يصل الأمر الى تبرعات الأفراد ، فلا يتل منها الرجل ما يزيد على قيمة الاشتراك المكتوبة على الصحيفة .. وحدث من ذلك أن

(١) المتباد : حياة قلم ص ٨٥ .

(٢) انظر المرجع السابق ص ٨٥ .

السيد توفيق البكري اراد ان يعرب للصحيفة عن شكره لوقوفها منه أمام الخديو في (زفة الحمل) وحضور الطرق الصوفية فيها ، فأرسل إلى الأستاذ فريد وجدي بمبلغ من المال كانت الصحيفة في أشد الحاجة إليه . فلم يقبل منه « فريد وجدي » غير قيمة الاشتراك لعام واحد ، ثم رد إليه البقية قبل ان ينتصف النهار (١) .

ومن المونات التي عرضت عليه في أخرج أيام الازمة معونة كبيرة من جماعة « تركيا الفتاة » يذللونها للدستور مشاهرة ليكون لسانا عربيا لحركتهم الدستورية ، ولكن على شريطة واحدة : وهي أن يرفع من صدر الصحيفة كلمة « لسان حال الجامعة الاسلامية » . فرفض الرجل هذه المعونة ورفض أن يجعل صحيفته لسانا للحزب الا بشرطه التي يرتضيها . ولو وافق الحزب على بثاتها للجامعة الاسلامية (٢) .

وفي الوقت الذي كانت هذه المونات تعرض عليه من شتى الجوانب ومنها جانب الحاشية الخديوية - كان فريد وجدي يتحامل على نفسه وعلى التثليل من موارد مؤلفاته ليتفق عليها بعد تصغير صفحاتها واختصار عددها ، فلما استند كل ما قدر على انفاقه في هذا السبيل أعلن تعطيلها وهو مدين لتاجر الورق وموظفي التحرير والادارة بمقدار غير يسير . فابت عليه نزاهة النفس أن يؤخر مليما واحدا لصاحب دين (٣) .

هذا هو فريد وجدي صاحب « المبدأ » وهذه صحيفته « الدستور » التي كان لها من اسمها صدى جديدا في الحياة المصرية . . .

* * *

أعلن فريد وجدي عن عزمه على اصدار « الدستور » صحيفة يومية ، ويطلب مخاطبته في شئون الصحيفة ، ومنها شأن التحرير ، وذلك عام ١٩٠٧ م في الوقت الذي أزمع فيه عباس العقاد الاستقالة من وظيفته الحكومية ليحترف الصحافة ، وعندما قرأ إعلان فريد وجدي فضله عن العمل في تلم الترجمة باللواء وكانت حجتة في ذلك أنه اذا أقدم على مجر الوظيفة الحكومية مفضلا عليها الصحافة فليكن ذلك ليكتب لا ليترجم ، وكان إعلان فريد وجدي عن صحيفته التي ينوي اصدارها بمثل « الفرصة » التي كان ينتظرها العقاد ليعمل بالصحافة كاتبا لا مترجما . يحدثنا العقاد أنه فور

(١) العقاد : رجال عرفتهم ص ١٦٠ .

(٢) المرجع السابق ص ١٦٠ .

(٣) العقاد : رجال عرفتهم ص ١٦١ .

قراءة هذا الاعلان ، كتب الى فريد وجدي يخبره بانه يرشح نفسه للعمل في الصحافة لأول مرة . . . ووصله الرد منه بعد يوم او يومين يسأله ان يلغاه بدار مطبعة الواعظ لصاحبها المعروف - يومئذ - محمود سلامة ، ويذكر العقاد انه كان يقرأ مقالاته النقدية ، ويعجبه منه ما يعجبه من مدرستنا كلها : وهي مدرسة عبد الله النديم واحمد سمير . وكان العقاد يعرف مكان مطبعة الواعظ لانه فكر زمنا في اصدار صحيفة على مثالها وفي مثل حجمها ، قبل ان يستقيل من وظيفته الحكومية .

ويحدثنا العقاد عن لقائه بفريد وجدي بانه لما ذهب الى الموعد بالحقبة اخرج فريد وجدي الساعة من جيبه ونظر فيها ، وسكت عنيفه ثم سأل عما اطلع عليه من مؤلفاته التي انشأ اليها العقاد في خطابه اليه ، ثم اختار صحيفة من الصحف التي كانت على مكتب صاحب الواعظ وقال له : عمل قرات هذا ؟ فنظر العقاد في الصحيفة فاعلم انه يشير الى مقال عن رحلة لكاتب التال في العاصمة الفرنسية ، كان العقاد قد اطلع عليه قبل ذلك . فردد الصحيفة اليه وهو يقول : انني لم اذهب الى باريس ولكن موضع المصحح عندي ان الكاتب لم يطرق منها غير الحى اللاتيني ولم يعرف في الحى اللاتيني غير معارض الخلاعة والمجون ، فهل هذى هي باريس ؟

« فضحك فريد وجدي ضحكة تنم على كل ما في طوية نفسه من براءة طبيب كبراء الطفولة » وقال : هذه هي باريس كلها اذا كانت القاهرة هي ما تراه الساعة . . . هل لك في رحلة قصيرة نقضى بها رياضة اليوم ؟

وسار العقاد معه حيث سار ، وقال له في صراحة لا تكلف نفسك ، انه عرض عليه مقال الصحيفة عن رحلة باريس امتحانا لرايه بعد ان اغناه أسلوب خطبه عن امتحانه في الكتابة ، وبعد ان اغناه حضور العقاد الى الموعد - بالحقبة عن امتحان نظامي في العمل . . . فللعقاد ان يعتبر نفسه محررا بصحيفة الدستور منذ تلك اللحظة . . . ومضى فريد وجدي يسهب في بيان مقصده من انشاء الصحيفة وبيان خطتها في السياسة الوطنية(١).

وبدا العقاد عمله الصحفي الأول في هذه الصحيفة ، ويمكن القول ان العقاد كان نصف ميقة التحرير برمتها ، اذ لم يكن في قلم التحرير غير كاتبتين اثنتين ، أحدهما عباس العقاد والآخر صاحب الصحيفة .

(١) العقاد : رجال عرفتهم ص ١٦٦ .

وقد تطوع في تحرير صحيفة الدستور « أحمد وجدي » شقيق فريد وجدي صاحب الصحيفة ، ويتسول عنه العقاد أنه ذلك « المحرر المتطوع الدائم » وكان هذا المحرر المتطوع يكاد ينهض بعمل الترجمة الفرنسية وحده ، ويكتب إلى جانبها التعليقات وحواشي الأخبار والتفريقات . .

وكان زملاء « أحمد وجدي » يتطوعون معه بالكتابة والترجمة من حين إلى حين ، ولكنهم أضربوا جميعا بعد الخلاف الذي حدث بين فريد وجدي ومصطفى كامل . .

وكانت هيئة التحرير في الدستور تتكون من صاحب الصحيفة وعباس العقاد كما سبق ، وكانا يعملان في التحرير والترجمة والتصحيح وتهذيب الرسائل والأخبار . . وكان فريد وجدي « قليلا ما يبرح داره » فكان العقاد ينسب عنه في أعمال الصحيفة الخارجية ، ومنها الحصول على الأخبار وعلى الأحاديث وبينهما أول حديث للوزراء المصريين ، كما سيأتي الحديث عنه فيما بعد . .

وبالنسبة للأخبار ، فقد كان لها مكتب بديوان الداخلية في ذلك العهد، ترسل إليه الفشرات من جميع الدواوين ، ومعظمها عن التعيينات والتفقات وصرف الأموال في المشروعات العامة . . ولم تكن هناك « حاجة بالمخبرين إلى استطلاع النيات والتقاط الأسرار » فان السياسة الكبرى كانت في علم النحوب البريطانيين ومستشاره ومفتشيه ، وليس لأحد من الصحفيين صلة بهؤلاء غير أصحاب « المقلم » ، وبعضهم وكلاء الصحف الأوروبية ، وصلاتهم جميعا لا تفيدهم شيئا من أسرار السياسة العليا ، ولا تظلمهم على خبر من أخبار الليزانية قبل أوانه . . « (١) »

والواقع أن جريدة المقلم كانت تحظى بمساعدة الاحتلال التي وصلت إلى حد تزويدها بالأحكام القضائية لتتشرها قبل النطق بها . .

وكانت الصحف الوطنية محرومة من هذه الأخبار ، إلا أنه يجدر أن ننوه هنا بقضية التلغرافيات « التي حوكم فيها الشيخ علي يوسف وكان بذلك أول صحفي يحاكم في قضية صحفية هامة . . ونحوى هذه القضية أن « المؤيد » بالرغم من تضيق الاحتلال على الصحف الوطنية استطاعت أن تنشر البرقيات السرية التي كان اللورد كنشتر قائد الجيش المصري في ذلك الوقت يبعث بها إلى وزير الحربية المصري عن حالة الجيش المصري في

(١) العقاد : حياة تلم ص ٧٠ .

السودان .. وكانت آخرها برقية لكشنر ان الوباء يفتك بالجنود المصريين هناك .. وكان لشمر البرقية دوى كبير ، وحوكم الشيخ على يوسف بسبب هذه القضية وبرى، ومعه « توفيق كبرلس » الموظف الذى اتهم باعطاء المؤيد هذه البرقيات (١) ..

ويبين لنا أنه من هذه القضية أن الخبر البارح ليس كخبر العاجز كما يقول المقاد على قدر سواء، (٢) .. فكان المؤيد يستطيع أن يحصل على خبره بالبرقيات وتنتشره على الرغم من ارتباطها ببعض الأخبار التي يستبعد أن يحصل على أدق الأخبار وأولها في السرية إلا كانت الظروف .. بيد أن الطائفة التي أشار إليها المقاد من المخبرين والتي كانت تتساقط «الإدارة» في تكاليف المهمة وتوهم وكلاء الحسبان فيها أنها تحصل على أخبار النقل والتعيين والامتعات المالية من تقصصات «المسودات» في سلال المكاتب المهمة، هذه الطائفة لا يمكن أن تكون أكثر حسنا من أولئك «الدجالين» بإسم الطرق الصوفية وهو عجز منهم لا تدانيه براعة في المشعوذ ..

ويذكر العقاد لنا أنه كان يذهب إلى مكتب الأخبار بديوان الوزراء فيرى هناك إلى القناصين عشرين أو ثلاثين صحفياً من مندوبي الصحف العربية . . . وليس من هؤلاء جميعاً واحد فرير فيذكر اليوم أو يعرضه السمايون إذا ذكر . . . وقد نجحت اليوم إذا علمنا أن عباس العقاد في تلك المظلمة من غير منصور فضولي يقتطع على الصناعة . . . وقد علمت أدهم تلكم من غير منصور عضدولي المؤيد . . . وعبد المؤمن مندوب الأهرام . . . وسأسي قصيري مندوب الحظ . . . وجورج طوبس مندوب الوطن . . . فإذا هو يشيع العقاد بالاشارة الساخرة وهو يسيب الزمن انتهى فشي عليه بالعمل في الصحافة من اعتاله .

وكان القاعد يتناولون من « الدستور » مرتباً قدره ستة جنيهات، ولم يكن يزيد على مرتبه في الوظيفة الحكومية بأكثر من جنيه واحد. فلم تكن زيادة المرتب إحدى المغريات له على ترك الوظائف الحكومية للاشتغال بالصحافة، لأن المرتبتين متقاربان مع الفارق في المصالحات والترقية ومستقبل الضمان (٣) .

(١) راجع ، الدكتور عبد اللطيف حمزة : أدب المقالة الصحفية في مصر (الجزء الرابع) .

(٢) العقاد : حياة قلم ص ٧٠ .

(٣) العتقاد : حياة قلم ص ٧١ .

والواقع أن العقاد بدأ عمله في الصحافة راغباً فيه مقبلاً عليه بحماس الشباب .. ووجد من اللحظة الأولى أنه يريد أن يفرغ فيه جعبة المعرفة التي حصلها من مطالعته الصحفية ، ومن مطالعته في الكتب وفي الحياة .

ونلقى بنظرة سريعة على عناوين المقالات التي كتبها العقاد في معظم أعداد الدستور فنجد أن « المقالات الأدبية » كانت تحتل المكانة الأولى ثم تليه المقالة على الأجمال في مختلف الشئون ..

فهو يكتب عن المعري « الشاعر الفيلسوف (١) » ثم يتابع الحديث عن « الشاعر الفيلسوف (٢) » أيضاً بعد أسبوع من نشر المقال الأول ، ويكتب عن « ابن الرومي » (٣) بعد عشرين من حديثه عن أبي العلاء .. ويكتب بعنوان « صريح الغواني مسلم بن الوليد الانصاري (٤) » مقالاً يتناول فيه أدب هذا الشاعر وتحليل شعره ..

ولم يكن يمر أسبوع حتى يكتب العقاد « مقالة أدبية » يفرغ فيها جعبة المعرفة التي حصلها من قراءته ، ولكن هذه المعرفة التي تناولت مختلف الشئون كان لها صداها في موضوع المقالات التي كتبها العقاد في مختلف الشئون .. وفي العدد الثاني من الدستور احتل مقاله جزءاً كبيراً من الصفحة الأولى ، عنوان هذا المقال :

« مقارنة بين الاستعمار الإسلامي والاستعمار الأوربي والإنجليزي في مصر » (٥) .

كتب في هذا المقال يقول :

« بين حوادث التاريخ حادثتان متشابهتان شبه التوائم في الملامح والقسمات ولحقا في مصر وأولاهما تكبر الثانية بثلاثة عشر قرناً وهما فتح العرب واحتلال الإنجليز .

« وعن غريب التوافق بين هاتين الحادثتين أن النسبة بين الحاكم والمحكوم والغالب والمغلوب واحدة فيهما فوحدة الدين واختلافه وتبرم الرعية

(١) جريدة الدستور : العدد ١٠ بتاريخ ٢٦ نوفمبر ١٩٠٧ .

(٢) جريدة الدستور : العدد ١٥ - ٢ ديسمبر ١٩٠٧ .

(٣) جريدة الدستور : العدد ١٧ - ٤ ديسمبر ١٩٠٧ .

(٤) جريدة الدستور : العدد ٢٣ - ١١ ديسمبر ١٩٠٧ .

(٥) جريدة الدستور : العدد ٢ - ١٧ نوفمبر ١٩٠٧ .

من الراعي واتفاق الأمراء مع إمامليك كل ذلك كان على كيفية متصارعة في
الفتح والاحتلال » دخل العرب وكان عليها إذ ذلك رجل يوناني النبعة
يدعى يوحنا بن قرقب واشتهر باسم أفوقس ، كان هذا الوالى في طليعه
الساحطين على الروم الذين أكدوا على مصر في ذلك العصر وساموا أهلها
وهم على دينهم سوء العذاب حتى أخرجوهم إلى مخابرة العرب في فتح مصر
وانقادها من عسف شركائهم في العنيدة ووعودهم المساعدة عليهم عند الحاجة
إليها ففتح أفوقس في حصن بابليون بنية تسليمه للعرب عند أول
صحة ٥٥

» وهكذا فعل الإنجليز ، انسحبوا إلى جوف البلاد من ثغر الاسكندرية
بناء على دعوة خديوي مسلم استجار بهم من مسلمين ثائرين جاثرين
فاستتب الأمر وجاسوا خلال الديار ثم مارسوا الشعب فما رضوه ، وساسوه
فلم يرضوه واستعانوا بوسطاء السوء فزادوا الهوة اتساعا ومدوا في حيل
الغواية باعا هذا خلافا لما أدى إليه حكم الأولين فانهم ما احتاجوا يوما
إلى وسيط يبرر عملهم أو إلى سليل يربع الناس بباسهم وشذنتهم بل
ملكوا البلاد وارتبطوا بالظلم واستحوذوا على العقول وبلغ من تعلق
المصريين بهم أن اعتنق غالبهم الدين الاسلامي حيا في القائمين به واعجابا
ببسالتهم وكرم أخلاقهم *

فما الذي ميز (عبئة فطرية ساذجة) على أمة في ابلان صولتها وحين
مدنيتهما . أما المصريون فلم يتغيروا حتى يقال أن مصدر هذا الخلاف منهم
فهم على ما عدهم منيس ، وعرفهم رمسيس ، وخبرهم امنحت ، وراهم
كرومر ، سلبو القلب ، طيبو النخيزة شريفو الاحساس ، وان تغيروا
وضربت عليهم الذلة والمسكنة من تعدد الأحكام وتجدد الحكام كما يزعم
الانجليز كان الشتموازم من الذلة أعجب وعدم رضائهم عن الهانة أبعد
وأغرب فلا بد أن يكون الاختلاف من قبل الحاكمين لا من قبل المحكومين وقد
ساق الينا التاريخ فيما ساق حوادث نستخلص منها أسباب ذلك الوقام
وعذا الشقاق *

فأولئك دخلوا مصر يعمتون إلى أهلها بحيل القرابة وامامهم هذه الوصاة
الجليلة :

– ستفتح لكم مصر فاستوصوا بأئباطها خيرا فان لكم فيهم نمسبا
وصهرا – وبديه أن من يعتقد في انسان أنه نمسيه وصهره تابعى عليه
نفسه اسائه فضلا عن ظلمه ولذلك جروا معهم جرى القريب مع القريب
والنسيب مع النسيب والتفتوا إلى من نخبهم عن سواء السبيل فلم يحتدوا

عليه ولكنهم وضموا في مكان الحقد قول الكتاب العزيز - ولا يجر منكم
شئان قوم ان لا تعملوا اعدوا هو اقرب التقوى - اما هؤلاء فانكروا علينا
ان تجمعنا بهم صلة الانسانية وراونا نائف من معاملتهم فاورثوا حيل العناد
وجاءوا امام العالم باننا ان لم نكنتم انفسنا ونحبس نبض قلوبنا اخذوا
على افواهنا ولم يابهاوا لندائنا مهما اشتد الالم الناشئ عنه هذا النداء ..

اولئك وصلت بهم ساحتهم الى ان يرى اميرهم حمامة برية تبيض
وتقرخ في سرائقه فيتركها لها لكيلا يزعجها على افرائحها .

وهؤلاء يدمرون أبراج الحمام الداجن فيطلقون عليه الخندق والرصاص
ويتلفون المزارع ويجرحون النساء فاذا تنبه اليهم اهل البلد واخذوا يدفعون
عن انفسهم اكبروا منهم دفاعهم عن انفس شروها من خالقها ولم تعد
لأصحابها والحقوم بحمامهم المقتول وزرعهم المذرو في الرياح . اولئك
يفزع ابن اميرهم رجلا من السوق فيؤنبه الخليفة أشد التنقيب ويجبهه
بهذه الكلمة القارصة : بيم استنيدتم الناس وقد ولحتهم امهاتهم أحرارا ..

وهؤلاء يجلد موظفومرجالنا ويعيثون بسرقاتنا فلا ينهرون ولا يزجرون
بل يتأدون الى حيث يسفرون وبزجرون . اولئك يضطرون الى بناء مسجد
تحيي فيه شعائر دينهم وليس من حائل بينهم وبين ما يريدون الا ابناء
عجوز مسيحية لا حول لها ولا قوة فيؤثرون اقامة العدل على بناء المساجد ..

وهؤلاء يأخذون من مال الامة المصرية - وهي في أشد الحاجة الى الدرهم
والدينار - نحو نصف مليون جنيهه ليشيدوا بها ثكنات تؤوى جيش الاحتلال
وهو في غنى عنها بما لديه من المنازل التي لا ينقصها شئ من المتانة
والاستعداد .

ان بعض هذا مما يحفظ القلوب ويوفر الصدور واذا كان المصلحون
يتوقعون غير ما راوا من هذا الشعب فما احطه شعبا لا تنجح فيه الوسائل
ولا ينجح فيه عمل العامل وما أجدرهم بالتحول عنه الى شعب أوفق للاصلاح
منه .

ع . م . العقاد
احد محرري الدستور

وفي العدد الثالث من الدستور يكتب بعنوان :

« الاستقلال سهل المنال » (١)

(١) جريدة « الدستور » العدد ٣ - ١٨ نوفمبر ١٩٠٧ (السنة الأولى) .

وعد احتل هذا المثال جزءا بارزا من الصفحة الاولى . ونفيه يهاجم
 'احتلال ويبرز اتجاهات الرأي العام ويكشف الاسباب الحقيقية التي من
 أجلها يتمسك الاحتلال الإنجليزي بمصر . وفي هذا المثال السياسي يظهر
 اثر ثقافة العقاد الواسعة فيه والليل إلى الاستدلال المنطقي ، وظهور
 شخصيته فيما يكتب ، وهو ما نلمسه كذلك في المقال السابق ومدى تعمقه
 في الفكرة التي يناقشها .

• وهذا هو نص المقال الثاني الذي يتضح منه ميل العقاد الدائم إلى
 'الاستدلال المنطقي في كتاباته :

« ليس بين الأمة وبين الاستقلال إلا خطوة واحدة تخطوها هي
 انتقالها من دور الاستكانة والاذعان للحكم الأجنبي إلى دور الاحساس بأنها
 أهل للاستقلال فإن مجرد احساسها هذا يوقف المتطوع اليها على مقدار
 الحياة فيها ويجهل على أن ينجنيها نفسا شريفة لا تنزل في شيء عن نفوس
 الأمم المستقلة ، والأمة التي تنقض على نفسها بنفسها بأنها غير كفء لهذه
 النعمة هي أمة ميتة ولكن يحل أكلها .

نعم يحل أكلها ويسهل هضمها لأن اعترافها هذا هو اعتراف يقصورها
 وعجزها عن تولي أمورها واجترأ اموالها عليها على الوجه المناسب لها
 وما اسرع الأجنبي إلى أمة هذا شأنها وهو يتحين الفرص لاصطياد الأمم
 الأبية التي لا تسلم في كيانها واستقلالها هذا التسليم فيسعى إليها منتحلا
 اضعف الحجج واهمى الاسباب فيقبض على مواردها ويستأثر بالنفع دونها
 ويتركها تتضور جوعا وأهل تلك الأمة الذين يتظاهرون بالعقل والزرانة
 يصبحون من ورائه : استنفد ما تستنفد من الأموال ، واستبعد من تستبعد
 من الرجال ، فأننا راضون بهذا الحال . لأننا أمة لا تستحق الاستقلال
 هؤلاء يحسبون أن الأجنبي يصفق لهم طربا إذا سمع منهم هذا القول
 وأنه يحفل بأراء من لا يحفلون بالشعور الوطني ويعيدونه خيالات أذهان
 والأعياب صبيان ويهيئ لهم الوهم أنهم بذلك يتسامحون في بعض حقوقهم
 – والتسامح كرم .

• قد يكون ذلك صحيحا إذا كان التسامح من فرد لفرد فيما يزيد عن
 حاجته وبالنسبة للأمم تهاون وضعف ، فإن حق الأمة حق شائع بين أفرادها
 وإذا كان ثمت تسامح فمن الأمة للأمة ولا تكون الأمة في غنى عن شيء من
 خيراتها أبدا باللغة ما بلغت من الغنى ووفرة الخيرات .

• كذلك ليس لأحد مهما كان عالما أو سريا أن يسلم في حقوق امته بالنيابة
 عنها لأنه ليس أكثر من فرد على أي حال .

ميت مصر بالاحتلال ويأثر ما منيت به والى الوجود عليها عسدا
للسؤال :

أمة ضاع استقلالها وانحل كيائها ماذا يكون أمر أبنائها والى ان
غاية تنجهم طلبهم ؟

فاختلفوا في الجواب وما كان منظورا ان يختلفوا في ظمان تعوزه تهرية
ماء ومريض تسمورنه الادواء فتلطف على الشفاء وطريح في غيبابه اجب
يتطلع الى واسع الفضاء وتضاربت آراؤهم فمن قائل نحن نرضى بالاحتلال
مادام القوم لا يتعرضون لنا في مأكولنا ومشروبنا وما دمنا نبيع ونشتري
ونزرع ونحصد بلا رقيب ولا ممانع وسنظل صامتين ساكتين الى ان يقضى
الله امرا كان مفعولا .

ومن قائل يقول اننا لا نفهم معنى لحرية الافراد مع استبعاد الشعب
بابسره الا التغيير بالعمول وما هذه الحرية الا احيولة يقصد بها سسوق
الاصريين الى الاندفاع مع تيار المدنية الفاسدة حتى تطمس بصائرهم وتخفى
حقوقهم في لذاتهم اكثر مما يقصد بها تهيتهم لحكم انفسهم بانفسهم وما
دمنا منتادين للغير في امس ما يتعلق بحياتنا فلن يكون هذا الغير اعرف
مننا بنتائصنا ولن يكون احرص منا على قضاء حاجتنا واسعاد حائنا
وسنعرض شكوانا على الله فلا تفعل عنها عين التي ترأب حركات هذا العالم
وسكنته .

ويأتى بعد هذا وذاك صائح من وراء الأفق فيناديهم على رسلكم ايها
المقتضرون قد توقفت الى ما لم تتوقفوا اليه من كل هذا الجدال واعتديت
بالاختيار الى ما لم تعرفوه بالنظر والاعتبار .

« اخنموا للمحتلين واستخذوا لهم ودعهم يمرروا على رقابكم واستعملوا
هذه الحرية التي وهبوا لكم وسيلة اجاملتهم وستر عيوبهم وانتم ترون
بعد ذلك كيف يبتسم لكم الوزير ويبش في وجوهكم المستشار وما ضركم
لو اصلحتهم الصياح الذي لا يجديكم نفعا واقتديتم بانعامكم وهي تنسرح
وتهرج في ظل حكومة تنمهدما بما يشوى بنيتها ويقوم صحتها وتتكنل
لها بالمرعى الجميم والماء العذب الفرات وهي في ذلك على احسن ما يكون
من النعيم والسعادة لا تبالى ما قدم لها العالف مصرى او انجليزى » .

« عذا ما انتهى اليه الخلاف بين المتنازعين في قضية مصر بحق او بغير
حق . والذي لا ريب فيه ان الفريق الاول يظهر غير ما يظن سعيها وراء ما ريب

معلوم أنه وإن الثالوث ماجور لا يهيمه من مصر إلا منزل يأيويه ومليس يكسوه ولقمة تقيته اذ ليس في العالم قوة تجيد بالإنسان عن هذا الشعور القدس إلا قوة المال وناهيك به من قوة تؤثر على ذوى النفوس لصغيرة والضمائر للينة . .

• أما الثاني فهو يترجم عن الشعور العام نفلا عن الصورة المطبوعة في مؤاده ذلك الشعور الذى لا تصوره كلفة ولا يدخله رياء ولا يجوز أن يقاوم لأنه بمثابة وحى الهى لابن آدم يلهمه بأنه حر كالمسيطين عليه ومعنى إراد الله الأمة بأن تستقل أحياء في نفوس أبنائها هذا الشعور فاندفعت في سبيله إلى مريض الاستقلال ومحط الآمال .

• « هذه إنجلترا ترى المانيا تعبىء الجيوش وتبنى البوارج وهى حرة نبيما تفعل غيسوءما ذلك منها ويشدد الخلاف بينهما إلى حد لا تؤثر فيه زيارات الملوك وتودد الوزراء - لا لشيء افتقرته المانيا ضد استقلالها بل لتوقعها ذلك منها بعد قرن أو قرون ، هذا الشعور نفسه الذى يقيم الانجليز ويتقدمهم على كل من يتعرض لاستقلالهم ولو في الخيال هو الذى يتجسم في نفوس المصريين فيجزئهم انهم يموتون في كنف دولة أجنبية ثم يذبحون فلا يذوقون طعم الاستقلال في ونهم والانجليز ينقسمون على هذا الشعور لانهم يريدون تنقية الأمة من الزعانف والاشوك التى تنقف في حلقهم وتحول دون ازدهانها .

• دخل علينا القوم من باب وصعدوا آذاننا بالنتائج والاسباب . . . قالوا نحن مصلحون نلم نصدتهم لاننا رايناهم لا يحفلون بضيقنا بل هم يتناعون الغلال من الخارج أيام كانت محاصيل مصر مطروحة على الأرض لا تجد من يشتريها ، ويقتلون معاهد التعليم في وجوه الفقراء (اصحاب الجلابيب الزرقاء) وإذا ناداهم مثالم عاندوه وشاكسوه وما سمعنا من قبل أن طبيباً حقد على مريضه لأنه يفرغه بتوجهه وتأومه ، وإن أمة هذا مبلغ اعتبارها للحق واقبالها عليه هي أمة أحوج للإصلاح من كل أمة غيرها .

* * *

• « ووخز الحق بعضهم فجاءوا بأنهم انما يحتلون مصر لحفظ طريق الهند التى يخافون عليها من عدوان الروسيا ولكنهم ان وجدوا ما يقولونه اصر فلان وجدوا ما يقولونه للهند ، وقد تنبهت في هذه الأيام وعلا صوتها يطلب الاستقلال فخرجت من كونها صيدا يخاف عليه أسد من دب ، وظهرت لكل من يراها شبيلا يشدد ليسترد عرينه .

وعب قولهم صحيحاً فهل قضى على مصر أن تظل مستعمدة حتى تتحول إلى بلد عن موضعها الجغرافي فتكون بعيدة عن مقناول أعداء الانجليز ! ..
وعلى اتيسح لانجلترا ان تنصب من الامم شركا لايقاع الامم ويعتبر
تضاؤلا هذا كالتضاء البرم ! ..

- لنتذكر اولئك يختلفون في النتائج ومؤلا. يختلفون في الاسباب ولنبرهن
لجميع انفسا شعب حى لا ينسام حتى يشعر بالشعوب متيقظة حوله وان
قال قائل ان ساليكم شوى بجنوده وحصونه واساطيله اجبناه ان القوة
أخط ما يتدرج به الانسان وانه لم يقض على الضعيف بالحرمان من حقه
والامم التى كانت عالمه ملأى الشعور كانت كالألآنية المأى بالهوا، تقاسوم
ضغط الجو باجمعه .

« ع . م . العقاد »

وتتأبعت المقالات التى كتبها العقاد فى الدستور ، وعى من حيث
الموضوع كما سبق القول لم تتناول غير القليل من موضوعات النقد الاجتماعى
او موضوعات المقالة الوصفية والمقالة العاطفية . ولعل تحليل ذلك ان العقاد
كان مع اشتغاله بالكتابة مشغولا بنظم الشعر فى موضوعاته ، وهو اولى
بالوصف العاطفى من المقالات (١) .

- وقد ألفى العقاد الصحافة المصرية قائمة على فن المقالة منذ انشائها
تبل الثورة العربية ، وكانت « الجريدة » قد سبقت « الدستور » فى تاريخ
الصحور ، وكان من كتابها المتقدمين « محمد السباعى » تلميذ « لى هنت »
الرائد الانجليزى فى فن المقالة على أسلوب المقالة الانجليزية فكان رائد هذا
الفن فى تحرير الصحف غير مدافع ، وكان له فيه ابداع يعرفه كتابه الذى
سماه « بالصور » وأراد أن يعارض به مقالاته الترسيم والتخطيط المعروفة
باسم « الاسكتش » فى ادب الغرب الحديث ، ومن ثم فان العقاد لم يحاول
فى كتابته مقالاته جديدا غير تقريب الموضوعات من الدراسة النقدية .

وكان ادب المقالة فى تلك الأونة يستوعب مطالعته الحديثة او يكاد ..
ذا أنه كان يدمن القراءة فى كارفيل . وهو من مدرسة ماكولى ومدرسة هازلت
ولى هنت وزميله ارنولد وغيرهم من أئمة فن المقالة فى القرن التاسع
عشر .. وكان بعض هذه المقالات مما ينشر فى المجالات الضافية ، ولا ينشر
فى الصحف اليومية ، لأنها قد تمتد حتى تبلغ فى المجلة ثلاثين أو أربعين
صفحة ، وبعضها مما يصلح للنشر فى الصحافة الاسبوعية كما يصلح للنشر

(١) آخر ساعة للعدد الصادر يوم ١٨/٩/١٩٥٧ .

الصحافة اليومية ، ومن هذه المقالات كان العقاد يترجم ما يصلح للنشر ويكتب في التراجم (١) ومسائل النقد والتعليق .

ويمكن القول ان « المقالة الأدبية » كانت تحتل المرتبة الأولى في كتابات العقاد في المستور ثم تليها المقالة على الأجمال في مختلف الشئون . وذلك من حيث الموضوع بيد أننا نستطيع ان نقول ان مقالات العقاد التي تناولت الشئون المختلفة واتسمت بالطابع السياسي ، أقرب الى « المقال الافتتاحي » في أدب المقالة الصحفية .

ذلك ان المقال الافتتاحي هو المقال الرئيسي في الصحيفة ، وله من خاص به من حيث الصياغة : وأساس هذا الفن هو الشرح والتفسير ، والاعتماد على الحجج المنطقية حيناً ، والعاطفية حيناً آخر للوصول الى غاية واحدة فقط ، هي إقناع القارئ (٢) .

ويعتمد نجاح المقال الافتتاحي الى حد كبير على اختيار الموضوع ، ويساعد الكاتب على ذلك ان يضع نفسه مكان القارئ ليحس باحساسه ويشعر بجأجه النفسية .

معنى ذلك ان المقال الافتتاحي ليس الغرض الأول من أغراضه الاعلام ، ولا ينبغي له ان يهدف الى السبق الصحفي من هذه الناحية ، انما الغرض الأصلي للمقال الافتتاحي هو الرأي . وكثيراً ما يكون هذا الرأي تطبيقاً على أحداث الأخبار او الحوادث الجارية . ومن ثم نرى كاتب هذه المادة الصحفية سريعاً في تفكيره ، سريعاً في تعبيره عن رأي الصحيفة في هذا الحدث او ذلك ، ولذا وجب عليه دائماً ان يكون واسع الاطلاع قادراً على ربط الحاضر بالماضي ، متصلاً على الدوام بشئتي الصحف التي تصدر في بلده وفي خارج بلده ، حتى يقف على أفكار هذه الصحف والدوريات كما يقف الناقد على أحدث الآراء في النقد (٣) .

وقد حفلت مقالات العقاد في هذه الفترة بهذه الخصائص مجتمعة في وقت كانت المقالة الافتتاحية تحتل الصفحة الأولى . وكانت المقالة الرئيسية

(١) كتب العقاد ست مقالات في المستور تحت عنوان « فارس شعرها أو شعراؤها » .

(٢) الدكتور عبد الطيف - مروة : المدخل في فن التحرير الصحفي ص ٢١٨ .

(٣) المرجع السابق .

في هذه الفترة طويلة مسرفة في الطول ، حتى لقد بلغت في بعض الأحيان نحواً من أربعة آلاف كلمة (١) . وكثيراً ما كانت تذيل بتوقيع الكاتب .

وكان العقاد يوقع مقالاته في « الدستور » على الطريقة التي كان يوقع بها كتاب المجلات الأجنبية ، وكان توقيعهم بالقلب والحرفين الأولين من الاسمين : « ع . م . العقاد » ومثل هذا التوقيع كان مثاراً لالسنة الزملاء الهازلين في بلد « التفش » والثقافية . . . فسرعان ما ظهر له مقالان أو ثلاثة حتى دفعوا الحرفين في اسم واحد ، وراحوا يتحدثون عن مقالاته « عم العقاد » ! « وماذا قال عمك ؟ » . . . وماذا تقول يا عم ؟ . . . واكتب لنا يا عمننا بما تراه . . . ونس على ذلك بقية الثقافية في مختلف الأوضاع والنداءات . . .

ويأبى العناد أن يرجع العقاد عن « عم العقاد » . . . أو لعله لم يكن عناداً محضاً ولا صبراً على السخرية بغير مبالاة ، فليس من الكسب الرخيص للكاتب الثاني أن يذكر وأن يكون في توقيعهم اغراء بذكره . . . وإما السخرية فهي شهرة نابية في جميع الاسماع ولكنها تهون اذا أصابت الفضائل النابهين كما تصيب الفاشقين المبتدئين . . .

وهكذا مضى « عم العقاد » يكتب بهذا التوقيع من العدد الاول الى العدد الأخير (٢) ! . . . وقد كان هذا التوقيع اثراً من آثار مطالعات العقاد في الصحف الأجنبية ، م ن حيث الشكل والجوهر . . .

وقد تميزت مقالات العقاد بأهم خصيصة للمقال الافتتاحي أو الرئيسي وهي خصيصة الانتفاع عن طريق الشواهد والأمثلة المشتقة من الأحداث التي جرت في الماضي ، والتجارب الإنسانية التي اختزنها العقاد في ذاكرته إما بطريق الممارسة ، وإما بطريق الاطلاع . . . ولهذه الشواهد حيز كبير من المقال الافتتاحي بصفة عامة ، وهو مجال واسع يتنارى فيه كتاب الصحف ، ويظهر فيه علمهم واطلاعهم ، ووقوفهم على التاريخ العام والتاريخ الخاص ، وقد برزت هذه الشواهد في مقالات العقاد مبرزة حصيلة اطلاعه في الحياة وفي التاريخ .

(١) أنظر مقالاً للسيد على يوسف بعنوان (حفلة الوداع) . وخطبته للورد كرومر .

(جريدة المؤيد - العدد ١٥٧ بتاريخ ٧ مايو سنة ١٩٠٧) - راجع : المخل في : التحرير الصحفي ص ٢٣٠ .

(٢) العقاد : حياة قلم ص ٩٢ .

وفي المثال الأول الذي أوردها يقارن العقاد بين الفتح الإسلامي والاستعمار الأوربي والانجليز في مصر ، ويعتمد على إيراد الشواهد المستقاة من التاريخ القديم والحديث على السواء ، بل أنه يقارن هذه الشواهد بالشواهد فيكون الاقتناع بالنتيجة دون الإفصاح بها . وفي المثال الثاني الذي أوردها كذلك وهو بعنوان (الاستقلال سهل المثال) يتضح اعتماد العقاد على هذه الشواهد والأمثلة المشتقة من الأحداث في الماضي والحاضر ، شأنه شأن كتاب المقالة الافتتاحية في الصحافة الانجليزية آنذاك كما تعلم منهم .

ومن مقالات العقاد في صحيفة الدستور يمكننا ان نلمس فيه الصفات التي يتطلبها علماء الصحافة في كتاب المقال الافتتاحي (١) :

أولا - يمكن القول ان العقاد كان يتمتع بحاسة صحفية دقيقة يخفق بها الأحداث الجارية في محيطه ، والأحداث الجارية خارج هذا المحيط .

والدارس للعصر الذي نشأ فيه العقاد يرى أنه كان عصرًا مزيجًا مضطربًا بين عصريين ذهب أحدهما ولم يخلفه العصر القادم على رأي واضح مقوم بين كل فئة من الناشئين وما يوافقها وتوافقها من التفكير الحديث .

ويصف العقاد هذا العصر بأنه كان « برج بابل » يبنى ويعاد بناؤه بين عام وعام ، فلم تمتحن فيه العقول بعد بمحنة المحن في العصر الحديث. محنة تكوين الرأي جماعات وجماعات فلا ينطوى الشاب في جماعة صاخبة حتى يحرم القدرة على نقدها ونقد سواها فهو من جماعته ينطوى فيها يتقبل خطأها كما يتقبل صوابها ، وهو مع الجماعات الأخرى يرفض صوابها كما يرفض خطأها ، وأنه لخاسر مضلل في كلتا الحالتين (١) .

ذلك ان الجامعة الإسلامية - كما يقول العقاد في وصفه لهذه الفترة - كانت على مذاهب . والجهاد الوطني على مذاهب ، والتجديد الفكري على مذاهب ، ولا نرى امامنا مذهبًا واحدًا في قضية من قضايانا الكبرى وكلها مشكلات .

فالجامعة الإسلامية مدرستان : مدرسة جمال الدين ومدرسة الدعاة الرسميين : مدرسة جمال الدين تمنى بالجامعة الإسلامية أن تكون جامعة

(١) راجع المداخل في فن التحرير الصحفي ص ٢٢٤ .

(٢) راجع آخر ساعة يوم ٢١ من أغسطس - العدد ١١٩١ .

شعوب متيقظة مسئولة عن شئونها مرعية الحقوق مع ملوكها وإمرائها .
فضلا عن حقوقها مع الطامعين المتربصين بها . ومدرسة الدعاة الرسميين
تعمل للملوك والأمراء وتزويد من الجامعة الإسلامية أن تكون وحدة سياسية
بزعامه هذا الخليفة أو ذك من ملوك المسلمين وأعلام صوتا في مصر من
كان يعمل لخليفة بني عثمان (١) . .

ومدرسة الجهاد الوطني على هذه الحال :

مذهب يعتمد على مناورات الدول وحقوق السياسة الشرعية . ومذهب
يستضعف هذا الرأي ، ويحسب العمل فيه من ضياع الوقت على غير جدوى ،
وبخاصة في أمر التعديل على السيادة العثمانية . لأن حقوق هذه السيادة
لم تكن عصمة للمعتمد عليها ، بل كان مجرد الانتماء إلى الرجل المريض
صاحب التركة المنتظرة . كما كانت الدولة العثمانية تسمى في ذلك الحين -
ذريعة إلى ضياع البلاد في معركة النزاع على التركة أو في مساومات التتسيم
والتفريق (٢) .

نقول أن العقاد حين اشتغاله « باندسنور » وعمله بها كان قد وصل
إلى قرار واضح من هذه القضايا ، وهو تأكيد للحاسة الصحفية الدقيقة
التي ساعدته كل المساعدة في الوصول إلى كل شرار اتخذته من هذه القضايا .

وهذا القرار الواضح يتمثل - كما يقول العقاد - « في أن الجامعة
الإسلامية عنده هي جامعة جمال الدين ، أو جامعة شعوب متيقظة متعاونة
لا جامعة ملوك وعروش تساق لخدمة هذا الخليفة أو تخليف ذلك السلطان .

« الدولة التركية نتمنى بقاءها وصلاحها ، وكذا لا نتمنى سيادتها ولا
نستمتع أن يحاربها باسم الشورى أو النعمة على الاستبداد » .

« الدول الأجنبية لا تنفعنا أن لم ننفذ أنفسنا ، وسياسة « مصر
للمصريين » هي أقوم سياسة يتبعها المصريون ويهتدون بهديها فيما لهم
من حق وعليهم من واجب . . الحزب الوطني حزب مخلص مجتهد ، ولكنه
مفرط في تعامله « بلذ » و « عابدين » ، مقتصر في مساعيه نحو « مصر
للمصريين » (٣) .

(١) المرجع السابق .

(٢) نفس المرجع .

(٣) راجع حياة قلم ص ٤٦ (العقاد) .

ومنذ كتب العقاد في صحيفة الدستور لم تخرج كتابته عن هذا النطاق في قضية من هذه القضايا ٠٠ إذ أنه لم يمدح الخليفة ، عبد الحميد ، إلا في مناسبة واحدة وهي إعلان الدستور ، ويومئذ كتب أبياتاً يهنئ بها ويسجل تاريخ السنة بحساب الحروف الأبجدية فكان التاريخ هذه الشطرة: (قد أنشأ الدستور عبد الحميد) ٠ ومجموع حروفها بحساب الجمل (١٣٢٦) وهي السنة الهجرية التي أعلن فيها الدستور ، ولما توفي مصطفى كامل شيعته صحيفة الدستور - وهي صحيفة من صحف الحزب الوطني - برثاء أبليغ من رثاء صحيفة اللواء ، ولكن العقاد أحجم عن رثائه برثاء خلو من النقد وأحجم في ذلك القسام من نقد سياسته قبل الاستانة وقبل الخديو وقبل السيادة العثمانية ، ويذكر العقاد أنه كاشف الاستاذ فريد وجدي بجرجه وحرجه صحيفته وهي لسان الجامعة الإسلامية الأولى ولسان الحزب الوطني الثاني بعد اللواء ، فقال له رحمه الله انه يفهم هذا الحرج وانه يقوم عنه بما يتحاشاه ، أثر العقاد الصمت على الرثاء على ثناء بغير نقد ، بو نقد محتفظ ، متحرج ، بين مضطرب الأراء (١) ٠٠

وإذا كان علماء الصحافة يتطلعون في المقال الانتقاضي خصيصا للثبات على سياسة واحدة هي سياسة الصحيفة ، فإن سياسة صحيفة الدستور عندما كانت تصطبغ مع برنامج العقاد السياسي الصحفي في مشكلات هذه الحقبة وأزماتها جميعا ، لم يكن العقاد يعيا بما يصيبه من جراء تنفيذ هذا البرنامج السياسي في مشكلات هذه الحقبة وازماتها جميعا ، على الرغم من أنه لم يتعد العشرين من عمره بعد ، ومع ذلك استطاع ان يسلك سبيله بين تلك التناقض والشبهات دون ان يروض نفسه على استقامة القصد الى الحقيقة واستقلال الرأي بين شتى الدوافع والمغريات مستفيدا من ظروف الآونة التي نشأ فيها وظروف البلد الذي نشأ فيه (٢) ٠

ثانيا - يمكن القول ان العقاد كان يتمتع بحماسة تاريخية كذلك استطاع عن طريقها ربط الحاضر بالماضي وبها يستطيع الصحفي - كما نعلم أن يتمكن بالمستقبل ، وليس يخفى ان التاريخ عنصر هام من عناصر ثقافة الصحفي (٣) ٠

(١) راجع حياة تلم ص ٤٨ (العقاد) ٠

(٢) المرجع لسابق ص ٤٨ ٠

(٣) راجع المدخل في فن التحرير الصحفي ص ٢٢٥ ٠

وفي المقابلين اللذين اوردناهما يمكن ان يلوح القارىء اثر هذه الحاسة في كتابات العقاد الاولى ففي المقال الاول يقارن بين الفتح الاسلامي والاستعمار الاوربي والانجليزى في مصر مقارنة تعتمد على التاريخ اعتمادا يكاد يكون كليسا ، لكن هذا الاعتماد على التاريخ يقوم على فهم روح التاريخ الفهم الذى ساعده على ربط تاريخ قديم بتاريخ حديث استطاع من خلاله الافصاح عن مساوىء الاستعمار البريطانى لمصر وكشف نواياه السيئة التى يخفيها وراء ستر كثيفة من التضليل وقلب الحقائق .

ويمكننا ان نلمس هذه الحاسة التاريخية في معظم مقالات العقاد الاولى وهي خصيصا لازمت كتاباته من بعد ، من هذه المقالات « المدنية (١) الحاضرة » و « هل تبطل الحرب (٢) » و « مصرى اذا تعلم (٣) » ، و « الاستعمار » سياسة الاستعمار أشهر من أن تذكر (٤) ، و « الاعتصاب - هو اثر من آثار المدنية الحاضرة (٥) » و « تفاضل الانفراد ، وتأثير ذلك في الحكومات (٦) » وغير ذلك كمن مقالاته في هذه الفترة .

هذه الحاسة التاريخية ساعدت العقاد على أن يفكر في الحكم وأشكاله في مصر والشرق العربى ، إذ يرى العقاد أن شكل الحكومة لم يكتسب شيئا من تعديلاته وأدواره في الشرق كله ، لا قديما كما كان يقع مرارا في روما واليونان ، ولا حديثا كما وقع في فرنسا وإنجلترا من التجارب المتتالية وراء تكوين الحكومة الصالحة ذلك على الرغم من أن الارتباك والضغط اللذين كانا يثير لهما إلى قلب الحكومات قد نزل أضماؤه بالشرقيين (٧) ولكن مع هذا الفرى اليسير . وربما كان الجمود على شكل واحد من أشكاله ناشئا من انطباع الشرقيين على قلة الاهتمام بالعموميات لتمهيد الوسائل الخصوصية ، فإذا استولى أحدهم على الملك استقر له الأمر وانقاد له الجميع ، وكثيرا ما يتفق أن خادما من خدم البلاط يبسط نفوذه في المملكة فيغضب الملك لنفسه ، ويبقى الحاكم المتصرف إلى أن يزحذه عن مكانه مفتصب آخر يأنس من نفسه الصولة والنفوذ ، والناس بمعزل عن هذه الانقلابات يسلمون بها ولا يشتركون فيها (٨) .

(١) جريدة الدستور (العدد ٨ - ٢٤ نوفمبر ١٩٠٧) .

(٢) » » (العدد ٩ - ٢٥ نوفمبر ١٩٠٧) .

(٣) » » (العدد ١٣ - ٢٧ نوفمبر ١٩٠٧) .

(٤) » » (العدد ١٣ - ٣٠ نوفمبر ١٩٠٧) .

(٥) » » (العدد ١٤ - ١ نوفمبر ١٩٠٧) .

(٦) » » (العدد ١٦ - ٢٠ نوفمبر ١٩٠٧) .

(٧)، (٨) راجع خلاصة اليومية للعقاد ص ٦١٥ - ومن المعروف أن هذا الكتاب أول كتاب أخرجه العقاد في الفترة التى تعرض لها .

ومن استلهاهم الحاسة للتاريخية خلص العقاد الى أن حكومة الشرق لا تتركز على الشعب فلا تتحول باختلاف مصالحه ، ولا الشعب يعتمد على اختلاف ميقاتها فقد انشأت نفسها بقوة مشاعرها ولم ينشئها الشعب كما هو شأن الحكومات في الغرب ، وقد شددت أزمها في كثير من المواقف بالسلطة الدينية التي رأت من مصلحتها أن تتبادل وإياها المعاصرة والتناصر فجهدت جمود عقائد الأديان في وهم الإنسان (١) .

واستلهاهم التاريخ ساعد العقاد في تطليل انزعال المصريين عن ميدان السياسة آنذاك بأن المصرى منهم لا يربطه بالمجتمع أو يربطه بالامسة والحياة القومية للنظام السياسى أو المراسيم الحكومية قدر ما يربطه بذلك المجتمع انتظام الماديات والملاقات منذ أجيال مديدة على نظام الأسر والبيوت ، فلم تكن الحكومة في تلك الأزمان الطويلة لتمدج بنفسه قط امتزاج الألفة والطوعية والمعاملة المشكورة . بل ربما كان صدوده عن الحكومة مما ضاعف اعتماده على الأسرة وحصر عواطفه الانسانية في علاقاته البيئية ، لأنها ملجأ خفيض ومهرب أمين من القسوة والظالم (٢) .

ولم يفهم من هذا - كما يقول العقاد - أن المصرى ضعيف الاعتماد بالسياسة أو أنه ينصرف عن تتبعها واستطلاع أخبارها وما جرياتها . أو أنه قليل البصر بمدخلها ومخارجها . فان الواقع قد كان على خلاف ذلك بل على نقيضه في عصور كثيرة ، والمشهور عن المصريين أنهم من أشد الأمم شغفا بأحداث الدول وعناية بالاستطلاع أحوال الحكومات ، وقد يسرى بينهم شعور ملهم بخائيل الأغراض الخفية واتجاه الخير واتجاه الشر في الخصومات السياسية لما تعاقب عليهم من التجارب وقوالى على اسماعهم من أحداث الصاعدين والهابطين والمقبلين والهابسين ، فإذا قيل أنهم اجتماعيون من قبل الأسرة وليسوا اجتماعيين من قبل الحكومة فليس معنى ذلك أنهم لا يشتغلون بالسياسة ولا يابهون لحديثها ، وإنما معناه أن اشتغالهم بها في العصور القديمة لم يكن يتعدى جانب التحرر والاستطلاع الى جانب الخلق والتكوين (٣) .

ومن هنا يحدد العقاد الباعث على انقياد المصرى للسياسة إذ يتمثل في أنه ينقاد لأن الطاعة أشبه بنظام الأسرة من جهة ، ولأن أزمة الركود الطويلة من جهة أخرى ليس من شأنها أن تبعث روح الابتداء والاقتحام ،

(١) راجع العقاد / سعد زغلول سيرة وتحية ص ٢٥ - ٢٧ .

(٢)،(٣) راجع العقاد : سعد زغلول ص ٢٥ - ٢٧ .

فالببناء في الصفوف ليس عنده من اعتساف الطريق ، وهو حتى في ثورته يريد أن يرى الصفوف حوله ولا يريد أن يعتسف الطريق وحده ، وظلما غلبت فيه نزعة الابتداء والالتحام بقلمة الحرية والاستقلال . قلت فيه عادة الانقياد الاجتماعي أو قل النفور من المخاطرة والانفراد (١) .

وقد اكتسب العقاد من حاسته التاريخية ما يمكن أن يسمى « عاطفة الانصاف » ، يقول العقاد عن نفسه : « ولست أجد في نفسي باعثا قويا للكتابة عن المظالم الذين اتفقت لهم الفرصة والمظلمة معا . فاستحقوا المجد الذي نالوه » .

ولكن يمشي من المبالغة الماطفية ، أو مبالغة الظروف ، ومناسبات الأحداث ، ولهذا أفضل للكتابة عن عبقرية خالد على الكتابة عن عبقرية صلاح الدين ، لأن أنصاف صلاح الدين لا يحتاج إلى مزيد » .

ويقول العقاد : « .. لم أشعر بتعظيم إنسان لأنه صاحب مال ، ولم أشعر قط بصغرى إلى جانب كبير من الكبراء جاما أو ثراء » . بل شعرت كثيرا بصغرهم ، ولو كانوا بأصحاب الفتوحات » .

« وأنا اعتقد أن نابليون مهرج إلى جانب العالم باستور ، والإسكندر المقدوني بهلوان إلى جانب أرشميدس ، وأن البطل الذي يخوض الحرب ليقال إنه دوح الأمم وفتح البلدان بهلوان » .

ثالثا - استطاع العقاد من سن مبكرة أن يحصل ثقافة عريضة ، كانت تيجو في بعض مواضعها عميقة ، ومما لا شك فيه أن هذه الثقافة - التي يعتبر التاريخ جزءا واحدا منها - تمكن الصحفي البارع أن يقف على المعلومات التي تمكنه من الحكم الصائب والنظر الصادق ، والتوجيه السليم .

وفي المقالات الخمس التي كتبها متتابعة عن « الحكم العرفي .. حكومة السودان » (٢) وكذلك مقال « قوة البرلمان (٣) » يظهر أثر الثقافة الشاملة في تناوله لجوانب الموضوع وفي منطقية الأسلوب التي تجعل لكلامه قيمة ترقنح بكثير عن القيمة الانشائية التي لا تتطلبها هذه المرحلة .

(١) نشرت هذه المقالات في « الدستور » من عدد ١٨ ديسمبر ١٩٠٧ حتى عدد ٢٥ ديسمبر من نفس السنة .

(٢) جريدة « الدستور » العدد ٢٨ يوم ١٧ ديسمبر ١٩٠٧ .

(٣) راجع الدكتور عبد اللطيف حمزة : الدخول في فن التحرير ص ٢٢٦ وما بعدها .

وصفوة القول ان هذه الخصائص التي توفرت لدى عباس العقاد ككاتب مقال افتتاحي في أول عمل صحفي له ، تجعلنا نقول أنه كان كاتباً ممتازاً في هذا اللون من ألوان التحرير ، إذا علمنا أن هذه الخصائص هي الخصائص المثالية التي ينبغي توفرها في كاتب المقال الافتتاحي .

وإذا كان علماء الصحافة يرون أن كاتب المقال الافتتاحي يجب أن يراعى تماماً مصلحة الصحيفة التي يكتب فيها . فإذا أنس من نفسه أنه عاجز عن مراعاة هذه السياسة ، أو حدث أن تمارض ضميره مع مصلحة الصحيفة ، فخير له أن يستقيل فوراً من عمله الصحفي بوصفه كاتباً للمقال الرئيسي . وهذا معنى قولهم : أنه ينبغي لهذا الكاتب أن يتصور الدوائر الثلاث في ذهنه دائماً ، وهي : دائرة السياسة العامة للجريدة ، والدائرة العامة لكتابة المقال الافتتاحي ، ودائرة اهتمام القراء (١) .

فاننا نجد أن فريد وجدي صاحب « الدستور » كان شديد الإيمان على منهج قريب من مناهج الرسميين ، وكان متشبهاً بدعوته التي تمثل سياسة الصحيفة إلا أن عباس العقاد كان يخالفه فيها ويرى أنها تعمل لنفسها ويعمل لها الزمن أضغاث ما يعمل المتقطعون لها من دعائها المخلصين وغير المخلصين على السواء .

ولم يحاول فريد وجدي قط أن يفرض على العقاد رأياً في قضية من قضاياها بغير الاقتناع أو السكوت (٢) .

وعلى الرغم من أن العقاد كان موضع تقدير فريد وجدي ، إلا أنه ترك الصحيفة نظراً لأنه أراد أن يرثي مصطفى كامل بعد وفاته رثاء لا يخلو من النقد لسياسته تجاه الآستانه وتجاه الخديو وقيل السيادة العثمانية ، وكاشف العقاد فريد وجدي بحرجه وخرج صحيفته وهي لسان الجامعة الإسلامية الأولى ولسان الحزب الوطني الثاني بعد اللواء ، فقال له فريد وجدي أنه يفهم هذا الحرج وأنه يقوم عنه بما يتحاشاه فأثر الصمت عن الرثاء بغير نقد أو نقد متحفظ ، متحرج بين مضطرب الآراء (٣) .

ومما حدثت للتظمية الموقوتة بين العقاد و « الدستور » ، التي استمرت بضعة أشهر لا يكتب فيها ولا يكتب إليها ، ولكنه كتب إليها مقاله الوحيد

(١) راجع الدكتور عبد اللطيف حمزة : الدخول في فن التحرير ص ٢٢٦ وما بعدها .

(٢) آخر ساعة العدد الصادر يوم ٤ سبتمبر سنة ١٩٥٧ .

(٣) العقاد : حياة قلم ص ٤٦ - ٤٧ .

من الخارج يوم اعلن الدستور في إيران ، وتقال فيه مهنقا للشاه الصغير ، لو كنت في فرنسا لكان مصيرك كمصير الصبي ابن لويس السادس عشر ، ولكنك تحمد الله لانك في بلد سلامي وتحمد لشعبك - ولا ريب - جميل هذا الصنيع .

ولكن العقاد عاد بعد ذلك الى العمل في « الدستور » واستمر حتى آخر عدد صدر من الدستور ، وفي هذه الاثناء كانت مخالفه للعقاد لفريد وجدي اكثر من موافقته له في القضايا الفكرية والسياسية ، ومع ذلك فان فريد وجدي لم يغير كلمة واحدة كتبها العقاد لمخالفته لرايه ولو كان الخلاف على مسألة من مسائل الأصول (١) .

واشهر ما كان من ذلك حول موقف الحزب الوطني من سعد زغلول ، فلم يمنع ذلك العقاد ان ينشر في الدستور ما يخالف هذا الموقف ، وان يحدث سعد زغلول حديثا ينفي كل ما يعزوه اليه كتاب اللواء . . .

وعلى الرغم من أن فريد وجدي كان يتيح للعقاد فرصة التعبير عن رايه مهما كان مخالفا لرايه ، الا أن العقاد تميز بحرصه على سياسة الصحيفة ، ومن مواقفه التي تستحق التسجيل أنه - كتب مقالا مطولا استغرق الصفحة الاولى من صحيفة « الاخبار » التي كان يصدرها الشيخ يوسف الخازن ويجررها توفيق حبيب . ونحو هذا المقال ان الملوك لا يحتاجون الى القسم لانهم يثبتون نياتهم بالأعمال لا بالأقوال .

وتتضح أهمية هذا المقال اذا علمنا ان سياسة الوفاق يومئذ كانت في عنفوانها وكان مدار هذه السياسة على التعاون بين السلطة الفعلية سلطة الاحتلال وبين السلطة التشريعية سلطة الأمير . . . وقامت السياسة فعلا - بعد عزل للورد كرومر - على اطلاق يد الخديو في مسائل الحكم التي تمنيه ، ومنها مسألة الأزهر والوقفات ومسألة الرتب والنياشين .

وفي هذه الفترة تنمر الخديو للحركة الوطنية ، ودار ظهره لطلاب الدستور ، وعمل جهده على استئصال نهضة الاصلاح في الأزهر بعد وفاة الأستاذ الامام وأعلن عداؤه لمدرسة القضاء الشرعي وكاد يقضى عليها . . .

وشارت الثائرة على الخديو من داخل الأزهر وخارجه ، فتكلم مرة عن نهضة الاصلاح الأزهرى وأنضم أنه يغار على الاصلاح غيرة اصديق من دعوى الدعين للغيرة عليه . . .

(١) رجال عرفتهم : ص ١٥٧ ومابعدها - المرجع السابق كذلك ص ٦٥ - ٦٦ .

وكان مقال العقاد ردا جريئا على هذا السلوك الخديوى « ان الملوك لا يحتاجون الى القسم لأنهم يثبتون نياتهم بالأعمال لا بالأقوال ! » *

وكان في وسع العقاد ان يكتب هذا المقال في صحيفة الدستور بدلا من « الأخبار » لكن مراعاة العقاد لسياسة صحيفته جعلته لا يجرعها في مسألة ترتبط بالأزهر والاصلاح الدينى . وقد كانت لصاحبها في العالم الاسلامى مكانة تشبه مكانة الاقطاب الدينيين (١) *

ولما ظهر المقال في صحيفة الاخبار يتوقع (ع . الاسوانى) تلقت له الحاشية الخديوية ، وظنوا أنه من ابناء بعض المشايخ الأزهريين .. فأكبروا هذا « التمرد » من معقل الخديو الأمين في أيامه ، فاستدعت النيابة صاحب الاخبار وسألته عن اسم صاحب المقال ، فأذن العقاد له ان يطلعهم عليه ، ولعلمهم اطمأنوا الى هذه النتيجة بعد ان علموا ببراعة المشايخ من الشبهة ، فانطوت المسألة ووقفت عند هذا الحد ، اشفافا من آثارة القضية الأزهرية في اطوار التحقيق والحاكمة والدفاع وتعليقات الصحف وأحاديث المتحدثين (٢) *

خلاصة القول ان عباس العقاد بدأ حياته الصحفية كاتب مقال افتتاحى من الطراز الأول متمتعا بخصائص كاتب المقال الافتتاحى جملة ، في وقت كانت الصحافة في مصر صحافة رأى تعطى عناية تامة للمقال الافتتاحى بنوع خاص . وكان كتاب هذا المقال نوابغ مصر من امثال لطفي السيد ومصطفى كامل وعلى يوسف *

ومعه هي بداية الطريق الطويل في الصحافة .. وهى بداية تقترب من قمة النهاية عند كتاب كثيرين *

(١) راجع حياة تلم ص ٩٦ (العقاد) *

(٢) المرجع السابق ص ٩٧ *

ذكرنا أن العقاد لم يحاول في كتابة مقالاته جديداً ، غير تقريب الموضوعات من الدراسة النقدية ، ولم بطرق غير القليل من موضوعات النقد الاجتماعي أو موضوعات المقالة الوصفية والمقالة العاطفية ، لأنه كان إبان اشتغاله بالكتابة في صحيفة الدستور مشغولاً بنظم الشعر من موضوعاته ، وهو أولى بالوصف العاطفي من المقالات . ولم يحاول العقاد أن يجدد في فن المقال لأنه نشأ والصحافة المصرية قائمة على فن المقالة الأدبية منذ إنشائها قبل الثورة العربية ، وكان من كتابها المتقدمين « محمد السباعي » تلميذ « لى هنت » في فن المقالة ، على أسلوب المدرسة الإنجليزية ، فكان رائد هذا الفن في تحرير الصحف غير مدافع .

ويمكن القول أن فن المقالة كان مكتملاً على يد محمد السباعي واضرابه من الكتاب ، ولا يستطيع العقاد التجديد فيه لصلابة المتقدمين عليه فيه ، بيد أن المتقدمين على العقاد في الصحافة لم يغلقوا عليه جميع الأبواب ، فبقي له في الصحافة المصرية باب واحد يستطيع باقتحامه أن يفتح صفحة جديدة في تاريخ الصحافة المصرية ، لأنه كان أول السابقين إليه . . . وذلك هو باب الأحاديث مع الوزراء والساسة . . . فلا نعلم أن أحد من الصحفيين المصريين سبق للعقاد إلى إجراء حديث عام مع وزير مصرى أو رئيس شرقى يسمع له قول في السياسة .

ولعل هذا التأخير من الصحفيين المصريين في اقتحام باب الأحاديث مع الوزراء يرجع إلى أن الوزير المصرى إبان عهد الاحتلال قبل حادث دنشواي وتقيام الأحزاب ، لم يكن يملك من أعمال وزارته غير التوقيع والسكوت ، لهو اللغو بعينه ، فلا حرج على الصحفيين المصريين إذا تجنبوه . . . وقد تجنبوه معذورين حتى خطر للعقاد أن يقتحم هذا الباب الأول مرة ، فكان اقتحامه إياه في الحق عنواناً لصفحة جديدة في تاريخ الوطنية المصرية ، ولم يكن مجرد سبق في الصحافة يتكرر كل يوم .

وأجرى الحديث الأول مع سعد زغلول في وزارة المعارف (١) ، وأجرى غيره من الأحاديث مع الغازى أحمد مختار « قويميسير » الدولة العثمانية (٢) . كما كانوا يسمونه زمانه . . . وكان على ضالة نفوذه في مركزه شخصية من أقوى الشخصيات العسكرية والسياسية التي عاشت في ذلك الزمان .

(١) نشر هذا الحديث في صحيفة « الدستور » العدد ١٥٩ السنة الأولى ٢٢ مايو ١٩٠٨ .
(٢) نشر الحديث في صحيفة الدستور العدد ١٤٣ السنة الأولى ٣ مايو ١٩٠٨ .

وكان المقاد يعلم أن حديثاً ينتطرق إلى نظام الجيش في عهد الاحتلال ، ويفوه به أكبر القادة العثمانيين في مركزه الرسمي بالديار المصرية – لن يخلو من ضربة تقتض مضاجع المحتلين ٠٠ ولقد كان ما قدر المقاد ، فإن الرجل خبطها خبطة عنيفة . وقال للمقاد لما سألته عن العدوان على المحمل المصرى في جزيرة العرب : أن الذنب ذنب النظام لا ذنب الأمن في الجزيرة العربية ، وأنه كان يستطيع أن يفتح الجزيرة كلها بفرقة كالفرة التي تحرس المحمل في كل عام !

« ان كلمة دون هذه الكلمة في الاساس بنظام الاحتلال العسكري قد أوشكت ان تطيح بعرش عباس الثانى ، وقد حركت الدولة البريطانية بحذافيرها لتهديده وارغامه على الاعتذار ٠٠ فكيف ترامى يصبرون على تلك الضربة من قائد عسكري كممثل الدولة العثمانية ؟ ٠٠ الا انهم مكروا ولم يجهرروا ، وبدأت بينهم وبين القائد الكبير أزمة متواترة متواترة ٠٠ نصرهم فيها عليه سمسرة الخذلان في الاسخانة ، فكان الغازى مختار خاتم القومسيرين » في هذه الديار (١) »

والواقع ان فن الحديث الصحفى الذى كان المقاد أول من مارسه من الصحفيين المصريين في مطلع هذا القرن ليس من ابتكارات القرن العشرين كما يذهب الى ذلك الكثيرون ٠٠ فمن تاريخ الصحافة الانجليزية نعلم ان الصحفى الانجليزى المشهور « ديفسو » استطاع في القرن الثامن عشر ان يحصل على حديث صحفى من قاطع طريق اسمه : « جاك شبرد » وكان هذا قبيل تنفيذ الحكم عليه بالاعدام شنقا ببضع دقائق .

بل ان (ولزلى) يذهب الى ان حوار افلاطون يعتبر نوعا من الاحاديث ذلك ان الأمثلة التي وجهت الى سقراط حيناً ، والى غيره من أصحاب افلاطون وتلاميذه حيناً آخر كانت تحمل في طياتها صفات الحديث الصحفى ، ومثل

(١) حياة تلم – راجع صفحات ٩٤ – ٩٥ – وان كان المقاد ينكر ان الحديث الأول مع سعد زغلول لكتنا عندما تصفحنا اعداد صحيفة الدستور وجدنا الحديث الأول مع مختار باشا الغازى ويؤكد ذلك التاريخ الذى صدرت فيه الصحيفة ، اذ ان هذا الحديث نشر في ٣ مايو – لكن حديثه مع سعد زغلول نشر في ٢٢ مايو ٠٠ وعلى ذلك نرجح ان أول حديث أجراه المقاد هو حديثه مع مختار باشا الغازى – ويكتسب حديثه مع سعد زغلول صفة الأولوية اذا علمنا ان سعد زغلول هو أول وزير مصرى يتحدث للصحف .

كثير في أخبار الأدب العربى فى قصور الخلفاء والامراء . حيث كان الحوار بدور بينهم فى مسائل شتى وموضوعات متباينة (١) .

والحديث الذى أجراه العقاد مع الوزير المصرى سعد زغلول ، كان يحقق وظيفة من أهم وظائف الحديث الصحفى بمعناه الحديث ، وهى وظيفة عرض وجهات النظر ومحاورة الشائعات .

ذلك أن سعد زغلول حين قبل وزارة المعارف وجدما فرصة سانحة لاصلاح التعليم ، ولكن المعارضين لسعد بعد ولايته الوزارة وجدوا لهم سببا كان يقتضى عليه برفض الوزارة فيما زعموا ، وقالوا أنه تخلى عن اتمام الجامعة المصرية حيا للوظيفة ، وان تخليه عنها كان وشيكا ان يعميت الفكرة فى مهدها ، واوغلوا فى الظن حتى اشاعوا أن الانجليز وسعد تواطؤا على إعمال « المشروع » وصرف الانتظار عنه ، ولم يتورعوا من دعوة الناس الى مقاطعة اللجنة القائمة به والكف عن التبرع للجامعة المنشودة ، واتخذوا من تبرع الحكومة لها بالمال حجة يستدلون بها على وجوب مقاطعتها، ولم يشأوا ان يعتبروا هذا التبرع أول خدمة نافعة خدم بها سعد مشروع الجامعة وهو وزير المعارف ، ولعله لم يكن مستظيما أن يخدمها هذه الخدمة أو غيرها لو لم يقبل لوزارة .

ولما كثرت الشائعات حول هذه الفرية تمعد العقاد أن يسأل سعد زغلول عنها ليسمع الناس جوابه فيها ، وبذلك كان هذا الحديث يؤدى أهم وظيفة من وظائف الحديث الصحفى .

وهذا هو نص الحديث الذى أجراه العقاد مع سعد زغلول :

« حوادث وأخبار »

حديث مع ناظر المعارف

رأى سعد باشا فى الجامعة

التعليم واللغة العربية

لأحد محررى الدستور

(١) عباس محمود العقاد : سعد زغلول سيرة ونحبة ص ١٠٢ وما بعدها .

التعليم واللغة العربية

« مسألة التعليم الآن هي المسألة التي شغلت الأذهان وافاضت الجرائد في فحصها وتعليقها من جميع وجوهها . وفي الحقيقة إنها المسألة التي يجب على كل ذي بصير ان يضرب فيها بسهم وينقب عما يفتح مغلقها ويزيل عقباتها مع اخلاص العامل الذي لا هم له الا ترقية بلاده وخدمة وطنه بكل ما في وسعه .

فاذا بحث فيها فانما يبحث عن كل ما يستحق البحث في مصر وعلى قدر اخلاص الباحثين او خبث نيتهم تكون النتيجة حسنة او سيئة على هذه البلاد التي نفتخر باننا ابناؤها وباننا دون غيرنا المسؤولين امام الله وامام ضمائرنا عما يسعدنا او يشقينا ، فكل زلة يأتينا الباحث في هذا الموضوع تبعده عن ألف حقيقة مقررة وتدنيه من عاقبة وخيمة عليه بصفته مصرياً يسوء ما يسوء البلاد التي ينتسب اليها .

ولقد تضاربت الآراء في أمر التعليم فذهب الناس مشرقين ومغربين فمنهم من يهم الكمية ومن خاص في بحر الظلمات وأصبحوا يتسائلون عن تلك الضجة القائمة حول التعليم ومبلغها من الصدق والأخلاص لأن عليها يتوقف مستقبل أبنائهم وذويهم فاذا بهم يسترشدون ولا يرشعون .

لذلك اردت ان أرجع الى رجل اعتقد فيه الصدق والغيرة على مصلحة هذا البلد وأن في قوله خير حاسم لهذا الذراع الذي استقار شره واستفحل ضرره . ذلك الرجل هو سعد زغلول باشا ناظر المعارف الحالي – فكتبت اليه استاذته في مقابلة صحافية فأذن وحدد ذلك الساعة العاشرة من صباح أمس – يوم الخميس (١) – وقد كان فدخلت عليه وهو مكب على عمله وبعد ان استقر بي المكان بدأت الحديث كما يأتي :

قلت :

– ان بعض الجرائد أشارت الى أن نظارة المعارف طلبت من المالية زيادة ميزانية هذا العام فأبى عليها ذلك واحتجت بقلة المال عندما فهل هذا صحيح ؟

(١) أي يوم ٢١ مايو سنة ١٩٠٨ .

قال :

- نعم هو صحيح وقد كانت نتيجة حجة نظارة المالية في ذلك مقبولة لان ما لديها كان حقيقة لا يفي بما يطلب منها .
قلت :

- وما هو رأيكم في عرض لوائح التعليم على مجلس الشورى قبل تقريرها .

قال :

- ان هذه المسألة قد عرضتها علينا الحكومة ونحن نفحصها الان ونعد الجواب عليها ولكن لم يتقرر شيء من ذلك رسميا حتى الان .

قلت :

- حادثت بعض نظار المدارس الابتدائية فاذا هم يتخذون تسهيل الامتحانات في اللغة العربية دليلا على ميل النظارة الى اعمالها والاستغلال بغيرها من المواد الاخرى . . وقد سمعت مثل هذا من غير واحد منهم فرائيت انهم يكدون يجمعون على هذا القول وفي ذلك ما يدعوهم الى اعمالها حقيقة جريا على ما يظنون رغبة نظارة المعارف فهل تجدون في سهولة الامتحانات ما يحملهم على هذا اللحن ؟

قال :

- ارى ان كل عمل في هذا العالم لا يخلو من ينفذته ويستنتج منه معنى غير معناه الحقيقي ولقد كان الامتحان في اول الامر على شيء من الصعوبة فما سلبت نظارة المعارف من يرميها بانها تعتمد اسقاط الناجحين من التلامذة . فلما توخت تسهيله تام بعضهم يتهمها بانها ارادت صرف التلامذة عن الاشتغال باللغة العربية الى غيرها من العلوم . وهو امر غريب يحار بازائه من يريد التوفيق بين آميال الجميع وعندى ان الافضل نبيذ هذه الاقاويل والاستغلال بما يفيد الفائدة المطلوبة وان في اهتمام نظارة المعارف بامر اللغة العربية ولفت نظر المفتشين والمعلمين الى وجوب التحقيق فيها ما يفنيها عن تطلب المستحيل والجمع بين التقيضين :

فكلفت ما تكلف به الآن أن تقوم بواجبها المناسط بها ثم لا يعنينا بعد ذلك ما يقول الناس عليها •

قلت :

• - كان بعض وجهاء الصعيد تد طلبوا من الحكومة إنشاء مدرسة ثانوية في اسيوط لتكني أبناءهم مشقة السفر الى العاصمة في طلب العلم فهل في نية النظارة انشاء هذه المدرسة ؟

قال :

• - ان النظارة تود لو أمكنها اجابة وجهاء الصعيد الى مطالبهم ولكنها تجد امامها صعوبات تحول دون ما تريد فان المال لديها قليل والرجال أقل الا اذا اتت بهم من الخارج وهو ما تتحاشاه الان بقدر ما في استطاعتها ومما يؤسف له انها لم تجد من المصريين من يدرس مائتين في السنة الاولى من القسم التجيزي الا بعد جهد جهيد •

فاذا ذلت هذه الصعوبات مان عليها تنفيذ كثير من المشروعات التي يحول دون تنفيذها قلة المال والرجال •

قلت :

• - الا يسمح - سعادة الناظر ببيان الخطة التي وضعها لتسير عليها نظارة المعارف فيما يختص باللغة العربية ؟

قال :

• - ان خطتي لم تتغير ولن تتغير وقد قلت في مذكرة المعارف التي رددت بها على الجمعية العمومية في هذا الشأن ان من اعظم امانى تعليم المواد المختلفة في المدارس المتنوعة باللغة العربية وقد اهتمت بهذا الامر من يوم اسناد نظارة المعارف الى عهدتي وبحثت فيه بحثا دقيقا فتيين لي أن هنا صعوبات تحول دون تحقيق هذه الامنية في الحال واشرت الى بعض هذه الصعوبات في الخطة التي تشرفت بالفائضا على الجمعية العمومية ويسرنى أن حضرات اعضائها تد قدروا هذا الصعوبات حتى قدرا فعدلوا عن اقتراحهم بأن قرروا ان يكون التعليم في المدارس باللغة العربية تدريجيا لا ان يحمل جميعه مرة واحدة وتلت في تلك الخطة أيضا « انى اتمنى بصفة كوني مصري ان يكون التعليم في المدارس جميعها بلغة بلادنا ولكن ما كل ما يتمنى

المرة يدركه لان هناك صعوبات كثيرة تحول بيننا وبين بلوغ هذه
الأمنية الان وهذه الصعوبات وان كان يجب السعي لتذليلها وصرف العناية
لتسهيلها الا انه يلزم ان نحسب الان حسابها .

ولم اقل مرة واحدة ان اللغة العربية غير صالحة للتعليم وانما كل
ما يستفاد من كلامي ان الشروع في التعليم بها وقت عرض الاقتراح مستحيل
وان الواجب تذليل الصعوبات التي تقف في سبيل الشروع حتى نتمكن من جعلها
لغة التعليم تدريجيا .

وتقد سردت بعض هذه الصعوبات على اعضاء الجمعية العمومية
فقدروها قدرها ووافقوا على جعل التعليم باللغة العربية تدريجيا فانت ترى
اني لم اعرض الجمعية العمومية رغبة ولم أحاول رفض اقتراحها
هذا ولكني اريت اعضاءها وجهه الصعوبة فصدقوا عليه واقتنعوا به .

اما ما ذلل من تلك الصعوبات حتى الان فهو كثير منه تعليم المواد
كلها في المدارس الابتدائية باللغة العربية ، وتعليم الحساب والهندسة بها
في السنة الاولى من الدارس الثانوية . وتعليم الحساب والهندسة والجبر
بمدرسة الزراعة باللغة العربية أيضا كما ان بعض الدروس في القسم
الابتدائي قد أصبحت تدرس بتلك اللغة وصرح للمنتهين من تلامذة المدارس
الثانوية الامتحان بها في اى علم اردوا .

ولعل نظارة المعارف تتعدى حدود التدريج اذا هي قررت اكثر من ذلك
في عام واحد فانه لا معنى لكونها تنقرر تدريس العلوم كلها في كل المدارس
مرة واحدة باللغة العربية وبين كونها تراعى قاعدة التدرج وتذليل
الصعوبات شيئا فشيئا .

قلت :

— الى هنا اراني عرفت ما هو فوق الكفاية في شؤون نظارة المعارف
فهل تسمح لي بابداء رأيكم عن الجامعة المصرية .

قال :

— بلى ، واني اتول لك ان رأيي فيها رأيي في كل معهد علمي صغير
كان او كبير فان مصر في حاجة إلى العلوم ولا يستهان بأقل معهد علمي يكفل
لها اداء هذه الحاجة .

قلت :

– هل كنتم تعلمون ايام توليتم رئاسة الجامعة انها ستقرر تدريس
الآداب الانجليزية والفرنسيون عند تأسيسها *

قال :

– انسا لم نبحث اذ ذلك في استقصيات ولكن الذي كنا نرعى اليه
من انشاء الجامعة واعلناه للامة انها تعلم التلاميذ مالا يتعلمونه في المدارس
الحالية ، وآداب اللغتين الانجليزية والفرنسية ، مما يدخل في هذا الباب *
ولكن لجنة الجامعة لا تكتفى بذلك الا في اول الامر وقد اشرت عليها باضافة
آداب اللغة العربية الى هاتين اللغتين وهي تتناش في ذلك الان *

وقد علمت ان اعضاء اللجنة يبذلون كل الجهد في ابلاغ هذه الجامعة
اقصى ما تبلغ اليه وكل من يعلم ممن هم اعضاء هذه اللجنة يثق ثقة
تامة بنجاح المشروع على ايديهم ، وان من الغريب ان يكون في الناس من
يحبط همم العاملين والمكتتبين لهذا العمل الجليل *

ان الهمم فاترة من طبيعتها فليست هي في حاجة الى من يثبطها ولكن
هذه الاتوال ربما دفعت الخجل الذي تحصله الفرة على الاقتداء بأعماله
الى قبض يده عن الاكتتاب فان فيها مصرفا يبرز عمله ويظهره في أعين
الناس بمظهر الوطني الغيور على مصلحة بلاده **

يقولون ان الجامعة وقعت في ايدي الموظفين فانتمشلوها منهم * ولكن
لا يتدبرون في عاقبة ذلك *

من يقوم مقام رشدي باشا وزكي بك وعلوي باشا والمسيو سبيرو
من غير الموظفين اذا عولنا انقاذ الجامعة من يد هؤلاء وتسليمها الى غيرهم *

لمست انكر ان الجامعة كما هي الان ليست كجامعات اوربا ولكن
الحالة الحاضرة تقضى علينا بالابتداء بالبداية لا بالغاية فاذا ما كانت لنا
اليوم جامعة صغيرة فعلا تكون كبيرة ولا يبعثنا كونها كذلك على احتقارها
ونفض ايدينا منها لان في ذلك جناية كبرى ونحن في حاجة الى ما هو
دون الجامعة بكثير *

اذكر انه لما انشئت الجمعية الخيرية الاسلامية قام بعضهم واستضعف
شأنها لانها نشأت صغيرة كما ستنشأ الجامعة فما هي الا سنوات قليلة

حتى اتسعت دائرتها واخصب موردها وكثر عدد مدارسها حتى بلغ ما تراه ولو أن القائمين بها جبنوا امام الانتقاد لتبريت في المهد ولم تبلغ ما بلغته الان .

وفضلا عن ذلك فان المال الذي جمع الى اليوم لا يفي بالحاجة لان سنة وعشرين الف جنيه لا تكفي لانشاء جامعة كبرى كجامعات اوربا . هذا لو دفع كل مكتتب ما تبرع به ولم يقصر الامر على العشرة الاف اتى دفعت حتى الان . ولو قدرنا ما يتيجه هذا المبلغ باجمعه في السنة لما زاد عن الف جنيه مصرى وهو ما لا يكتفى للاتفاق على الجامعة في حالتها الحاضرة .

كل هذا والذين يريدون اخراج الجامعة من قبضة الحكومة يجهلون انها دفعت مرة واحدة خمسة اضعاف ما دفعه المتبرعون في انحاء القطر المصرى باجمعه .

وليس هذا كل ما امدت به الحكومة هذه الجامعة فان اعتبارها لها مدرسة منتظمة وقبول شهاداتها بين بقية الشهادات المدرسية ينشط الناس على الالتحاق عليها اقبالا لا تظفر بمثله اذا كان الغرض منها مجرد تحصيل العلم وتوسيع العقل ، وربما لا تنسى ان بعض هؤلاء كان يطلب من الحكومة تحمل المشروع ماديا فرفضهم الان اشرافها عليه بعد ان ادت الحكومة ما طلبوه منها بعد من الغرابة بمكان ويسدل على تناقض لا يمكن الجمع بين اطرافه .

هب ان اشراف الحكومة على الجامعة مضربها كما يقولون افهسدا يحملنا على حض الناس على عدم الاكتتاب واسترداد ما تبرعوا به ؟

لا اظن ذلك لان انقاذها من يد الموظفين وتوسيع نطاقها عما هي عليه الان من المكنات وليس من المستحيلات وانما يكون ممكنا بكثرة المال والمتبرعين فهي في هذه الحالة احوج الى المال منها وهي بعيدة عن الحكومة ومهما يكن من مجاهرة اليأس للنفوس فلن يبلغ الى درجة يحزم معها بان الجامعة لن تغفلت من يد الحكومة الى الابد فمن العبث على كل حال العمل على استئطافها وحرمان البلاد منها .

اقول هذا وانا على يقين من أن الحكومة لا تقصد سوا هذه الجامعة ولم تفكر في اعاقبة سيرها وان مرافقتها لها على هذه الصورة تفيدها فائدة تد لا تتيسر بغير ذلك واود لو نفيت كل رغبة بشأنها من الازمان فانها على اى صورة ظهرت معهد علمى يبيد البلاد ظهوره بقدر ما يضرها احتجابه .

وانتهى الحديث لان زائرا جاء لمناقشة الباشا فالتصت الاذن منه
بالانصراف وخرجت من حضرته وكلى السنة ناطقة بشكره .

وعقبت « الدستور » على هذا الحديث الصحفى بهذه العبارة :

« المهم في هذه الحادثة ان سماعة الوزير يعترف باشراف الحكومة
على الجامعة وان لنا كلاما على هذا نرجئه الى الغد » .

ونشر فريد وجدى في « الدستور » (١) مقالا يرد فيه على اعتراف
مسعد زغول باشراف الحكومة على الجامعة متخذا جانب الحزب الوطنى
الذى يرفض هذا الاشراف على الجامعة من قبل الحكومة « فليس امامنا
من وسيلة لايتأثنا بحاجاتنا من التعليم الا الاعتماد على انفسنا نقول
انفسنا لاننا اكفاء لذلك ، ولم نزل في ايدينا بقية من المادة تسمح لنا
بالتسلح انيضا لحفظ مراكنا في معمة هذا التغالب » .

* * *

يقول الاستاذ « اميل لودفيج » في بيان اهمية الحديث الصحفى :

« يعتبر الحديث الصحفى من ألم الفنون الصحفية في الوقت الحاضر،
ومن اكثرها استهواء للقارىء . وقد نطن ان الحديث الصحفى لا يزيده
على كونه مجرد تسجيل لمناقشة ، او حوار دار بين طرفين ، غير ان حقيقة
الامر هي ان الحديث الصحفى اهم من ذلك ، لانه تطلب قدرا كبيرا من
المهارة والتفنن والى توفر صفات من نوع خاص في المخير الصحفى » .

والواقع ان هذا القول يبين لنا مدى الاحاديث الصحفية التى اجراها
العقاد في سنة ١٩٠٨ فكان بذلك اول صحفى يقتحم هذا الباب في مصر
واكتسب بذلك صفة الريادة ، ومن جهة اخرى فان حديثا العقاد
مع مسعد زغول واحمد باشا الغازى من الناحية الفنية كانا حديثين
صحفيين ناضجين على الرغم من كونهما المولود الاول للحديث الصحفى في
الصحافة المصرية ، فاختيار الشخصية سواء مسعد زغول او توميسير الدولة
العثمانية لاختيار يذل على ادراك آخذ الحدث اهتمام للرأى العام
المصرى في ذلك الوقت ، وقد قام عباس العقاد عن طريق هذه الاحاديث
الصحفية بنقل وجهة نظره شخصياته الى القراء ، وكانت احاديثه مزيجا
من الوقائع والرأى وشخصية المتحدث اليه .

(١) « الدستور » ٢٣ مايو ١٩٠٨ .

فالقائس : في حديثه مع سعد زغلول مثلا « ان نظارة المعارف طلبت من المالية زيادة ميزانية ذلك العام فابت عليها ذلك واحتجت بقلة المال عندما » وقد أكد سعد زغلول هذه الواقعة .

ومن الوقائع في هذا الحديث كذلك « انشاء مدرسة ثانوية في اسيوط وعدم امكن نظارة المعارف انشاءها في ذلك الوقت » ... إلخ .

رعى كما ترى وقائع كانت لدى القارى في ذلك بها معرفة ، وان كانت لم تتأكد لديه ، وقد تأكدت أو نفيت عن طريق المتحدث اليه (سعد زغلول) ، الذي كان في نفس الوقت مصدر التأكيد أو النفي لهذه الوقائع .

والرأى : في حديثه مع سعد زغلول ايضا ، تناول رأى سعد زغلول في عرض لوائح التعليم على مجلس الشورى قبل تقريرها، ورأيه في ما قال من ان وزارة المعارف تهمل التعليم باللغة العربية بحجة ان الوزارة تسهل الامتحانات ، ثم يبرز من بين هذه الآراء رأى المتحدث اليه في (الجامعة)، وكانت الجامعة في ذلك الوقت تشغل رأى العام المصرى، وتتضارب الآراء حولها في الصحف المختلفة وقد أبدى سعد زغلول رأيه فيما هو منسوب اليه بأنه تخلى عن انصاف الجامعة المصرية حيا للوظيفة ، وان تخليه عنها كان وشيكا ان يبعث الفكرة في مهدها ، بل ان القائلين بهذه التهمة اتخذوا من تبرع الحكومة للجامعة بالمسالك حجة يستدلون بها على وجوب مقاطعتها ، ولذلك كان رأى سعد زغلول دافعا لهذه التهم ومبيناً للرأى العام وجهة نظره وعى ان اشراف الحكومة على الجامعة من صالحها مؤكدا ذلك بأدلة بينها في الحديث وشسارحا الدوافع التى دفعته الى تعضيد هذا الاشراف على اعتبار انه خدمة نافعة لمشروع الجامعة قدها وهو وزير المعارف.

والشخصية : وقد أبرز الحديثان شخصية (سعد زغلول ، ومختار باشا

غازى) من هما على حقيقتيهما ؟ ومدى شجاعتهما وقدرتهما على مواجهة الرأى العام بأرائهما والدفاع عنها بشجاعة ... نلمس ذلك في حديثه مع احمد باشا الغازى على وجه الخصوص ، فاذا علمنا ان حديثا يتطرق الى نظام الجيش في عهد الاحتلال ، ويغوه به اكبر القادة العثمانيين في مركزه الرسمى بالديار المصرية – لن

يخلو من ضربة تقتض مضاجع المحتلين ، فأننا نندري
شخصية المتحدث اليه (احمد مختار) «قوميسير» الدولة
المثمانية ، عندما سألته العقاد عن العنوان علي المحمل
المصري في جزيرة العرب ، وأجاب : ان الذنب ذنب النظام
لا ذنب الامن في الجزيرة العربية ، وأنه كان يستطيع ان
يفتح الجزيرة كلها بفرقة كالفرة التي تحرس المحمل
في كل عام !

ويمكن ان نضع حديثا العقاد تحت نوع « حديث الرأي » من أنواع
الاحاديث الصحفية لانهما قاما بتغطية جانب كبير من النواحي الباحثة
عن الحقائق التي قوبلت من الجمهور في ذلك الوقت برعاية واهتمام .

وصياغة الحديث الذي أجراه عباس العقاد ، يمكن القول فيها أنها
ولدت ناضجة فهي تنشر الاسئلة والاجوبة نشرًا حرفيًا دقيقًا كما كانت
الصحافة في الماضي تفعل ذلك فحسب ، ولكن صياغة الحديث الصحفي عند
العقاد اتخذت القالب الفني لصياغة الحديث . ونحن نعرف ان هذا القالب
الفني (قالب القصة الخبرية) من قوالب الصياغة يتألف عادة من جزأين (١)
مما : (الصدر Lead) وهو ما يحتوي على اهم نقط الحديث مع
تصوير جذاب لشخصية المتحدث بقدر الامكان .

واذا نظرنا الى حديث سعد زغلول نجد ان العقاد تحدث في (صدر)
الحديث عن مسألة التعليم وتضارب الآراء حولها ، وأهمية رأى سعد زغلول
في هذه المسألة ووصف لغائه وكيف تم .

و (الصلب Body) وفيه الاسئلة والاجوبة . وذلك بطريقة
الاسلوب المباشر . وفي صلب حديثه مع سعد زغلول نجد الاسئلة والاجوبة
وقد نشرت بدقة تتناسب وأهمية ما تتضمنه من آراء ووقائع . ويمكننا
ان نقول ان احاديث العقاد كتبت بطريقة نمت عن شخصية المتحدث نفسه
وكشف عن آرائه ونزعاته وأفكاره واتجاهاته .

وقد وضع العقاد لاحاديثه عناوين تتضمن اهم ما في الحديث من رأى
أو خبر ، وهذا يبين لنا كيف ولد اول حديث صحفي مصري ناضجا . ففي
حديثه مع سعد زغلول نجد هذه العناوين :

(١) انظر د. عبد اللطيف حمزة : المخل في فن التحرير الصحفي ص ٣٣٠ وما بعدها .

« حديث مع ناظر المعارف »

« رأى سعد باشا في الجامعة »

« التعليم باللغة العربية »

وفي حديثه مع مختار باشا الغازي نجد هذه العناوين على صدر الحديث :

« حديث مع مختار باشا الغازي »

« لخطر على السكة الحديدية الحجازية و لاخوف على حجاج المصريين »

« رأى الغازي في مسئولية الحملة على المحمل » .

وتد كتب هذه العناوين بانبطاط كبيرة تبرز أهمية ما تحمل من رأى وخبر ..

* * *

خلاصة القول أن باب الأحاديث الصحفية الذي فتحة عباس العقاد أمام الصحافة المصرية ولد على يديه ناضجا ، وهو يبرز لنا شخصية عباس العقاد الصحفية ، وكيف أنه بدأ حياته صحفيا بمعنى كلمة « صحفى » الحقيقية . والواقع ان صحيفة (الدستور) قد أتاحت له فرصة التمرن على العمل الصحفى من آلفه الى يائه ، وكان لذلك كله عظيم الأثر في تكوين الجانب الصحفى من حياة عباس العقاد .

بعد تعطيل الدستور

كتب العقاد في « المستور » حتى العدد الأخير منها ٠٠ وقد اضطرت هذه الصحيفة إلى التوقف بسبب المعز المالي ، ولقد عم الصحف جـو من الكتابة والكساد اثر صدور قانون المطبوعات الجائر في سنة ١٩٠٩ اذ صدر قرار من مجلس النظار يقضى باعادة العمل بقانون المطبوعات الصادر في ٢٦ من نوفمبر سنة ١٨٨١ م وجاء في هذا القرار انه « حيث ان الحكومة لم تنفذ منذ سنة ١٨٩٤ قانون المطبوعات الصادر في ٢٦ نوفمبر سنة ١٨٨١ . وحيث ان الجمعية العمومية طلبت من الحكومة في ٢٦ مارس سنة ١٩٠٢ ردع الجرائد عن تجاوزها للحدود وعن الفوضى التي وصلت اليها ، وأرسل مجلس شورى القوانين طلبا مثل هذا في ٣٠ يونية سنة ١٩٠٤ (١) » وكان قانون ١٨٨١ مقيدا لحرية النشر في مصر لأنه أعطى للسلطات الادارية حق تعطيل اصحف بدعاوى المحافظة على النظام العام أو الدين والآداب ، وهي أسباب « يمكن لكل حاكم ان يتذرع بها ان اراد القضاء على صحيفة تعارض (٢) سياسته » .

ومما يؤخذ في مسألة هذا القانون أن سعد زغلول لم يقف أمام صدوره، بيد ان العقاد في كتابه عن سعد زغلول يقول أن سعدا كان وزيرا للمعارف ولم يكن وزيرا للحقانية عند صدور القانون ، فلم تكن له يد في تحضيره وابتعائه . وإنما كان الأمر محصورا باديء الأمر بين الحكومة الانجليزية والخبير ورئيس الوزارة ، ثم اتصل بحسين رشدي باشا وزير الحقانية ومحمد سعيد وزير الداخلية ومنهما اتصل بسعد باشا لأول مرة ، ويؤكد العقاد ان سعد باشا رفض الموافقة على القانون عندما علم بنية اصداره . « وقال ان الانجليز يعلنون أنهم تركوا لأمير البلاد الأمر في سياسة الحكومة بعد عزل كرومر ، فإذا افتتحنا هذا المهد بتقييد الحرية قالوا اننا - الحكومة - لا نطبق الحرية ولا نصلح لها ٠٠ ولا مسوغ - بعد - لهذا الاهتمام بالشاغبين فهم فئة قليلة ليس يسمع لها صوت » .

(١) راجع : الدكتور خليل صابات : الصحافة ط ٢ ص ٢٨٥ ومابعدا - الفصل الخاص بحرية الصحافة .
(٢) نفس المرجع ص ٢٨٤ .

ويذكر العقاد كذلك أن سعدا لم يعدل عن الرفض إلا بشرط واحد لم يتحول عنه : وهو تعديل القانون وتلطيف بعض قبيوه وأحكامه . وقد تم هذا التعديل بعد معارضة من الأمير ومن الإنجليز (١) .

أيا كان الأمر ، فإن هذا القانون قد نشر جوا من الكآبة والكساد في ميدان الصحافة كان من أثره أن عاش العقاد بدون عمل بعد توقف صحيفة الدستور ، وقد كان هذا القانون على حد تعبير العقاد نفسه « قانون الحجر والرقابة وتقييد الرخص ومحاسبة الكاتب على السطور وما بين السطور وعلى الأقوال والنيات » ! (٢) .

ويقول العقاد أن نصيب الصحافة من هذه الطائفة التي جرت على نفسها لم يكن أهون من نصيب الحكومة ، وإنها جنت على حرمتها ولا ريب بما زودت به « السلطة » من معاذير ، يتقبلها كل من يؤمن بحق القانون .

« فلا نذكر أن أحدا من أعلام الصحافة كتب في صحيفته كلمة تعال بها الحكومة لتقييد حرية الكتابة أو قال في خطبة كلمة تتعال بها لتقييد حرية الصحافة والاجتماع ، ولا نستثنى من ذلك « مصطفى كامل » على نظره وإنفاقه في الخطب ، وفي المقالات .

ولكن الصحافة الوطنية لم تلبث أن صارت إلى الأعلام التي لا تحسن شيئا كما تحسن أن تسقط معاذيرها وأن تمهد العذر لمن يتحملون الملل عليها ولا نخال أن حاكما حرا أو مستيدا كان يعيبه أن يتحمل الملل على الدعوة الصحيحة إلى القتل وأعداد الدماء (٣) .

وكانت الصحافة تعاني من الداخل إلى جانب هذا الوباء المسلط عليها من أعدائها ، فإلى « اللواء » انقطعت موارده من يلدز وعابدين من قبل وفاته .. وانقطع الأمل في موارد يلدز بعد زوال عهد عبد الحميد ، وفي موارد عابدين بعد إعراس الخديو عباس عن الحزب الوطني في عهد سياسة الرفاق واستحكام العداء بين الحاشية الخديوية وخليفة مصطفى كامل « محمد

(١) العقاد : سعد زغلول ص ١٣٢ .

(٢) العقاد : حياة قلم ص ١٣٤ .

(٣) نفس المرجع .

فريد « ٠٠ وقد كان فريد رحمه الله ينهض وحده بأعباء اللواء المالية والسياسية ، مع ما أصابه من المصادرة بعد المصادرة ومن المحاكمة بعد المحاكمة ، حتى أجمع عزيمته آخر الأمر على هجرة الديار (١) » .

وكان « المؤيد » يزدهر في إبان نشاط صاحبه « على يوسف » سم نكب هذا الرجل العصامي ثكبة قاسية عصفت بنشاطه قبل لوته ، إذ فجعت النية في وحيدة في مقتل صباح ، واضطربت حياته بعد ذلك بمشكلات الاسرة او مشكلات « مشيخة السادات » التي سافته قضيه الزوجية اليها ، وما زال ديبب الملل يبرى اليه ويزمده في صحيفته العزيزة عله حتى تركها بعد حين للمقادير وهو لا يبالى ما سوف تلقاه او ما سيلقاه (٢) .

وكانت « الجريدة » اسلم الصحف من هذه الزعازع واشباعها ، ولكنها على هذا لم تسلم من ضربات خصومها السياسيين وفي مقدمتهم الحاشية الخديوية ، وحزب الاصلاح على المبادئ، الدستورية . فان حاشية الخديو افتتحت عهد الوفاق بين السلطتين الشرعية والنمطية بمحاربة « حزب الأمة » قبل عيره من الأحزاب ، لأن أعضاء الأحزاب الاخرى كانوا يلوذون بالقصر ولا يقاطعون ، خلافا لأعضاء حزب الأمة الذين كانوا يتفون من القصر موقف الاستقلال أو يتعرضون لغضبه في كثير من الأحوال. فسمى رجال الحاشية سعيهم لتحويل الاعضاء من حزب الأمة الى حزب الاصلاح على المبادئ، الدستورية ، ونجح مسعاهم بعد اختيار وكيل حزب الاصلاح للوزارة وتتابع الانعام بالرتب والألقاب على أعضائه البارزين . ولم تبق للحزب بقية قادرة على الصمود والمقاومة الا بجهد جهيد ، ولكنه بقاء لم يعصم الجريدة من ازمت المال والخلافات الداخلية ، ويذكر المقاد أنه عرف من محرريها يومئذ من تركها لانها اضطرت إلى التصد في وظائف التحرير بعد التوسعة فيها عند نشأتها حتى كانت تقنع من المحرر بنهر في اليوم ، ولا تساله اذا ونى عن كتابته هذا النهر عدة ايام (٣) .

وتلك هي الصحف التي ينظر اليها المقاد اذا نظر الى عمل في الصحافة اليومية ، واذ يقف للمرة الثانية ليميز بين كل صحيفة وأخرى ليختار

(١) المقاد : حياة قلم ص ١١٢ .

(٢) نفس المرجع ، أيضا أنظر « رجال عرفتهم » للمقاد ص ٣٦ - ٣٧ .

(٣) المرجع السابق : أيضا « رجال عرفتهم » ص ٢٣٨ ومابعدها .

العمل في اعدامها ولكن اذا كانت الظروف الصعبة تشمل كل صحيفة بنصيب كبير ، يجعلها غير مرحبة بمعامل جديد فيها ، فماذا يفعل العقاد ! *

واما الصحف الاسبوعية فقد كانت تتميز بطابع سيء لا يشجع على العمل بها فهي اولا ، لم يكن فيها مجال لغير اصحابها او لغير كتساب المقالات - بالقطعة - على حسب الطلب، وعلى كل لون وفي عرض الطريق ! *

وهي ثانيا ، كانت تستبيح كل مخطورة في التشهير واستغلال الفضائح وافتراء الاكاذيب لاغتصاب الادوات التي لا موعدها ولا حدود لتكرارها باسم « الاشتريكات » او التبرعات الوطنية ، ويسالها سوء حفظها وحظ الأمة - على حد تعبير العقاد - ان يكون ممثلوا البلاد اكبر اعدائها واول من يضارب بسهامها ، فكان التشهير باعضاء مجلس الشورى بابا ثابتا من ابواب كل صحيفة اسبوعية تبحث عن الفريسة بين ذوى الاسماء المعروفة ، ولم يكن لاهضاء مجلس الشورى سلطان في الحكم يحاسبون عليه او يناقشون فيه : وانما كانوا من اعيان البلاد وكان اكثرهم بعاصمة البلاد على مقربة من جمهرة الصحفيين الاسبوعيين فكانوا ان يتوبوا عن البلاد جميعا في مصابها بالصحافة الاسبوعية وتصدى بعضهم للمطالبة بتقييد الاتسام قبل ان يتصدى لها الوزراء والحكام *

قال احدهم للامير حسين كامل مستترا نخوته : هل يرضيك يا صاحب السمو ان يقال عنك انك رئيس مجلس للشورية ؟ .. *

« وعلى هذا النحو - كما يقول العقاد - تبتلى البلاد بالانتكاسة وتلب الحال ، وينادى بالحجر على حرية الصحف من كانوا احق الناس لابقاء على رايثها ولم يكن قواهها إلا العدوان على حرية الناس .. (١) » *

وهكذا كانت هذه « الصحافة الاسبوعية » في سياق على تدمير المعادير للسلطة التي تعمل على تقييد الصحافة والحجر عليها ، وكانت تلك جناية على لصحافة اليومية الكافحة ، وای جناية ! والتي انتهت بصودور ذلك القانون الجائر الذي كان بداية النهاية لهذه الصحف *

فلا يلبث الشيخ على يوسف أن يترك « المؤيد » في عام ١٩١٢ ثم يتوفاه الله في العام التالي .. ولطفى السيد يترك الجريدة عقب اعلان *

(١) المرجع السابق ص ١١٩ *

الحرب العالمية الأولى ثم تتوقف هي عن الصدور لاضطراب امورها .
 واستطاعت الحكومة ان تقضى على « اللواء » منبهة حدوث خلاف بين
 وريثتها والحزب ، وأصدر الحزب بعدما عدة صحف كانت السلطات تقوم
 بتعطيلها .

ولم يجد العقاد بدا من مبارحة القاهرة الى بلده ، ومن هناك كان
 كل اتصاله بالصحافة اتصال « مصاحف » يكتب الصحف ويعود الى القاهرة
 ليكتب المقالات والفصول المترجمة لمجلة البيان التي كان يصدرها منذ
 سنة ١٩١١ عبد الرحمن البرقوقي (١) .

وكان يكتب في هذه المجلة صفوة من نابغة الكتاب منهم « محمد
 صادق عنبر ومحمد حسين هيكل (٢) ومصطفى صادق الرافعي الذي كان
 يلقب بابي السامي وابراهيم عبد القادر المازني ومحمد السباعي وخلييل
 مطران وطه حسين وكما كان يحلو للبيان ان تلتقيه « بالكاتب النقاد
 الشيخ طه حسين » ومحمد لطفي جمعة وعبد الرحمن شكرى وسلامة موسى» .

ووجد العقاد في مجلة « البيان » متنفسا لمواهبه الادبية التي كان
 تلمها يخلو اليها ابان اشتغاله بالصحافة اليومية ، وتبين مقالاته ونصوله
 المترجمة في البيان سعة اطلاعه في هذه الفترة على الآداب الأوروبية من
 خلال اجادته للغة الانجليزية .

ويكفي ان نذكر هنا انه كتب في عدد واحد (٣) من اعداد المجلة
 ما يقرب من ستة مقالات منها « حكم روشفكول » تقدم لها بمقدمة عن
 روشفكول معاصر ريشيليو ، ورأى المنكرين فيه كقولته والدكتور جونسون،
 النقاد الانجليز « اللورد شترفيلد في رسائله المشهورة الى والده ، وترجم
 شذرات من حكم روشفكول تبلغ العشرين من هذا الحكم . وفي العدد
 كتب بعنوان « الحب والزواج » يلخص فيه فصلا من فصول دانفريد هيوم
 « اكبر فيلسوف انكليزي في مباحث وراء الطبيعة وهو من فطاحل رجال
 الادب والتاريخ والاقتصاد السياسى عندهم » وكتب هيوم هذا الفصل
 « على اسلوب له يمزج فيه الحقيقة بالخيال ويورد الافتكار على الفكاهات
 والدعابات » .

(١) صدر العدد الأول من هذه المجلة في ٢٩ شعبان ١٣٢٩ - ١٤ أغسطس ١٩١١ .
 (٢) كتب الدكتور هيكل في البيان مقالا بعنوان « الجمال والحب وانتمما في الحياة »
 المجلد الأول ص ١٣١ .
 (٣) العدد # ٦ ، ٣٠ ذى الحجة ١٣٢٩ و ٣٠ محرم سنة ١٣٣٠ .

وفي نفس العدد كتب العقاد أيضا « شذرات مقتبسات من ادش »
وفلسفة الفنون - الحد بين الطبيعة والصناعة في الفنون الجميلة » و
« الشجاعة » ومقالة عن « حافظ الشيرازي » .

واتفق أن يكتب العقاد في مجلة البيان سنة ١٩١٢ تلخيصا لكتاب
« ماكسي نوردو » عن أكاذيب الخنية الحاضرة (١) . وكان من دأب الشيخ
عبد الرحمن البرقوقي صاحب البيان أن يسأل شيوخ الادب رأيهم في
مقالات المجلة وأبوابها . . . فسأل حافظ عوض وسأل مصطفى صادق
الرافعي ، وسأل المويلحي صاحب « عيسى بن هشام » . فانتقد حافظ عوض
عنوان الكتاب كما ترجمته المجلة ، وزاد انتقاده في ثقة الشيخ بعباس
العقاد ، لأنه ترجم عنوان الكتاب « بالأكاذيب الخفق عليها » واقترح
للشيخ البرقوقي أن « يسجعه » ليوافق اسماء الكتب ، فأصبح العنوان
« الأكاذيب المقررة في الخنية الحاضرة » . فلما جاء النقد من بعيد ،
قال للعقاد أنه لن يرفض مطوعة لرأي المسجة بعد الآن (٢) .

ولفت العقاد نظر المويلحي . وكان مدير القسم الإداري يديوان
الأوقاف ، ويتبعه تحرير المجلس الأعلى والمجلس الإداري للديوان وتلسم
للسكرتارية . وعرف المويلحي من البرقوقي أن العقاد لا ينتهي إلى « السيد
حسن موسى العقاد » المشهور « وأنه لا قرابة بينه وبين ذلك البيت
وأنه يعيش بالتظليل مما يرده من أهله ، وبالتظليل من أجور القسالات
أو فصول الكتب المترجمة . . . فقال : ما أجره بوظيفة في ديواننا ينسأل
بها راتبا منظما . ونقل البرقوقي حديث المويلحي إلى العقاد ، فتقدم
إلى الديوان بطلب وظيفة واجيب طلبه لساعته . وجعله المويلحي مساعدا
لكاتب المجلس الأعلى بتلم السكرتارية . وكان ديوان الأوقاف حينئذ يفتض
بكثير من الأدباء والشعراء من شيوخ وشبان أمثال عبد العزيز البشري وأحمد
الأزهرى صاحب مجلة الأزهر ، وأحمد الكاشف ، وعبد الحليم المصري ،
وحسين الجمل وعلى شوقي ومحمود مصاد ومصطفى المالح وغيرهم فأخذ
يختلط بهم ، وينهض بوظيفته وإعبائها في ديوان الأوقاف ، بين سنتي
١٩١٢ و ١٩١٤ ، واستطاع في هاتين السنتين أن يدرك الفساد في شئون

(١) نشر هذا المقال بمجلة البيان للمعد الثامن ٢٩ ربيع الأول ١٣٣٠ - السنة الأولى
عنوان المقال « الأكاذيب المقررة في الخنية الحاضرة للفتاة الاجتماعى الأشهر ماكسي
نوردو » لخصمها للفاضل عباس محمود المقاد . . .
(٢) حياة ظلم (للعقاد) ص ١٢٧ .

مصر العامة عن قرب في ديوان الاوقاف ، فالخديو يتخذ كل وسيلة لاختلاس أموال الصدقات في هذا الديوان ، كانه من صناعه ، ولا حسيب ولا رقيب، وشاعت في تلك الايام قصة أرض المطاعنة التي أخذ فيها الخديو لنفسه ستين ألف جنيه باسم « العمولة أو الوساطة » وعاد بعدد ما فتعقب كل من عارضوه ووقفوا له في طريقه من الموظفين الخزءاء فعاقبهم على الأمانة واليقظة بالفصل والامصال وتمالت اصوات طلاب الاصلاح من المصريين تطلب فرض الرقابة على الديوان وأمواله . ورأى العقاد هذه الفضائح يعينيه ، وقد هاله ما علم فاندري يكتب الى الصحف بدون توقيع بعض المقترحات لاصلاح الديوان بدون توقيع . ولم يخف على الانجليز وعيون الخديو انه صاحب هذه الاقتراحات ، وحاول الانجليز أن يتصلوا به ليتخذوه أداة لتاورتهم مع الخديو ، ولقى السكرتير الشرقي مستر ستورز ، فاستهل الحديث معه بالكلام على الأدب وعلى برناردشو . ثم استطرد الى الكلام على الصحافة ، وكثر من الكلام على صحيفة المؤيد وقرائها ومحرريها ، ثم استطرد الى الكلام على الاوقاف وفضائح الديوان طلوها بان « ذلك يرجع الى حرمان الديوان من الرقابة الأجنبية » ورأى في هذه العبارة صدمة لكرامته ، فاجابها بحدة ظاعرة : « ان المجلس البلدى الاسكندري يتمتع برقابة أجنبية من كل جنس ومة ، ولا اظنكم تحسبونه مثلاً من امثلة الفزاعة والنظام » وانتهى اللقاء عند هذا الحد ، وكانما ادرك السكرتير الشرقي أن الذى يحدثه لا يقبل المساومة على مبدأ وطنى .

وفي الفترة التى قضاها العقاد بديوان الاوقاف كان يكتب في «الجريدة» مشاركا بذلك في تحريرها مع محمود عماد وعلى شوقي والمازنى وعبد الرحمن شكرى وطه حسين ومحمد صبرى .

وفي نفس هذه الفترة كان يكتب مع ابراهيم عبد القادر المازنى وعبد الرحمن شكرى فصولا نقدية في مجلة « عكاظ » (١) لصاحبها الشيخ فهيثم قنديل .

وينشر العقاد في هذه الصحيفة قصائده الشعرية مع اسماعيل صبرى والمازنى وحسن القاياتى والسيد محمد سعيد النجفى .

(١) صدر العدد الأول يوم الأحد ٩ شعبان ١٣٣١ - ١٣ يولية ١٩١٣ - « صحيفة أدبية أسبوعية تصدر صباح الأحد من كل اسبوع »

وكانت الدراسات النقدية التي يكتبها العقاد وزملاؤه المازني وشكري تهدف الى ارساء مدرستهم الشعرية الجديدة بنقد الآخرين أو بتقديم أعمال بعضهم بمقارنتها بغيرها من الاعمال واظهار البون الشاسع بين اتجاههم الأدبي الجديد وبين الاتجاه السائد في الشعر ، وذلك كما حدث في موازنة المازني بين شعر شكري وحافظ في صحيفة « عكاظ » التي ابتدأت يوم ٢٧ يولية سنة ١٩١٣ بسلسلة من المقالات ذهبت في المقالة الاولى منها الى انه لا يجد ابلغ في اظهار فضل شكري والدلالة عليه ، وبيان ما للذهيب الجديد على القديم من الزية والحسن ، من الموازنة بين شاعر مطبوع مثل شكري ، وآخر مما ينظّمون الشعر بالصنعة مثل حافظ ، فان الله لم يخلق اثنين مما اشد تناقضا في المذهب وتباينا في النزاع من هذين ، والضد كما قيل يظهر حسنه الضد .

وقد نشر العقاد في « عكاظ » مقالتين تحت عنوان « الشعراء الندابون» ساند فيهما المازني في موازنته هذه التي استمرت حتى عام ١٩١٤ . . . ووصفه فيهما بأنه شاعر نذب وقف شعره على النصب والولولة والوعيل مدعياً ان لكل عصر شعره وان هذا العصر لا يحتل النصب والوعيل ، ولا يلجأ الى النصب والوعيل الا شاعر مغلق الذهن لا يتيقظ خياله الا بمتخاس الغلو الفاحش والمبالغة المستحيلة (٢) .

* * *

وكانت الجمعية التشريعية قد انشئت في سنة ١٩١٣ فحولت ديوان الاوقاف الى وزارة حتى تتمكن من الاشراف على ميزانيته وتغل يد الخديو عن اختلاس أمواله واختير للنظارة رجل من انصار الخديو ترصية له وتغطية لخدلايه ، فكان ناظرها الاول في عهدهما الجديد « احمد حشمت باشا » وقد كان قبل دخوله الوزارة وكيلا لحزب النصر بين الاحزاب الثلاثة ، وهو حزب الاصلاح على الميسادي الدستورية . ولم تنس الحاشية الخديوية للعقاد موقفه ، فأخذت تثبت له كي تخرجه من عمله ، فارسل الوزير الجديد الى العقاد بطاقة صغيرة من بطاقات الدعوة الى مكتبه ، وذهب العقاد الى لقاء الوزير في الموعد المحدد ، ولكن الوزير لم يتعرض لسلك العقاد في قضية الديوان بغير التلميح من بعيد . . . وانما خاطبه في أمر مقالة من مقالات العقاد نشرها في الصحف وذيّلها بتوقيعه الصريح ، وهي مقالة كتبها تابيناً

(١) راجع : عبد الحى دياب : عباس العقاد ناقدًا ص ١١٨ وما بعدها . نشر هذا المقال في العدد الثالث يوم ٢٧ يوليو ١٩١٣ .
(٢) عكاظ في عددي ٦ ، ٢٣ من مارس سنة ١٩١٤

للشيخ على يوسف صاحب المؤيد ونشرتها صحيفة « عكاظ » الاسبوعية
« ومن اصحابك المصادفة ان الوزير كان صديقا للشيخ على يوسف ، وكان
وكيلا لحزبه وخصما لكثير من خصومه .. وكان من اشياءه القليلين الذين
مشوا في جنازته وشار اليهم في بعضها وذكره في وفاء المشيعين له بعد
الوفاة (١) » .

• وكان الشيخ على يوسف قد ترك المؤيد ومجر الحياة العامة ،
واصطلحت عليه الملل والنكبات .. وقضى حقبة غير مذكور من اقرب القربين
اليه ، فلم يسر في جنازته منهم غير آحاد معدودين ، بينهم وزير الاوقاف ..

وقال العقاد في تابينه (٢) : « ان الرجل كان » نفاعا ضرارا » ولكنه
كان ينفع ويضر لتمكين نفوذه واستصلاح الاعوان في مشكلاته وقضاياهم ..
فمن وصلت اليه من اياديهم لم يكافئه عينا بالحبية وخلص النية ، ولكنه
يخس انه مدين مطالب يدين يوفيه في يوم من الايام .. فلا جرم يشيعونه
غير محزونين وبعضون في جنازته متحدثين متشاغلين ، لانهم في حالة نفسية
اشبه بحالة الحين الذي اعفاه موت الدائن من الوفاء له بما عليه .

ويذكر العقاد (٣) بصدد هذه المقالة ان الوزير خاطبه بلهجة عادية
كانها لهجة الاستاذ الذي يلوم تلميذه على فصل من فصول الشـيـطنة
لا يبلغ عنده مبلغ السخط الشديد ولا يخلو من بعض الرضى . فقال بعد
الاشارة الى مقال التابين : « كان احرى بقلبك الناشئ ان يتخذ له في تابين
الموتى منهجا اطيب من هذا المنهج وكان عليك الا تنسى في هذا المقام
توله عليه الصلاة والسلام :

« اذكروا محاسن موتاكم » ..

« فاجتهدت ان يكون جوابي في لهجة تواشيم لهجة الوزير ، وتلت
ما معناه » « اننى لو علمت للشيخ حسنات غير التى ذكرتها لما فاتنى
ان اذكرها » ..

(١) العقاد : حياة تلم ص ١٣٧ .

(٢) صحيفة عكاظ : العدد ١٤ - يوم ٢٣ من نوفمبر ١٩١٣ - مقال بعنوان « تقدير

الشيخ على يوسف » .

(٣) حياة تلم ص ١٣٨ .

« فانتقصب الحديث ، مصطنعا الجِد ، وقال » :

– « على كل حال اجعل لفلانك مستقبلا كمستقبل الشيخ ان استطعت، واستخدمه في عملك ، ودع عنك فصول الاقاييل والاحاديث » ..

والرأى عنفنا في مقال تابين الشيخ على يوسف انه لم يكن من فضول الاقاييل والاحاديث – كما قال الوزير في حديثه مع العقاد – ولكن ههنا المقال يكشف لنا من حقائق ذات بال بالنسبة للصحافة في تلك الفترة ، اينا كان الراى في منزلة الشيخ على يوسف ومكانته ، ويكشف لنا هذا المقال صورة الصحافة في ذهن العقاد في تلك الفترة ايضا ..

ونرى ان تقدم هذا المقال كاملا غير منقوص لأهميته التاريخية ، فليس في إمكان الزمخ لِهذه الفترة من حياة الصحافة المصرية ان يتجامل ههذه الحقائق .. وان كان العقاد قد صدم برأيه الجريء في الشيخ على يوسف اولئك الذين كانوا يرون فيه « أنه كبير بالصحافة وأنه استمد نفوذه منها » ويصحح العقاد الزعم القائل بالخلط بين الشهرة والعظمة ، فنقد ينجح الرجل ولا يكون خطه من العظيمة الا اسمها ووزنها . وينجح غيره أقل من نجاحه فيكون نجاحه كأنه مخرج لما يمتلى، به صدره من الرغبة في الذلوع وكرامة النقص وجب الكمال .

وعندى أن هذا المقال بداية للطريق الطويل الذى قطعه العقاد في سبيل تحطيم « عبادة الاصنام » والاصنام هنا هى أوثان المظاهر والالقاب لا أوثان المذاهب والارباب .

ولقد نكبت مصر بدءا الاستبداد القديم فحصر فيها التشريف والتقدير من أهلها فيما يفرضه الحاكم على المحكومين ، فلا تدر لانسان بغير مظهر ، ولا مقام لاحد بغير لقب ، ولا جاء ولا حسب ولا علم ولا يقين بغير صيغة مرسومة في سجلات الدواوين ، وكانت هذه الوجاهات رهن ارادة الحاكم لا تعدوه بحال .

ولختلط هذا الفهم الخاطئ، على أفهام الناس ، فأصبح العالم يفضل العالم بلقبه او منصبه لا يعلمه ، وهكذا صار الشاعر يفضل الشاعر ، والصحفى يفضل الصحفى « وأغبط ما يكون عابد الوثن اذا كان للوثن صلاته وصيامه وكان حول الوثن طوائفه وقيامه ، كان كل حق في سمعة العلم مرهونا بلقبه ، وكل توهين لشأن هذا اللقب موهن للهجته في دعواه ، وما من حجة له سواه (١) » (١) .. والشيخ على يوسف صاحب المؤيد الرجل العصامى

(١) من كانم العقاد في مقال « اصنقائى وأعدائى » – انظر « أنا » ص ١٦٣ .

الذى حمل رتبة الباشوية ، واصبحت جريدته اكبر جريدة في العالم الاسلامي ، واصبح رئيسا لحزب من الثلاثة الموجودة في مصر ، ظل يسمى دائما ليسجل اسمه في سجل الاشراف ، رضى ان يعتزل الصحافة والسياسة ليعين شيخا للمادة الوفاثية .

« ولو كان الرجل سامي اللب واسع الذهن لكان تقديره للعظمة اسمى والكبر من تلك الغاية اتى نصبها غرضاً له حياته ، وبذل كل ما يعسر على النفس بذله لاجل دركها (١) » .

وقد يكون في هذا المقال الذى كتبه العقاد في مستهل حياته الصحفية شئ غير قليل من التجنى على قدر الشيخ على يوسف ، وقد نعزو ذلك الى حماسة الشباب ، ولكنها لا تخرج عنذ اعن كونها متغفسا للفكرة التى آمن بها العقاد طوال حياته واتخذت سمت « المبدأ » الذى يناضل من اجله ويلقى العسف دونه . . . بيد ان العقاد قد انصف الشيخ على يوسف في آخر حياته في الفصل الذى كتبه في كتابه « رجال عرفتهم » ووضع ايدينا على « مفتاح شخصية » الشيخ على يوسف في كلمة « العصامية » حيث تصل العصامية أحياناً الى حدود المغامرة (٢) . . . وعندى أن العقاد انصف الشيخ على يوسف عندما كتب : « ان على يوسف كان يصنع « صناعته » الصحفية ليتعلمها الناس منه ، ولم يكن يتعلم تلك الصناعة على اساتذتها في الشرق والغرب ، ولا على أدواتها التى تملئها عليه (٣) » . وقد يخطر للذهن ان العقاد في مقالته حول تقدير الشيخ على يوسف ، يناقض نفسه حين يكتب هذا الكلام في شيخوخته عن الشيخ على وسف . . . والواقع انه ليس هناك تناقض فالعقاد عرف للرجل قدره في كلتا المسالتين ، واذا كان هنالك موجب للقول بالتناقض فهو حماسة الشباب للفكرة واتزان الشيوخ في تقديرها وإعادة النظر . . . ولكن مقالة العقاد في سن الحداثة هي وصمم للعصر الذى عاش فيه الشيخ على يوسف وتحطيم الاوثان التى عبدها الناس في هذا العصر ، وكان الحكام هم خالفى هذه الاوثان . . . فليس هناك تجن على الشيخ على يوسف وانما هو تقدير أى تقدير . . .

(١) انظر مقال العقاد في « تقدير الشيخ على يوسف » في الصفحات التالية :

(٢) انظر رجال عرفتهم (للعقاد) ص ١٦ .

(٣) صحيفة « عكاظ » العدد ١٤ يوم ٢٣ من نوفمبر ١٩١٣ .

وهذا هو نص المقال :

« تقدير الشيخ على يوسف » (١) .

« لا يقتنعى بأن الصحافة المصرية لم تجاوز بعد سن الحداثة مثل شيتين احدهما مماثلة المشتركين والثاني اعارة الصحف والمجلات » .

وكثيرا ما سأل الصحفيون : ما بال الصحافة المصرية مبتلاة بداء الطال من مشتركيتها حتى لا تكاد تظهر صحيفة الا صادفها من ذلك عقبات قد تقضى عليها او تلجئها الى غير مورد الصحافة ، وعدم الاعتماد على الاشتراكات وغيرها من المكاسب الصحفية ، ولا علة لذلك الا ان الصحافة لم تدخل في ضروريات المصرى بعد ، وانه لا ينتظرها كما ينتظر الرجل شيئا لازما لاغنى عنه ، ولا يتعقب اراءه انتعقب معتقد ان لتلك الراء سياسة به ، وخصلا في حياته .

تبلغ الصحافة هذه المنزلة في البلاد الاجتماعية ، واريد بالبلاد الاجتماعى ما تكون فيه جامعة بين سكانه محسوس بها ، وليس للمصريين هذه الجامعة ، وكاد لا يدور لها حبال في اذهان الكافة من أبناء وادى النيل . فانهم لا يزالون يرددون اسم المصرى ويتصدون به الولود في مدينة القاهرة وليس عندهم كلمة للتومية المصرية اللهم الا ما تلفتسه بعضهم اخيرا من مستحدثات الكتابة (٢) وما هم بالكثيرين في عداد الامة .

اما في الاوطان الاجتماعية فالصلة اقرب من ذلك وهناك يتربق القارىء الصحيفة كما يتربق الرسائل الشخصية ويرى في كل خبر رسالة من الامة اليه او منه الى الامة فلا يخطر لئله هذا القارىء ان يماطل الصحيفة في اجرها ولا يستحسن احد ان يستعير منه صحيفته ليقرأها كما يفعلون هنا لان الناس يخلجون من استعارة الضرورى الذى يمتقدون انه لازم لكل فرد من الناس .

ليست المماثلة من طبيعة المجتمع المصرى ، ولا الاستعارة من دينه لانا لا نسمع بالمماثلة في ثمن الخبر الا نادرا نراهم يستعرون الملائيس الا الحلى منها وذلك في القرى التى تعد الحلى من قبيل الزينة الكمالية ولكن النفوس مجبولة على الا تحسب حسبا لغير ما يلزمها ، والمصرى اليوم لا يحصى

(١) صحيفة « عكاظ » العدد ١٤ يوم ٢٣ من نوفمبر ١٩١٣ .

بالحاجة الماسة الى الصحافة ، فلا غرابة في أن لا يعد من دخله قحرا يدفعه الى الصحيفة متى طالبت به حقها عليه . . . نقول ذلك بمناسبة موت ذلك الصحفي الذي مال بعضهم في رثائه انه كبر بالصحافة وانه استمد نفوذه منها لنقول أن الصحافة المصرية ليست من القوة بحيث تكسب صاحبها نفوذا صحفيا كالذي يستخدمه شباب الفرنج ، وانه على كون الصحافة الانجليزية لا تنهى ولا تأمر ولا تنصح ولا تزجر فالكاتب فيها اكبر شأنا من الوجهة الصحفية من كاتبنا الذي لا يعمل في الصحافة على غير قلمه .

فليس الشيخ على يوسف صحفيا كبيرا . كلا ولا هو بالرجل الكبير وأن كنا لا ننسى انه ولد خاملا فمات شهيرا ، ونشأ النشأة الأولى فقيرا متربا ثم قضى نحبه مسموع الكلمة وجيها .

ولكن ذلك حسب الرجل من حياته ؟؟ او ليس على المرء الا ان يسعى لينجح فيذكر اسمه على كل لسان ثم لا يسوغ لأحد بعد ذلك أن يذكره بغير ادح والتسجيل ؟ .

ذلك مالا يقوله فائل فانما للنجاح وسائل كثيرة وأكثر من وسائله غاياته . وقد ينجح الرجل فلا يكون حظه من العظمة الا اسمها وزياها . وينجح غيره أقل من نجاحه فيكون نجاحه كأنه مخرج لما يمتلي به صدره ظاهر الود له ليستزيدوه منه ، ولكنهم لا يحفظون له جميلا لأنهم يعلمون أن جدوا عائدة عليه قبل أن تعود عليهم .

فالشيخ على قد افاد بعض الناس ولكنها فائدة لا صلة لها بحب الخير . فلم ينجح الموت فيه صديقا مخلصا . ومات فلم يبق له من أسدى اليهم البر بحق الوفاء . وفرق بين هذه الحالة وحالة العظماء الذين يخرجون من الدنيا وما تركوا فيها صديقا يبكىهم . لأن الناس قد لا يبكون العظماء لأنهم لم يفهموهم ، أما مؤلاء فليس عدم بكاء الناس عليهم الا لأنهم قد فهموهم حق الفهم .

ولقد أراد أكثر من كتبوا عن الشيخ على يوسف أن يستدلوا بوصوله الى منزلة ينفخ بها ويضر على نبوغ عظيم فيه . وليس أدل على الجهل بالنبوغ من هذا التقدير . فما يليق بالنبوغ وهو ثمرة الانسانية جمعا ، وابن الخلود بأسره أن يقاس بمقاييس المهارة في الوساطة عند فئسة من الرغبة في النفع وكراهة النقص وحب الكمال .

كنا ليلة دفن الشيخ على يرسف في مجلس مع بعض الاصحاء فقال واحد منا : اليوم يحزن فلان ، وعدد أسماء جماعة ممن كان الشيخ على سببا في إيصال النفع اليهم وتمهيد السبيل لهم . ثلث بل اليوم فليفرح هؤلاء . لأنهم لا يجنون للشيخ بالحب والإخلاص ولكنهم يدينون له بربا ذلك النفع ، ومادام حيا فهو يستأديهم ذلك الربا ، وإن مساعدة هؤلاء الناس لأصحابهم كمقاومة القامرين – يقرض أحدهم زميله ليسترد منه ماله وقرضه قبل ان يبرح مكانه فلا بدع ان كان أحدهم ينفقه بعد صاحبه كما ينفقه الغريم الخفاف . قال بعض الجالسين : لكأنك سمعت معي ما قاله أحد اصحاء الشيخ الأقريين فقد سمعته يعجب لنفسه كيف لم يغتم لموضة رجل كان موضع سره ، وشريكا له في أكثر مساعيه ، ويقول انه مهما بلغ من جلد لفراق الاصحاب ، فما كان يحسب انه يتأبل موت ذلك الصديق يمثل هذا الفتور . وقال : لقد حضرت اليوم الجنزة فرأيت غلانا يتأبط ذراع بعض اخوانه وعما يتغامزان ويضحكان . وما كنت اتوقع ان اراه في ذلك المشهد الا باكيا أو خائسا . وفلان عذا الذي رآه محدثنا رجل جرى له على يد الشيخ رزق لا يقل عن خمسين جنيتها مشاهرة .

ولا عجب في هذا الكنود فان الناس يجبون من ينفعهم اذا كان يسره صادرا عن حب لهم . وإما ان كان لغير ذلك فهم يتيلون بره ويحافظون على من الناس في فترة من الزمن ، ومن ثناء فلينظر الى اضراب الشيخ على ممن وصلوا معه الى مثل منزلته بحد بينهم من ليس له في الدبوغ اقل دعوى ، ومن ليس هو من رجال الادب ولا من رجال العلم أو العمل ، ولا يفكر في ان يكون أحدهم ، ولكنه مع هذا ينفخ ويضر ، والناس يزدرونه ولكنهم يرجون منه ويخشون . انما يعين هؤلاء على النجاح تنشأة نشاوما لم تجعل لمبادئ الكرامة سلطانا على عقولهم ، فخف على اقدامهم وقر الذمم فنهضوا ، ومن يراجع سير العظماء الاجلاء وينعم فيها النخر ان اصعب ما كانوا يعانون من العرائيل والعقبات هو ما تضعه امامهم ضمامتهم ووجداناتهم لا ما تقيمه في طريقهم اعداؤهم ومنافسوخم ، ولذلك يبل بين ذوي التربية العالية من ينجح في هذه السبيل نجاح اناس هم دونهم ذكاء وقعدة وخالقا .

ولا ننكر على الشيخ ذكاءه ولكننا لا نستطيع ان ندعوه سموا في اللب . او سعة في الذهن ، وانما هو عنسدى اشبه بالحقق في حرفه من حرف الكسب ، وهناك نسبة بين هذا النوع مراوغة اعدائها والامن على حياتها .

ولو كان للرجل سامي اللب واسع الذهن لكان تقديره للمظلة أسمى وأكبر من تلك الغاية التي نصبها غرضاً له في حياته ، ويذلل كل ما يميز على النفس بذله لأجل دركها .

ولو أن الشيخ على جدد موته هذه الأيام لما دخلني الريب في أنه لا يتسدر لي أن يبعدهما كما بداهما ، أو أنه كان على الأمل لا ينال من السمعة ما قد ناله بين أرباب الأقلام .

اصدر الرجل جريدة الآداب ، وكان كل من يكتب من أبناء مصر يومئذ كاتباً كبيراً لأنه ليس بمن هو أصغر منه ، وكان الأدب لذلك العهد في حضيض من الانحطاط يقرب من الموت فلم يكن في البلد كتاب ولا شعراً ، وكان أكثر الناس لا يكتبون ولا يقرأون . ولم تخرج المطابع بعد فائض من الأدب العربي القديم فيتحذها الناس معياراً يقيسون عليه مقدرة الأدباء ، إذا اعوزهم الخلل من كتاب عصرهم وأدبائه ، فكان الذوق الأدبي معتلاً والحاجة إلى الكتاب شديدة ، وفي ذلك العهد كتب الشيخ على يوسف ، فاستحق التفات رياض باشا وفتح له ذلك الالتفات باب الأمل فلم يقتصر في سعيه إلى غايته .

وكان الشيخ على يقترض الشعر ليمدح به السراة والأغنياء كما كانت وظيفة الشعر في تلك الأيام فلما حصل من الكتابة على ما تغنيه عن طرق هذه الأبواب رأى أنه لم تعد به حاجة إلى الشعر فتركه ومضى في الكتابة . فاصبح بعد مزاولتها عشرين عاماً اخصائياً في باب من الكتابة الصحفية إذا تخطاه زل به القلم .

وقد عنف بعضهم عليه في حياته لانقلابه على رياض باشا . وقالوا لقد رأينا الرجل أياماً لم يبق أحد الا قد احسن إليه ثم رأيناه أياماً لم يبق فيمن احسنوا إليه أحد الا قد اساء إليه بقلمه أو بمكيدة .

ونحن لا يهمنا تكرانه جميل هذا الانسان وذلك ، بل قد نرى له بعض العذر في الارتداد على فريق منهم فلقد ساعده وهو فقير خامل فلما أصبح من أهل الرتب والوجاعة أبوا أن يعرفوا فيه الا ذلك المجاور القديم الذي كانوا يعرفونه من قبل . وأبى هو أن يذكر الا هذه المكانة التي جاهد لها ذلك الجهاد ، فكانوا في امتنانهم عليه أحق باليوم منه في جحوده لأبيادهم عنده .

والتي ليشق على أن لا يجد له عذرا من نقیصة غیر هذه وأن لا يكون في نفس ميل إلى احترامه ، وليس في وسمى أن أنعتته بتلك النعموت التي جمعوا فيها كل مزية من المزايا الموزعة بين كبار رجال العلم ، ولست أعلم لماذا يمحو الموت السيئات ويكرر الحسنات ؟؟ ولماذا يبتقى الحكم للتاريخ البعيد ونحن أقدر على أن نرى الحقيقة عن كذب ؟! إلا أن أحق موقف بأن تتعبد فيه السيئة إلى جانب الحسنة هو موقف الرضاء ، وذلك أمر عدى إليه الناس منذ فقهوا معنى الثواب والعقاب ، فقد كانت عقيدة الحساب بعد الدفن من أوليات المعتائد التي تخيلها الناس في أقدم الأديان الوثنية ، ولو تفاضينا عن النقائص والمعائب لجللت حكمة الذكر وللحق الخبيث بالطيب ، وما كان التساهل في النقد والمؤاخذه محمودا في وقت من الأوقات ، ناهيك به في وقت طمس عالم الضمائر وضلال الأبصار والبصائر، عذا أن كنا لا نحب أن يبلغ من فساد وقتنسا أن يغتم فيه المرء قبض الرذيلة والفظة حيا وميتا .

وغاية ما يقال أن الشيخ على يوسف جرى حياته وراء مآرب تستهوى أمثاله فاستطاع قضاءها ولكنه لم يستطع أن يكون عظيما حتى ولا في قلوب أشياعه ولتباعه . انتهى » .

« عباس محمود العقاد »

في المؤيد

ذكرنا في الفصل السابق أن الحاشية الخديوية لم تنس للمعاد موقفه من فضائح ديوان الاوقاف ، فأخذت تبييت له كي تخرجه من عمله ٠٠ وبخاتير أحمد حافظ عوض الذي أصبح المحرر الاول لصحيفة المؤيد والذي زين له الاستقالة من وظيفته ليعمل مشرفا على صفحة الأدب استقال المعاد فعلا وعمل بها ٠٠

ويذكر المعاد أن السبب المباشر لمودته الى العمل الصحفي محررا بالمؤيد ، قصيدة نشرها المؤيد ٠٠ ونظلمها شاعر من شعراء السكرتارية بنظارة الاوقاف ، وهو المرحوم عبد الحليم المصري الذي كان يتطلع الى الى مكان « شوقي » في القصر الخديوي ، ووصل اليه ولكن بعد زوال الخديوية ٠

« نظم عبد الحليم المصري قصيدة من أحسن قصائده عن الخصيب أمير مصر في أيام الدولة العباسية ، وقال فيها عن شاعر النيل :

وشاعر النيل دون الخلق يشربه

بينما يشق الصدى منا الحشاشات

وما كان يعنى في الحقيقة غير الخديو عباس وشاعره أحمد شوقي ، وما كان بالقارىء من حاجة الى البراعة لفهم هذه المواربة المكتشوفة ٠٠ فقد فهمها كل قراء المؤيد من الأدباء ولم يخف مقصدها على أحد غير محرر المؤيد الأول في تلك الآونة : أحمد حافظ عوض الذي ترك منصبه في قصر عابدين ليشراف على تحرير هذه الصحيفة في أدق مرحلة من مراحلها وخاتمتها ٠٠

« أولا تنشر تلك القصيدة عن الخديو وشاعره الا في المؤيد دون غيره من الصحف اليومية والاسبوعية ؟ ٠٠

نصيحته من فضائح الصحافة والأدب لم ينم لها حافظ عوض ، ولم ينم لها شوقي ، ولم تنم لها نظارة الاوقاف ٠٠ وأولهم ناظرها في ذلك الحين

- محمد محب باشا - وقد كان متهما في الحاشية الخديوية بمحاسبة الانجليز ٠٠ « (١) »

وشامت الظروف أن يستدعى « احمد حافظ عوض » العقاد للعمل في المؤيد حين لقيه في مكتب وزير الاوقاف احمد باشا ، زاعما ان صفحة الأدب في المؤيد تحتاج الى اديب يتفرغ لها ، و لا ينظر في عمل من اعمال الصحيفة غير كتابتها أو الاشراف على ما يكتب فيها ٠٠

وقال له حافظ عوض : « ولو كان وقتي يتسع للتفرغ لهذه الصفحة لما استغفنتي هذا « الوليد » ودس علينا تلك القصيدة المسمومة التي جعلتنا سخرية المجالس الأدبية » (٢) .

وبطبيعة الحال لم يتردد العقاد في قبول الدعوة الى تحرير الصفحة الادبية في « شيخ الصحافة العربية » لأنه لم يكن يطمح ، وهو لم يناهز الرابعة والعشرين ، الى عمل أهم من هذا العمل في الصحافة ٠٠ ولم يكن عمله في نظارة الاوقاف مرضيا له في حياته الادبية ولا في حياته المعيشية، ومن هنا لم يتردد في قبول دعوة حافظ عوض ، للعمل في المؤيد ٠٠

وعمل العقاد في « المؤيد » في ادق مرحلة من مراحل تاريخه ، فقد وافقت هذه المرحلة الشهور الاخيرة من تاريخ الخديوية المصرية قبل الحرب العالمية الاولى ، ولم يقض العقاد في المؤيد شهرا او شهرين حتى ماجت الدار بالحركة التي شغلت رئيس التحرير عن الدار وعن صفحاتها الادبية وصفحاتها الاخرى ، فقد كان الخديو يعلم أن لورد كتنشتر يصير على خلمه ويرشح للخديوية أمير من امراء بيت حلیم ، وكان يعلم أن كتنشتر لن يغلبه بقوة غير قوة الخلافة في الاستانة او قوة الراي العام في مصر ، وفي ظليعتها قوة المعارضة من قبل الجمعية التشريعية ٠٠

وقد سافر كتنشتر في تلك السنة على السعي الحديث عند حكومته لافتعاعا بخلع الخديو . وعلة هذه النقمة هي في الحقيقة بقايا تلك الحفيظة القديمة التي تركت الرجلين عذوين لا يتصافيان بعد أزمة الحدود . اما العلة الاخرى ، العلة التي كان يتنزع بها لاتنصاع حكومته فهي سكة حديد مريوط

(١) المرجع السابق : حياة تلم (للعقاد) ص ١٤٠
(٢) المرجع السابق : حياة تلم (للعقاد) ص ١٤١

وما كان يشاع يومئذ من التفاوض بين الخديو وأحدى الشركات الإيطالية
لشراؤها ومدها إلى الحدود الغربية (١) .

وقد احتاط الخديو لقوة الخلافة بسفره في تلك السنة إلى الأستانة،
وعدل عن زيارة المصانف الأوروبية كما حدثه في السنوات الخالية ، لأنه
تسدر أن تسعى الحكومة البريطانية عند « الباب العالي » في مسألة خلعه
إذا اقتنعت برأى مندوبيها فأحب أن يكون على مقربة من الباب العالي
ليستطلع الخبر ويحسن العلاقة بينه وبين رجال الحكومة التركية ، وببذل
ما في وسعه لأحباط سعى الإنجليز ، وهو لا يجهل أنهم لا تون من الصدر
الأعظم سعيد حليم أنما صاغية في تلك الآونة ، لأنه كان يطمع في
الخديوية (٢) .

وأما قوة الرأي فقد احتاط لها برحلة شعبية في الوجه البحري يريد
بها افتتاع الإنجليز بأن البلاد تحبه . وتتعلق به ، غطاف الأقاليم البحرية
وزار حواضرها وقراها ، واغتبط بما رآه من مظاهرات الشعب والوظفين ومن
تسابق الوجها ، والسواد إلى استقباله وإقامة الزينات في طريقه ، وكان
عظيم الرغبة في نفى كل ما قيل عن الخفاء بينه وبين وكيل الجمعية
التشريعية والبارزين ، فأرسل إلى سعد زغلول أنه يريد أن
يراه في بلدته إبيسانة (٣) .

وقام الخديو بزيارة لطفي السيد في قريته كذلك . واتم الخديو عباس
حلمى الثاني رحلته ، مؤمنا بأنه لنقى من ولاء المصريين له والخلصهم لعرشه
مالا مزيد بعده مستزيد ، ولم يسدر بخلد، يوما أنه يوم يغادر مصر إلى
مضيف الاستانة يجد من أبناء هذا الشعب الذى احتفى به كل هذا
الاحتفاء من يحاول الاعتداء على حياته ، فيطلق عليه رصاص مسدسه
فيصيبه إصابة شديدة وإن لم تكن مميتة ! لكن هذا هو الذى حدث ونقلته
الأنباء إلى العالم (٤) ، وعلى أثر ذلك سافر عشرات من المصريين إلى الأستانة
يرغمون غروض الولاء إلى صاحب عرش مصر ، ويؤكدون له مرة أخرى أن
العناصر الرشيدة في الشعب المصرى تضمحل له كل ولاء وكل لخلص (٥) .

(١) المقاد : سعد زغلول سيرة وتحية ص ١٧٥ .

(٢،٣) المقاد : سعد زغلول ص ١٧٥ .

(٤) المقاد : نفس المرجع ص ١٧٥ .

(٥) محمد حسين ميكل : مذكرات في السياسة المصرية - ص ٥٩ .

أيا كان أمر هذه الرحلة التي تام بها الخديو في الوجه البحري ، فإنه لم يشأ أن يؤتمن على مراسلة « المؤيد » بأخبار الرحلة أحد أقل من رئيس تحرير ، فأخذ حافظ عوض في ركابه ، وجاء حافظ عوض إلى العقاد في مكتبه بالمؤيد قبل سفره يمهّد للطلاب الذي يريده منه : وهو تنقيح أخبار المراسلين بالصيغة الأدبية وانتظار الرسائل منه إرجعتها قبل إتيانها في الصحيفة بالصيغة الأخيرة وهي الصيغة التي سنظهر بها في كتاب يسمى « كتاب الرحلة الذهبي » وأناب عنه العقاد في تحرير « المؤيد » في اثنا غيبته .

ومن الغريب أن يكون أحمد حافظ عوض هو السبب في استقالة العقاد من المؤيد ، حين توأما مع من استغل اسم العقاد من المحررين في قبول الهدايا والرشوة من المشتركين في « المؤيد » والكتاب الذهبي وما يحمل للخديو من مبايعات ومن آيات الشتا ..

وقد اكتشف العقاد هذا التواطؤ عليه حين ضل أحد مؤلاء المشتركين طريقة إلى حجرة العقاد بدلا من حجرة الحر الذي كان منوطا به أن يتسلم الرسائل وتسليمها إلى العقاد بقائمة مكتوبة لإيداعها في ملفاته إلى حين الفراغ من تدوينها . فعلم من خلال كلام المشترك الموعود أنه أعطى الحر المنوط بتسلم الرسائل عشرة جنيهات باسم العقاد ، وأنه حضر في ذلك اليوم ومعه شئ زعيم على سبيل الهدية : ساعة وسلسلة ذهبية .. وللعقاد بعدها هدية على « قد المقام » بعد ظهور الكتاب (١) .

ويذكر العقاد أنه ترك « الملفات » في أماكنها ريثما يعود رئيس التحرير من الرحلة ، وعاد رئيس التحرير فاعتذر له العقاد عن العمل في الكتاب وأبلغه ما سمع ، وقال له أن محرري المؤيد أحرار فيما يأخذونه ويدعونه ، ولكنهم لا يملكون أن يزوجوا باسمه في معاملاتهم ومبايعاتهم ، ويحق له إذا فعلوا ذلك أن يصحح ظنون الناس ، وسيتترك له - أي لرئيس التحرير - أن يختار طريقته لتصحيح هذه الظنون ..

فتجهم رئيس التحرير وتوعد الحر المسئول بالويل والثبور ، ووعده أن يكتب غدا في المؤيد كلمة تزيل اللبس وتبعد الشبهة عن العقاد في أمر الكتاب ووسائله واشتراكاته ورجاه أن يغض النظر عن المسألة ولا ينقطع عن العمل في الكتاب .

(١) آخر ساعة في ١٦ أكتوبر سنة ١٩٥٧ .

ولكن حدث بعد ذلك أن شاعدا العقاد رئيس التحرير في مساء ذلك اليوم متابعين ذراع البحر « انتهم » وهو مقبل عليه بالضحك والحديث . ثم صدر المؤيد في اليوم التالي وليس فيه كلمة عن الاشتراكات ولا عن تصحيح الظنون (١) .

وغضب العقاد لكرامته ، فترك « المؤيد » إلى غير رجعة ، مؤثرا الجوع على المصادقة .

ومكذا نجحت الحاشية الخديوية في الأمر الذي بيته له ، فخرج من وظيفته الحكومية ، واستقال من « المؤيد » . وليست امامه وجهة يقصدها غير الحفاظ على كرامته .

وبعد استقالته من تحرير « المؤيد » أقام أياما في القاهرة على نية الرحيل إلى اسوان ، وقد منى نفسه موسما كاملا من المراسم الجميلة في مدينة الشتاء ، ورسم برنامجه لذلك الموسم بين المظلة والتأليف والرياضة والبحث عن التاريخ الطبيعي ومضامين الآثار في اسوان وهي غنية بالمضامين المعلومة والمجولة من أيام الفراغة إلى أيام المالحية إلى أيام الدولة العثمانية (٢) .

وعناك انتهى العقاد من تأليف كتابه « ساعات بين الكتب » سجل فيه خلاصة ما قرأ وتعليقاته التي وقعت في خاطره وأطلع عليها أثناء القراءة ، وكان حذف العقاد من تأليف هذا الكتاب أن يصل بين عالم الكتب وعالم الحياة ومن آراء المؤلفين وآراء القراء ، كما بحث له من النظر والمراجعة والإحاديث ، وكان الكتاب يشتمل على خمسمائة صفحة أودعها ثمره إطلاع وتامل في مذاهب الفكر الحديث ، وأولها مذهب داروين ومذهب نيتشه في السوبر مان غير أنه بعد اعداده للطبع فقد منه مرتين ، ولم يبق من هذا الكتاب الضخم سوى خمسين صفحة ، ومن هنا فإن هذا الكتاب هو غير الكتاب الذي نشره بنفس الاسم في سنة ١٩٢٩ .

ونستطيع أن نقول أن هذا الكتاب المفقود قد نشر العقاد منه متفرقات في مجلة (البيان) لصاحبها الشيخ البرقوقي ، فقد نشر مقالة بعنوان : « الأديب المصري » (٣) ، ذيلها الحرر بهذا التنويه .

(١) آخر ساعة في ١٦ أكتوبر سنة ١٩٥٧

(٢) آخر ساعة في ١٦ أكتوبر سنة ١٩٥٧

(٣) البيان السنة الثالثة الجزء ٨ ص ٤٥٦ بتاريخ ١٥ ديسمبر ١٩١٤ .

« يقيم الأستاذ المعتاد الآن في مسقط رأسه اسوان . ويشغل بوضع كتاب له اسماء (ساعات بين الكتب) ولقد أخذ (البيان) عيافته ان يطوف قراءة من حين الى آخر بخطرانه حتى لا يحرم قراء العربية حسنات هذا الكاتب الذى ايت عليه نفسه ان يلبس هذا العالم المتكوس :

عالم اشبهوا القروود ولكن خالفوه في خفة الارواح

فاختار ان يقيم بعيدا عن المدينة وما فيها من الكتود والنفاق وسقوط الهمم ونستغفر الله » .

ويمكن القول أن صلة المعتاد بالصحافة لم تنقطع بذمائه الى مسقط رأسه ، فقد اتصل بها بصورة اخرى وهى صورة « المصاحف » الطليق ، فأخذ يكتب الفصول والفتايات فى مجلة البيان من جديد ، ونحن نزعج أن الفصول التى نشرها فى البيان فى هذه الفترة هى من فصول ذلك الكتاب المفقودة والذى لم ير النور ، ونذكر منها مقالة « الرحمة بين اليقظة والناسم » (١) ، ومقالة « الأديب المصرى » وكتابات عن الخيام وغير ذلك .

(١) البيان للسنة الثالثة الجزء « ٦ » .

الفصل الثالث

في الحرب العالمية الاولى

١٩١٤ - ١٩١٨ م

تشبت الحرب العالمية الاولى في الرابع عشر من شهر يوليو ، ولم تدخلها بريطانيا الا بعد ثلاثة اسابيع في الرابع من أغسطس ، وظلت تتردد بنياتها في اعلان نياتها بمصر الى أن أعلنت الاحكام العرفية بها في ثانی نوفمبر ، ثم أعلنت قطع علاقاتها بالدولة العثمانية ، وأرسلت دار الوكالة البريطانية الى حسين رشدي باشا القائم مقام اخذيو تيلغه : « ان السلطة فيما يتعلق بالوسائل الحربية اللازمة للدفاع عن التطر المصرى وبالتدابير التى يستدعيها هذا الدفاع أصبحت منحصرة في يد القائد العام وان حضرات النظار لا يزال كل واحد منهم حافظا للسلطة التى له في الأمور الملكية الخاصة بنظارته (١) » .

وفي الثاني من نوفمبر أعلنت الاحكام العرفية ووضعت الرقابة على الصحف تبعا لاعلان الاحكام العرفية (٢) .

وفي الثامن عشر من ديسمبر أعلنت الحماية البريطانية على مصر ونشرت « الوقائع المصرية » في اليوم نفسه اعلان الحماية ، وهذا نصه :

« اعلان بوضع بلاد مصر تحت حماية بريطانيا العظمى »

« يعلن ناظر الخارجية لدى جلالة ملك بريطانيا العظمى انه بالنظر الى حالة الحرب التى سببها عمل تركيا قد وضعت بلاد مصر تحت حماية جلالته ، وأصبحت الآن فصاعدا من البلاد المشمولة بالحماية البريطانية » .

(١) المقاد : سعد زغلول ص ١٧٨ .

(٢) ثورة ١٩ - الرافى - ج ١ ص ١٤ .

« وبذلك قد زالت سيادة تركيا على مصر ، وستتخذ حكومة جلالته كل التدابير اللازمة للدفاع عن مصر وحماية أهلها ومصالحها (١) » .

« وكان الخديو عباس حلمي الثاني غائبا عن مصر وقت نشوب الحرب، فمضى إلى الأستانة في أوائل الصيف ، وبقى بها إلى أن أعلنت الحرب بين إنجلترا وألمانيا ، وتردد في عودته إلى مصر ، رغم الحاح رثدي باشا عليه في ذلك ، ولما اعتزم الرجوع إليها أظهرت الحكومة البريطانية رغبتها في عدم عودته ، إذ كانت نيتها مبيتة على خلعها ، ففي اليوم التالي لإعلان الحماية ، أعلنت خلعها ، وتوليه الأمير (السلطان) حسين كامل عرش مصر (٢) » .

وعقب إعلان الحرب العالمية الأولى ترك لطفي السيد صحيفة الجريدة ، لإيمانه بأن الكاتب المتباعد لا يستطيع أن يكتب شيئا ذا قيمة . لذلك أقر الانسحاب من الميدان السياسي والصحفي ، وذهب إلى برلين ، تربيته ومسقط رأسه ، وترك الجريدة يتولى شؤونها عبد الحميد حمدي أحد الخريجين فيها (٣) . وما لبثت الجريدة أن توقفت عن الصدور لاضطراب أمورها .

أما الشعب آخر صحف الحزب الوطني قبل الحرب فبعد أن نالها الكثير من الاضطهاد أثر محررها أمين الرافعي أن يجبرها عن الصدور في نوفمبر ١٩١٤ ، وكان الغرض من هذا الموقف أن لا ينشر في « الشعب » إعلان الحماية المرتقب على مصر وما سوف يتبعه من بلاغات رسمية لسلطات الاحتلال .

كان هذا الاحتجاج أول احتجاج من مصر على الحماية البريطانية ، وقد وقع في الوقت الذي بلغت فيه صحيفة « الشعب » ذروتها من حيث الانتشار والرواج والمكانة الصحفية ، إذ كانت أوسع الجرائد انتشارا ، وكان الجمهور يتلفقها بلهف زائد ليتعرف منها أنباء الحرب العالمية ، ويتحسس فيها

(١) الرافعي : ثورة ١٩١٩ الجزء الأول ص ١٤ .

(٢) الرافعي : المرجع السابق ص ١٩ .

(٣) هيكس : مذكرات في السياسة المصرية ج ١ ص ٧٠ .

اتجاه الناحية الوطنية ، فكان إيقاف صجورها تضحية مالية كبيرة (١) .
وهذا موقف فريد في تاريخ الصحافة ، وبرز وطنية هذا الصحفي ومبادئه ،
وكان من نتائج هذا الموقف اعتقال صاحبه نحو عام .

وهكذا لم يبق بمصر من الصحف الكبيرة سوى تلك التي لم تصطبغ
بالسلطات بسبب مهادنتها لها أو لين لهجتها ، مثل « الأعرام » و « المقطم »
ذ القاعة و « الأعالى » في الإسكندرية . أما « المؤيد » فقد أغلقت وبيعت
معداتنا في سنة ١٩١٦ .

وخضعت مادة ما بقي من الصحف أو ما صدر منها في أثناء الحرب
لسيطرة الأحكام العرفية ، فاختلفت بذلك تيارات الكفاح السياسي من الصحف ،
ولم يبق من الاجتماعات الصحفية إلا ما شايح السياسة البريطانية
وتحسس لها طوعا مثل « المتظم » و « الوطن » . أما سائر الصحف فاكثفت
بعرض الأحداث المالية من وجهة النظر البريطانية فمؤثر كظم الرقيب
أثـره واضحا في ذلك البيضاء الكثير الذي كان يتخلف عما يحذنه من مواد
الصحف ، التي كانت السلطات ترى عدم السماح بنشرها .

أدركت الحرب العالمية الأولى عباس العقاد وهو في اسوان ، وأحس
تـيل أن يحسوا بها في سائر البلاد المصرية ، لأن اسوان على ملتقى الطريق
بين مصر والسودان وملتقى الطريق بين النيل والبحر الأحمر من جانب
الصحراء ، ومرجع الأحكام العرفية فيها إلى رئيس انقليص بعيد من الرقابة
مطلق التصرف في الاوقات التي تشغل الحكومة المركزية عن تفصيلات الشؤون
الادارية في الاقاليم . . . وقد نابهم ما نابهم من الأسـلطين على الرقاب تحت
حمايتهم ، بعد اشتداد الحركة الوطنية وتتابع القوانين والامور المتبعة لحرية
الحكومين ، فلما تفررت الاحكام العرفية بكل قسوتها وصرامتها بعد شذوع
العمل بالتقوانين المتبعة للحريات اوشكت الرغبة في الاستبداد أن تصبح موصا
في نفوس بعض « الحكام » . . . ولا سيما الحكام الذين بدا لهم أن الفرصة
سائحة لاستغلال هذا السلطان المطلق طمعا في الكسب وشغافا للضعائن
والأهواء ، وماذا يمنع الرشوة أن ترفع رأسها وتصبح بين الزوايا وفوق
الجدران إذا كان أداء الرشوة هو البديل الوحيد من النفي والاعتقال بغير
تحقيق ؟ . . . وماذا يفيد التحقيق إذا كانت « شبهة » الحركة الوطنية كافية

(١) آخر ساعة في أكتوبر ١٩٥٧ .

لاعتبار « المتهم » من ذوى الخطر والسابقة المحذورة ؟ وكانت هذه الشبهة لاصقة بالكثيرين من المصريين ؟ (١) ..

واستمرت السلطة العرفية تسجن وتنفي الوطنيين المخلصين الى اوربا او الى مالطة ، وكان ممن نفتهم الى الجزيرة الاخيرة (مالطة) ناظر مدرسة الموضة الاسلامية باسوان ، فخلفه العقاد في عمله تحديا للسلطات، وقد استبد مدير اسوان وبطانته بالشعب هناك استبدادا عنيفا ، من مظاهر هذا الاستبداد ، تجنيد اجبارى لفرقة العمال واعتقال متكرر لشبهة ولغير شبهة ، واتاوت تفرض لعله من الملل المخفزة ، تبرعا للصليب الاحمر ، او ترفيها عن المرضى والجرحى او مساعدة على مشروع كائن ما كان من مختلف المشروعات ، واصبح كل طالب انذارا بالتهمة المحكوم فيها بغير استئناف ، او انذار بالسداد في غير تردد ولا مساومة ..

وقد كان في تصور العقاد انه لن يكتب الى الصحافة ، وانه في اجازة عنها الى موعد غير مسمى ، اللهم الا اذا عاد اليها بقصيدة من الشعر ومقالة في حكم القصيدة الشعرية توحى بها لمحة من لمحات الخاطر او عارض من عوارض الشعر ..

ولكن وقد شاهد هذا الاستبداد من مدير اسوان وبطانته بالشعب ، ماذا يكون موقفه ؟ وكان مدير اسوان وبطانته يؤمنون ناديا ويؤمه مهمم بعض سراة البلدة . تعدوا فيه اباح الى ما لا يباح .. فتكلم العقاد باللسان ، وتكلم بالقلم كاتبا الى وزير الداخلية والى السلطان .. وكتب مقالة قرئت مخطوطة قبل ان تنشر مطبوعة ، ولم تزد نسختها المتداولة على عدد اصابع اليدين ، تلك هي مقالة « نادى المعجول » التى لوشك العقاد ان يذهب من جرائنها منفيا الى مالطة ، وهو احوج ما يكون الى الراحة والمقام باسوان ..

ويقول العقاد ان القافية هي التى قضت قضاءها في الموضوع - ولا تضياء لى فيه ولا مشيئة - فخرج الموضوع كما ينبغي ان يخرج مقامه فكاعية

(١) آخر ساعة في أكتوبر ١٩٤٧ .

او قصيدة منشورة ، يقرأه من خلا ذهنه من « بالوضوح » فلا يشم منها رائحة الحدة التي يجترى، بها الفائل على الحكم المرقي الخيف ولا على الحكم القانوني الحليف .. ويتأرأما من أمثلا ذهنه « بالوضوح » فتغريبه بحفظها وترديدها ، وهو يسأل الله السلامة من تلك العجول » .

ويستهل العقاد مقامته الاداعية بقوله على لسان اديبر رئيس النادي

« ايها السادة .. ان العجل مدني بالطبع . ونحن معشر العجول تد ميزنا الله على بنى آدم بضخامة الاجسام ، وصلابة القرون .. وقد عبر بهؤلاء الناس زمان كانوا يعرفون فيه بأسنا ويتسحون بإذاننا ، حتى ايقنوا ان لن يقوى على حمل هذه الدنيا أحد سوانا ، فميجونا من غرط الاجال .. وسبحوا أنسا بالعشى والأصال ، وكانوا يحسدوننا على قروننا فدعوا اكبر أبطالهم وأشدهم بأسا وأرفعهم ذكرا – أعنى الاسكندر المقدوني – المعروف بذى القرنين وما اسكندرهم هذا وما قرناه ؟ ان اصغر عجل فينا ليهشم رأسه اذا ناطحه ، ويجند له اذا واثبه او صارعه ، فاعجب لك ايها العجول لا تذكرين ذلك الجند الخالد فتقام لك الصوامع والمعابد ، بدل النوادي والمعاهد .. »

وشاعت الشهامة اللاذعة على كل لسان ، فاستشاط اديبر غضبا واستعدى عليه مفتش الداخلية الانجليزى ، فحددت اقامته ووضع تحت مراتبه شديدة ، وقد تمثلت نجاته من النفى حينذاك بهروبه من اسوان الى القاهرة وصدافته وكيل وزارة الداخلية آنذاك الأديب جعفر والى باشا ، الذى وقف على تلفيقات مدير اسوان والمفتش الانجليزى فى التقرير السرى الذى يكتب عن العقاد ، والذى يمتثل فى ان العقاد يدير المؤامرات ويشير الخواطر بالأحاديث التى يذيعها ويستحق من اجلها التعجيل بالاعتقال والذى من الديار .. وذلك فى الوقت الذى يصطحب فيه وكيل الداخلية العقاد كل يوم الى مكتب المستشار ليطالعه على تنفيذى حكام اسوان (١) .

وقد حاول جعفر والى ان يعينه فى الرقابة على الصحف وتقل العقاد ، غير أنه لم يمض فيها سوى ستة أيام ، اذ توالى عليه التنبيهات بأن أخبارا تنشر وكان ينبغي الا تنشر ، واصطلم به الرقيب الانجليزى ، فقدم استقالته وقبيل فى الحال .

(١) آخر ساعة فى أكتوبر ١٩٥٧ .

وقد قبل العقاد العمل بالرقابة على الصحف في هذه الفترة الحرجة ،
لاعتباره اياما من المصالح العامة في أوقات الحروب ، وكان هدفه العطف على
الصحافة ورعاية مقتضى الحال . .

ويذكر العقاد عن تجربة العمل بالرقابة على الصحف أنه بعد ثلاثة أيام
جاء تنبيهه وسؤال عن بعض الاخبار التي تركها للنشر وتحقق أنه لم يحذفها،
وبعد يومين او ثلاثة جاءت دعوة الى مكتب مستر « مور نيلور » الرقيب
العام يتقدمها حديث مقتضب من « يوسف خلاط بك » فلما دخل المكتب
سأله مستر « مور نيلور » هل راجعت هذه الاخبار ؟ وتقدم اليه
رزمة جذاذات الصحف اليومية الأسبوعية .

فقال بعد إحالة النظر فيها : نعم .

فعاد يسأل : وكيف تبيع نشر الاخبار المقلقة التي من هذا القبيل ؟

قال العقاد : انها تباع فيما اطلع عليه من الصحف الانجليزية .
ويباح لتلك الصحف ما هو أخطر منها بكثير .

فصاح متعكبا : الصحف الانجليزية ؟ ثم أردف قائلا :

— حل أنت من الحزب الوطني ؟

قال العقاد : أنا مصري وطني بطبيعة الحال .

قال له : اذا كنت لا تهطف معنا فلماذا تتولى هذا العمل ؟

فاجابه العقاد بكلام فحواه انه لا يفهم المعسود بالمعطف معهم ، ولكنه
لا يبقى في هذا العمل اذا كان يتطلب منه شعورا لا يفهمه ، وله أن يتقبل
استقالته مشكورا على قبولها (١) . .

وعمل العقاد بعد ذلك هو وصديقه المازني مدرسين بال مدرسة الإعدادية
الثانوية الاعلى ، ونشر حينئذ « الشئور » و « مجمع الاحياء » والجزء الأول
من ديوانه .

ولم ينقطع العقاد عن الكتابة الأدبية في المجلات ، ونشر في مجلة
المقتطف ليعقوب صروف فصولا منها فصلا وازن فيهما بين فلسفة أبي العلاء
وفلسفة شوبنهاور ، كانا موضع اعجاب يعقوب صروف ، ونشر كذلك مقالا
عقب به على فصل كتبه الانسة مي زيادة عن فلسفة برجسون .

(١) أحرر ساعة في ٣٠ أكتوبر ١٩٥٧ .

وعرض عليه الدكتور يعقوب صروف أن يعمل مراسلا حربيا تحت القيادة العسكرية الانجليزية لمنطقة الحدود المصرية الشرقية ، ولكن العقاد بادره بأن واجب الدفاع عن الحدود ينبغي أن يكون لصر وحدهما وأبى له شرفه الوطني تلك الوظيفة ..

واستغل العقاد مدرسا بمدرسة وادى النيل الثانوية بجوار محطة باب اللوق ، وأمضى في التدريس سنتين مع صديقه المازنى في مدرسة بعد مدرسة من المدارس الثانوية الكبيرة ، وقد جرت عادتهما على أن ينتهى عملهما في كل مدرسة بأزمة من ازمات الخلاف على تصحيح أوراق الامتحان ، لانهما قد دأبا على تصحيح الاسئلة والاجوبة في أوراق الاجابة ، وهذا بطبيعة الحال مناف لما درجت عليه الوزارة بالنسبة لأوراق الامتحان التي تودعها في خزانها بعد الامتحان وتنتظر اليها كأنها أوراق الرصيد المنتظر في حساب المصروفات (١) . وخرج الاثنان من التدريس بعد حدوث الازمة السنوية الخالدة حين آن أوانها القدور .. واتفقا بعد خروجهما من مهنة التدريس على سككى الامام الشافعى حيث تقويم أسرة المازنى من زمن بعيد ، وقدرا أن اختزال النفقات المعيشية بالسكنى بين عالم الموت وعالم الحياة قد يغنيهما عن التعجل في طلب العمل بضعة أشهر^(٢) الى أن يفرجها ربك بعد ذلك أو قبل ذلك كما يشاء (٢) .

وفي هذه الأثناء وجد المازنى العمل ناظرا للمدرسة المصرية الثانوية ، وليث العقاد بالقاهرة يتربص أوائل الشتاء ليعمل فيما ينتهى من عمل يرتضيه أو يزعم الرحلة الى اسوان .. لانه كان يعاني حالة يأس من الصحافة

فقد ذهب ركود السياسة الوطنية في ايام الحرب بالصحف اليومية التي كانت تنطق بالسسنة الهيئات السياسية ، ثم مبطت أزمة الورق بالصحيفتين اليانيتين . ومسا القظم والاعرام - الى ورقة واحدة من صفتين لا تمتنع فيهما لغير البرقيات وانباء الدواوين وما هو من قبيل - للحتويات والمترجمين ، (٣) .

(١) آخر ساعة في ٣٠ أكتوبر ١٩٥٧

(٢) آخر ساعة في ٣٠ أكتوبر ١٩٥٧

(٣) آخر ساعة في ٣٠ أكتوبر ١٩٥٧

وبينما العقاد في هذه الحالة إذ استدعاه عبد القادر حمزة عن طريق عبد المؤمن عبد الحكيم ، ليقوم بالتحرير في صحيفة « الأمل » بالسكندرية وقد سافر العقاد بعد أن قام ببيع بعض الكتب التي يمكن الاستغناء عنها ، واستمر العقاد في جريدة « الأمل » حتى نهاية الحرب العالمية الأولى وظهور الدعوة الوطنية على يد الوفد المصري بقيادة سعد زغلول ، وانفترقت الخطة العامة بين « الأمل » والوفد وحينئذ تركها العقاد وعمل في الصحيفة التي كانت تجرى يومئذ على تلك الخطة (١) .

(١) آخر ساعة في ٣٠ أكتوبر ١٩٥٧ .

صحيفة الأهالى

من المتفق عليه ان تاريخ صحيفة من الصحف اليومية انما هو على
الجملة :

اولا : تاريخ مقوماتها السياسية أو تاريخ الكتابة التى تدل على خطتها
والآراء السياسية التى تدعو اليها .

ثانيا : تاريخ مقوماتها المادية التى تعتمد عليها فى القيام بتكاليفها ،
فان الصحيفة التى ينفق عليها حزب ذو برنامج معلوم غير الصحيفة
التي تنفق عليها شركة تجارية ، وغير الصحيفة التى تقوم على التوزيع
أو تقوم على الاعلانات أو تقوم على الاشتراكات السنوية والدورية .

ثالثا : تاريخ عوامل الظهور والاحتجاب فى حياتها ، وعوامل التمثيل من
جاء آرائها ، لان هذه العوامل هى الامتحان الصحيح لملاقاتها بقرائها
وعلاقتها بالسلطة القائمة ، وعلاقتها بالفضايا التى يمالجها الراى العام
وتعالجها الهيئة الحاكمة .

وعندما قامت صحيفة الأهالى عند نشأتها بالإسكندرية ، كان فى الثغر
الإسكندرية ثلاث صحف يومية هى « البصير » التى أصدرها رشيد شميل
عام ١٨٩٧ و « وادى النيل » و « وكانت » البصير ، صحيفة القطن والتجارة
لا تعرض للبيع فى خارج الإسكندرية ، ولا تعرض للبيع فى الإسكندرية نفسها
الاعلى مقربة من البرصة ومخازن الميناء، وكانت الصحيفة تعيش بالاشتراكات
التجار والسماصرة ورسوم الاعلانات القضائية من المحاكم المختلطة ، ولا تذكر
فيها شئون السياسة المصرية الا كما تذكر فى صحيفة « خارجية » (١) .

(١) آخر ساعة فى ٣٠ أكتوبر ١٩٥٧ .

وكانت « وادى النيل » صحيفة المجلس البلدى أو صحيفة المناورات والمنازعات بين أعضائه وأحزابه ، ولها - من ثم - عناية بمسائل الأسوان والكاكين والشوارع المرسوفة وغير المرسوفة ، وما إليها . فكان لها نصيب وافر من الرواج فى الاسكندرية ، ونصيب « لا بأس به » من الرواج خارج الاسكندرية ، بعد انقطاع « الشعب » خليفة اللواء وانقطاع المؤيد والجريدة (١) .

أما « الأعالى » فقد قامت لتأييد وزارة محمد سعيد باشا (١٩١٠ - ١٩١٤) التى تولت الحكم اثر مقتل بطرس غالى ، وقد اشتطت الصحافة الانجليزية فى مجرمها على محمد سعيد ، وخاصة عندما صرح لبعض الصحفيين الاجانب بأن مصر ستنتال استقلالها قريبا . وطلبته (الجازيت) بنفس هذا التصريح والا كان صحيحا ، وصح معه الاعتقاد بأنه قد أعطى السلطة لاعلان هذا النيا (٢) . واعلن سبر الدوارد جرى فى مجلس العموم البريطانى فى ١٥ يونية سنة ١٩١٠ :

« ان سياسة جلالة الملك أصبحت تبين على الاحتفاظ باحتلال مصر لأن الحكومة الانجليزية لاتستطيع دون عار يلحقها ان تتخلى عن المسئوليات التى نشأت حولها هناك (٣) » .

وكان لهذا التصريح الخطير اثره فى سياسة محمد سعيد الذى أصدر طائفة من القرارات المجفة بحق الصحافة المصرية والحركة الوطنية . وخلصتها ما يلى :

أولا : النظر فى جنح المطبوعات وجنباياتها وعرضها على المحاكم العادية شأنها شأن الجنبايات الأخرى .

ثانيا : معاقبة كل طالب يشترك فى المظاهرات أو يكتب فى الصحف بالطرد من المدرسة .

(١) آخر ساعة فى ٣٠ أكتوبر سنة ١٩٥٧ .

(٢) الجازيت فى ٤ ، ٥ من أبريل سنة ١٩١٠ - نقلا عن أحمد غيليب فى : الصحافة

الانجليزية فى مصر . رسالة خطية بجامعة القاهرة . راجع : عبد اللطيف حمزة فى

أدب المثالة الصحفية ج٨ ص ٣٥ .

(٣) المصدر السابق ص ٣٥ .

ثالثا : منع تأليف الجمعيات السرية بقوة القانون (١) .

وتد قامت الأمالى برأس مال مجموع من تبرعات أنصار محمد سعيد باشا وأبناء بلده الاسكندريين وكان اعتمادها كله في سداد نفقاتها محصول الاشتراكات السنوية التي وزعها رجال الادارة في عهد الوزارة السعيدية وأقبل عليها طلاب الحظوة عند المديرين والناوورين من اعيان الأقاليم .

فكان « محمد سعيد باشا » على تعبير العقاد - أحد الساسة التلائل الذين فهموا في ذلك العهد ضرورة الاتصال بالرأى العام ووجوب الاعتماد على الصحافة في مناقشة المسائل التي تعرض على الوزارة . فأوعز الى طائفة من أصدقائه الاسكندريين بإنشاء « شركة الطبع والنشر الاعلية » واستهلال عملها الصحفي بإصدار صحيفة يومية تدافع عن الوزارة وترد هجمات الصحف المعارضة عليها . فاختاروا اسم « الأمالى » لصحيفتهم عمدا لأنه اسم قديم لصحيفة كان يصدرها اسماعيل أبازلة باشا ، ولأن اسم « الأمالى » يقابل اسم « الشعب » واسم « الأمة » مصبوغا بالصيغة التي على معنى « الرعاية » ولا ينهم منها معنى « المقاومة والثورة » (٢) .

ولم تزل « الأمالى » صحيفة الحكومة « الشببية بالرسومية » الى ان سقطت وزارة سعيد باشا وقامت بعدها وزارة حسين رشدى باشا التي أعلنت الحماية على مصر في عهدا ، فلبست « الأمالى » بعد ذلك لباس المعارضة في حدود الظروف التي تسمح بها الحرب والرقابة وكانت هذه تقوم على اساسين :

أحدهما : الخصومة الوزارية بين سعيد ورشدى .

والآخر : إيمان سعيد بثأيدة السيادة العثمانية في استنهاض الحجة القانونية والحجة « الدولية » على الاحتلال والحماية .

(١) د. عبد اللطيف حمزة : نفس المرجع ص ٣٦ .

(٢) آخر ساعة يوم ٣٠ من أكتوبر ١٩٥٧ ، وراجع كذلك يوميات العقاد بجريدة الأخبار العدد ٣٤٨٥ يوم ٤ من سبتمبر سنة ١٩٦٣ .

فقد كان سعيد « عثمانيا » في تفكيره وشعوره الى اللحظة الأخيرة ، وكان هو صاحب الراى القائل بالارتباط بين البحث في مسألة الحماية والنظر في معاهدة الصلح مع تركيا والدول المنتشرة في الحرب المانية (١) .

وأوشكت « الأعالى » ان تحتجب بعد اعتزال الوزارة السعيدية وتقيام الوزارة الرشدية لأن مشتركها من الموظفين والعمد قطعوا اشتراكها . ولم يبق لها مورد تعيش منه غير التعاقب على نشر الاعلانات القضائية من المحكمة المختلطة ، وهي كما كانت يومئذ حكرا يستأثر به من يرسو عليه المآد من اصحاب المطابع ، وقد حصل على امتيازته في ذلك الحين الخوالة « بونتينه » مدير جريدة « البورص اجيشيان » وهو من زملاء الأستاذ عبد القادر حمزة في نادى محمد على المعروف بالاسكندرية واصله من جزيرة مالطة يسمى بلهجتها العربية « بونتينه » او ابو تينة « وصحفها الى اللجة الفرنسية باسم بونتينه . ونشبت الحرب والاعالى على علاقتها القديمة بمحمد سعيد باشا واصحابه المساهمين في شركتها ، وتوامها من الوجهة المالية ما تحصل عليه من نشر الاعلانات القضائية باللغة العربية ، اذ لم يكن للمسسيو بونتينه صحيفة عربية يملكها . وكانت « الأعالى » هي الصحيفة التي تنسج لنشر تلك الاعلانات في ملحقاتها ، وعندما بقية من الورق المخزون غير الورق الذى تدبره الشركة ، ولولا ذلك لما استطاعت ان تعيش سنة بعد ذهاب الوزارة السعيدية وانقطاع الاشتراكات عنها في ذلك المعترك العصيب .

فلما تألف الوفد المصرى كانت خطة « الأعالى » حياله هي خطة محمد سعيد حيال سعد زغلول ، وهي خطة الوزارة امام معارضها الأكبر في الجمعية التشريعية ، وكان من مساعيه - بموافقة الأمير عمر طوسون - ان يؤلف وفد آخر يشترك فيه أعضاء الحزب الوطنى برئاسة الأمير .

وكانت المعارضة في رئاسة الأمير طوسون للوفد المطلوب تقوى وتشدت في جهات كثيرة ، ومنها القصر الملكى والوزارة ، ومنها اصحاب سعد زغلول جميعا بغير استثناء ، فقد كان السلطان غؤاد غير مستريح الى ظهور الأمير على رأس هذه الحركة ودخول أعضاء البيت الملك في مآزق سياسية تقضى مصالحهم ومصحة الملك أن يظلوا بعمزل عنها .

(١) المرجع السابق .

وكان رشدى باشا يتوجس من نفوذ محمد سعيد باشا صديق الأمير الحميم ويشفق من عواقب تدبيره ، ولا يحب أن يمهله حتى يقبض بيديه على زمام الموقف ويتحول به إلى حيث تهديه الحيلة والاساليب المكتوبة التي اشتهر بها . وكان أصحاب سعد يريدونها كما قالوا (حركة شمب لا اماره وحركة استقلال لا خلافة) ويعتقدون ان الأمير وصديقه محمد سعيد يبغيان المحافظة على السيادة العثمانية الى ان ينزل عنها الترك للمصريين في معاهدات الصلح ، وهو امل مشكوك فيه (١) .

ثم حيظت مساعي محمد سعيد باشا حذرا من ثورة الرأي العام وإذعاننا من جانب الأمير طوسون لأوامر السلطان أحمد فؤاد الذي اتهمه بالنسعى الى وراثة العرش والمشاركة عليها لدى الانجليز بهذه الوسيلة .

وتقررت خطة « الأهالي » من داخل قلم التحرير دون ان تستطيع الشركة التي أصبح إشرافها على الصحيفة اسميا بعد نفخ أيديها من تكاليفها) ان تتعرض لهذه الخطة في تفصيلات الأخبار أو المقالات اليومية ، ولم يحاول مسيو بوتينييه أن يتدخل في سياسة الصحيفة مرضاة للمحتلين ، لأنه من جهة لم يكن من المالبيين أصحاب الخطوة في الوقت الذي جعلوا فيه جزيرة مالطة منفى للمعتقلين ، ولأنه من جهة أخرى خشى أن تتحطم مطيعتها في المظاهرات فيعجز عن الوفاء بشروط المحاكم المختلطة مراعاة لمواعيد الاعلانات (٢) .

ويمكن القول ان خطة الأهالي ازاء سعد زغلول بعد الافراج عنه واصحابه لم تكن مكاشفة منها للجمهور المصرى بولائها لسعد واصحابه - كما يقول استاذنا الدكتور عبد اللطيف حوزة (٣) - فاذا كانت قد سلكت في سبيل ذلك طريقة ناجحة من طرق الصحافة وهي نشر « صور صحفية » لسعد ولأعضاء الوفد ، فان كل ما نشرته الأهالي من الصور الوصفية والتعليقات على تأليف الوفد انما كان بقلم عباس العقاد ، وظلت خطة « الأهالي » هي الخطة التي تعبر عنها تلك المقالات والتعليقات طوال الوقت الذي كان العقاد فيه مطلق اليد في الكتابة .

(١) يوميات العقاد بجريدة الأخبار يوم ٤ من سبتمبر سنة ١٩٦٣ .

(٢) انظر « أدب المقالة الصحفية في مصر » - الجزء الثاني ص ١٠٧ .

(٣) الأهالي - العدد ٢٦٠٧ يوم ١٥ من أبريل سنة ١٩١٩ .

وبدا العقاد هذه الطريقة المناجحة من طرق الصحافة في الخامس عشر من أبريل سنة ١٩١٩ ، وكانت « صورة سعد » أول هذه الصور الوصفية .
وفيها يقول :

« من العظماء أشخاص لا يسمعك أن تتمثلهم منفردين . لأنهم قوى
تطلب المناظرة والمصادمة . وكانهم يقفون حياتهم في ميدان خالد فلا تراهم
الا رأيت لهم اندادا في ذلك الميدان . وليس من الضروري أن يكون الأنداد
رجالا . بل قد يكونون مبادئ، ومقاصد تحفز القوة وتنبعث النخوة . ومن
هؤلاء العظماء سعد زغلول . وهذه الصفحة في نفوس أولئك العظماء تأتي
عليهم أن يكونوا مهملين أو معمرين حيثما كانوا ظهورا . فهم يحملون
معهم الاعتماد بهم في كل مكان . وكذلك كان سعد زغلول في جميع أدوار
حياته . »

ثم سرد العقاد تاريخ حياته على نحو ما هو معروف لأهل زمانه إلى
تلك الفترة من حياة سعد زغلول .

وعلى هذا النحو مضت الأمالى تقدم للجمهور كل يوم صورة وصفية
جديدة لمضو من أعضاء الوفد (١) .

ومن ذلك الوقت كتب العقاد في الأمالى مقالات عن الوطنية المصرية
والأمانى القومية ومنها مقال بعنوان : الوطنية المصرية خالصة لوجه الوطن
المصرى (٢) وآخر بعنوان : الوفد والمسألة المصرية (٣) وثالث بعنوان :
الأمير عمر طوسون والحركة الوطنية (٤) ونرجع ان المثال الأخير من علم
عبد القادر حمزة وليس العقاد . ونرجع كذلك ان اخبار المظاهرات في القاهرة
والاسكندرية والأقاليم التي عنيت بها الأمالى كان للعقاد اثر كبير في سر
هذا الاعتماد بها ، بل نزيد فنقول انه كان يقوم بتحريرها .

وعندما شعر العقاد بالتضييق على ما يكتب من الطولات أو من الأخبار
القصار ترك الأمالى وانتقل الى تحرير « الأهرام » بالقاهرة ، وقد كانت
هى الصحيفة الوحيدة التي اعلنت يؤمئذ انها « مصرية للمصريين » وسمحت
للوعد بنشر بياناته واخباره على صفحاتها .

(١) الدكتور عبد اللطيف حمزة : ادب المقالة الصحفية ج ٨ ص ١٠٩ .

(٢) الامالى العدد ٢٦٤٤ يوم ٢٣ من مايو سنة ١٩١٩ .

(٣) الامالى العدد ٢٦٧٥ يوم ٢٣ من يونية سنة ١٩١٩ .

(٤) الامالى العدد ٢٩٨٩ يوم ١ من يولية سنة ١٩١٩ .

ويوم اعتزل العقاد العمل في « الأهالي » كشفت عن موقفها ضد سعد زغلول الذي تعبر عنه مقالات « ما مكذا يا سعد تورد الأبل » وما جرى مجراها ، وكلها حملات على الوفد ومناوشات بين الصراحة والتورية على حسب الظروف ، إلى أن تقاربت العلاقات بين محمد سعيد وسعد ، لاشتداد العداء بين سعيد وجماعة رشدي وعدلي وثروت ، وسائر هؤلاء الوزراء (١) .

ومما يذكر في هذا الصدد أن الوفد قد عقد اجتماعا كبيرا للجمعية التشريعية في منزل سعد زغلول - بعد سفر لجنة ملنر بثلاثة أشهر في دراسة الأحوال المصرية - لم تستطع الأهالي أن تشير إليه أو تكتب شيئا عنه . وأصدر الأعضاء قرارات منها :

أولا : تعتبر الحماية التي اعلنتها إنجلترا من تلقاء نفسها على مصر عملا باطلا لا قيمة له من الوجهة القانونية .

ثانيا : تقرر الجمعية أن البلاد المصرية تشمل مصر والسودان مستقلة استقلالاً تاماً وقاء بقواعد الحق والعدل والقانون .

ثالثا : تحتج الجمعية على تعطيلها وعلى القوانين والنظامات التي وضعت في أثناء التعتيل .

رابعا : تقرر الجمعية أن كل عمل قامت أو تقوم به الهيئة الحاكمة ، ويكون فيه مساس بالاستقلال التام لمصر والسودان ، أو مساس لمصالحهما يعد لغوا ، ولا يلزم الأمة في شيء (٢) .

وقد وقفت « الأهالي » ضد مشروع ملنر ، ولكنها وقفت كذلك ضد المندوبين الأربعة الذين أوفدهم سعد لا استشارة الأمة ، وهاجمت الأهالي سعدا بقوة ، مما يجعلنا نؤكد أن الأهالي لم تنف إلى جانب سعد الا عندما كان العقاد له مطلق الحرية فيما يكتبه ، ولما تركها كتبت هذه المقالات التي تعبر عن موقف محمد سعيد باشا ، وقد ظلت تلتزم هذه الخطة التي تغيرت بتغير موقف سعيد باشا من سعد زغلول ففشرت نداء لسعد زغلول صارع فيه الأمة برأيه في مشروع ملنر في صفحتها الأولى في عشرة أعداد من أعدادها (٣) .

(١) يوميات العقاد بجريدة الأخبار يوم ٤ من سبتمبر سنة ١٩٦٢ .

(٢) عبد اللطيف حمزة - نفس المرجع ص ١١١ .

(٣) الأهالي - المجلد ٢٠٩١ - ٢١/١٠/١٩٢٠ .

ووقفت الاهالى موقفا عدائيا من خصوم سعد زغول السياسيين ،
ومرجع ذلك - كما سبق القول - الى اشتداد العداء بين سميد وجماعة
رشدى وعدلى وثروت مما أدى الى تقارب بين محمد سميد وسعد زغول .
فهاجمت وزارة عدلى يكن فى قتال بعنوان :

حكومة الحماية

الى أى حد تضعف أمام حاميتها (١)
عكذا يمكن القول أن « الاهالى » كانت تعبر عن وجهة نظر محمد سميد
باشا ، ولم تخالف هذه السنة الا فى الفترة التى عمل فيها عباس العقاد
فكان نشرها للصور الوصفية بداية للخطبة التى سلكها العقاد فى الاهالى
وكانت خطته الى يوم اعتزاله العمل فيها .

(١) الاهالى : العدد ٣٣٢٨ يوم ١٥ سبتمبر سنة ١٩٢١ .

الفصل الرابع

ثورة ١٩١٩

وتعاطف العقاد مع الوفد

وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها في ١١ نوفمبر سنة ١٩١٨ بمقتضى الهدنة بين المانيا والحلفاء ، وانتصار إنجلترا وحلفائها . . . واقترن باعلان الهدنة ببيان « ويلسون » رئيس جمهورية الولايات المتحدة الأمريكية عن حق الشعوب في تقرير مصيرها . . . واقترون موعد تقرير مصير الدول والشعوب فآخذ ذوو الرأي من المصريين « يفكرون في طريق عملى لرفع صوت مصر ، وتمثيلها في مؤتمر الصلح ، وزاد في هذه الحركة الفكرية ما تراهى من أنباء الشعوب الصغيرة . إذ أخذت تتأهب لارسال وفودها إلى المؤتمر لتحقيق آمالها القومية وتطبيقا لبادئ الرئيس ويلسن . . . كان رجال الحزب الوطنى وعلى رأسهم محمد فريد مشغولين في أوروبا ، والصلات بينهم وبين زملائهم في مصر منقطعة ، هذا إلى أن الجانب الذى كانوا يقاومونه ويجاهدونه في استخلاص الاستقلال منه ، وهو جانب إنجلترا أو حلفائها ، قد كتب له النصر الذئائى في تلك الحرب ، فكان طبيعى أن يبرز في الميدان شخصيات لم تعرف من قبل بطابع العداء الشديد لإنجلترا والاحتلال البريطانى (١) »

وفي هذه الظروف اتجه سعد زغلول وعبد العزيز فهمى وعلى شعراوى إلى المعتد البريطانى « سير ريجنالد وينجت » ، باعتبارهم من أبرز نواب الأمة في الجمعية التشريعية ، مطالبين باستقلال مصر ورفع الحماية عنها .

ورفضت بريطانيا التصريح للوفد بالسفر إلى أوروبا ، وذلك بعد أن تألف الوفد المصرى ليكون وكلاء عن الأمة في السعى لتحقيق أمانيتها السياسية واعتلت السلطات العسكرية سعد زغلول واسماعيل صدقى ومحمد محمود وحمد الباسل ونفتهم إلى مالطة . . .

وعننا انطلقت الروح الوطنية التي ظلت مكبوتة خلال سنوات الحرب، في ثورة شاملة على الاحتلال البريطانى احتجاجا على اعتقال سعد وصحبته

(١) عبد الرحمن الرافعى : ثورة ١٩١٩ الجزء الأول ص ٩٢ .

ولم تكن هناك صحفية وطنية مكانة تعبر عن روح الثورة وتتحدث بلسانها وذلك لأن « الأحكام العرفية كانت مفروضة على البلاد .. أما الصحف التي كانت قائمة في ذلك الوقت فمع خضوعها لانتقاصات الأحكام العرفية فقد تفاوتت مواقفها من الأحداث بتفاوت لونها السياسي ومدى ما يربطها بالنزعة الوطنية أو سلطات الاحتلال من مشاعر وصلات (١) » .

فأبقت « الامرام » شيئاً من الميل الى جانب الثورة اذ كان وصفها للمظاهرات وتعليقها على الأحداث مشوباً بلون من العطف والتأييد .. وكذلك فندت دعاوى الصحف الانجليزية عن تطرف المصريين وتعصبهم ضد الأجانب .. بينما وصفت صحيفة « المنظم » أخبار الثورة بأنها « شغب ومظاهرات وحوادث يؤسف لها » وكانت تشفعها دائماً بتعليقات تندد بها وتعتبرها « كارثة » و « فتنة » تهدد الوطن ، وتنصح المصريين بالمسؤول عن هذا الاتجاه .

ونشرت صحيفة « الاهالي » أخبار الثورة بكثير من الحيلة والحذر ، تجنبا لبطش السلطة العسكرية .. ومع ذلك فقد كان واضحاً انها أكثر الصحف استعداداً لتأييد الحركة الثورية لولا ضغط الأحكام العرفية (٢) .

واضطرت وزارة رشدي باشا الى الاستقالة في مساء ٢١ أبريل سنة ١٩١٩ وخلفتها وزارة محمد سعيد باشا في ٢١ من مايو ، وكان عثمانى النزعة في تفكيره وشعوره « وسمى اولى الوزارات التي تآلفت بعد الثورة على أساس الانفصال عن الحركة الوطنية ومناقضتها ، والاستخفاف بها ، وذلك أن وزارة رشدي باشا الأخيرة قد استقالت تحت ضغط الرأي العام ، وكان بقاء البلاد بلا وزارة مظهراً لنضام الأمة أمام العدوان البريطاني ، مما أدى الى احجام المستورزين عن قبول الوزارة ، لأن قبولها رجوع الى الحالة العادية التي يشهدها الانجليز ، فجاء تأليف وزارة سعيد باشا محاولة جريئة لكسر شوكة الثورة ، فلا غرو ان توبلت بالاستياء والسخط ، لأن تشكيلها لم يسبقه تفاهم على برنامجها ، بحيث تسامير الحركة الوطنية ولا تعزلها (٣) » .

(١) الدكتور أحمد حسين الصاوي : معالم تاريخ الصحافة المصرية - محاضرات ألقاها على طلبة قسم الصحافة بجامعة القاهرة .

(٢) الدكتور أحمد حسين الصاوي : نفس المرجع .

(٣) الزاوي : نفس المرجع ، ص ٣٧ ج ٢ .

ويرجع السبب في استياء الرأي العام من هذه الوزارة كذلك أن محمد سعيد باشا أعلن أنه يؤجل النظر في الحماية التي ضربهها الإنجليز على مصر سنة ١٩١٤ في مسئلة الحرب العالمية الاولى حتى توضع معاهدة الصلح بين تركيا والحلفاء . وكان هذا الرأي خاطئاً ، لأن تركيا أصبحت لا حول لها ولا قوة ، فإذا عرض عليها الإنجليز استمرار حمايتهم في مصر قبلوا ذلك دون تردد .

وعن ترك عباس العقاد العمل بجريدة « الأمل » التي بدأ يشعر فيها بالتضييق على ما يكتب من مقالات وأخبار في وصف الوفد ، وليس يخفى ما كان « بين سعد زغلول وسعيد باشا من الجفاء القديم ، منذ استقال سعد من وزارة سعيد الاولى ، ثم صار زعيماً للمعارضة في الجمعية التشريعية ، واستمر الجفاء بينهما حين تأليف الوفد ، وبعد قيام الثورة ، فتشكيل سعيد للوزارة في مايو ١٩١٩ كان فيه معنى التحدي لسعد . ومع ذلك فإن سعيد باشا كان أول من مشى في ركاب سعد بعد سنة ١٩٢١ لما بدأت النفرة بينه وبين علي ، ثم انفصل عنه سنة ١٩٢٥ ، حينما استهدف سعد لفضب السراي (١) » .

وانتقل العقاد الى القاهرة من الاسكندرية ليعمل في تحرير « الأهرام » وعقب وصوله اشتعلت نيران ثورة ١٩١٩ فكان العقاد وزميله المازني يحرران منشورات جماعة « اليد السوداء » السرية وكتبيا في الصحف مقالات نارية ملتهبة حتى تقرر نفيهما على يد وزير الداخلية « ثروت باشا » الذي استقال في هذه الفترة ، ولولا استقالته لحل بهما قضاء النفي والتشريد ، لأن رصيدهما في الاتهامات كان وافرا بحمد الله ، إذ حامت حولهما الاتهامات في حوادث الاغتيالات التي وقعت حينذاك بدعوى اغفار الصدور واثارتها للشعور العام (٢) .

وكانت السلطة العسكرية قد عمدت الى طريق الارهاب في مقاومة حركة النشرات السرية ، واصدر الجنرال بلغن أمراً في يونية سنة ١٩١٩ بمقاب كل من يشترك في اخراج هذه النشرات أو توزيعها أو حيازتها (٣) .

وقد حوكم كل من اشترك في توزيع منشورات « اليد السوداء » وكانت عقوبتهم الاشغال الشاقة المؤبدة (٤) ، فما بالك بمن كان يحررها . . .

(١) : المرجع السابق ص ٢٨ ج ٢ .

(٢) العقاد في نوبته ، وراجع أنب المازني ص ٣٦ - كذلك « عباس العقاد ناقد » لعبد الحى دياب ص ١١٦ .

(٣) راجع ، الرأى : ثورة ١٩١٩ ج ٢ ص ٤٤ .

(٤) راجع الرأى : نفس المرجع صفحات ٢ - ٨٠ - ٨١ ، ٨٢ .

وحدث أن فكرت الحكومة البريطانية في إيفاد بعثة رسمية للتحقيق في أسباب الثورة واقتراح ما تراه لتهذبة الحالة وجاءت هذه البعثة برئاسة لورد ملنر ٠٠ وهذا ثارت خواطر المصريين ، فأرجأت الحكومة البريطانية سفر أعضاء اللجنة ، وانقضت بضعة أشهر كانت حافلة بالاضطرابات ٠٠ ولكن صحيفة « النظام » لسيد على التي صدرت سنة ١٩١٩ طلعت على الناس بانتقارح يدعو إلى مقاطعة اللجنة المرتقبة مقاطعة تامة ٠٠ لكن اللجنة حضرت والفشل يسبقها والصدور موفرة بما توالى على الناس من دواعي الكراهية والنفور ٠ وقيل أن ينتفضى على اللجنة اسبوعان أو نحو اسبوعين سرى في مصر نبأ الفرار الذي اعتمدته نواب الولايات المتحدة وهو رفض المساعدة التي يوقعها الرئيس ويلسون ٠ فبدلاً من أن تجيء اللجنة وتركيا معترفة بالمساعدات كما كان يريد محمد سعيد ، جاءت الولايات المتحدة - وهي قبلة أنظار العالم في ذلك العهد - تنقضها وتفتح الرجاء لابطالها وتحقيق آمال الشعوب المخذولة فيها (١) ٠

ولم تستقر اللجنة أياماً حتى أحست أنها في حصار محكم من المقاطعة الاجتماعية لا يتخلله منفذ إلى لقاء أحد يجديها لقاءه ، ورأى اللورد ملنر من روح الوطنية المصرية غير ما كان يمهده في أيامه السالفة بمصر كما قال لبعض أصحابه ٠ فلجأ إلى الملاينة والمصانعة ، وحاول أن يفسر غرض اللجنة تفسيراً يحافظ به على الحدود التي رسمتها الحكومة البريطانية ويحتجب في ظاهرها الكلمات المثيرة التي تنفر المصريين وأخصها ذكر الحماية، فنشر على الناس في التاسع والعشرين من ديسمبر بياناً قال فيه :

« أدهش اللجنة البريطانية الاعتقاد الشائع بأن الغرض من مجيئها هو حرمان مصر من الحقوق التي كانت لها إلى الآن ، ولا أساس على الإطلاق لهذا الاعتقاد فإن اللجنة أوفدت من قبل الحكومة البريطانية بموافقة البرلمان البريطاني لأجل التوفيق بين أمانى الأمة المصرية والمصالح الخاصة لبريطانيا العظمى في مصر ، مع المحافظة على الحقوق المشروعة التي لجميع الأجانب القاطنين في البلاد ٠ ونحن على يقين من أنه يمكن الوصول إلى هذا الغرض مع توافر حسن النية بين الجانبين ، واللجنة ترغب رغبة صادقة في أن تكون العلاقات بين بريطانيا العظمى ومصر قائمة على اتفاق ودي يزيل أسباب الاحتكاك ويمكن الأمة المصرية من صرف كل مجهوداتها إلى ترقية شؤون البلاد في ظل أنظمة دستورية ٠ »

(١) المعتاد : سمعد زغول ص ٢٨٨ ٠

وتنفيذا لهذه المهمة تريد اللجنة أن تقف على كل الآراء ، سنسوا-
صدرت من هيئات نيابية أو أشخاص يهتمون اهتماما صادقا بخير بلادهم،
ويمكن إبداء كل رأى بحرية وصراحة ، ولا رغبة في تقييد حدود المناقشة
كما أنه لا يخشى أى فرد أن تعتبر مقابلاته للجنة تنازلا منه عن معتقداته •
فإنه لا يعد تنازلا عن معتقداته بمفاوضة اللجنة إلا كما تعد هى متنازلة
بسماعها • وبغير الصراحة التامة في المناقشة يصعب وضع حد لسوء التفاهم
والوصول الى الاتفاق (١) • ويلاحظ القارىء أن اللجنة والصحف ترجمت
العبارة الانجليزية •

« بالانظمة الدستورية » وهى ترجمة غير دقيقة ، وسارع العقاد الى
تصحيح الترجمة الصحيحة التى قصد الانجليز اخفاءها كانت « تحت انظمة
حكم ذاتى » ولم تكن « تحت انظمة دستورية » وكان الفرق بين العبارتين
كبير جدا فى نظر الوطنيين ، لقد كان الوطنيون يريدون الاستقلال والمستور
الذى يؤدى الى حكم الشعب لنفسه ، ولم يكونوا يفكرون فى الحكم الذاتى،
فالحكم الذاتى لم يكن يختلف كثيرا عن نظام الحماية الذى كان قائما قبل
الثورة وكان من أهم أسباب الثورة ••

نشر العقاد هذا التصحيح فى « الأهرام » التى كان يعمل بها ثم استقال
من « الأهالى » •• فكان لهذا الاختلاف فى الترجمة شأن فى اختلاف الرأى
بين خبطة سعد بعد عودته من منفاه وخبطة على فى موقفهما من اللجنة
نادى ذلك الى فشل اللجنة آخر الجولة الحادة العنيفة ، اذ رفضت اقتراحاتها
حين عرضت بعد ذلك على المصريين وحل محل هذا البيان تصريح ٢٨
فبراير ليكون اساسا لحكم مصر ••

ويذكر العقاد فى كتابه عن سعد زغلول تفاصيل هذا الاختلاف حول
الترجمة (٢) • فقد قال على فى خطاب له الى سعد مكتوب فى التاسع
والعشرين من يناير : « رأينا قبل عمل أى شىء ان نعمل بالكتابة لتوضيح
نقطة هامة كان لها بحق اثر كبير فى قراركم الذى اتخذتموه • وهذه النقطة
هى ما نسميه من أن بلاغ اللجنة ضيق الغاية من المناقشة فجعلها (وضع
نظام حكومى فى حدود الحكم الذاتى) مما جعلكم تعتقدون أنه مع هذا

(١) العقاد ، سعد زغلول - ص ٢٨٩ •

(٢) الرجوع نفسه ، ص ٢٩٠ •

التحديد لا تختل المسألة المصرية من مركزها فلا ترتفع به الحماية بل
تتناكد . والواقع انه حصلت بيننا وبين اللورد ملنسر مناقشة في هذا
الموضوع وأكد لنا أن النص الانجليزي ليس معناه الحكم الذاتي .

بل معناه الحكومة الدستورية وأن الغرض من ذكر هذه العبارة في
البلاغ بيان أن الحكومة الانجليزية لا يصح أن ترتبط بمعامدة حكومية لا
تكون ذات نظام دستوري ، وكذلك كانت الترجمة العربية الرسمية وفق
هذا التفسير ، ولولا هذا لكنت احاديثنا مبنية على غير اساس ، ولما جاز
لنا أن نطلقها اليكم ونستنتج منها ما استنتجناه .

والقرار الذي اتخذته سعد وأشار اليه عدلى في الخطاب المتقدم هو
قراره الذي نشره في بلاغ يبعث به الى مصر عقب نشر اللجنة بيانها وقال
فيه ما نصه :

يحاول الأقوياء بجميع الوسائل أن يأخذوا منكم رضاء بحمايتهم
ليزدادوا قوة ويزيدوكم ضعفا ، فلا تنخدعوا اذا وعدوكم ولا تخافوا اذا
هددوكم ، واشتروا على التمسك بحكمكم في الاستقلال التام فهو أمضى سلاح
في ايديكم وأقوى حجة لكم ، فان لم تفعلوا - وليس في قوة ايمانكم الوطنى
ما يجعل احتمالا لذلك - خذلتهم نصراكم واهنتم شهداءكم وحقرتم ماضيكم
وانكروتم حاضرهم ومدحتهم للرق أعفانكم وجبنيتهم للذل ظهوركم وانزلتكم
بأمتكم ذلا لا يرفع منه عز ، وان تفعلوا - كما هو أكبر ظنى في عظيم
لخلاصكم وميتين اتحادكم وقوة وطنيتكم - فقد استيقظتم لانفسكم قوة
الحق واعدتكم لنصرتكم قوة العدل . فلا تذلوا وان قهرتم ، ولا تخشوا
وان ظلمتم ، ولا يبد من يوم يملو فيه حكمكم على باطل غيركم ، وينتصر
فيه عدل الله على ظلم خصومكم ، وتتحقق باذن الله التدير آمالى وآمالكم
في الاستقلال التام (١) .

وقد دارت مناقشة بين عدلى وسعد في تفسير العبارة الانجليزية
وما احتوته من الإشارة المزعومة الى الانظمة الدستورية فأعرب سعد عن
شكوكه في خطاب الحادى عشر من فبراير الى عدلى باشا اذ يقول : . . .

(١) المقاد : سعد زغلول ٢٩٠ - ٢٩١ .

نعم ان ترجمتكم عبارة الحكم الذاتي بالحكومة الدستورية هي الاصح ولكن صحة هذه الترجمة في نفسها لا تحصل على تعديل قرارنا لان هناك اسباب اخرى غيرها ، ولان ايرادها في المكان الذي وردت فيه من البلاغ مع عدم اقتضاء المقام لها بعد التصريح فيه بان مأمورية اللجنة هي التي صورتها الحكومة ووافق عليها البرلمان ويوقع في الذهن بان المقصود بها هو المعنى الذي فهمناه . والقول بان المقصد منها انما هو الا يكون الاتفاق الا مع حكومة دستورية لا يتفق في ظاهره مع كون هذه العبارة وردت على انها نتيجة للتعاقد لا وسيلة له ، ومع ذلك فاذا كان المقصد منها هو كما يؤكد جنباه من ان الحكومة الانجليزية لا يصح ان ترتبط بمعاهدة الا مع حكومة ذات نظام دستوري - لزم قبل كل شيء وضع هذا النظام لتشكيل حكومة دستورية تكون اهلا للتعاقد على تحديد العلاقة بين مصر وانجلترا (١) ، .

وما ان غادرت لجنة ملنر مصر حتى عادت السلطات الى فرض قيود الرقابة للقيود على الصحف ، بعد ان كانت قد خففت هذه القيود الى حد ما اثناء وجود اللجنة وذلك حتى يمكنها تفهم الموقف على حقيقته . فاحتجبت الصحف الوطنية ثلاثة ايام احتجاجا على الرقابة والاحكام العرفية ، ثم استأنفت دفاعها عن القضية القومية .

ولم يجد المحتلون بدا من الاتصال بسعد زغلول ، فسافر الوفد المصرى من باريس الى لندن ، حيث بدأت أول مفاوضات رسمية ، أسفرت عن مشروع نهائي للاتفاق قدمه ملنر ورفضه سعد . وكان أكثر أعضاء وفد المفاوضات اختلفوا معه في الرأي ، فلم ير بدا من الرجوع الى الامة ، وبعث لهذا الغرض عددا من أعضاء الوفد الى مصر من بينهم عبد العزيز فهمى ولطفى السيد ومحمد محمود . ومن ثم فتحت الصحف باب المناقشة في المشروع فقامت كل من « الأهرام » و « الاهالى » بحملة منظمة عليه لتثبيت فسادده ، وهنا ساهم العقاد مع غيره من الكتاب والصحفيين في هذه الحملة المنظمة . تذكر منهم عبد القادر حمزة ومحمد حسين هيكل ومحمد توفيق دياب ومحمود عزمى . وقد بدأت هذه الحملة في اليوم الثاني عشر من سبتمبر ١٩٢٠ وانتهت في العاشر من اكتوبر من نفس السنة ، وكلها بعنوان وحده هو « الرأي في مشروع الاتفاق » . وكان العقاد مطلق الحرية فيما يكتب في صحيفة « البلاغ » آنذاك ، ونرجع أنه كان صاحب الفكرة

(١) العقاد : المرجع السابق ، ص ٢٩٢ .

البارعة التي ظهرت في الاهالي حين عمدت الى نشر نداء لمسد زغلول ،
وهو النداء الذي صارح فيه الأمة آخر الأمر برأيه في مشروع ملنر . وقد
دأبت الاهالي على نشر هذا النداء بصفحتها الاولى في عشرة أعداد من
اعدادها وقعت تواريخها بين الحادى شر من شهر اكتوبر واليوم الاخير من
هذا الشهر سنة ١٩٢٠ .

وتد صمدت الاهالي - في الفترة التي كتب فيها العقاد - وراء سعد ،
ون سجيل ذلك انتقدت موقف لطفي السيد من مشروع ملنر . وقد لاحظ أنه
- ومعه على يكن - يملكان على المشروع تطبيقا يتفق ووجهة نظر ملنر (١) .

وقطعت المفاوضات وشاع في ذلك الوقت أن الوفد المصرى نفسه منقسم
الى رأيين : أحدهما شديد في المطالبة بحق الأمة ، والآخر ظاهر اللين في هذه
المطالبة . وهكذا ظهرت بوادر الشقاق في صفوف القادة فدعت « الأخبار »
لأمين الرافعي الى التمسك بوحدة الأمة ، وعلقت « الاهالي » بقولها : أما
الاول فهو الوفد الذي وكلته الأمة عنها وأما الثاني فقد انحلت عنه وكالة
الأمة ، لأنه لم يبق وفيها لها بشكل من الاشكال (٢) .

وتولت المقالات في صحيفة الاهالي على هذا النحو حتى تحولت في
النهاية الى مساجلات دارت بينهما وبين الصحف الاخرى ومنها المساجلة
التي دارت بين « الاهالي » و « الأخبار » (٣) .

(١) الاهالي : يوم ٢١ من اكتوبر سنة ١٩٢٠ العدد ٣٠٩١ .

(٢) الاهالي : يوم ١٧ من نوفمبر سنة ١٩٢٠ العدد ٣٩٧٠ .

(٣) راجع : الدكتور عبد اللطيف حمزة : أدب المقالة الصحفية ج ٨ ص ١١٦ ومابعدها .

في « البلاغ »

وأصبح في مصر جبهتان سياسيتان متعارضتان ، وتمثل الجبهة الأولى في سعد زغلول زعيما للوند ، وتمثل الجبهة الثانية فيمن انشقوا عليه بزعامه على . . وانعكس هذا الموقف بوضوح على الصحافة ، فأصبحت « الأمل » لسان جبهة سعد بعد عودته من أوروبا ، واستتبع ذلك انتقالها الى القاهرة في خريف عام ١٩٢١ . . وفي القاهرة عطلت ثم توقفت عن الصدور بعد أقل من عام . . وكان صاحبها (عبد القادر حمزة) يصدر صحفا بجيلة لها مثل (الحروسه) و (الأفتار) فتعطلها السلطات كذلك ، حتى اصدر (البلاغ) في اول عام ١٩٢٣ .

وتألف في مصر حزب جديد كان أعضاؤه يمثلون جبهة على يكن التي انشقت عن الوفد بزعامه سعد ، وأطلق على هذا الحزب « حزب الاحرار الدستوريين » برئاسة على يكن باشا . . بعد أن كان بعض قادته قد ساهموا في استصدار تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ . . وهو التصريح الذي وصفه سعد في منفاه بأنه « نكبة وطنية كبرى » . . وقد أصدر حزب الاحرار الدستوريين جريدة (السياسة) التي رأس تحريرها الدكتور محمد حسين هيكل .

ويعتبر حزب الاحرار الدستوريين امتداد لحزب الأمة القديم ، وأعضاؤه نفس الأعضاء تقريبا ، وقد قام هؤلاء الأعضاء في ٣ ابريل سنة ١٩٢٢ بتشكيل لجنة من بينهم لوضع الدستور ، وكان هذا الدستور الذي صدر في سنة ١٩٢٣ م مكتوبا من مكاسب ثورة ١٩١٩ فأصبحت الأمة بمقتضاه (مصدر السلطات) الا أنه لم يبلغ سلطة الملك فأصبح تدخل الملك بذلك شرعيا في شؤون الحكم .

ورفع ثروت باشا مشروع الدستور الى الملك فؤاد ليقوم بإعلانه ، فأخذ الملك فؤاد يماطل ويسوف بهدف العبث بالدستور ، فحاول أن يحذف عدة فقرات من الدستور ، منها الفقرة التي تنص على أن (الأمة مصدر السلطات) وكذلك الفقرة التي تقول (أن الوزارة مسئولة أمام البرلمان) وحاول توسط على يكن للحد من هذا الاتجاه الديمقراطي ولكن على أبي ان يتدخل ، ولما رأى الملك فؤاد اصرار ثروت باشا على الضى في اصدار

الدستور أخذ يكيده لوزارته ليجسد التكاثر للاطاحة بها ونجح فعلا في حمل ثروت باشا على الاستقالة ، وكان ذلك في الخامس والعشرين من نوفمبر ١٩٢٢ حيث جاء الأمر الملكي بقبول الاستقالة بعد نصف ساعة من رفعها . وفي اليوم التالي قامت وزارة توفيق نسيم التي كان عرضها الاول تعديل الدستور وتوسيع حقوق الملك في التسمية الوزارية وتعيين أعضاء مجلس الشيوخ . ثم استقالت وزارة توفيق نسيم لان الإنجليز تخطوها ووجهوا الى الملك انذارا يطلبون فيه حذف النص الخاص بالسودان من الدستور والاكتفاء فيه بلقب « ملك مصر » بدلا من « ملك مصر والسودان » . وولى الوزارة بعد توفيق نسيم ، يحيى ابراهيم « وهو قاض نزيه ولكنه رجس ضعيف كان خشي كثيرا ان يتم تعديل الدستور المطلوب على يديه وضاعف هذه الخشية قوله في اليوم التالي لتأليفه الوزارة : « ان كان الناس قد تكلموا كثيرا عن التعديل الذي أدخل على الدستور وتساؤلوا عما اذا كانت وزارتنا تسلم بالتعديل الذي قد أدخلته الوزارة النسيجية فتصدر الدستور كما عدلته أم ترجمه الى اصله كما وضعته اللجنة فان ما وضعناه نصب عيوننا هو ان يحقق الدستور رغبات الأمة كل التحقيق (١) . ولكن للسخط اشتمل على يحيى ابراهيم في كل مكان وتجددت حوادث الاحتجاج . فاحتج حزب الاحرار الدستوريين واحتجت معه الاحزاب الأخرى مجتمعة .

وقد كشف عباس العقاد في هذه المعركة الكبرى من أجل الدستور القناع عن دسائس الملك التي كان يحييها خفية للدستور وكتب في « البلاغ » يقول « الدستور كما كتب يملن ، واذا كانت به أخطاء البرلمان يناقشها » .

وقد نشر العقاد في سبيل احباط مسمى الملك فؤاد مقالتين في (البلاغ) خلاصتهما وجوب ابقاء الدستور كما وضعته اللجنة دون ان يمس حصره فيه بتعديل وأنه اذا لزم تعديله فليكن ذلك من أعضاء أول مجلس نيابي تنتخبه الأمة على وفق ما نص عليه الدستور نفسه في امر تعديله (١) .

وتنبهت الأمة الى ما يراد بعد هاتين المقاليتين ، وتشجع أعداء الحكومة فكادوها مستندين الى الأمة ، وسرت الحملة على التمسيد من مصر الى بريطانيا فقالت التيمس بالعبارة الصريحة ان الملك فؤاد هو المعطل لصحور

(١) راجع « سعد زغلول » للمقاد ص ٤٢٥ .

(١) محمد خليفة الترنس : العقاد محطم الأصنام - من كتاب (العقاد دراسة وتحية) . ص ٢٩٦ .

الدستور ، وسانحتها صحف أخرى من صحف الأحرار والمحافظين ، وتماوج
الرأى العام في مصر حول هذه المسألة فثبتت للوزارة أن التعديل على المبادئ
التي يريدونها القصر عسير غير مأمون المواقف وصدر الدستور بغير تعديل كما
وضعتة للجنة في ١٩ أبريل سنة ١٩٢٣ (١) . فيما خلا النصوص المتعلقة
بالسودان .

ورفعت الأحكام العرفية في ٥ يولية سنة ١٩٢٣ ، وعاد سعد وأعضاء
الوفد من المنفى في نهاية شهر إبريل من نفس العام ، ودارت معركة انتخابية
فاز فيها الوفد بأغلبية ساحقة فتولى الحكم . . . ومنذ ذلك الوقت شهدت
مصر عهدا جديدا في الحياة السياسية ، تميز بوجود عدد من القوى والتيارات
المعارضة التي اشتد الصراع فيما بينها .

وهذه التيارات هي - الوفد - في المحل الأول ويضم الأغلبية الكبرى
من الشعب ويتمسك بالحياة الدستورية التي يتيحها دستور سنة ١٩٢٣
ويقف في وجه تصريح ٢٨ فبراير والمحتلين والسراى .

ثم « الأحرار الدستوريون » وحزبهم يضم كبار الملاك وبعض المثقفين
على نحو ما كان حزب الأمة . ويقف كما كان يقف الحزب القديم ، موقف
الاعتدال من المحتلين وموقف العداء الظاهر أو المستتر حسب الأحوال من
السراى ونزعتهما إلى الاستبداد (١) .

أما « الإنجليز » فموقفهم هو إضعاف شوكة الحركة الوطنية وتشجيع
العناصر المعتدلة واستخدام السراى بقدر ما تسمحهم الظروف لتحقيق
أغراضهم . ووقف المعتاد منذ اللحظة الأولى إلى جانب الوفد ، ويقتضينا
الانصاف هنا أن نقول أن العقاد إنما ظل يدافع عن مبادئ الوفد برئاسة
سعد زغلول لأنها تتفق مع مبادئه في الدفاع عن الحرية والاستقلال ومطالب
الأمة . وهنا نستطيع أن ننزع عنه صفة الحزبية التي تلصق به خطأ ،
وسنرى على طول هذا الكتاب كيف أن العقاد لم ينتقيد برأى الحزب الذي
دافع عن مبادئه الوطنية وجرده قلمه من أجل هذا الهدف .

ويمكن القول أن مقالتي المعتاد في الدفاع عن الدستور جعلته كاتب
الهدف الأول حتى قربه سعد زغلول إليه ووصفه بأنه « كاتب جبار النطق »
ولكن هذا التأييد والاعجاب الشديد بسعد زغلول - كما يقول عبد الرحمن

(١) العقاد : سعد زغلول ص ٤٢٦ .

صدقي - يرجعان الى ما قبل زعامته بعشر سنين ، ايام اشتغال العقاد
سنة ١٩٠٨ محررا في صحيفة الدستور التي تنتمي للحزب الوطني ، وعلى
الرغم من هذا الانتماء فان صاحب الدستور محمد فريد وحدى ، في خلاصه
لحرية الراى وصدق نزاهته ، سمح له بصدر الجريدة لنشر حديثه الذى
اجراه مع سعد وهو وتذك ناظر للمعارف ، فأتاحت له بهذا الحديث فرصة
الدفاع عن خلاصه لمشروع الجامعة المصرية مع انه كان موضوع حملات
الحزب الوطنى (١) .

ويحدثنا الدكتور لويس عوض (٢) عن العلاقة بين سعد والعقاد فيقول:
« أما ولاء العقاد لسعد زغلول شخصيا ومبدأ ، فقد كان أشبه شيء بعبادة
الأبطال ، ومع ذلك فان هذا الولاء لم يجعل من العقاد مجرد تابع مجرد من
الارادة يتخذ من زعيمه صنما ، بل كان لا يتردد فيه مجاهرة سعد زغلول
بمعارضته كلما وجد موطننا للاختلاف معه مثلما حدث عندما رفض العقاد
ان يعلق على خطبة العرش سنة ١٩٢٤ على اساس عدم اقتناعه بأن عبارة
« الأمانى القومية في السودان » الواردة بها تعبر بوضوح عن حقوق مصر .
ولما يشتبك سعد مع العقاد في نقاش طويل حول هذه النقطة يتسول
الاول : « لو حاسبني كل فرد في الأمة حسابك لمجزت عن أعياى وكالتى عن
الأمة » ، فاجابه العقاد بقوله : « ولكن ليس كل فرد في الأمة عباس
العقاد » فابتسم سعد وقال : « صدقت » ليس كل فرد في الأمة عباس
العقاد « .. وهكذا تميز العقاد باستقلال في الراى وصلابته في الدفاع
عنه ، وكانت مبادئه بعد ثورة ١٩١٩ هى مبادئ الوفد الاولى التى وضعها
سعد زغلول ، وولكنه الأمة للمطالبة بها ، وهى الغاء الحماية والسعى
لتحقيق الاستقلال التام لمصر والسودان . فهو اذن لم يكن حزبيا بللمعنى
المعروف ، ولم ينضم الى حزب من الاحزاب ، وانما كان يدافع عن مبادئ
الوفد برئاسة سعد زغلول ولا يستند الراى من احد ، ويشترط ذلك على
كل صحيفة يعمل بها ، وكانت الصحف تنقل منه هذا الشرط . فكانت
مقالاته السياسية تنشر دون ان يطلع عليها رئيس التحرير أو صاحب

(١) عبد الرحمن صدقي : ذكريات في ذكرى العقاد - مقال بمجلة الهلال ابريل سنة ١٩٦٧

(٢) لويس عوض : دراسات عربية وغربية .

الصحيفة ، ولم يطلب منه الكف عن الكتابة او تخفيف الحملات ضد خصومه في عهد الزعيم الراحل سعد زغلول (١) .

وفي هذه الأثناء كان عبد القادر حمزة ، قد أصدر صحيفة « البلاغ » في ٢٨ يناير سنة ١٩٢٣ ، وكانت وزارة نسيم باشا هي التي رخصت للإبلاغ بالظهور ، وكانت الوزارة النسيمية تقترب الى « الاكثرية » بيد ان هذا التقرب لم ينفعهما طويلا في تخدير الأمة ونهضة الجو لتعديل الدستور ذلك التعديل الذي تضيق من حدوده ، ويكاد ينفصه من اساسه ، وهو الاعتراف بسلطة الأمة والنتيجة الوزارية .

ويلخص لنا العقاد مناورات الوزارة النسيمية في التقرب الى الاكثرية ، بأنه لما أحس رؤساء الوزارات والمرشحون لرئاسة الوزارة أن رشدى وعلى وثروت وأصحابهم قد احتكروا الميدان في السياسة المصرية تألبوا حزبا واحدا على مقاومة هذا الفريق ، وأصبحوا فريقا آخر يرأسهم محمد سعيد واحمد مظلوم وتوفيق نسيم ويوسف وهبة ولخوان هذا الطراز ، وأصبح في مصر على هذا التقسيم فريق وزاري يصح أن يسمى بالمدرسة التركية وعم محمد سعيد وأصحابه ، وفريق آخر يسمى بالمدرسة المتفرنجة هم على وأصحابه (٢) .

« وبحكم العداء بين الفريقين أصبح لزاما على « المدرسة التركية » أن تخطب ود الوفد وتقترب إليه ، وتلوذ بالقصر الملكي لتستند اليه في وجه المعارضة المكشوفة من الانجليز لعدلى وأصحابه .

وهذا سر الصداقة التي كان يبديها محمد سعيد وتوفيق نسيم واحمد مظلوم لسعد زغلول بعد أن كانوا جميعا يحاربونه لا يتقدمون الى مساعدته يعمل من الاعمال . فسمى محمد سعيد في انشاء وفد غير الوفد السعدى ، وأبى توفيق نسيم أن يوقع التوكيلات القومية ، ولبت احمد مظلوم على صداقته للثنتين .

« فلما جاء توفيق نسيم عقب عبد الخالق ثروت المجاهد بعداء سعد زغلول وانصاره واتبع سياسة التقرب الى الوفد ، وكتب مذكرته يطلب فيها الاعتراف بالكثرة القومية واستقال قبل أن يندسخ الدستور وتكتشف اغراضه الخفية . بلغ ذلك كله الى سعد في جبل طارق وهو يعيد من مجرى الحوادث

(١) محمد طاهر الجبلاوى : في صحبة العقاد ص ٩٠ .

(٢) العقاد : سعد زغلول ص ٤٢٢ .

ووسائل الاستقصاء الوافية فكتب إليه البرقية التي يقول فيها : « انتم بعلمكم الشريف المعم بالوطنية والحكمة استحقتم تقدير الوطن » .

وفي هذه الاثناء كان عبد القادر حمزة قد استطاع الحصول على ترخيص له من وزارة نسيم باشا باصدار جريدة (البلاغ) ، وكما بارك سعد زغول الوزارة التسمية من قبل طارق وهو بعيد من مجرى الحوادث ووسائل الاستقصاء الوافية ، كتب برقية الى البلاغ يقول فيها :

« يسعدني ان يظهر للأهالي خلف يملأ ما تركت من فراغ ، ويستأنف ما بدأت من جهاد ، ينتظر الحق في دعوته ويهزم الباطل في دولته » . يصور شعور الأمة بذلك التأم الشاعر ، ويشرح امانيتها بذلك الاسلوب البديع الباهر ، سرى ان يكون لنا بلاغ يحرره عبد القادر » .

وهكذا بارك سعد زغول في منفاه جريدة (البلاغ) واصبحت في ظاهرها صحيفة الوفد ولسانه الاول ، وكان عباس العقاد لهذا السبب وحده كاتب (البلاغ) الاول ، يكتب في كل يوم مقالا سياسيا يعتبر مادة اساسية من مواد الجريدة . وكان العقاد يحتل الصفحة الاولى على الدوام وكثيرا ما كان يملأ هذه الصفحة بأكملها .

واستمرت الحرب بين الوفد وخصومه من الاحرار الدستوريين وغيرهم . وكان تلم عباس العقاد أقوى سلاح استعان به سعد زغول في تلك الحرب فكانت مقالاته السياسية تنشر دون ان يطالع عليها رئيس التحرير وصاحب الصحيفة وكانت الصحف التي يحرر فيها العقاد تنفذ فور صدورها بدقائق ولاأقول بساعات(١) ويذكر لنا الأستاذ الموصى الوكيل انه اشترى نسخة من إحدى هذه الصحف من ميدان محطة الرمل بالاسكندرية في يوم صدورها نفسه بعشرة أمثال ثمنها ، « نعم اشتريتها بخمسة قروش وكان ثمنها في ذلك الوقت خمسة مليمات » مما يوضح الأثر الضخم الذي كانت تحدثه مقالات العقاد كسياسي مناضل في ذلك الحين .

وقد كان العقاد عنيفا مع خصوم مبادئه التي آمن بها ممثلة في مبادئ الوفد وقد كتب أحد كتابهم المشهورين (ابراهيم حلال بك) كلمة عن العقاد قال فيها « لما ينس الوفد من مناقشتنا بالبرهان والحجة لجأ الى ذلك الوحش الرابض في جريدة البلاغ ففك عنه السلاسل والاعلال ، واطلقه علينا يفتك كيف يشاء » (١) .

(١) محمد طاهر الجبلاوي : في صحبة العقاد ص ٩٥ .

وكان من المتفاهم عليه حين صدور البلاغ أن تخدم سياسة الوزارة
للمسيحية في أمر الدستور الذي طواه القصر في انتظار الفرصة لتعديله ،
وهنا افترقت خطة البلاغ وخطة كاتبها الاول (عباس العقاد) افتراضا ثابتا
يسهل الرجوع اليه ، حين اخذ على الوزارة النسبة السبيل في (البلاغ)
فاعلن في مقالته السابق الاشارة اليها ، الدعوة الى تنفيذ الدستور واجتناب
التمرض لاحكامه ومبادئه ، وليكن تعديله بعد ذلك على ايدي النواب المنتخبين
اذا وجدوا فيه موصعا للتعديل » .

وقد استمر العقاد يشارك في تحرير البلاغ منذ انشائها وصحورها
في الثامن والعشرين من يناير سنة ١٩٢٣ حتى سنة ١٩٣٠ . حتى اذا صدر
البلاغ في سنة ١٩٣١ باسم (البلاغ الجديد) لا يكتب فيه شيئا حتى
سنة ١٩٣٧ .

وقد انتهت الفترة الاولى التي قضاها العقاد في البلاغ ، بتعطيل البلاغ
بعد صدوره وقد جاء في صفحة البلاغ في قلم الطبعوعات
انه في « ١٥/٦/١٩٣٠ صدر قرار من مجلس الوزراء (في وزارة
اسماعيل صدقي) بتعطيل البلاغ نهائيا . وذلك تطبيقا للمادة رقم
١٥ من الدستور وهي تخول للحكومة - وقاية للنظام الاجتماعي - أن تتدخل
مما قيدما به في شأن حرية الصحافة (١) » .

ثم عاد البلاغ الى الصدور بعد لحراج العقاد وإخراجه منه ، وبقي
منتظما في صدوره عدة شهور . واحتجبت - بدلا منه - صحيفة كوكب
الشرق التي نشر العقاد فيها مقالاته ثلاثة أيام متواليا ، وظلت محتجبة
طوال الوقت الذي انتظم فيه صدور البلاغ .

وقد ظهر تعاطف العقاد الشديد للوفد ، ضد كتاب الأحزاب الأخرى ،
في جوانب كثيرة منها هذا اللون من الهجاء السياسي الحاد الذي يقوم على
السخرية المرة ، وقد مكنت العقاد حدة مزاجه وقوة بيانه من مهارته في
استخدامه السخرية اللاذعة ضد كل أعدائه طوال اشتغاله بالسياسة .

وقد استخدم العقاد أسلوب السخرية من الأحزاب
ومن النداءات التي تصدر عنها . وذلك - كما يقول الدكتور عبد اللطيف
حمزة - عن طريق كتابة هذه النداءات بطريقة جديدة يرد بها عكس المعاني
التي تشتمل عليها (٢) .

(١) ولجج صفحة البلاغ في قلم الطبعوعات - كتاب (أدب المقالة الصحفية ج ٨ ص ١٧٠)
(٢) الدكتور عبد اللطيف حمزة أدب المقالة الصحفية ج ٨ ص ١٩٧ .

وثمة طريقة أخرى استخدمها العقاد في مقالاته السياسية بالبلّاغ .
وعى طريقة التساؤلات ، وذلك بهدف النيل من خصوم الوفد واضعاف
مركزهم أمام الشعب وقد سلك كل هذه الطرق في (البلّاغ) سمياً وراء نجاح
الوفد في معركة الانتخاب ومن أمثلة الطريقة الأولى هذا المقال الساخر :

نساء الأحرار الدستوريين

مترجماً الى اللغة العربية (١)

وقد استهل العقاد هذا المقال ببدء الأحرار الدستوريين كما ورد في جريدة
السياسة ثم قال :

هذا كلام لا بأس به إذا صدر من غير هؤلاء . أما وقد صدر عنهم فنحن
نترجمه في اللغة العربية ليُفهمه الناس كما ينبغي أن يفهمه ، ويقرأوا
من السطور ما يجب أن يقرأوا فنقول :

أيها المصريون :

نناديكم اليوم وما ناديناكم قط ولا عرفناكم قبل اليوم ، ولا توجهنا
بالنداء والابتهاال الى غير السادة الانجليز مصرقى الاقتار ، وعقلى الليل
والنهار . ولكن الانتخابات تلجئنا اليكم ، والضرورة تسوقنا الى مخاطبتكم .
والنعمه تجنح بنا الى طريقكم . فاسمحوا لنا ان نتوسل بكم الى ارضاء
الانجليز على حسابكم ، وان نأخذ من ايديكم السلطة التى نرغم بها
الوفىكم . فاقبلوا بالله ان نفضلكم ولو يوماً واحداً هو يوم الانتخاب
الذى أحوجنا اليكم ، وان نستغل في ذلك اليوم تلك البلامه التى طلنا
اعتقدناها فيكم . ثم اصنعوا بعقولكم ما تشاءون ، أودعوا لنا نصنع بها
ما نشاء .

أيها المصريون :

مبدؤنا مبدأ الصدق في الوعد ، واتباع القول بالعمل . والدليل
على ذلك أننا تسمى أنفسنا الأحرار الدستوريين ، وما تركنا للناس حريتهم
قط ، ولا وصلنا الى الحكم يوماً عن طريق الدستور .

ولنورد لكم برهاناً أقرب الى الاقتناع وأصرح في المقال :

(١) البلّاغ : يوم ٢٨ من ديسمبر سنة ١٩٢٤ - العدد ٥١٢ .

لقد وعدنا الانجليز ان تثبت اقدامهم في مصر ، وان تمكن لهم في رقاب
اعليها . فهل اخلفنا لهم وعدا ؟ وحفنا لهم في يمين ؟ ألم يرحب وزاؤنا
بالحماية ؟ ألم يدعوها من نعم الله وبركاته عليهم وعلى مصر ؟ ألم نعبث
بوحدة الأمة حين جاء ملنر لتنظيم الحماية فابديناه ، وكنتم له من الخادلين؟
ألم نتمهد للانجليز سرا في وثيقة ٢٠ يناير سنة ١٩٢٢ بارغام الأمة على
القرار ما يريدون من توظيف وتضمين وتعويض ؟ ألم نستشير بالتحفظات
التي يسيحكم منها اليوم ما تعلمون وما سوف تعلمون ؟ ألم نعد الى الحكم
اليوم لنقم ما بدانه منذ سنين ؟ فهل وفيما بجهودنا ام كنا له ناكثين ؟
وهل اتبعنا القول بالعمل ام لا نزال غائلين غير فاعلين ؟

ايها المصريون :

لنتخبروا ذوى الاخلاق وذوى الكفاءات . ومن هم ذوى الاخلاق وذوى
الكفاءات ؟ امامكم فريقان في هذا البلد : فريق السعديين وفريق الاحرار
الدستوريين . غاما السعديون فقد رأوا صراعا بين مصر وبريطانيا العظمى
فعلموا ان مصر اضعف جانبيا واقل نصيرا وابعد من النجاح املا . فبلغ
من تذلة نفوسهم وسماجة وجوههم وفساد ضمائرهم وسخف آلامهم ،
وومن طبائهم ان يؤثروا السجن على المنصب والنفي على الوطن ، والشقاء
على الرغد ، والآفة على التزلف . فمالهم من ذلك ما يستحقون ، وسينالهم
منه بعد اليوم فوق ما يعلمون . وأما الاحرار الدستوريون فابن عم من هذا
الخلق الشائن وهذا المزاج المكسوس ؟ قد أوحى لهم شرف نفوسهم ونبلالة
مقاصدهم ، وعلو آدابهم ان ينصروا القوة ويلتصسوا جانب المنفعة ، ويدوروا
مع الدهر كيف دار ، ويقتنموا رضا الانجيز ، ثم يسموا في ارضاء المصريين
ويبيتسموا للقاتل ثم يبكوا مع القتيل ، فياله من خلق عظيم .

وأما الكفاءة فانتم ايها المصريون ما برجتم ولن تبرحوا تتلهفون على
وزارة تحسن فيما تحسن ان تسجل عليكم للانجليز حق حمايتهم لكم ،
وحق حماية الأجانب في بلادكم ، وحق تهديكم في القطن والماء ، وحق
استلاب السودان الذي ما ذكرناه بحرف واحد في النداء . وهذه - ايها
المصريون - ومآثر لاتتاح لكم بغير الكفاءة والاقتدار . فابن هم اصحاب
الكفاءة والاقتدار ؟ انهم - ولا ريب - هم الاحرار الدستوريون فالاحرار
الدستوريون .

لنتخبروا ايها المصريون . وأعلموا ان شفاعتنا اليكم هي التضحية
بمصر لا التضحية لمصر . شفاعتنا اليكم الضحايا التي اهدناها ،

والنوبس التي ازمعتنا ، والاتلام التي حملناها ، والسجون التي ملأناها ،
وكيد الأهمات التي ادميناها ، ودموع الآباء التي سفحتها ، وآجال الشباب
التي اعتصرناها .

أيها المصريون :

لكم عقول وتلوب وضمانر : ولكن ليتكم بلاعتل ولا تلوب ولاضمانر .
فان هذه المعقول وهذه التلوب وهذه الضمانر لهي السد الذي يقف بيننا
وبينكم ، وهي السبيل الذي يتطرق السعديون اليكم . فان اوليتمونا ما بقى
لكم منها فذاك . والا فقد أغنانا عنها ما أعدناه من العدة ، وتوسلنا
به من الوسائل . وما حاجتنا الي عقولكم وتلوبكم وضمانركم بعد اذ جعلنا
الرأى ان نختار من الخدوين ، وأعدنا الحائقين على السعديين من المعد
والموظفين وبعد اذ وعدنا الأزهرين بأجابة المطالب ، والموظفين بزيادة
الرواتب وبعد ان حجزنا على منشورات الانتخاب وأماننا الي الناس
بسوط العذاب . فهل تجدى عقولكم وتلوبكم وضمانركم بعد هذا الاغراء
والارهاب ؟

الأحرار الدستوريون

الترجم : عباس محمود العقاد

ثم في المعركة الانتخابية التي سبقت البرلمان الثاني سخر العقاد من
رئيس حزب الأحرار الدستوريين وهو يومئذ عبد العزيز فهمي - وكتب مقالا
بمعنوان :

يحيى الرئيس السلوب (١)

لعلك تسأل من هذا الرئيس السلوب ؟ هو ذلك الذي تصدقوا عليه
بالرياسة لأنهم لم يتفقوا على الرئيس ولم يجدوا احدا غيره لسد الفراغ
ينوب عن الفرعة وتهون على النفس مناقشته ، ويظهر للناس اختباره بمظهر
لوايسة وجبر الخواطر .

وأنت تعلم ان هذا الرئيس السلوب هو المسكين عبد العزيز فهمي .

ومن هذا القليل أيضا مقال آخر بعنوان :

عبد العزيز فهمي يخطب . فهل اشتغل بالسياسة (٢) .

(١) اللبلاغ : يوم ٣ من فبراير سنة ١٩٢٥ - أنظر «أدب القالة الصحفية ج ٨ ص ٢٠١»
(٢) اللبلاغ : يوم ١٥ فبراير سنة ١٩٢٥ .

« أعلنت جريدة التعاسة (بريد السياسة) في مربع منق الحواشي كاعلانات دور التمثيل والسينما أن الأستاذ عبد العزيز فهمي سيخطب خطابا سياسيا عاما . وضعت الإعلان بهذه الصورة لتلفت اليه الأنظار ، وترغب القراء في سماعه . وكانى بالكاتب وقد انتفخت أوداجه ، وسمعت أذناه دقات قلبه ، واستوى على كرسيه ، وشمر عن ساعده ، وطلب عامل المطبعة ليجهز أظهر مكان في الجريدة بهذا الإعلان ، واعتقد بقدر ما سمحت له عقليته انه يزف للأمة بشرى طالما تآقت اليها ، ويتحفها بخبر يهتز له فؤادها ، فيتهافت الناس على الحصول على التذاكر خوفا من ضياع الفرصة ولكن – للأسف – كانت التذاكر تسمى الى الناس سميا ، وتوضح في جيوبهم تيرعا ليثلى السراق ، فيسر الأستاذ شفاه الله » .

ولم يكن موقف العقاد من حزب الأحرار الدستوريين موقف التجنى ، فقد كانت جريدة (السياسة) تحمل لواء الحملة على الوفد وعلى سعد زغلول منذ صغورها ولم تترك موقفا لسعد الا واتخذته موقفا لهجوم عنيف بالسنة كتابها : الدكتور ميكل وطه حسين وتوفيق دياب ومحمود عزمى . ولذلك كانت مقالات العقاد وعبد القادر حمزة وحافظ عوض هي السد المنيع الذى يقف في وجه ضربات (السياسة) . فقد اتخذت (السياسة) من شخصية سعد زغلول مجالا ضحكا للهجوم فاتهمه بالكثاتورية والتعصب لرايه والسمى لتكوين دولة زغلولية ، وفرض سلطانه على انصاره دون أن يكون فيهم من يمارضه أو يجرؤ على ذلك .

كتب طه حسين في الأهرام بعنوان :

ديمقراطية أم طغيان (١)

« ... ولكن سعدا كان الزعيم فما كاد يعلن خلافه لخصومه وانتفاقه عليهم حتى اجتمع عليه الجمهور وسمى غيره منشقا ووصف خصومه بالروق »

وليس ما وقع في مصر الآن الا حربا بين مبدئين مختلفين : أحدهما مبدأ قيادة الجمهور الى منفعتة المحففة عن طريق النظام والقانون أى من طريق الديمقراطية المعتدلة المنظمة . والآخر مبدأ الاستئثار بما للجمهور من قوة وسلطان والاستبداد باسم هذا الجمهور وسلوك الطرق المعقولة وغير المعقولة الى اكراه الخصوم على الاعان أو كم أفواههم وعقد السننهم فان اردت عبارة واضحة موجزة فقل أن في مصر الآن حربا بين الديمقراطية والطغيان » .

(١) الأهرام : يوم ٢٥ من يونيو سنة ١٩٢١ .

ولهذا كله كان قلم عباس العقاد لا يبنى في الرد على هذه الاقلام الحزبية مجتمة وركز هجوم على الاحرار الدستوريين الذين تخلوا عن الثورة وانشقوا عن الوفد واخذوا يحاربونه ويميلون الى جانب القصر والانجليز . وقد استعمرت معارك الثورة منذ سنة ١٩١٩ حتى سنة ١٩٢٤ تهذا أحيانا وتشتمل أحيانا ولكنها لم تتوقف أبدا . وخلال هذه المعركة كان العقاد دائما على اقصى اليسار في الثورة ضد الانجليز ، وضد المرتدين من المصريين .

والحقيقة ان فيما كتبه الدكتور لويس عوض في كتابه « دراسات عربية وغربية » عن تلك الاحداث التي عاصرها صبيها في السادسة عشرة ما يلقي ضوءا واضحا عن مدى الثقل الحقيقي الذي مثله العقاد وسط « الثلاثة الكبار » في معركة التصدي الوطني الديمقراطي . يقول الدكتور لويس عوض: « لقد تكاملت صورته في نفوسنا نحن شباب ذلك الجيل الابى المسحوق ، بطلا غردا حمل وحده تبعات النضال الوطني والدستوري في قيادة المثقفين ولولا ان طه حسين انسلخ يومئذ عن معسكر الاحرار الدستوريين وتقدم الطليعة الثورية الشعبية لبقى العقاد وحده يحمل اللواء .. هذا هو العقاد الذي عرفته عام ١٩٣١ ، وهو أيضا العام الذي عرفت فيه طه حسين وسلامة موسى . واخذ ثلاثتهم يبدى عاما بعد عام لأسير نحو النضوج . بدأ ثلاثتهم في خيالى المتهيب كتالوث من الآلهة متوجين على دولة الفكر ولكن العقاد وحده في فتنة من الصبا الباكر ، بدا لي وكأنه كبير الآلهة غير منازع بسبب ضرالوته التي لا تعرف الحدود في قتال اعداء الشعب والحرية » .

ولقد كانت مشكلة جيل المثقفين المصريين الذين بلغوا سن الشباب في اواخر العشرينات ان قيادة المثقفين في تلك الفترة والتي تتمثل في (لطفى السيد ، وطه حسين ، وحسين ميكل ، والملازنى ، ومنصور فهمى ، ومحمود عزمى ، وعبد الميز فهمى ، بل احمد شوقي وخليل مطران وعلى مصطفى عبد الرازق) ربطت مصيرها منذ البداية باحزاب الاقلية التي كانت تنسح أكثر من غيرها « لتجديدات » المثقفين ونزعاتهم الفكرية التحررية التي يسبقون بها الغالبية الجماهيرية الأتلة ثقافة . ولما كان رجال هذه الأحزاب كحزب الأمة ثم الاحرار الدستوريين ممن ارتبطوا بالملكية المستبدة وبمهادنة الانجليز واقتربت أسماءهم في تاريخ كفاحنا الوطنى والديمقراطى بتعطيل الدستور وإقرار حكم للصفوة بالحديد والنار ، لذا كان هذا اشكالا خطرا عزل العناصر المستنيرة في الأمة بشكل من الاشكال عن الكفاح الجماهيرى الشعبى سواء في وجهه الوطنى أو في وجهه الديمقراطى . لكن العقاد

وحده هو الذى استطاع أن يكون المثل الأكثر إشرافا الذى جمع فى الوقت نفسه « بين إمامة المثقفين وبين الإمامة الثورية » ، علمنا أنه لا تعارض هناك بين الثقافة والثورية ، بل وكيف يكون المثقفون طليعة الثوار . ومن هنا فقد تجسم العقاد وحده فى وجداننا كمثقف بطولى جسور وكمثقف شامخ يلوذ به الأحرار . فلما انشق طه حسين عن الأحرار الدستوريين وانضم إلى اتجاه حزب الأغلبية فى أوائل الثلاثينات وشارك العقاد فى تفويض ديكتاتورية اسماعيل صدقي أصبح فى الكفاح الثورى قطبان شامخان وخرج المثقفون نهائيا من ذلك المأزق فتبلور فى مصر لأول مرة فى تاريخنا ذلك المعنى الرائع وهو أن مكان المثقفين ينبغى أن يكون دائما فى طليعة الكفاح الثورى (١) .

(١) د . لويس عوض - دراسات عربية وغربية .

- اشترنا الى أن الصراع في هذه الفترة كان يتمثل في تيارات ثلاث ،
اولها الوفد وثانيها المنشقون عن الوفد الذين شكلوا فيما بعد حزب الاحرار
الدستوريين وثالثها الانجليز . . . وقد كان الصراع في بداية هذه الفترة قائما
بين القوى الوطنية بقيادة الوفد قبل انشقاق الاحرار الدستوريين والانجليز ،
ولكن هذا التصدع في القوى الوطنية كان سببا في تعدد تيارات الصراع ،
فبدلا من أن يكون الصراع بين القوى الوطنية والانجليز ، أصبحت هناك
معركة بين القوى الوطنية والانجليز من جهة ، ومعركة أخرى بين القوى
الوطنية وبين المنشقين عليها من جهة أخرى وهم ما يمكن ان نسميهم
« بقوى الثورة المضادة » وقد ظهر « القصر » كقوة مضادة للثورة تحالفت
في معظم الاحيان مع المنشقين على الوفد .

- ويرجع سر هذا التقارب الشديد بين قوى الثورة المضادة الى مقاومة
« الدستور » الذي عبرت قوى الثورة الوطنية بتمسكها الشديد به عن مطالب
الشعب الحقيقية فهو وسيلة لتقييد سلطة القصر الذي يطمع في أن يملك
ويحكم ، ولكن القصر كان يريد من جهة أخرى توسيع سلطانه الى أقصى
الحدود ، وهنا حدث تباعد لا التقاء معه بين الشعب والقصر ، في ذات
الوقت الذي حدث فيه تقارب بين القصر والاحرار الدستوريين ، فالآخرون
يريدون أن يصبح الدستور تعبيرا عن حق الملك أو اصحاب المصالح
الحقيقية - على حد تعبيرهم - وكانوا يرون أن الاشتراك في الانتخاب
وظيفة وليس حقا . ومن ثم لابد من اشتراط شروط له تتعلق بالمركز
الاجتماعي وتمثيل المصالح . بينما كان الوفد يرى أن الدستور حق الشعب
عامة ، ولا بد من اشراك الذين يملكون والذين لا يملكون على حد سواء
« في حق الانتخاب » (١) .

- وكان العقاد في هذه المرحلة - كما يقول الاستاذ رجاء النقاش - يمثل
اليسار الوطني ، في أجل صورة . لقد كان هذا اليسار الثوري يعمل في
المرحلة الأولى من الثورة على إلغاء الحماية الانجليزية والمطالبة بالاستقلال
بلا عوادة من أجل تحقيق هذه الأهداف التي كانت قمة في الثورة آنذاك ،

(١) راجع مقال الأستاذ كميل زهيرى بمجلة الهلال ابريل ١٩٦٧ عن (العقاد سياسيا)

واستطاع اليسار الوطني بالفعل ان يلغى الحماية الانجليزية ويحصل على استقلاله شكلي ، كان في ذلك الوقت نصر مبيها ، كما استطاع اليسار الوطني ان يحصل على دستور ١٩٢٣ الذي دفع باليسار الوطني نفسه الى الحكم حيث قامت وزارة سعد زغلول سنة ١٩٢٤ . ومنذ ذلك الحين تركزت المعركة بين اليسار الوطني والرجعيين ومن يفتنون وراهم في قصر عابدين ، أي الملك ، وفي قصر الدوبارة ، أي الانجليز ، في معركة لحماية الدستور (١) .

وقد ارتبط العقاد بهذه الاهداف ارتباطا كلييا تاما ، سواء في المرحلة الاولى للثورة او في المرحلة الثانية . وكان العقاد مفكرا مناضلا من الطراز الاول ضد كل عناصر الثورة المضادة التي لم تهدأ ابدا منذ اعلان الدستور(٢) .

وقد اتخذت جريدة السياسية التي كان يصدرها حزب الاحرار الدستوريين من شخصية سعد زغلول بوصفه زعيم الثورة الوطنية للهجوم والاتيham ، وظهر هذا بوضوح بعد نجاح سعد زغلول الساحق في الانتخابات وتوليهِ الوزارة ، حتى اذا ذهب سعد لاجراء المفاوضات مع ماكسونالد وتبوؤ بالفشل ويعود سعد وزملاؤه الى مصر لانهم لم يقبلوا من المفاوض البريطانى أية مساومة في حقوق مصر عبر الاحرار الدستوريون عن شلماته بسعد واعضاء الوفد تدل عليها مقالات السياسة في ذلك الحين .

وقد كتبت السياسة بعد وزارة الوفد الاولى ٢٨ يونية ١٩٢٤ تقول :

« فلم يكادوا يتبولون مقاعدهم حتى انفصح ما يكونون وظهروا ما يخفون فاذا خلاصهم لصر اخلاص لأنفسهم ، واذا حبهم للوطن حب لذواتهم واذا حقوقهم للبلاد وتضحيتهم في سبيلها انما هي تضحية بالبلاد على مذبح شهواتهم ومآربهم . واى مآرب واى شهوات . أكثر الشهوات خسة وحفارة وضعة :

شهوة الجيب والوطن ، شهوة المال يستوفونه من خزائنة الأمة لأنفسهم وكذلك لم تكن الا ايام حتى أظهر الوطنيون ان الوطنية عندهم هي اتهماس الوطن بأنفسهم وحتى كان هؤلاء الرهبان المتعففون بحب امهم أكثر الناس شراة ونهما وكذلك استأسد الشعب واستغتر البغات وكذلك ظهر هؤلاء مرتزقة لا يبغون من وراء النيابة غير جاء كاذب يدلون به على ناخبينهم وغير مال كانوا يسعون اليه عن طريق الرزق الحلال » .

(١) رجاء النفاش : العقاد والثورة الوطنية – مقال بمجلة الكاتب .

(٢) المرجع السابق .

وكتبت السياسة أيضا تحت عنوان :

حكومة دستورية أم أسرة زغلولية (١)

« قال سعد زغلول : أؤكد لك ان اقرباء كثيرين وكثيرين جدا في الغربيه وفي انحاء كثيرة من الأرياف وانما من أعماق قلبي انهم ليسوا ذوى الخبرة والكفاية والا لمينتهم في مختلف الوظائف فانهم بذلك ادارة زغلولية اسما ومعنى ولحما ودما »

انه في حالة تساوى الخبرة والكفاءة بين قريب لى وغير قريب ، افضل دائما القريب لانى اتق به طبعاً في تنفيذ سياستى وإدارة أعمال الحكومة حسب رغبتى (الليتريه ٣ نوفمبر ١٩٢٤) .

وقالت السياسة : ما الذى دفع سعد زغلول باشا الى مثل هذه التصريحات المدهشة وما الذى أدى به الى مواجهة الامة على هذه الصورة التى تخالف قواعد الحكم في كل بلد متعدين ، والتى تعنى ان سعد باشا لائقه له الا باقاربته .

الجواب بسيط : ان سعد باشا يسمع الان من كل جانب أن الناس من أنصاره ومن غير أنصاره يلقون للتعيينات التى تمت وهو يعلم ان هذا القلق قد امتد الى طوائف الأمة جميعاً .

« من حق سعد أن يقول هذا لانه يرى الامة راضية بكل ما يعمله او يقوله ويرامها راضية بنتيجة محادثاته مع مكثونالد وبانفراد الانجيز بالأمر بالسودان . لا تقل لى أن ذلك غير صحيح . وان الناس ممتعضون ولكنهم يكظمون امتعاضهم وشكواهم فليس من حق من فقد الشجاعة الادبية أن يكون له رأى او أن تسمع له شكوى مادام الناس يعلنون ثقتهم بالحكومة حرة تتصرف كما تشاء وتدبر الأمر كما تهوى » .

وكتبت السياسة بعد فشل مفاوضات سعد : (٢)

« لقد أمضت البلاد ثلاث سنوات لا تسمع فيها من الكتاب والخطباء الا المطاعن الشخصية هاجم بها فريق فريقيا ويسعى كل من طريقها ليهتهم خصومه بانهم مسئولون عن كبت وكبت مما حصل في الماضى ثم لا يعرض احد على الأمة خطته للنجاة ولا طريقته للخلاص من انجلترا مع بقا، وحدة الأمة سليمة » .

(١) السياسة : يوم ٤ من نوفمبر سنة ١٩٢٤ .

(٢) السياسة : يوم ٢٣ من أكتوبر سنة ١٩٢٤ .

وتستمر السياسة في حملتها على سعد فكتبت تحت عنوان :

« سعد باشا صنّعة الأنجليز (١) » .

ويكتب الدكتور طه حسين في السياسة تحت عنوان :

بغاة (٢) .

فيقول :

« واتقسم لقد بقى سعد وأصحابه وأخوانه فأسرفوا في البغي واتقسم
لقد طغى سعد وأصحابه على أخوانهم فأسرفوا في الطفيان ، واتقسم لقد
حق على كل مصري أن ينهض لهذه الطائفة اليباغية الطاغية فيردمها إلى طورها
وينزلها منزلتها ... الخ .. الخ » .

هذه هي طريقة (السياسة) في حربها مع الوفد وسعد زغلول ، وهي
كما ترى ليست كما يصفها أصحابها بأنها « وقفت عن حدود الحجة ، تدفعها
بالحجة ، والطمع تدفعه هو الآخر بالحجة ، والانتهاج تدفعه بالحجة أيما
متتالية موجهين أكبر همنا للكلام عن الدستور ولفت النظر إليه واستنهاض
الرأي العام للتشبيث بضرورة صدوره (٣) » .

وفي حقيقة الأمر لقد أدركت هذه (الصفوة) على حد تعبير الدكتور لويس
عوض بعد تجربة الانتخابات في سنة ١٩٢٤ وفوز سعد زغلول بالأغلبية
وفشل أكثر العقلاء في دخول مجلس النواب بأصوات الشعب ، ومنهم من
فقد التامين بحرمان أكثرهم ما يمكن له أن يشارك في الحياة العامة
لجيل كامل إلا من خلال حصة الملك في تعيينات مجلس الشيوخ أو من خلال
حق الملك في تعيين وزارات الانتقال ، « وهكذا أدركت » الصفوة « ومن يلوذ
بها أنها بمعزل عن جماهير الشعب حتى في داخل السياج الدستوري الذي
أقامته يديها - لقد اكتشفت من خلال تجربة انتخابات ١٩٢٤ أنها تتكلم
لغة لا يفهمها الشعب الذي كان يأبى أن يفصل الكفاح الوطني عن الكفاح
الديمقراطي (٤) » .

وهذا في رأينا هو ما جمل هذه « الصفوة » تنبت عن الشعب ، ويبتعد
عنها الشعب لتلتف حول الوفد بزعامة سعد زغلول ، مما ولد المارّة عند هؤلاء

(١) السياسة : يوم ٢٨ من ديسمبر سنة ١٩٢٤ .

(٢) السياسة : يوم ٢٥ من ديسمبر سنة ١٩٢٤ .

(٣) من كلام الدكتور هيكل .

(٤) الدكتور لويس عوض - أمّام الجمعة ١٥/٣/١٩٦٣ .

فوصفوا أسلوبهم في الهجوم الحزبي بالزراعة والعمى ، وهو كما رأينا من الأمثلة يفتر هذه القيم التي زعموا عدم وجودها الا عندهم ..

وهنا : ماذا تنتظر من كاتب الوفد الأول • هل بغض الطرف عن قوى الثورة المضادة فتفضل ما شاء لها التفضيل !

- ابدا •• لم يغض العقاد الطرف عن هذه القوى المضادة ، وانما حمل عصا التآديب لهم جميعا ، بوجه اليهم أشد الضربات ، حتى ينسوا من مقارعة الحجة بالحجة ، أو اللوثف أمامه موقف الأنداد ، وكانت عصاه تدلى بالحجة والدليل في بعض الاحيان ، وفي بعضها الآخر تتزايد بالتهكم أو السخرية أو التآديب • وسنورد هنا مقتطفات من مقالات العقاد التي كانت تمثل عصا التآديب :

يكتب العقاد (١) :

« دح كتابهم الماجورين فالامة لم تحفل ولن تحفل بما صنعوا ويصنعون. مرتزقة يطلبون قوتهم وقد عجزت اقلامهم عن أن تقوتهم بالصدق فراحوا يطلبون عيشهم بالخنل والداجاة ولم تحفل الأمة بكتاب ماجورين واذا شككت أو تأملت فانما تشكو مكاييد ساداتهم وتتألم من دسائس مستأجريهم » •

وكتب تحت عنوان :

حزب ينفرط عقده ولا تفلح المكابرة في رد الحياة له (٢) •

« وماذا بقي من حزب الاحرار الدستوريين ، لشيء الا الجريدة التي حاولت أن تروج لهم فآخفت وليئت الشهور والايام تنشر القهم الكاذبة حول الوفد ورئيسه ثارا منها للهزيمة التي منى بها الحزب • وهذه الجريدة هي الشيء الوحيد الذي يذكر الناس بان هناك حزبا كان اسمه حزب الاحرار الدستوريين •

وكتب ايضا تحت عنوان :

متبججون (٣)

« فات هؤلاء الائمة أن في الرؤوس عقولا تزن الرجال وتمحص الاعمال ، فات هؤلاء الأطفال في السياسة ، ان الناس في مصر من ائناها الى اقصاها يذكرون لهم سيئاتهم ولا ينسون منها واحدة ، وهل ينسى الناس ما أفسد

(١) البلاغ : يوم ٤ من سبتمبر سنة ١٩٢٣ •

(٢) البلاغ : يوم ٢٢ من يناير سنة ١٩٢٤ •

(٣) البلاغ : يوم أول يونية سنة ١٩٢٤ •

الدستوريون من اخلاق ايام عرائض النفس . ، ربما ادوا من احرار الموظفين انتقاما من عقائدهم الوطنية وما ظهروا من اناس لعدم انصامهم اليهم » . .

والى جانب هذا اللون من « انتاديپ السياسى » كان العقاد يحمل حل يرمى الى ابلاغ على افتتاحية السياسة التى كان يخبئها الدكتور ميكل تحت عنوان « حديث اليوم » ويحدثنا الاستاذ انور سجدى ان العقاد كان يكتب حملته بغير توقيع تحت عنوان « حديث اليوم » كذلك ، ونم يكن النقد مفتوحا بالهجوم بالاسم . غير انه قد وضع ذلك مرة او مرتين ، فقد اشار العقاد مرة الى ان ميكل كتب ما كتب وهو غير واع او انه كان فى غيبوبة ، وكان مقصد العقاد ان يؤكد ما كان قد نسب الى ميكل من انه كان يتعاطى بعض التفتيات .

وقد ذكر ذلك الاستاذ زكى عبد القادر فى مذكراته فمقب العقاد عليه قائلا : ان ذلك انما حدث فى الوقت الذى كانت جريدة السياسة تحمل عليه وتقول عنه : « انه عمود يمسح فيه الناس اقدارهم وانه يصح على الوصف السدس الذى عرف عن ابن زيدون الشاعر الاندلسى ومعناه انه ذو صفات ست منها :

« انه ديوت وزنديق وسارق الخ (١) » .

وهذه نماذج تمثل عصا التاديپ التى حملها العقاد للاحرار الدستوريين كقوة مضادة للثورة ، ونحن لا نأخذ على العقاد شيئا من التجنى اذا علمنا ان الانجليز كانوا يتظاهرون اذ ذلك بالصدافة بينهم وبين حزب الاحرار الدستوريين الى الدرجة التى تجاهر بها صحيفة المورننج بست حيث صرحت بان بريطانيا مستعدة دائما لتأييد اصدقائها ولوضع نفوذها الادبى الى جانب الاحرار الدستوريين (١) .

لقد اختار العقاد جانب الحزب التقدمى الذى يدافع عن مصالح الشعب فى ذلك الوقت . . وليس هناك تناقض بين وقوف العقاد الى جانب حزب الوفد فى مجائه السياسى لحزب الاحرار الدستوريين ، هذا اذا علمنا كذلك ان جريدة السياسة لم تكن عفيفة اللسان كما يزعم كتابها . بل ان سلاطة علمها كانت تتنازل كثيرا من العقاد ومن سعد زغلول الذى تمثلت فيه الزعامة الشعبية التى وقف العقاد الى جانبها مدافعا بذلك عن ثورة الشعب فى سنة ١٩١٩ .

(١) انور الجندى : مقال بعنوان « معارك العقاد الصحفية » بمجلة الهلال - ابريل ١٩٦٦

بين الأخبار والبلاغ

صدر اليه دد الأول من الأخبار في الثاني والعشرين من شهر ميرابر سنة ١٩٢٠ يجرهما أمين الرافعي الذي صرح منذ صدر صحيفته بأن عرضها لأول هو الدفاع عن القضية المصرية . . . بيد ان هذه الصحيفة قد عبرت في تلك الفترة عن روح الحزب الوطني ومبادئه في الدفاع الوطني، وإن لم تكن لسانا له ، وفي ذلك يقول أمين الرافعي : « فنحن إذن نخدم أمة ، وندافع عن مبادئ واحد هو الاستقلال التام لبلادنا المصرية » .

وفد وتفتت الأخبار الى جانب الوفد المصري مؤازرة له ، ولكنها ما لبثت ان اختلفت مع سعد ، عندما فكر في استئناف المفاوضات مع ملوك قبل ان يشترط تعديل الاساس الذي تبني عليه ، بحيث تلغى الحماية وترفع الاحكام العرفية ويقبل الجانب البريطاني تحفظات الجانب المصري . واستند الخلاف بين الأخبار والوفد ولكن الأخبار صمدت في موقفها تجاه حزب الاعلانية وتمسكت بأرائها رغم ما عائاه الرافعي من حزب الوفد ومن حملات كتابه عليه . . .

وتعد معركة العقاد مع أمين الرافعي من افسى لمعارك واحدا واذا خسا نرفض من الحزبية انها تدفع قادتها ومؤيديها الى التجنى على كل من يخرج عليهم ، فاننا نتمسك بهذا الرفض ، لان الحزبية دفعت الصاد الى تسن هذه المعركة القاسية مع صحفي نزيه خدم الوطن اجل خدمات يكفاحه النبيل .

وهنا نتساءل : هل كان العقاد ظالما في هذه المعركة لأمين الرافعي أم ان الصراع الحزبي كان يبرر له حملته ؟

سنعرض أولا لجانب من المعركة من خلال مقالات أمين الرافعي والعقاد، ثم بعد ذلك نحاول الاجابة على التساؤل المطروح .

كتب أمين الرافعي موجها كلامه الى سعد زغلول والوفد اثر اختلافه معهم فيما اطلق عليه « تعديل الاساس » وكان سعد زغلول قد حدد موقف الوفد من مفاوضات بريطانيا ، ثم غير هذا الاساس : يقول أمين الرافعي (١) :

« أننا لا نعرف التسليم أمام أية قوة ، بل انتم الذين عرفتموه في مواطن كثيرة انتم وزعماءكم وقادتكم ، كنتم في مقدمة الهاتين للحماية

(١) الأخبار : يوم ٣٠ من اغسطس ١٩٢٤ .

الاحتفالين بضربها على مصر ، وقد فعلتم ذلك نفاتا للانجليز او خرفا منهم ،
بينما كنا نحن في ظلمات السجون لاننا ابينا على اقلامنا التي اوقفناها على
خدمة قضية الاستقلال ان نخط حرفا واحدا في سبيل الحماية المقوتة .

كفتم تمرحون في ظل الحماية وتمتحنون حكم الحماية وتبشرون خيرا
برجال الحماية بينما كنا نطوف الليل والنهار فوق الاسفلت بزنزانه سجن
الاستئناف وفي معتقل درب الجماميز وبجانب المجرمين في ليمان طرة واخيرا
في زنزانه المسجن الاسود بالجيزة .

تحملنا كل ذلك لاننا آثرنا ظلمات السجون على ما كنت تمنعون به
من الانوار التي نظمها الحماية .

تحملنا كل ذلك لان ضمائرنا ايت ان تجاري ضمائركم في صرف
الامر عن التمسك بالاستقلال وفي تهوين امر الحماية .

فهل بعد ذلك ما يحمل على القول باننا ادعنا للقوة وخشينا بطش القوة .
لقد اوفينا منكم كما اوفينا من الاجنبى الغاصب ، فلم نتحول في اى لحظة عن
واجبتنا لاننا لم نجعل نغير الله ولغير ضميرنا سلطانا علينا . اما انتم فقد
كثر من لهم سلطان عليكم ، وما انتم اليوم تتنادون بان سلطان الانجليز
يجب ان تخضع الوزارة له ويجب ان تسلم الأحزاب لحكمه لانه سلطان
قوة . .

وما دامت مصر ليس لها قوة مادية فلا مندوحة لها عن التسليم .
وهذا هو السم الذى تنفثونه في الصدور لتحاولوا تبرير ضعف الوزارة
واستسلامها على اننا سألنا اولئك الكتاب الذين اباحوا لانفسهم ان يحطوا
راية الهزيمة والتسليم دفاعا عن الوزارة كيف تتفق تلك الدعوة الهزيمة مع
شعار (الاستقلال التام او الموت الزؤام) .

هل كان هذا الشعار مجرد اجبولة لغش الامم والسخرية منها ،
والتضليل بها حتى اذا اصبحوا في كراسى الحكم بعد ان كانوا في
كراسى المعارضة ، دفنهم هذا الشعار كما دفنتم غيره من المبادئ، وصار
لا حاجة للاستقلال ولا للموت زؤاما كان ام غير زؤام .

* * *

ورد عليه العقاد بمقال عنوانه :

كلمة الى أغرار اللواء (١)

وقد اتخذ العقاد من عبارة امين الرافعي « ان الوزارة المصرية لم

(١) البلاغ : يوم أول سبتمبر ١٩٢٤ .

نحنسن أن تستخدم توة مصر المعنوية في اجلاء الانجليز ولا في اضطرارهم الى الاعتذار عما فرط منهم فهي لذلك مقصرة في واجبها منفرطة في حقوق مصر ، اتخذت العقاد من هذه العبارة مجالا لتعليقه :

« انك يا سيدى الاستاذ امين تعتمد على القوة المعنوية ايضا ، ولذلك نتقى حجارة الغوغاء على زجاج نوافذك ولا تحاربهم بهذه القوة المعنوية ؛ذا اذا هجموا على دارك بل تلجا الى قوة الشرطة . »

والى الآن لم تخترع يا سيدى الاستاذ امين آلة وطنية تحول بها القوة المعنوية كما تحول قوى البخار والكهرباء . .

ليت للقوة المعنوية وزارة كوزارة الحربية فكنا ننتقم الى الاستاذ امين ليتولاها ويرينا كيف كان يجردها على انجلترا ، وكيف كان يحل بها غضبه اربعين سنة في اربعين ساعة او اربعين دقيقة ، يقول الاستاذ امين . انتم وزعماءكم وتادتكتم كنتم في مقدمة الهاتنين للحماية المحتلين بضربها على مصر وقد فعلتم ذلك نفاقا للانجليز وخوفا منهم بينما كنا نحن في ظلمات السجون : فمن هم هؤلاء يا استاذ ؟ ان كنت تعنى سعدا فان سعدا سعد سجن من اجل مصر ونفى من اجل ثورته على الحماية ، وان كنت تعنى انا فلقد ضائق بى بلدى في اشد ايام الحماية وقد صودرت في رزقى مرات وعددت في امنى وراحتى وعرضت لى محن كثيرة في سبيل رايى لم تعرض لك ولا جربت مثلها ، .

* * *

وبلغ اثر الصراع الحزبى على معارك القلم مداه حين كتب العقاد بعنوان :

الأبلة امين الراقى (١)

والأبلة امين الراقى ماذا يقول : يقول ان سعدا خطأ بمحادثاته التى أسفرت عن تصريح ٢٨ فبراير ، فسياسة الانجليز التى بسطوها في الكتاب الأبيض هى دون نتيجة المحادثات التى طالب فيها سعد بجميع حقوق البلاد . كذلك يقول هذا الأبلة مع أنه يذكر قبل ذلك بيضه سطور أن الكتاب الأبيض قد ظهر ، وأن الحكومة البريطانية لم تغير موقفها العدوانى الذى وقفته حيال السودان .

(١) البلاغ : يوم ١٠ من أكتوبر ١٩٢٤ .

«ل غاية ما يريد السجاسى المحك والوطنى للغيور والمعارض المقدم
ان يكتب هذه المطالب فى مذكرة وترسل فى انبريد ، او على اسلاك البرق
ولا تقال للكونتاد وجها لوجه بكلام يجرى من اللسان وتسمعه الاذان »

• واذا كتب سعد عن ذلك وكان جواب الانجليز عليه ما اجابوا به فى الكتاب
الابيض ، اىكون سعد حينئذ جانيبا على مصر مضيقا لحنوقها ام يكون
الزعيم الحكيم والوزير الحفيظ على حقوق البلاد ، لانه استملى النصيحة
من امين الرافعى وجلس تحت يديه ليوحى اليه ما يكتب وما يعمل وما
يفسول .

* * *

وقد كتب امين الرافعى ردا على مقال العقاد فقال : (١)

• « كان جديرا به - اى للعقاد - ان يعنى بدرس موضوع جليل آخر
هو الانصاف فقد حمل حملة شعواء على صحيفة الحزب الوطنى لانها كتبت
مقالا تحت عنوان (الى السفهاء) ولا ندرى لماذا اختص هذه الصحيفة بحملته
دون الصحف الوزاريه التى تسود اعمقتها كل يوم بجميع انواع السبب
والشتيم والامانة هل يقرأ حضرته هذه الصحف ام ان عين الرضى لا تبصر
عيون الاصحاء »

• ومن الغريب ان عبارة (السفهاء) التى يتخذها حضرة الكاتب دليلا على
ان المعارضة غير شريفة وردت منذ يومين فقط فى مقال كاتب فى إحدى صحف
الوزارة فقد كتب يحاطب المعارضين قائلا « اذن ايها السفهاء المعارضون » .
فلماذا تكون كلمة السفهاء فى الصحف الوزاريه نقدا شريفا ، بينما يراها
حضرة الكاتب فى صحف المعارضة ممارصة غير شريفة .

• على أن لفظ السفهاء الذى يفتقر منه حضرة الكاتب بعد مينا جدا ونقطة
صغيرة فى محيط السبب الذى يسبح فيه الان حضرات الكتاب الوزاريين،
وإذا كان حضرته ينشد الحقيقة بأخلاص فليفتح أى صحيفة وزارية فى أى
يوم وفى أى ساعة ليقرأ ما فيها من اوصاف « الخيانة والروق والاجرام
وبيع الذمم والتحريض على ارتكاب الجرائم وتلويت الأيدى بالدماء وخدمة
الانجليز » وغير ذلك من الالفاظ الرشيقه والتى يستخدمها كتاب الوزارة » .
انتهى .

* * *

(١) الأخبار : يوم ١٤ من أكتوبر ١٩٢٤ .

ونحاول الاجابة على التساؤل الذى طرحناه فى مستهل هذا الحديث :

– هل ظلم العقاد امين الرافعى فى هذه المعركة الصحفية ، ام ان الصريح الحزبى هو الذى ظلمهما الاثنين ؟

- ولكن كلمة « الظلم » من ابغض الكلمات الى قلب العقاد وعنه ، ومن يرجع الى ما كتب العقاد منذ نصف قرن يجد ان هذه الكلمة ادر افردت التى ورد فى حل ما قدم من فصول او مقالات وتصانيف او دواوين ، ويرجع ذلك الى شعور العقاد بالانغور من هذه الكلمة حتى احر حياته . ويرى انه ينفس على المعتدى ان يرضيه بصفه «ظالم» من جهتها التى تكبره وتستهده له بالقوة ، ومثلها صفة الجبروت (١) ! •

« فلا يكون ظالما جبارا الا من هو قوى والناس تحت قدميه ضعاف محققون ! واننى لا بغض ان يخسبون غيرى ضعيفا محققا امسام متجبر متحكم • فاحرى لى ان ابغض ذلك نفسى ، فيما يخطه ظلمى باختياري • ولتبلغ بأحد من الناس غطرسته ان يكون ظالما ، فلن يبلغ بى لأضعف – والحمد لله – ان اكون من المظلومين ، اذ لا فرق فى وقع الكلمتين على السمع كلمة المظلوم وكلمة الخليل (٢) » •

وتديما كان يقول فى هذا المعنى شعرا :

انصفت مظلوما فأنصف ظالما

فى ذلة المظلوم عذر النظام

من يرضى عدوانا عليه يصيره

شر من العادى عليه الغانم

ويأبى العقاد أن يقول عن أحد أنه ظلمه بظلمه لأنه يشهد له – انن – بالقسوة التى يقابلها اضعف والمجز منه ، ويقابلها مع ذلك أن اعتاد يجالى بحكم الذين يقبلون منه صولة الظالم ويقبلون منه مهانة المظلوم •• ماذا كان هؤلاء يقبلون من العقاد ان يبرد العدوان بمثله فلا ظلم هناك • ولا ملامة على غير المعتدى المخذول •• وبمنطق العقاد ، ليس المعتاد مظلوما فى معركته مع امين الرافعى ، فما الراى فى زعم القائلين بأن العقاد ظلم امين الرافعى واعتدى عليه ؟ ! •

(١) راجع مقالاً للعقاد بمجلة ألهمال – يونية ١٩٦٣ •

(٢) المرجع السابق •

وعدنا نقول أن العقاد لم يظلم أمين الرافعي ، لأن الأخير لم يكن ضعيفا اعزل في معركة التلم ، وأن أمين الرافعي حان صحفيا فزيعها اختصار طريقا في الوطنية يتعارض مع طريق العقاد في الوطنية ، والعقاد حين استندت نار المعركة الصحفية بينه وبين أمين الرافعي ، كان أشد ما يكون إيمانا بمبادئ حزب الإغلبية وزعيمه ، وكان قد جعل من قلمه عصا تاديب – كما سبق لنو لـ لكن من يخرج عن هذا الخط .. فإذا كان أمين الرافعي يتهم بسعد زغلول بالبروق عن الوطنية فما أخرى العقاد أن يدفع التهمة وأن يدافع عن مبادئ أمن بها ..

ولكن ما يمكن قوله في هذه المعركة الصحفية أنها عكست وجهها سيفا للصراع الحزبي ، لأن المعركة خرجت في كثير من الاحايين عن الدفاع عن الجيدا الى السب الشخصي ، وهي تهمة لا ترفعها عن العقاد ولا عن أمين الرافعي فكلا الاتيين سلك نفس المسلك ، بل اننا لا نعدو الحقيقة إذا قلنا ان معظم صحفيا مصر في هذه الفترة سلكوا نفس المسلك .. ذلك أن خصومات الراي بلغت في مصر غاية ما تبلغه معركة القلم من عنف وعناء ، وسخرى من تاريخ العقاد خلال هذه المعارك والخصومات انما تغطيه على الانفة من مجارة الظلم والبطش بالخصوم في وطيس الغضب والملاحاة ، بل على لتعرض لغضب الانصار إيقارا لنصفه المضروب عليهم في معركة 'أرا' – كما حدث في قضية « أسعر الجاهلي » وطه حسين ..

فليس العقاد – إذن – بمظلوم .. وليس العقاد إذن بظالم .. والذين ينظرون الى الصراع الحزبي وراء الستار ويكشفون عن وجهه الخصومات فيه ، سيقفون معنا في الزعم الذي نزعاه ..

والعقاد لم يفتقر الى عاطفة « الانصاف » طوال حياته كما يتهمه أمين الرافعي ، فإذا علمنا أن العقاد حين كتب كتابه العظيم عن ابن الرومي ، انما كتبه لانه وجد هذا الشاعر الفحل مغبونا من العقاد ، ويكاد يلحق بالمتنبى والبحتري وأبي العلاء ، تابعا لا رائدا .. كتب العقاد هذا الكتاب لينصف ابن الرومي ، وانصفه حتى انصاف .. والعقاد حين كتب أكثر كتبه، انما دفعه اليها دافع الانصاف ..

ولقد انصف العقاد أمين الرافعي ، حين انتقل الرافعي الى رحمة الله سنة ١٩٢٩ وكان العقاد وما يزال مرتبطا بالفوند مدافعا عنه .. فقد كتب لعقاد افتتاحية البلاغ في رثاء أمين الرافعي ومما قاله له :

رأيت أمينا قبل مرض الوفاء يمشى في الطريق ، على مهل ، فرايت شجبا

بنماتك وجسدا تد تهدم الا قليلا . ونفسا تمتشي في عنائم وحدها ، ورسى
تشعر بمرزها ولا تكساد تشعر بها من فرط الاطمئنان اليها وسيما
المسكينة والرضوان التي تحف بها ، تعلمت اننى رايت امينا في عوة جسده ،
وامينا في قسوة نفسه . ورايت كيف يعمر الايمان الجسوم الغائبة فهي
منه في صلا عزيز الحوزة ، منيع الجانب « ..

• وإذا كان القول بظلم الصراع الحزبي لكل من المعتاد وامين الرافعي
وكل من سار مسيرتهما في هذه الفترة ، فان هذه الصورة التي رسمها العقاد
للسراع الحزبي تحسم القول وتؤكد الزعم (١) :

فقد تعود الناس في خلاقات الاحزاب السياسية ان يسمعو انهممة الواحدة
تقال وتعاد من الجانبين و من الجوانب الكثيرة . فكل حزب هو الحزب
المخلص للعامل النافع الرشيد ، وكل من عداه هو الحزب المفرض المتواكل الذي
لا ينفع ولا يهتدى إلى صواب . وإذا كانت الآونة من أوقات الثورة واشتعال
الخصومة وغليان الحقوق فالخيانة والاجرام وسوء الخيلة وقبح الصنيع
تهمة أو تهمة لا يسلم منها انسان مشترك في السياسة : يقولها
هذا الفريق كما يقولها ذلك الفريق ، ويعلم اناس من المظلمين يطالبونها
او صحفها في حينها ثم يتراخى الزمن ويستخدم المهد ويجيء اليوم الذي
يحار فيه للتاريخ بين الاتاويل المتضاربة والنقائض المتراكمة ، فيفصل فيها
على طريقة الفصل بين المرأة الصادقة والمرأة الكاذبة في ادعاء الامومة . وهي
شطر الحقيقة نصفين شطرا لهذا وشطرا لذلك ، فكلما مصيب وكلامها
معيب ، لان الشأن في كل سائس وكل زعيم ان يقول في خصومة وان يقال
فيه ، فلا حاجة ان يأتوا برخين الى الفصل والانصاف ، ولا موجب ان
للتحقيق أو التلقيق .

• وهنا نتساءل : هل كانت معارك العقاد الصحفية أثرا من آثار البرامج
الحزبية يسير وفقها ويكتب ما تملبه عليه ؟

يحدثنا العقاد في كتابه عن سعد زغول انه كان في اوقات قليلة يجري
بين سعد وبينه حديث في التشعر والأدب والفنون : « أحادثه في ذلك
إذا قصدت خدمة لأهل الفن استعين به على قضائها ، أو أحادثه إذا فاتحنى
في بعض آرائى عن الأدباء المعاصرين أو الأقدمين أو عن مقالاتى الأدبية
التي كنت أنشرها يوما من كل أسبوع ولا أكتب يومها في السياسة . وكنت
أشعر إذا انتفض الحديث ولم اتجه بالقول اليه انه كان يراقتبنى طويلا

(١) راجع : سعد زغول للمقادص ٥١٤ وما بعدها .

ولا يلبث أن يقول بين الجد والفكاهة: « يا فلان ، ما أحسبك الا تعجب منا ومن خصوماتنا فوق سخابك بين الشعر والخيال ! » .

قال له العقاد يوم اعلى اثر كلمة من هذه الكلمات : الحق اننى لا أعجب من هذا يا باشا لأنه ليس بمعجيب أن تكون للسياسة خصومات ، وأن يكون لهذه الخصومات أطها والتادرون عليها . ولكن الحق أيضا اننى لا أنصر رأيا على رأى رعاية للبرامج الحزبية أو المناوشات الوقتية ، فانها كما تقول بجدولة الباشا لا تستغرق انسانا مشغولا بالأدب والخيال . انما نصر للرأى على الرأى للقيم الانسانية العليا التى هى عندى أرفع من القيم الحزبية ، بل أرفع حتى من القيم الوطنية .

ثم يذكر العقاد أن الخصومات السياسية في عهد سعد لم تكن تمنعها الا لأنها كانت تمثل له جانبيين في أحدهما القوة المستقيمة والدعوى الصحيحة وفي الجانب الآخر الحيلة الملتوية والدعوى الزائفة أو التقليدية على أحسن ما توصف به من صفات (١) .

وحين ننظر إلى العقاد وخصومه من هذه الزاوية فسنرى أن القيم الانسانية هى الباقية من وراء الخصومات والمعارك العنيفة التى اشترك فيها بقلمه واشترك فيها خصومه بأقلامهم . . . وستبرز أمامنا صورة العقاد الانسان الذى ظل أسير هذه القيم الانسانية الباقية من وراء ضلال الاضغان وحروب الأحزاب والأوطان .

ونذكر هنا على سبيل المثال ما يؤكد أن العقاد لم يكن يستمد آراءه السياسية من البرامج الحزبية ، ما حدث حين زار اللورد جورج لويدي مدينة « المنيا » وعيانت له الادارة استقبالا كاستقبال الملوك فحمل العقاد على اللورد الانجليزى وعلى المحتفين به حملة شعواء غضب من أجلها ، وبلغ به الحق أن استدعى الأسطول الانجليزى إلى ميناء الاسكندرية ليزيل ما أصاب مهيته من جراء تلك الحملة ولم يفتح أحد العقاد في موضوع مقالاته التى جرحت اللورد في كبريائه .

« إنها تهمة لا أدفعها أو شرف لا أدعيه » .

« إنها تهمة لا أدفعها أو شرف لا أدعيه » .

(١) العقاد : سعد زغلول ص ٥٢٥ وما بعدها .

اعلن الدستور في أبريل سنة ١٩٢٣ أثناء حكم يحيى ابراهيم باشا واستمرت وزارته في الحكم الى ان استقالت في يناير سنة ١٩٢٤ ، وخلفتها وزارة سعد زغلول باشا بعد النجاح الساحق في الانتخابات الذي حققه الوفد . . ولأول مرة في تاريخ مصر ، منذ عهد الاحتلال ، اكتسب الحكم في مصر المظهر البرلماني ، وتمتعت الصحافة بحريتها ، فكان منها صحف معارضة وصحف مؤيدة . وكانت الصحف المعارضة تعالج ما ترى معالجته من موضوعات بكامل الحرية . وكانت تمثل حزب الأحرار الدستوريين والحزب الوطني وبعض المستقلين ، وأصحاب المصالح ممن ضايقتهم أو عصى من مقامهم قيام النظام البرلماني .

ومما يؤسف له « أن المعارضة لم تنتج في كل الأحوال الى الشعب ، بل اعتمدت على القوى الخفية المناهضة للوزارة البرلمانية . وكانت تعتقد في قرارة نفسها ان اجلاء الوزارة عن كراسيها مرحون بارادة المحتلين في المقام الأول ، واردة السراي في المقام الثاني . ووضح ان كلا السلطتين أخذتا تضيقان بالوزارة ، لما كان من موقفها المضادة لارادتهما ، ولما كان من استسائها بسلطاتها وحرصها على عدم التفريط فيها (١) » .

وما لبثت دسائس القصر ان لعبت دورها في اجبار سعد على الاستقالة. فاعز القصر الى الأزهريين لكي يضربوا ، وعين القصر حسن نشأت وكيلا للديوان الملكي بغير علم الوزارة ، ثم يقتل « السير لي ستاك » سردار الجيش المصري وحاكم السودان العام أثناء تولي سعد الوزارة في سنة ١٩٢٤ ، فطرد الانجليز الجيش المصري من السودان ، واحتلت جنودهم الجمارك ، وفرضو على مصر غرامة قدرها نصف مليون جنيه ، وانذروا مصر بأنهم سيأخذون من مياه النيل لرى أى مقدار في اتليم الجزيرة السودانية يزيد على ثلثمائة ألف فدان .

ولم تجد وزارة سعد زغلول بدا من الاستقالة ، وقد فكر سعد في بقاء الدستور بعد ذهاب الوزارة فأعلن في خطابه الذي ألقاه على النواب تبليغا للمجلس باستقالة الوزارة : « انه مستعد مع أصحابه الكرام من أعضاء هذا المجلس لان يؤيدوا كل وزارة تشتغل مصلحة البلاد » .

وأعلن مثل ذلك في ندائه الى الأمة باعتباره رئيسا للوفد ، وفي خطاب ألقاه على الجموع الذين وفدوا إلى بيت الأمة بعد استقالته حيث قال :

(١) محمد زكى عبد القادر : مجلة الدستور ص ٥٢ .

« اننى مستعد لتأييد كل وزارة تاتى وتكون حائزة للرضاء العام ، عاملة على تحقيق امانى البلاد ، فان الموقف دقيق جدا وانا واثق من انى وانا خارج الوزارة ساستطيع خدمة البلاد أكثر ألف مرة مما لو كنت داخلها » وتكادوا ان الله معنا ، ولا بد ان تفوز الأمة في النهاية ان شاء الله .

ولكن الغرض الأكبر في تلك الأيام – كما يقول المقاد – لم يكن هو الخلاص من حادث المردار بوسيلة من الوسائل الرضوية ، بل هو استغلال ذلك الحادث لتحطيم سعد ومن يواليه ، و لاسيما الى ماذ التحطيم مع بقاء البرلمان وسريان أحكام الدستور (١) .

ولكن الوزارة التى تلت وزارة سعد لم تحز للرضاء العام لان احمد زيور رئيس الوزارة كان رجلا مسالما للاحتلال والقصر ، مجرد موظف ارتقى حتى بلغ منصب الوزارة ، فلا شأن له بالشعب ولا شأن للشعب به ، فانى له العمل على تحقيق امانى البلاد !

وبصور الأستاذ زكى عبد القادر كيف أن الوزارة جاءت للتسليم على طول الخط أو لانتفاذ ما يمكن انتفاذه على نحو ما جاء في كلمات رئيسها ، وكيف أنها قضت على الروح الدستورية أو كادت ، فأجلت البرلمان شهورا وعينت إسماعيل صدقى وزير الداخلية ثم عادت فجلت مجلس النواب . ودعت الناخبين لاجراء انتخابات جديدة طبقا لقانون الانتخاب ذى الدرجتين . وكان هذا القانون قد ألغى ، واستبدلت به حكومة سعد زغلول قانونا للانتخاب المباشر ذى الدرجة الواحدة (٢) .

وفي الواقع لقد كان هذا المسلك من وزارة زيور خروجا على طول الخط عن أحكام الدستور ، ومن سوء الحظ ان هذه الظاهرة تكررت فيما تلا من وزارات وقام من حكومات ، وكانت من أسوأ الظواهر التى عجلت بالانهيار الدستورى ، وزعزعت ايمان الأمة بجذوى النصوص الصريحة الفائلة بأن الأمة مصدر السلطات .

فتبدأ محمد محمود حكمه (١٩٢٨ – ١٩٢٩) بجل البرلمان وتعطيل الحياة الدستورية وكان بذلك اداة لحكم البلاد حكما ديكتاتوريا ، فعملت « الصحف الوفدية بقوة واستقال من صحيفة « السياسة » كل من محمود عزمى وتوفيق دياب احتجاجا على موقف حكومة الاحرار الدستويين

(١) المقاد : سعد زغلول ص ٥٧٤ .

(٢) زكى عبد القادر : محنة الدستور ٥٥ .

واتجاهها .. وما لبث توفيق دياب ان انضم الى جانب الوفد واصدر
صفحا تتحدث بلسانه ، عاشت منها « الجهاد » ..

وقد استمرت وزارة محمد محمود في سياسة اليد الحديدية التي بداتها .
وكان من مظاهر هذه السياسة انها أعادت العمل بقانون المطبوعات الصادر
في سنة ١٨٨١ واستندت عليه في تعطيل عدد من الصحف المعارضة يقترب
من المائة ، ومنها صحيفة البلاغ وصحف روز اليوسف ، وكوكب الشرق ،
ووداد النيل ، والاعرام ، والوطن . والأفكار ، ولا باتري الفرنسية
وغيرها (١) .

ثم توالى القوانين التفسيرية التي صدرت عن هذه الوزارة ومنها القانون
القاضي بالحبس والغرامة على كل من يحرّض على كراهية النظام القائم .
ومنها القانون القاضي بمنع الموظفين من حضور الاجتماعات السياسية
وابداء الآراء المتصلة بذلك في الصحف . ومنها القانون الذي يعاقب الطلبة
على تأليف المظاهرات أو اللجان والجمعيات السياسية أو تحرير المواد
المتصلة بالسياسة في الصحف أو نحو ذلك .

ويستخدم العقاد سلاحه البائر - سلاح السخرية - في مقالاته لسياسية
التي كتبها وسط هذه الظروف . فقال عن محمد محمود بانسا أنه « سيحكم
البلاد بيد من حديد » وأخذ حزبه وانصاره يتشدقون بهذه الكلمة حتى رددتها
الصحف الانجليزية ، ووجد العقاد مجآله لأشهار سلاحه الساخر فنشر
مقالا بعنوان :

« يد من حديد ولكن في ذراع من جريد »

وقد تناولته الالسن في كل مكان ، واعاد للناس ذكرى « نادى المعجول »
التي كتبها العقاد في ظروف الحياة وكبت الحريات وحفظها الناس . وعسا
استقط في يد صاحب اليد الحديدية . ونم يعد يردد هذه الكلمة .

ونشر العقاد سلسلة من المقالات الساخرة تتشكل حملة صحفية ضخمة
على وزارة محمد محمود ، متضامنا في حملته مع خطة البلاغ كذلك التي
استخدمت كل طرقها الصحفية في محاربة هذه الوزارة .

من مقالاته « حزب الاوباش ، زعماء الاوباش . الحل الدستوري لتوحيد
عو أن يستقيل محمد محمود ، الواعظ محمد او الشاطر محمد » ..

(١) الدكتور عبد الألطيف حمزة : ادب المقالة الصحفية ج ٨ ص ١٩٤ .

وقد أصبح لمقالاته العقاد السياسية قوة يحسب حسابها في انتصار الوفد وهزيمة خصومة وإسقاط وزارتهم ، فلجئوا إلى إغلاق الصحف التي يكتب فيها ، وقد أغلقت لصاحب البلاغ خمس صحف في أيام متتالية . وعلم العقاد أن صاحب هذه الصحف قد اشترى مقادير كبيرة من الورق في الوقت الذي أغلقت فيه كل صحيفة أصدرها ، ويحدثنا الأستاذ طاهر الجبلاوي أن العقاد لم يخف عنه دهمته لهذا ، وأسر إليه أن البلاغ لا بد عائد إلى الظهور ولن يعلق ، والا ما اشترى صاحبه هذه الكميات الوفيرة من الورق . وعاد البلاغ إلى الظهور وعاد العقاد إلى الكتابة فيه ولكن صاحبه طلب إليه تخفيف الحملة على الوزارة ، ثم طلب منه أن يكتب يوما بعد يوم ، ثم تنحى العقاد أخيرا عن الكتابة وبذلك كتب للصحيفة البقاء (١) .

وفي عنوان الصراع ضد ديكتاتورية محمد محمود ، تجلى العقاد للجبل الناشئ، حينذاك كبطل أسطوري « يسحق بهراواته الشهيرة الأفاعي والتنانين والمردة (٢) » .

وخلال هذا الصراع العنيف عطل محمد محمود جريدة البلاغ عام ١٩٢٨ فأصدر صاحبها عبد القادر حمزة سبع مجلات أسبوعية تصدر كل منها في يوم مختلف من الأسبوع لتحل محل الجريدة اليومية فأغلقتها الحكومة كلها . ولما ترك العقاد البلاغ إلى كوكب الشرق ، أغلقتها الحكومة بعد ثلاث مقالات من تسلمه ، وسلمت البلاغ من التعتيل بقتية عمرها الطويل .

وهذه أمثلة من حملة العقاد على ديكتاتورية محمد محمود . . ومن مقالاته في صحيفة (كوكب الشرق) . . .

يقول العقاد في مقاله (٣) :

« قال محمد محمود ليس الحزب السياسى بكثرة انصاره فان كثرة الانصار عرض تاتى به ظروف وتذهب به ظروف » أنت كذاب يا صاحب الدولة يجب أن تسمع أنك كذاب ، أنت رجل دجال يا صاحب الدولة ويجب أن تسمع أنك دجال ولا تقول شيئا الا كما يقول ويفعل الكذابين والدجالون ثم أنت غيب جهول يا صاحب الدولة ويجب أن تسمع أنك غيب جهول ، فالتفاخر بذلة الانصار قصة تليق بحصة المحفوظات حين ينشد التلاميذ قصيدة السموال التي يقول فيها (وما ضرنا أنا قليل عيونا) .

(١) محمد طاهر الجبلاوي : العقاد سيرة وتحية ص ٦٤ .

(٢) الدكتور لويس عوض - دراسة عربية وغربية .

(٣) كوكب الشرق : يوم ٢٢ نوفمبر ١٩٢٩ .

متى قالوا محمد محمود : الا ليقولوا قبل غيرهم انه هو « العتل الغبي الذي كانت مكانته في صحيفة حزبه لا تساوي قبل اللورد لوييد نشر اعلان صغير ، ليس في الوفد اكفاء مثل محمد محمود . خيبة الله عليك يا بعيد ، الا تسمع بشئ في الدنيا يسمى الحياء ، الم يتل لك قائل مرة أن لكلمة حياء مدلولها يظهر على الوجوه ، ولقد علمنا كيف يتعزى هذا المنحوس في محنته التي تطير بمقله الضئيل وعزمه التليل وتلبه الهزيل » .

وكتب العقاد أيضا تحت عنوان :

« مجنون في يده سيف (١) » .

« فلأجل أن تصبح مصر مستعمرة بريطانية قام محمد محمود في الحكم وافترى على المصريين ما افتراه من الكذب والتشهير ولأجل أن تصبح مصر مستعمرة بريطانية صنعوا كل ما صنعوه » .

سحقا لهؤلاء من انسذال ، فلكن كان في الجرائم ما هو اكبر من جريمتهم فان يكون الا الوقاحة التي يواجهون بها الناس بعد ما أسلفوا لهذا البلد كل تلك الخيانة والكنود ولا جرم لا يستحق امثال هؤلاء الا اذا ارغمتهم على الخزي سلاسل الأقياد وغيابات السجون » .

ثم يكتب تحت عنوان :

« الكفاءة » (٢) .

« قالوا : انه تعلم في اسكفورد . تلقنا ماذا تعلم في اكسفورد . قالوا : انه تعلم الاقتصاد والتاريخ الحديث ، ولكننا لم نعرف له اثرا واحدا بل لم نسمع له كلمة واحدة ولا حرفا واحدا يدل على علم بالاقتصاد او اطلاع على التاريخ » .

ونذكر ان مراسل صحيفة اسبوعية ساله : أي رجل في العصر الحديث هو عندك اعظم الرجال فقال : نابليون . كلمة يتولها كل مسئول لم يفتح كتابا ولم يدرس أي تاريخ من التواريخ ، أرايت ايها القارى الى الفلاح الريفي الساذج الذي ينزل القاهرة ولا يعرف فيها الا بنك سمعان ، ان هذا لهو بعينه الفلاح محمد محمود حين ينزل عالم اتاريخ الحديث ولا يسمع فيه الا باسم نابليون .

(١) كركب الشرق : يوم ٢٦ من نوفمبر ١٩٢٩ .

(٢) كركب الشرق : يوم ٤ يناير ١٩٣٠ .

ما كان عمله في الوزارة إلا الآلة التي يشترك في إدارتها للورد لويد ، ولطفي السيد ، وحافظ عفيفي ومصطفى عبد الرازق وكل من أملى عليه خطته .

أن الفرق بين الرجل المحبوب الموثوق به والرجل المفقوت المحتقر لأبعد وأكبر من أن يقاس عليه » .

ويقارن العقاد في هذا المقال بين النحاس ومحمد محمود ، بين من توليه الأمة وبين من يوليه غاصب الأمة .. يقول العقاد :

كان النحاس محاميا ناجحا ذائع الصيت مشهودا له بين المحامين والقضاة حتى اختارته وزارة الحقانية لوظيفة القضاء اعترافاً بذلك الفضل الذي لم يعرف إلا للقليبيين ولما تولي القضاء كانت أحكامه مضرب المثل في الدقة والعدل ودلائل العلم بالقانون .

محمد محمود ولى الوظائف الإدارية فدل على طبيعة فيه لا تنسى الهمجية ، عقل لا يفقه روح الحكم الحديث في هذه المصور ، وكانت قضية التعذيب في إقليم البحيرة وصمة بل جريمة كادت أن تلتقي به في السجن .

ولم يتول الوظائف بكفائته كما ولى النحاس باشا بل كانت الوظيفة مكافأة لأبيه على علاقته بالمحتلين ، ولم يكن عند ، من حسن الكياسة ما يستتقي به المكافأة لولا رعاية الإنجليز لأبيه .

النحاس باشا أحبط مكيدة اللورد لويد وقطع حجته وكشف غرضه وسلك المسلك الوحيد الذي يمكنه من الحكم ووزن الأمور ، أما محمدمحمود فما كان عمله في الوزارة إلا عمل الآلة التي يشترك في إدارتها للورد ولطفي السيد وحافظ عفيفي ومصطفى عبد الرازق وكل من أملى عليه خطته .

ولا نعرض للأخلاق والكرامة الوطنية فإن الفسق بين الرجل المحبوب الموثوق به والرجل الحقوق لأبعد وأكبر من أن يقاس عليه ، وإن الفرق بين مهانة محمد محمود باشا في انتظاره رحمة خصومه وبين عزة مصطفى النحاس باشا في جميع مواقفه إن أعظم الفوارق بين التقيضين ، وإن الفرق بين من توليه الأمة ومن يوليه غاصب الأمة لهدم دستور الأمة واستغلال الأمة ليهولليون الذي لا يسير غورة ولا يدرك مداه » .

ويكتب العقاد في صحيفة أخرى متابعا حملته ضد ديكتاتورية محمد محمود مقالا بعنوان :

« هل يذكر عذا العقل لنفسه أو يذكر له غيره موقفاً واحداً يدل على نخوه أو تضحية بمصلحة • لا موقف له ولا شبه موقف • وكل حياته إن هي إلا مداورة حيث تدور المصلحة من اليمين إلى الشمال ومن الشمال إلى اليمين ، فلما كان كرومر يحميه كان يسيء لأدب في حق أمير البلاد • ولما خرج كرومر من مصر أسرع فاستقال من حزب الأمة ولما طرده الانجليز من وظائف الإدارة وقع بمكرهما في احضان الوفد المصري •

ولما شجر الخلاف في الوفد ، ولاحت بوادر الوظيفة في جانب آخر ، أسرع إلى ذلك الجانب وادعى على زعيمه ورئيسه ما ادعاه في ذلك الحين •

ولما نبذه حزبه وبئس من الوظيفة عاد مرة أخرى ليتراعى في احضان الائتلاف ولما ألوما اليه جورج لويدي بالنصب خرج على الائتلاف ونقض الدستور وتغوى البرلمان •

ولما انصرف جورج لويدي رجع مرة أخرى يحمل غصن الزيتون ويطمع في الائتلاف وسيعيش هكذا أطول عمره ، هو هو ، عقل حزبهم الذي يذكرون جلافته كلما أرادوا أن يذكروا الصلابة والأياء •

انما هؤلاء عصاة يطالبون الحكم لانهم يطالبون المصالح لا أكثر ولا أقل • ان الاحرار الدستوريين لا عمل لهم الا هدم الحرية والدستور •

ونجحت المقاومة الشعبية أخيراً في الاطاحة بحكم محمد محمود ، وجاءت وزارة مصطفى النحاس الثانية التي لم تدم الا شهوراً لانها رفضت ان تصل إلى تساهم في مفاوضاتها مع الانجليز • فعمد الملك فؤاد إلى اسماعيل صدقي بتأليف الوزارة ، وما لبث اسماعيل صدقي ان اقام ديكتاتورية « أصحاب المصالح الحقيقية » وأعلن إلغاء دستور ١٩٢٣ وأعلن مكانه دستور سنة ١٩٣٠ فتجددت المقاومة الشعبية وسالت الدعاء ، فاعلن الوفد صاحب الأغلبية الكبرى عدم تعاونه مع الحكومة وهاجم سرا وعلناً لجراءاتها التعسفية ضده وضد انصاره • وانقلب الاحرار الدستوريون من مؤيدين لحكومة اسماعيل صدقي إلى معارضين لها ، واشتدت موجة المقاومة ، وأحست الحكومة بوطأتها ، فازدادت وسائلها عنفاً ، وزادت بها بعداً عن لشعب وارتقاء في احضان القصر وخضوعاً لشيئته • وازداد حزب

(١) المؤيد الجديد - أو أكتوبر ١٩٣٠ •

الاتحاد - الذى انشأه القصر ضعفا ولكن أهله كان معننا بالدستور الجديد واجلاء اسماعيل صدقى عن الحكم كخطوة لا يبد منها ، لكى يصبح الامر خائفا للقصر ، وهو غارسيها الرجو . بينما كان الحزب الوطنى ينف في موقف تردد وضعف يخاف سطوة الكتلة الشعبية المثلة في الوفد . ويمسحى ان يكون نصيرا ظاهرا للقصر والحكم الاستبدادى ، وكان القصر يعد عتته لئى يكون الدستور الجديد وسيلة لتوسيع سلطته ووضع خيوط الموقف في يده ، عله بهذا يستطيع التوقف في وجه الشعب ، واغراء الانجليز على الاتفاق معه .

وقد أثر الانجليز كما فعلوا في تجربة الاعترافين الدستوريين الاول والثاني ان يترقبوا ويتدبروا الموقف ، فانهين بانصراف الجهود الحزبية وغيرها بل ومقاومة الاستبداد والدفاع عن الدستور مطمئنين الى ان عتده الحركة ستضعف حتما من قوة الشعب على الكفاح (١) .

واستمر حكم اسماعيل صدقى من سنة ١٩٣٠ الى سنة ١٩٣٣ ، اى نحو اربع سنوات ، كتعت فيها انفس البلاد كتما واستفحلت سسلطة القصر ، وانتهى حزب الشعب بان اصبح صورة لا حقيقة له . وكان القصر قد دخل ابلدان محاولا ان يفيد من مشارك الأحزاب المتناحرة ، ليعتق التطور الشعبى ويحقق مصالحه ليكون من انصاره حزب الاتحاد عقب حادت السردار ثم اعان على انشاء حزب الشعب عام ١٩٣٠ محاولا ان يحتق بذلك ما زعم انه توازن ضرورى للقوى بين الأحزاب المتصارعة ، وكثيرا ما كان القصر يتدخل في شئون الحكم بما يجاوز حقونه المشروعة .

وهنا برز العقاد من جديد حين تردد ان الملك فؤاد يوشك ان يقوم بمحاولة جديدة من محاولته المستمرة لتعطيل الدستور وحل البرلمان وتضييق الخناق على الشعب . وهنا وقف العقاد في مجلس النواب - وكان يومئذ نائبا فيه - وقال كلمته الخالدة : « ان الأمة على استعداد لان تسحق اكبر راس في البلاد يكون الدستور ولا يصونه » .

ولم يستطع القصر ان يحاسب العقاد على هذا الكلام ، على الرغم من معرفته الاكيدة انه هو المقصود بهذا الكلام ، لان العقاد كان يتمتع بالحصانة البرلمانية فلم تتخذ ضده الاجراءات الجنائية وظل اسماعيل صدقى يترقب به شهورا بعد تعطيل الحياة النيابية حتى تصيده في مقال كتبه ينسد فيه بالرجعية ، وهو من سلسلة مقالات نارية نشرها العقاد في

(١) راجع مجلة الدستور لمحمد زكى عبد القادر ص ٧١ وما بعدها .

« المؤيد الجديد » التي كان يحارب فيها الرجعية واعمالها ضد مصلحة البلاد .
فدبرت له تهمة العيب في الذات الملكية وتقدم للمحاكمة فحكم عليه بالسجن
تسعة أشهر قضاها وخرج يستأنف جهاده ضد صدقي والحكم المطلق .

ويحدثنا صاحب كتاب « عباس العقاد ناقد » أن العقاد حدثه
أن الملك فؤاد ساومه على أن يتنازل العقاد عن آرائه ويخرج من الوفد
لقاء العدو عنه وتنصيبه رئيسا للنسب العربي بالديوان الملكي .

وفي السجن زاره على ماهر وكان يومئذ وزيرا للحفانية ، ليساله عن حاله
فاجابه العقاد بقوله : « مهنا خير من الخارج » ولما افرج عن العقاد
اتجه الى ضريح سعد زغلول ليجدد العهد واليثاق ، ويلقي عليه قصيدة
منها :

وكنت جنين السجن تسعة أشهر
وهانذا في ساحة الخلد اولد

ففى كل يوم يولد المرء ذو الحجي
وفي كل يوم ذو الجهالة يلحد

وما أتعدت لى ظلمة السجن عزيمة
فما كل ليل حين يفشاك مرقد

وما غيبتنى ظلمة السجن عن سنا
من الرأي يتلو فرقتا منه فرقد

عدلتى وصحبي لا اختلاف عليهما
سسيمهذنى كل كما كان يمهذ (١)

ويستمر العقاد في حربه لصدقي شامرا عليه مقالاته في صحف مختلفة
مثل الأفكار والمساء وكوكب الشرق والجهاد ، ويجن جنو لصدقي ويطلق
الصحيفة تلو الصحيفة وينشر العقاد مقالاته الثائرة ضد صدقي وحكمه
الارهابي .

وتد نشرت صحيفة « المساء » مقالا يبين أزمة الصحافة ابان حكم
صدقي والعت الذي لقي الصحفيون ، وعنوان المقال :

سياسة تعطيل الصحف (٢)
هى شر ما تجنيه الوزارة نفسها

(١) العقاد : وحى الأريمين ص ١٧٣ وما بعدها .

(٢) المساء - يوم ٤ من سبتمبر ١٩٣٠ - راجع أدب المقالة للصحفية ج ٨ ص ٢٧٤ .

وقد وقع عليه عباس العقاد مع حافظ عوض وتوفيق دياب ومحمد النابلسي وعبد القادر حمزة ، ويحتجون على تعطيل وزارة صدقي للبلاد ، اليوم ، وكوكب الشرق ، وروز اليوسف ، والنهار ، والشباب ، والبرق الخ ويفتخرون بانهم هدف ديكتاتورية صدقي كما كانوا هدف الديكتاتورية محمد محمود في سنة ١٩٢٨ ، وكما كانوا قبل هذا وذلك هدفا للإنجليز في حكمهم البلاد بالحديد والنار (١) .

وقد نشر العقاد عدة مقالات يشبه فيها إسماعيل صدقي في جبروته وسطوته بشارلي شابلن ، مستخدما سلاحه في السخرية والتهمك ، فعقد مقارنة ظريفة بين الشخصيتين في وقت كان الارهاب فيه على أشده ، ومقالة عن سياسته المالية تحت عنوان « طيب الكالو » ومقالة بعنوان « علوية يكره الأوباش ! » و « حلمي عيسى على الرماية » و « الوزير الفرنسي » .

ومن هنا كان الجزء الودع للصحف التي ينشر فيها العقاد هذه المقالات الصادرة والأغلق كما رأينا أمثلة لها من الاسماء المذكورة في المقال السابق .

ولم يكتف العقاد في محاربة الاستبداد السياسي بالمقالات بل انسه اصدر كتابين هما « اليد القوية في مصر » و « الحكم المطلق في القرن العشرين » عام ١٩٢٨ .

وفي هذا الكتاب الأخير يعالج العقاد قضية الحرية الانسانية وما نالها من ظفان المتجبرين المستبدين ، وصدر كتابه بفصل تنسأل فيه : هل فشلت الديمقراطية ؟ وأجاب على هذا التساؤل بفصل تال فحواه أنها لم تفشل على الرغم من تسليمه بأن لها عيوبها ، ولكنه يرى انها عيوب الطبيعة الانسانية التي لا فكاك منها ، وقد يكون لهذه العيوب في مجموع الحضارة فضل كفضل الحسن الصلح عليها ان لم يزد عليه .

ويرى على مزايا كثيرة في تلك الأمة ، او دليل على أن الأمة في معيشة طيبة ومعاملة حسنة وانها ذات اخلاق لا ضرر من اطلاق الحرية لاصحابها وأطوار لا تعدو طوقها ولا تستعصى عليها .

ويس أدل على وخامة الديكتاتورية في نظره من أن قيامها في الأمة دليل على شذوذ في معيشتها او على خوف من بعض الأخطاء المحدثه

(١) العقاد : مثل في الميزان ص ١٩١ - ١٩٣ - أنظر - أيضا : عباس العقاد ناقد لعبد الحى دياب ص ١٦٤ - ١٦٥ .

بكيانها ، كما يعترف الحاكمون بأمرهم كلما اعزهم أن يسوغوا قيامهم في
شعب من الشعوب . • والبيضة الديمقراطية كالأرض الامنة الفريرة ،
والبيضة الديكتاتورية كالحجر الصحي أو كالمخفر الذي لا يعيش فيه غير
طفيان وتضييق . (١) •

- ويذهب العقاد كذلك الى أن سلام الدنيا يتحقق اذا ما حكمتها
الديمقراطية لانها تقوم على النقام ولا تحصر الرأي في يدى انسان واحد،
• وذلك على عكس الديكتاتورية التي تقوم على تسلط طبقة على الحكم بعد
طبقة وسيد بعد سيد لانها راجعة الى الففازات والنفوذ منوطلة بالأحاد
المتفترين معرفة للهدم والتخريب بعد كل بناء وتمير (٢) •

ويتضح من هذا التقديس للديمقراطية علة وقوف العقاد بقوة محاربة
السلطان والجبروت والاستبداد ، وإيثاره للسجن في سبيل الدستور والحياة
الديمقراطية . • وقد أعلن في كتابه عن هتلر أن كل قوة تنشأ عن الاستبداد
مصريها الى الزوال ، لانها قائمة على غير أساس . • قائمة على سياسة
الليطس والإرهاب . • ومن هنا قامت حملته العاتية على هتلر وديكتاتوريته
• وتنشأ بسقوطه ورأى أن نجاحه اول الامر هو أول خطوة في سقوطه .

- وفي الواقع لم تكن خصومة العقاد لهتلر شبيها جديدا ، فهي قديمة
• منذ أن نشر العقاد مقالة في يوم ٧ من يوليو عام ١٩١٢ وعمره ثلاثئة
وعشرون عاما ، يهون فيها من شأن نابليون بونابرت وتزييف عظمته
• واحتقاره لهذا الطراز من الوجاهة أو العظمة الزائفة ، لأن نابليون ومثلهما
• هتلر يطالبون المجد والشهرة من طريق الغزوات والفتوح وقاسما عظمتهما
• بتدر احتقارهما للإنسان .

نفس الموقف مع الفارق مع محمد محمود واسماعيل صدقي ، فالعقاد
يبلغض الديكتاتورية في أي صورة من صورها ، ويرفض الاعتداء على
الديمقراطية والحياة الدستورية . • لذلك شمر العقاد ظله . • وكان مع
السيوف في معركة القلم في حكم ظالم .

(١) العقاد : هتلر في الميزان ص ١٩١ - ١٩٣ - - انظر أيضا : عباس العقاد نائدا لميد
الحي دياب ص ١٦٤ - ١٦٥ •

(٢) المرجع السابق ص ١٥٧ - ١٦١ وما بعدها •

الباب الثاني
العقائد والتيارات الإجتماعية والسياسية

الفصل الأول

المقاد والقضايا الاجتماعية

كان من الطبيعي أن يرتبط بثورة ١٩١٩ نشاط فكري تحرري ثائر على بعض القيم القديمة ، وعبر عن هذا النشاط الفكري كوكبة من المثاليين المثقفين الذين عرضوا آراءهم في صحف الأحرار الدستوريين وبعض الصحف المستقلة .

وما لبث بعض هذه الاتجاهات التجديدية في الفكر أن تحولت إلى قضايا شغلت الرأي العام والسلطات ، ودارت حولها في بعض الصحف معارك توازي في ضراوتها الممارك السياسية . وكان أهم هذه القضايا . الاسلام وأصول الحكم ، لعل عبد الرزاق عام ١٩٢٥ ، و « في الشعر الجاهلي » لطله حسين عام ١٩٢٦ ، وكان الكاتبان يؤمنان من المثقفين لحزب الأحرار الدستوريين فهاجمتها صحف اللواء والحزب الوطني - والصحف الدينية الاسلامية وفي مقدمتها « المنار » .

واعتمدت الصحف المصرية بالنواحي الثقافية الخاصة ، فخصصت بعض صفحاتها للانتشاج الأدبي والعلمي ، وقامت من هذا المجال بدور كبير في إحياء الأدب العربي القديم وفي تقديم حركة الترجمة والدراسات النقدية ، فمنذ صدرت « السياسة » سنة ١٩٢٢ برزت كوكبة من المثقفين ذوي الثقافة الفرنسية ممن عادوا من باريس في خلال الحرب العالمية الأولى ، ومنهم طه حسين ومصطفى عبد الرزاق ومحمد حسين هيكل ومحمود عزمي . وهم تلاميذ « الجريدة » ولطف السيد في مطلع هذا القرن ، وكان منهم من ترك الأزهر وانضوى تحت لواء هذا الاتجاه الجديد كمل عبد الرزاق وعبد العزيز البشري .

وكانت « البلاغ » منذ صدورها سنة ١٩٢٣ تخصص صفحة أدبية كانت تزخر بالأفكار الجديدة وفيها كتب سلامة موسى ومحمود الشرواني وإبراهيم المصري ، وكان المقاد يكتب في البلاغ حينئذ كل أسبوع أو أسبوعين صفحات أدبية يتناول فيها الشعر والفنون الجميلة وبعض المذاهب الفلسفية وبعض نظرات في الطبيعة أو في الآثار المصرية أو في التنبؤ ، وأبى العلا . فجمع من كتاباته طائفة وأضاف إليها بعض مقالات تديمة ، ونشرها باسم « مطالعات في الكتب والحياة » ولم يلبث في السنة

التالي: ان نشر طائفة ثانية من مقالاته الأدبية في البلاغ باسم « مراجعات في الآداب والفنون » ، وقد ضم إليها مقالة من مقالاته في مجلة البيان وأخرى نشرها في الهلال لسنة ١٩٢٥ وفيها يتحدث عن المرأة الشرقية وما يحسن أن تستقي من أخلافتها التقليدية وما يحسن أن تنقيس من شقيقتها الغربية .

واتسعت دائرة اهتمام الصحافة بالأدب ، فأصدرت كل من « السياسة » و « البلاغ » عام ١٩٢٦ - على طريقة بعض الصحف الغربية - ملحقا ادبيا اسبوعيا ، وفي الواقع أن هذا الاهتمام يستحق وقفة امام كل من « السياسة الاسبوعية » و « البلاغ الاسبوعي » .

وقد صدر العدد الأول من السياسة الاسبوعية في مايو ١٩٢٦ ، وكان سبب ظهورها القيام بنهضة ثقافية جديدة الغرض منها ازالة الجمود الفكري الذي كان موجودا من قبل وقد حشدت الجريدة لهذا الغرض كل كبار الكتاب في ذلك الوقت فكان على رأسها رئيس تحرير السياسة الدكتور هيكل ومعه محمود عزمي والشيخ مصطفى عبد الرازق وعلي عبد الرازق وإبراهيم المازني والشيخ عبد العزيز البشري ومحمد توفيق دياب ومحمد عبد الله عفان .

وبحدثنا الدكتور هيكل عن التجديد الذي مارسه في صحيفته فيقول : « لقد جددنا في الاسلوب ، وجددنا في المواضيع - فخرجنا من تلك الدائرة الضيقة التي كانت الصحافة فيها قاصرة على ذكر الحوادث السياسية في الداخل والخارج وأفردنا صحائف الأدب والفن والزراعة والسيدات - وكان خروجنا الى هذه الأفاق التي كانت مغلفة خطوة سعيدة - فان غرنا من الجرائد جامد ليحذو حذونا - والتنافس في ذاته دفع الى التقدم .

وفي حديث شخصي مع الاستاذ حافظ محمود نقيب الصحفيين السابق ، علمنا أن الصفحة الاقتصادية في السياسة الاسبوعية كان يكتبها الزحوم كامل عبد الرحيم وكيل وزارة الخارجية - وكان يكتب الصفحة العلمية فيها الدكتور محمد والي الذي صار عميدا لكية العلوم فيما بعد ، وكانت تكتب الصفحة النسائية الأنسة (مي) الى جانب عدد كبير من المحررين والمترجمين الذين تنتموا على هذه الجريدة وأصبحوا من ألمع الكتاب فيما بعد مثل عبد الحميد يونس وحافظ محمود . الخ .

وكانت جريدة السياسة الاسبوعية منذ نشأتها أوسع الجرائد العربية والشرقية انتشارا في العالم ، وهذه الصحيفة التي كانت تصدر قبل أربعين عاما كان متوسط توزيعها - كما ذكر لنا الاستاذ حافظ محمود

أحد رؤساء تحريرها بعد الدكتور ميكل - يبلغ أربعين ألف نسخة أسبوعيا بينما كان أعلى توزيع في الصحف إذ ذاك لا يتجاوز عشرين ألف نسخة ، وكان نصف هذا العدد بالضبط يوزع في البلاد العربية خارج مصر ٠٠ ولذلك كان لها فضل الربط الفكري بين القاهرة والمواضع العربية الأخرى ٠

• وكانت السياسة الأسبوعية في مبتدأ ظهورها تصدر في حجم للصحف اليومية من حيث (القطع) ولكن في ضعف عدد الصفحات ، ولكنها بعد تلييل أخذت طابع الصحف النصفية وتبلغ صفحاتها ٣٢ صفحة ولها غلاف (برتقالي) من نفس اللون والورق الذي كانت تغلف به النسخة الأسبوعية لجريدة التايمز ، وقد ساعد ذلك على زيادة توزيع الجريدة بنسبة خمسة الان زيادة على الرقم الذي ذكرناه (١) ٠

كما كانت الأفكار الجديدة التي تنشرها الجريدة موضع اهتمام كبير من الرأي العام لدرجة أنها أوجدت تيارا فكريا بين الشباب يختلف عن جميع التيارات القديمة ٠

• وكان من الأفكار التي قامت الجريدة بالدعوة لها في أول نشأتها الدعوة لاقامة اسبوع أدبي لتكريم أمير الشعراء أحمد شوقي ٠ وقد حضر هذا الاسبوع جميع كبار الشعراء في الدول العربية وأصدرت الجريدة عددا خاصا عن شوقي بلغ توزيعه (١٢٠ ألف نسخة) سنة ١٩٢٦ واعيد طبعه بنفس النسبة في نفس اليوم ٠

• ومن الأفكار التي دعت اليها الجريدة :

١ - انشاء بيوت الفلاحين ٠

٢ - إلغاء الطرانيش وليس البرانيط ٠

٣ - عدم تدخل جانب الدين في شئون العلم والسياسة ٠

وقد أشار البند الثالث معركة كبرى ظلت الصحافة المصرية مشغولة بها زهاء عام كامل ٠

• وكان للسياسة الأسبوعية الفضل الأول في اظهار الآثار الأدبية الآتية التي نشرت في أول الأمر على حلقات أسبوعية في الجريدة وهي :

• ١ - حياة محمد للدكتور محمد حسين ميكل ٠

(١) من حديث خاص مع الأستاذ حافظ محمود ٠

٢ - كتب الدكتور طه حسين الأدبية .

٣ - قصص ابراهيم عبد القادر المازني .

وغير ذلك من الآثار الأدبية التي بلغ من جديتها حدا انتهت فيه الجريدة أحيانا بأنها تنشر الأحاديث التي ظهرت فصول كتاب « حياة محمد » فاختفت هذه التهمة أو كادت .

وقد اصدرت (البلاغ) كذلك ملحقا اسبوعيا باسم (البلاغ الاسبوعي) وقد صدر المجلد الأول من البلاغ الاسبوعي في ٢٦ من نوفمبر سنة ١٩٢٦ أي بعد صدور (السياسة الاسبوعية) بأكثر من خمسة شهور وكان ذلك في مظهره نوعا من التناقص الحزبي الذي أفاد الحركة الفكرية في مصر ، وقد ضم البلاغ الاسبوعي كذلك كوكبة بارزة من الكتاب والمفكرين ، وقد استفاد الخراج صحيفة (البلاغ الاسبوعي) من المنافسة مع السياسة الاسبوعية فظهر في طباعة أنيقة على ورق جيد مشتملا على كثير من الصور والرسوم .

وقد تضمن البلاغ الاسبوعي صفحات خاصة بالعلوم والفنون والسيدات تماما كما فعلت السياسة الاسبوعية ، وحدثنا الدكتور عبد اللطيف حمزة في كتابه القيم عن (عبد القادر حمزة) صاحب البلاغ ، أن البلاغ استن سعة أخرى شبيهة بما يحدث في الصحف اليومية في أيامنا هذه . ويمقتضى هذه السنة كان على البلاغ أن يخصص كل يوم من أيام الاسبوع على وجه التقريب بعادة من المواد الصحفية ينتدب لها رجلا من كبار الكتاب في مصر ، تاركا له أن يملأ فراغ الصفحة بما يحلو له (١) .

وقد اشترك في تحرير البلاغ الاسبوعي مع العقاد ابراهيم عبد القادر المازني وسلامة موسى وغيرهم من كبار الكتاب .

وفي الواقع لقد كان لظهور السياسة الاسبوعية اثر بعيد في النهضة الصحفية ذاتها فقد ظهر على غرارها البلاغ الاسبوعي - كما سبق القول - وظهرت مجلة الرسالة التي اصدرها الأستاذ احمد حسن الزيات في سنة ١٩٣٣ والثقافة التي اصدرتها لجنة التأليف والترجمة والنشر برئاسة الراحل الاستاذ احمد أمين في سنة ١٩٣٩ . وكانت هذه المجلات ألوانا ثقافية جديدة لا عهد للقارئ العربي بمثلها من قبل واستطاعت هذه المجلات أن تتم الرسالة الثقافية التي بدأتها السياسة الاسبوعية ثم البلاغ الاسبوعي على

(١) الدكتور عبد اللطيف حمزة : أدب المقالة الصحفية ج ٨ ص ٣٧٧ .

الرغم من انهما لم تعيشا طويلا .. فقد توقفت (البلاغ الاسبوعي) عام ١٩٣١ وتوقفت (السياسة الاسبوعية) من عام ١٩٣١ الى عام ١٩٣٦ .

وقد قامت كل من السياسة الاسبوعية والبلاغ الاسبوعي بما يشسبه الانقلاب الفكرى الذى ظلت آثاره على مدى الاجيال التالية .

والسؤال الذى نطرحه هنا : هل كان للسياسة الحزبية أثرها على هذه الصحف الأدبية ؟

لقد حدث فى سنة ١٩٣٠ وهى السنة التى توقفت فيها البلاغ الاسبوعي والبلاغ اليومي مما نتجته الضغط على الحريات وكتبتها ، أن دخلت جريدة السياسة (اليومية) فى صراع مع الحكومة التى كانت قائمة اذ ذاك وهى حكومة صدقى التى عطلت البلاغ ، ففكر اصحاب (السياستين) - وليتهم ما فعلوا ذلك - على حد قول الأستاذ حافظ محمود - فى استغلال نفوذ السياسة الاسبوعية بين الجماهير للأغراض السياسية الحزبية ، وقد أدى ذلك الى نتيجتين :

الاولى : أن جمهور السياسة الاسبوعية الثقافى قد أحس بأنه قد حرم من الكثير بسبب اتحام السياسة الحزبية على جريدته المفضلة .

الثانية : أن الجريدة قد أصبحت هدفا لاضطهاد الحكومة اضطهادا أدى الى اغلاق نهائيا بعد ذلك بقليل فى سنة ١٩٣١ (١) .

وعذه الصفحة من تاريخ الصحافة الأدبية نرى أن نتمهما حتى ولو خرجنا بذلك عن الخط الرئيسى لكتابنا هذا ، وعذرنا فى ذلك أن الصورة لن تتم فى هذه الزاوية مجهولة .

فى مستهل عام ١٩٣٧ ، وكثات الاحوال السياسية قد عدت عاد الدكتور محمد حسين هيكل رئيس تحرير السياسة الاسبوعية الى اصدارها من جديد على الأسلوب الأول الذى انشئت من أجله وهو الأسلوب الثقافى مع خلاصات سياسية عابرة لا تؤثر على أسلوب الجريدة الثقافى .

وفى هذه المرحلة اختار تلميذا من تلاميذ السياسة الاسبوعية اللذين تدريبوا فيها على الاعمال الصحفية ليكون مساعدا له وكان هذا التلميذ هو الأستاذ حافظ محمود .. ثم ما يلبث الدكتور هيكل بعد بضعة أشهر أن

(١) من حديث خاص من الأستاذ حافظ محمود .

يتولى منصب الوزارة وإن توكّل رئاسة تحريرها إلى تلميذه الأستاذ حافظ محمود الذى تولى رئاسة تحريرها من أول يناير سنة ١٩٣٨ إلى خريفات سنة ١٩٤٤ حينما انتقل من رئاسة تحرير السياسة الأسبوعية إلى رئاسة تحرير السياسة اليومية مما جعل الأسبوعية تتوارى عن الأنظار بعد كفاح فكرى استمر جيلا كاملا .

وفي الواقع لقد كان للسياسة الحزبية أثرها على الصحافة الأدبية ، نذكر موقفين أبرزهما هذه الحقيقة ، أما الأول فقد كان حين أصدر على عبد الرزاق كتابه (الإسلام وأصول الحكم) وهو من كتاب السياسة ومن أعضاء حزب الأحرار الدستوريين ، وأما الثانى فقد كان حين أصدر طه حسين كتابه (فى الشعر الجاهلى) وكان فى ذلك الوقت من الدستوريين ونظرة إلى صحيفة (البلاغ) الوفدية فنجدها لا تعطف على أى منهما وتقف فى صفوف المعارضة منذ أول الأمر وتقف منهما موقف الخصومة وتفتحصحصرها لهجوم عنيف شنه كل من رجال الأزهر ودار العلوم .

ولكننا سنجد العقاد يبرز كمعلق لا تهزه السياسة الحزبية حينما تتعرض حرية الفكر لأى عدوان فيقف إلى جانب طه حسين على الرغم من كون كل منهما ينتمى إلى حزب معاد للآخر .

لكننا نختم هذه الصفحة من تاريخ الصحافة الأدبية بالقول أن السياسة الأسبوعية كانت رائدة حذت حذوها البلاغ الأسبوعى الذى أراد أن يستن سنة فى التجديد تحدث عنها عبد القادر حمزة صاحب البلاغ فقال :

ود كنت أسمى لأن يكون البلاغ الأسبوعى صلة وثيقة بين الماضى والحاضر حتى لا تنضم المعرى بيننا كما يريد البعض . فالبلاغ الأسبوعى على هذا من أنصار التجديد عن طريق التطور لا التجديد عن طريق الخروج على التقاليد والثورة على كل شئ جديد . وهذا يصل بنا إلى ناحية الدين . فقد رأينا بعض الدعاة إلى التقدم يضمنون دعوتهم سعيًا ظاهرًا أو خفيًا لنشر الأحاد فى مصر ولكننا لم نر فى مثل هذه الدعوة إلا تأخرًا لا تقدمًا . فإن الأحاد صنو الإباحية وكلاهما من أسباب التدهور والفناء للامة (١) .

ولنت ترى من حيث صاحب البلاغ أن النزعة الحزبية السياسية تغلب على موقفه من التجديد ، فهو يرى فى تجديد السياسة الأسبوعية وأفكارها

(١) البلاغ الأسبوعى : يوم ٢٧ من نوفمبر سنة ١٩٢٩ .

الجديدة اباحية والحادا كما كان يروج أعداء المستوريين في ذلك الوقت
لحاجة في نفس يعقوب .

ونحن لا يعني هذا بقدر ما يعني موقف العقاد ازاء تدخل السياسة
الحزبية في حرية الفكر ! .

ان « تشارلز آدمز » صاحب « الاسلام والتجديد » يقول :

« واهم عامل في تكييف المثل الأدبية للعقاد والمآزني هو الأدب الانجليزي
وهما من الكتاب المصريين الذين يعتقدون أن الشرق يستطيع الأخذ من ذخائر
المعلوم الغربية دون أن يتخلى عن الطابع الاسلامي العربي
الذي يطبعه منسية الشرق وثقافته (٢) » . بينما يرى (جب)
أن العقاد والمآزني يجعلهما هذا الرأي أقرب الى المحافظين من ميكل وطه
حسين ، ويرى أن ميكل « كان يعمل الرواية والفطنة في تدريج الرأي العام
الى مستوى الثقافة الاوربية » . ولكن طه حسين لم يقتف أثر زميله ولم
يزاحمه في سبيل التؤدة والتفطن بل هاجم الرأي العام المصري بطريقة الشك
الفلسفي والرأي العام المصري غير مستعد لها . وسار يقطع المراحل من
انكار الى انكار » .

وفي رأينا أن الأستاذ جب قد خالفه الصواب بالقدر الذي حالف فيه
الأستاذ تشارلز آدمز ، فالعقاد لم يكن من المحافظين في يوم من الأيام
فالعقاد هو الذي شق طريق التجديد في الشعر وهو الذي شق طريق التجديد
في السياسة ، فدعا الى الثورة والحرية ودافع عن الدستور والشعب ، وعارض
القصر الى الحد الذي بلغه في حملته في عام ١٩٤٨ والتي انت به الى
السجن .

فكيف يمكننا القول إذن بأن العقاد أخذ جانب المحافظين او الجانب
الرجعي كما يحلو للبعض ان يتهمة اليوم . «العقاد المجدد في الشعر
العربي ، العقاد الذي ناصر تحرير المرأة ، وهذه نماذج من كتابات العقاد
الاولى تبين لنا نظراته الى الحريات التي كانت لا تختلف - كما يقول
كامل زهيرى عن نظراته الى الجماليات لانه كان يرى أن الجمال ، في الأدب
والطبيعة هو الحرية المتسقة (١) » .

(٢) تشارلز آدمز : الاسلام والتجديد ، الترجمة العربية لنباس محمود ص ٢٤٣ .

(١) كامل زهيرى : مجلة الهلال - أبريل ١٩٦٦ .

كتب العقاد في الفصول (عام ١٩٢٢) يقول :

« أين هو الرجل الذي يفهم الحرية ، وهو يسكن الى شريكة في الحياة مستعبدة ، وأين هو الرجل الذي ينعم بثمرة الحرية وهو وليد أم متقيدة ؟ وأين هو الرجل الذي تحيا نفسه وقد مات فيها الجانب الذي خلقت المرأة لتحبيه ؟ »

انه العنقاء التي يتحدثون عنها في اساطير الاولين » .

ثم يقول العقاد في نفس المقال (١) الذي جعل عنوانه :

نهضة المرأة المصرية

« لن تضام أمة عرف نسوها الحرية . أجل فهذه توله حق لا تشك فيها . ولكن كم من التشك في قول من يزعم أن عرفان الرجل بالحرية هو حسب الأمة ضمانا لها من الضيم ؟! فان حرية لا يعرفها غير الرجال أخرى ان تكون حرية شروء » لانها كالتربة المشحجة التي لا يسرى غناؤها الى كل فروع أشجارها . فلا نباتها كلها بمرور » ولا المروى منه بسابغ الرواء على جميع اجزائه . والمرأة في أمثال هذه الامم فرع يابس لا خير فيه ، وقد يكون الرجل أندى منها حالا ، ولكنها حال لا تنفعه الا كما ينتفع بالفرع تتمشى فيه الخضرة واليبوسة . فلا هو للانتماء ، ولا هو للوتود ، وليس هذا شأن الأمم التي يظفر نساؤها بتسطن من الحرية ، فانها أهم تستقى الحياة من أبعد اطرافها ، وترسلها الى ابعد اطرافها فهي شجرة يانعة لا حطية لينة » . .

ويقول في نفس المقال :

« . . . وسيفضب على أنصار القديم . لا لأنى قلت شططا ، في انتهاجى بنهضة المرأة المصرية ، ولكن لأمر صغير بسيط : وهو اننى قرنت بين كلمة الحرية ، وكلمة المرأة . وهم يكرهون جد الكره أن تقترب هاتان الكلمتان في وقت من الأوقات . لا في العصر الحاضر ولا في مستقبل قريب أو بعيد .

ولو سألتهم هل تحبون الحرية لانفسكم ؟ لقالوا نعم نحبها . ولأبنائكم نعم . ولأبنائنا ولأمهات بناتكم ؟ هنا يسكتون » . .

وفي هذه الفترة من شباب العقاد يمكننا ان نلمح في شخصيته شخصية المجدد الفائر على التقاليد التي ميزت المجتمع المصرى طويلا ونجده

(١) مجلة الرجاء : عدد ١٢ .

يُنظر إلى القضية الاجتماعية نظراً لثأرنا نجد كذلك كما سيتضح في فصل
آخر .

ومما نستطيع أن نقول إن (جب) جانب التوفيق في رايه ان العقاد
اقرب إلى المحافظين ، فالعقاد كما رأينا بدأ حياته الفكرية والصحفية
مجدداً ، ونعيد إلى ذاكرة تاري، هذا الكتاب موقفه من الفنون الصحفية
التقليدية عندما بدأ حياته الصحفية ، وعندما وجد أن فن المقالة الصحفية
بلغ على ايدي محمد السباعي ورفقائه شأوا بعيدا ، أراد أن يسلك طريقا
جديدا في الفنون الصحفية وهو الفن ذو السعة عشر ربيعا ، فكان أول صحفى
مصرى يفتح باب « الاحاديث الصحفية » .

ونعود الى قضية كتاب في الشعر الجاهلي للدكتور طه حسين ، وهو
الكتاب الذى اثار معركة كبرى بين الصحف وبعضها البعض غلب عليها
الطابع الحزبي ، وكان طه حسين آنذاك (عام ١٩٢٦) من المنتمين لحزب
الاحرار الدستوريين فهاجمته صحف الوفد والحزب الوطنى والصحف
الدينية الاسلامية وفي مقدمتها (المنار) للشيخ محمد رشيد رضا . وكان
الدكتور طه حسين يشغل آنذاك بالتدريس بالجامعة الى جانب اشتغاله
بالتحريب في صحيفة (السياسة) . وقد اتهم الدكتور طه حسين بخته في
الشعر الجاهلي على نظرية ديكارث ، وقد اصطدم رأى الدكتور طه حسين
بالدين وعلماء الدين فاثار هذا الكتاب معركة في الصحف وفي مجلس النواب
وكاد الأمر أن يفضى الى ازمة وزارية عندما طرحت وزارة عدلى يكن أمر
الثقة بها على مجلس النواب في اثناء هذه الازمة وانتهى الامر بمصادرة
الكتاب وتقديم مؤلفه الى القضاء للنظر في هذه القضية .

وكان موقف صحيفة البلاغ الوفدية من هذا الكتاب موقف الخصومة
التي شعر بها تجاه الكتاب السابق ونعنى به (الاسلام واصول الحكم) :
وفتح البلاغ صدره لهجوم عنيف شنه كل من رجال الأزهر ودار العلوم على
الدكتور طه حسين (١) .

وعنا نجد العقاد يثبت بدليل قاطع أنه أقوى من السياسة الحزبية
وانه انما كان يصدر في كتاباته عن عقيدة وطنية اعتقدها ، لا عن حزبية
وقد كان عباس العقاد عضوا في مجلس النواب ، فيقوم بعض الوفديين
بطلبون بابعاده عن الجامعة بتهمة المساس بالدين ، وكان سعد زغلول

(١) الدكتور تيمز لأطيف حمزة : ادب المقالة الصحفية ج ٨ ص ٢٥١ .

زعيم الوند يرى رأيهم ، فإذا بالعتقاد يقوم في وجههم مدافعا عن حرية الفكر والبحث العلمي غير مبال بسخط الساخطين منهم .

وفي الواقع لم يكن دفاع العقاد عن طه حسين دفاعا عن شخص أو كتاب وإنما كان دفاعا عن مبدأ عزيز من مبادئ ثورة ١٩١٩ وهو مبدأ حرية الفكر . وهنا نجد العقاد قد خرج من تلك المشكلة المفعدة وهي تأثير السياسة الحزبية على اتجاهات الكتاب ، حتى كان هذا التأثير علة من علل الضعف في الأدب ، وقد صور الدكتور طه حسين هذه الحقيقة فيما كتبه عام ١٩٣٢ يقول :

« .. على أن هناك علة أخرى لهذا الضعف لم يبق من الممكن أن نهملها أو نعرض عنها ، لأنها شديدة الخطر حقا على الفن والذوق والخلق جميعا ، وهي حرص السياسة على استغلال الأدب والأدباء . »

ومن الأشياء التي لا تقبل الشك ، أن هذا المهد السياسي الذي نعيش فيه قد لحس أن الأدب المعروف والأدباء المعروفين لا يميلون إليه ، ولا يرضون لأدبهم أن يكون له صورة ومראה . وأراد مع ذلك أن يكون له أدب وأدباء وأن يكون له شعر وشعراء . فجدد في ذلك وأنفق جهدا غير قليل وإذا ميول تظهر ، وأهواء تلتقي وإنباء تذاع في الصحف . وجماعات تؤلف . واندية تنظم . ومحاضرات تلقى ، وأصوات كثيرة ترتفع ، وما كانت تسمع من قبل وإذا أدب جديد أو أدب يوصف بأنه جديد ، وقد أخذ يدنو من الناس . ويتقرب إليهم ، ويتعلقهم بالوان من أسباب اللق فيبلغ من بعضهم ما يريد ويحجز عن أن يبلغ من أكثرهم شيئا . »

بينما يمارض سلامة موسى الرأي الذي يزعم بأن السياسة أفسدت الأدب فيقول في عام ١٩٤٦ :

« .. هناك من يزعم أن السياسة قد أفسدت أدباها وشغلتهم عن مهمتهم الأصلية . وهذه المهمة إنما هي عند هؤلاء الزاعمين أدب البرج العاجي الذي لا يتصل بالمشكلات المصرية ، ولكنهم مخطئون ، لأن الأدب في عصرنا يخون عصره إذا لم يكن سياسيا . ولذلك لا يستحق أدباؤنا اللوم على أنهم أخضعوا أدبهم للسياسة . بل الحق أنهم يستحقون الثناء والحمد (١) » .

(١) مجلة الكاتب المصري : سبتمبر ١٩٤٦ .

والحق ان سلامة موسى قد أصاب كبد الحقيقة ، فالأديب في عصرنا
يجب ان يكون سياسيا ، ولكننا نضيف تحفظا وهو على شريطة الا يكون
للسياسة الحزبية تأثير سيء على ضمير الكاتب وآرائه ومعتقداته . .

وعلى اساس هذا المقياس يمكننا ان نضع المقاد في مرتبة عالية من
دراتب الكتاب السياسيين الذين لم نجربهم الحزبية الى سؤايتها وسيناتها . .
فالمقاد منذ ثورة ١١٦٦ اشترك في العمل بنورى بكل كيانه . وكان أبرز
كتاب حزب الوفد الذى قاد الثورة ، وكانت مقالاته القتالية في (البلاغ)
من المقالات الرئيسية التى تعبر عن مبادئ الثورة ، ولكن المقاد استطاع
ان يقهر الحزبية عندما تناقضت مع مبدأ عزيز من مبادئ الثورة التى
اشترك فيها بكل كيانه ونمى بهذا المبدأ « حرية الفكر » .

وقد تحدث الدكتور طه حسين عن موقف المقاد منه وعن خصوماته
معه قال « لقد عابجت المقاد في غير موطن من مواطن الخصومة ، خاصته
في السياسة وخاصته في الأدب ، وخاصته في السياسة والأدب أيضا ،
ولكن هذه الخصومة لم تغض من مقدار المقاد في نفسه . وما أظن ان بين
لدات المقاد واقرابه ومعاصريه من يتدبره مثلما اتدبره انا والكبره ، وليس
يعنى ان يكون رأى المقاد في كرايى فيه . . والذين عاصروا خصوماتى
للمقاد يذكرون من غير شك اننى اثبتت على اديه في جريدة السياسة
بين الوفد والديمقريين كاعنف ما تكون الخصومات ، وقد كانت الحرب
سجالا بينى وبينه ولم يمنعه ذلك من ان يقوم مقام الرجل الكريم في مجلس
النواب يدافع عنى حين كان الوفديون جميعا على حربا » .

وموقف المقاد من قضية كتاب « الاسلام واصول الحكم » للشيخ على
الرازق يبين لنا من مناقشته مع سعد زغلول في هذا الامر ، وقد كان سعد
يظاير الحائقين على الاستاذ على عبد الرزاق حين تعرض للتجريد من لقب
العلمية لانه الف كتابا في الاسلام واصول الحكم يخالف به بعض العلماء ،
وكان سعد يسوغ ذلك التجريد بكل ما اوتي من قوة المنطق والبرهان . وقال
يوما وكان المقاد يناقشه في ذلك : او ليس من حق كل طائفة من الناس ان
تقبل فيها من تشاء وتتصى عنها من تشاء ؟ هب هؤلاء العلماء جماعة
انشأوا لهم ناديا وحكموا في يوم من الأيام على واحد من حظيرتهم بالاعتصا
من هذه الحظيرة . اتراه يحق له ان يبقى بينهم على الرغم منهم ولو كان
مصيبا وكانوا هم المخطئين ؟

قال المقاد : يا باشا ليس من حق جماعة ان تحرم واحدا منها حقوقه
المصرية . لان وظيفة القضاء التى يليها الاستاذ على عبد الرزاق حق من

حقونه الوطنية التي لا سلطان عليها لغير القانون . ولو كان فصارى ، الامر ان يخرج الرجل من ناد او زمره لا تريده لا ، استوجب احتلاف ، ولكنه مجرد من وظيفته القضاء بعد التجريد من لقب العاليية ، وليس هذا بحق لهم يستاترون فيه بالنسج والاعطاء ، فضلا عما فيه من مصادرة الحرية والحرج على التفكير .

ويعلق العقاد على ذلك بان سعدا واه قكمادته حين تتضح له الحجة ، وقال : « اما ان كان الامر هكذا فقد اختلف على هذا الوجه (١) » .

وهكذا كانت مواقف العقاد من القضايا الفكرية التي تمصل بحرية الفكر منزله عن الخصومات السياسية ، وتبرز لنا كيف نصر العقاد «رأى رعايته للقيم الانسانية العليا التي هي عنده ارفع من القيم الحزبية ، بل ارفع حتى من القيم الوطنية .

ولم يدفع إعجاب العقاد بسعد زغلول وحبه اياه ان يجحد عن هذه المبادئ وث اويات تلبية كان يجري الحديث بين سعد وبين العقاد في الشعر والنوذب والفنون » احادته في ذلك فصحت خدمة لاش الفن اسمعين به على مضاميه . او احادته اذا غاتحنى في بعض ارائي عن الادباء المعاصرين او «مدميين او عن مقالاتي الادبية التي كتب لغيرها يوما من كل اسبوع ولا تحب يومها في السياسة . وكنت اشعر اذا انقضى الحديث ولم انجبه بأشول اليه انه كان يرافيني طويلا ولا يذيت ان يقول بين الجد والفكاهة : « يا غان . ما احسبك الا تعجب منا ومن خصوما تنا واثت فوق سحابك بين الشعر والخيال ! » .

قال العقاد له يوما على اثر ركلمة من هذه الكلمات : الحق انني لا اعجب من هذا ياباشا لانه ليس بمعجب ان تكون للسياسة خصومات . وان يكون لهذه الخصومات اهلها والفادرون عليها . ولكن الحق ايضا انني لا انصر رابا على رأى رعاة للبرامج الحزبية او المناوشات اذوقته ، فانها كما تقول يا دولة الياباشا لا تستغرق انسانا مشغولا بالادب والخيال (٢) .

ولم تكن الخصومات السياسية في عهد سعد تعنى العقاد الا لأنها كانت تمثل له جانبين في احدهما القوة المستقيمة والدعوى الصحيحة وفي الجانب الآخر الحيلة اللتوية والدعوة الزائفة او التقليلية على احسن ما توصف به من صفات (٣) .

(١) العقاد . سعد زغلول ص ٥١٨ .

(٢)،(٣) العقاد : سعد زغلول ٥٢٦ .

وتد رايئنا أن الاعتقاد حين اخذ جانبا الوفء ومو حزب الأعليية كان ذلك جنوحا منه الى الفضال من أجل للشعب . وهو مما يذني عنه تهمة الرجعية أو انصافظة كما يريد .^١ ورائئنا أن السياسة الحزبية لم تجرئه الى الدفاع عن قضية باطلة ، فهو انخرط في سلك السياسة لهدف واحد وهو خدمة القضية الوطنية وكانت مبادئ الوفء كما رسمها سعد زغلول على البىادى المللى للدفاع عن هذه القضية .^٢ وحين تعارضت هذه السياسة مع حرية الفكر هب مناهضا لاعداء حرية الفكر .^٣

أخذ العقاد للجانب التجديدى أذن ، وهذا يجعلنا نرى ان قول الأستاذ تسارلز آدمز حين يقرب إلى نسوب ودحواء ، ان أهم عامل في تكوين الغل الأدبية للعقاد هو الأدب الإنجليزي ، وأنه من الكتاب المصريين الذين يعتدرون أن الشرق يستطيع الأخذ من ذخائر العلوم الغربية دون أن يتخطى عن الطابع الإسلامى العربى الذى يطبع هدية الشرق وثقافته (١) .^٤

وحيثما دافع العقاد عن كتاب « في الشعر الجاعلى » لطله حسين كان يعتقد ان هزيمة الفكر في هذه الأزمة هي هزيمة منكرة سيعقبها انتصيات اصحاب الحكم على رجال الاعلام ، ولكن من جهة أخرى لم يكن العقاد يعتقد في سلامة النظرية ذاتها . وقال العقاد في ربط من صحبه هم الأستاذ على ادهم والاستاذ عبد الرحمن صدقى وارجوم عبد القادر المازنى وغيرهم اننا اذا اتبعنا خطة الدكتور طه حسين على نحو ما يفعل خيال الشعراء الجاعليين لشككتنا في وجوده هو شخصيا .^٥ فالبعض يقول انه ازهرى وآخرون يقولون انه درس بالسربون والبعض يقول انه صعيدى وآخرون يقولون انه متزوج من سيدة فرنسية والبعض يقول انه صعيدى وآخرون انه رزق بولد اسمه كلود وبابنه ذات اسم فرنسى ، والبعض يقول انه ضير وهو يقول في كتاباته عن المؤلفات والمراجع والمسرحيات : قرأت وشهدت .^٦ فمن هذه الروايات المختلفة الى حد التناقض يمكن القول بأنه غير موجود .^٧

والتقط هذه الفكرة المرحوم المازنى وصاغها في مقال طويل مجوماً على نظرية الدكتور طه حسين في الشعر الجاعلى بجريدة البلاغ (٢) .^٨

ويرجع رأى العقاد الى أن نظرية الدكتور طه حسين ترتكن الى موافق بعض المستشرقين، ولم يكن العقاد معترفا بأحقية المستشرقين بالحكم على أدبنا .^٩

(١) تسارلز آدمز : الإسلام والتجديد ترجمة عباس محمود ص ٣٤٢ .

(٢) عبد الفتاح الديدى : عبقرية العقاد ص ٥٥ .

مننا نحن أنفسنا • وكان يقول لو أن المستشرق كان قادراً على النقد والفهم
للأدب لاشتغل بأدب بلاده ولا يبدى تدرته على المخدوق في معالجة الانتاج
الادبي في لغته الأصلية • وكان يرى أن بعض المستشرقين فضلاء، حقاً
في تقديمهم للمناهج العلمية والنظرات الخاصة بأسلوب البحث إلى جمهور
المتقنين العرب • ولكنه كان يمس عند غريم غير تلييل من الرغبة في زعزعة
المعائد وتشويه الحقائق التاريخية العربية المتصلة بالتراث ورجاله (١) •

ويقول العقاد (٢) :

« وأيسر ما يبدو من جهل هؤلاء الخاططين في أمر اللغة العربية قبل
الاسلام وعلاقتها بلغة القرآن الكريم انهم يحسبون ان علماء المسلمين يفتون
في بحث تلك الابيات وصبا واصبا لينكروا نسبتها الى الجاهلية ولا يلهمهم
الذوق الادبي ان نظرية واحدة كافية للفتين بادحاض نسبتها الى امرئ القيس
او غيره من شعراء الجاهلية •

• وهذه النظرة الكافية هي التي تعمي الناقدين المستشرقين وهي أصل
وثيق من أصول النقد يعول عليه الناظر في الأدب كل التعويل ولا يتدح
فيه أن يتسع للجدل وأن يجوز عليه لخطا في التقليل دون الكثير •

• كذلك يتسع سبيل الجدل في افكار خبرة الخبير بكتابة الخطوط •
وكذلك يجوز الخطا في محاكاة كلمة او بضع كلمات ولا يجوز في السطور
والصفحات •

• أما المستحيل أو شبه المستحيل ، فهو تزوير ادب كامل ينسب الى
الجاهلية ويصطليح في جملته بالصيغة التي تشتمله على تباين الفاعلين
والشعراء • فاذا جمعنا الشعر المنسوب الى الجاهلية كله في ديوان واحد
فمن المستحيل ، أو شبه المستحيل أن نجعل ديوانا يماثله من كلام العباسيين
او كلام الأمويين المتأخرين • وإذا قل الفارق بين الشعر المخضرم والشعر
الأموي الاول والشعر الجاهلي فتلك آية على صحة العلامات التي تميز
الشعر الجاهلي وعلى صحة القرابة بينه وبين الشعر الذي لم يفترق عنه
اقتربا بعيدا بزمانه وثقافة قائله وبيناتهم في العيشة ومناسبات التعبير •
فلا يتشابه الشعر الجاهلي والشعر المخضرم أن لم يكن بينهما ميزان مشترك
مع انتمائه الى عثرات الشعراء الجاهليين والمخضرمين •

(١) عبد الفتاح الديدي : المرجع السابق ص ٥٦ •

(٢) مطلع النور ص ٧٢ - ٧٤ •

« ان الملاحج الشخصية التي تميز بين الفرزدق والاخلط وجبرير لم يكن لها ثبوت اوضح واقرى من ثبوت الذواوق التي تميز بين امرئ، القيس وعمرو بن كلثوم وزهير . فمن يرى ان خلق دواوين الفرزدق والاخلط وجبرير في وسع رواية واحد فقد سهل عليه ان ينسب شعر الجاهليين جميعا الى رواية او رواة . ولكنه يذهب في الحاليين مذهباً لا سند له ولا سابقة من مثله في آداب الاعم ولا نصيب له من الذوق الادبي غير اللغو والاستغراب » .

ولا يعني هذا ان المقاد لا يقدر « ديكرت » الذي اخذ الدكتور طه حسين عنه نظرية الشك ، فهو عند اعتقاده بان على الشرق ان ياخذ من ذخائر العلوم الغربية . . يقول المقاد في مقال بعنوان (رينيه ديكرت) (١) :

« وكذلك اخل ديكرت فكرة الشك فلم يات بشئ رافع ولا شئ جديد ، ولكن كم قد ترتب على هذه الفكرة من تشدير حق الفكر الانساني بعد ان كان مسلوب الحقوق ؟ وكم قد ترتب على الاعتراف بحقوق الفكر من التغير الحاسم في النظر الى طبائع الاشياء »

« ان ديكرت كان يبحث عن حقيقة واحدة موثوق بها ثم يتكفل اذا وجدها بعرض جميع الحقائق عليها والخروج بها من ظلمات الشك التي تحيط بها الى ساحة النور .

وقد اعتقد انه وجد تلك الفكرة حين قال : « انا افكر فانا اذن موجود » واثبت وجود فكره اولا بهذه البديهة المسلمة في نظره .

« فان كان قد اصاب او كان قد اخطأ فليس المهم مناص صوابه او خطاه . وانما المهم انه اعلن حق الفكر في زمن كانت جميع الحقوق الفكرية فيه مستعمدة من التقليد الاعمى والتقليد بكل حرف من حروف الاقدمين .

« وسيفي الاعتراف للعقل بحق الشك اكبر دليل على الايمان بعقل الانسان على تعدد صور الايمان . فاذا قلت « شك حتى توقن » او قلت : « جرب حتى تثبت » او قلت : « ابحث تعرف » فانت على وفاق مع ديكرت على مبدأ واحد متعدد الاساليب . ولهذا كان ايضا ممهد الطريق الى اساطين العلم التجريبي ومناطق الحس والاختبار » .

وحين رأى المقاد ان ياخذ العرب من ذخائر العلوم الغربية ، لم تشغله هذه المعلوم عن القومات الحقيقية الاصلية في حضارة العرب وفنونهم

(١) مجلة الكتاب : ابريل ١٩٥٠ .

وفلسفاتهم . وإن كان قد استند كثير من ملازمة المؤلفات الغربية،
وقرائتها ، واستفاد من الفلسفة والشعر، والأدب، والعلم «النهج» الخرس
وخصص الأمور على نحو تحليلي ينفذ إلى قرارات المبادئ الأولية ويخترق
جسم الصفات الانطيمية والمعادن البيئية . ولكنه لم يفتقد في كتاباته،
« الحماسة لأصالة العرب وحمكتهم ونمل ذلك ما حدا بالاستاذ تشارلز ادمز
أن يقول تولته الصحيحة في العقاد ، وإن كنا قد رأينا أن الأستاذ « جب »
قد خالفه التوفيق في زعمه أن العقاد أقرب إلى المحافظين .

وفي هذه المرحلة من حياة العقاد (١٩١٦ - ١٩٢٥) حاض لعقاد
مركبه الادبية الكبيرة ضد أحمد شوقي . وتكتسب هذه المرحلة الادبية
وجهها اجتماعيا إذا علمنا ان شوقي كان يمثل التقليد إبان الحرب الأولى
وبعدما وظل يمثل ارباب النجاه والقصور ويبسعين بائس في القضاء على
خصومه ومخالفيه ويملا الصحف تسرا بابسج والثنا على شعره . ويذكر
العقاد تلك الكتابات التي أحاطت شعر شوقي منذ البداية بهالات الثناء
والتمجيد على صفحات المؤيد والسرا، والظاهر . على أنها من العوامل التي
ضاعفت « غروره » . لذلك كان شوقي في عرف العقاد أشبه بملحق أدبي
بلاط أمير مصر السابق . ولا يستثنى العقاد من صحف أوائل العشرينات
سوى « مصباح الشرق » التي كتب فيها المولحي بضع مقالات لا تسبح مع
التيار . ولكن «مرعان مانقطع نشر هذه لسلسلة » وعذا ادعى إلى الريبة »
كما يقول العقاد .

هذا هو الخصم الذي واجهه العقاد - شاعر للنصر . مفخر بلقبه
« شاعر العزيز وما ، بالقليل ذا القلب » تادر بحكم اتصاله بالسلطة العليا
على أن يستفيد من تسخير الدعاية الصحفية أولا ، فيخرج منها بنصيب
لنفسه حين تنشر مدائحه الرسمية ، بالثناء على شعره ، والتمجيد لصاحبه
والخيل من غيره ، متادين بتفضيله حتى على شاعر العربية « المتنبى » الذي
تيل في وصفه أنه « ملا الدنيا وشغل الناس » والذي كتب عنه قبل ذلك
فيلسوف العربية الشاعر « أبو الملاء المعري » كتابا سماه « معجزة أحمد »
والذي كان في القرن العاشر يقول حين يمدح مهنسا كافور الاخشيدي الجالس
وقتذاك على عرش مصر :

وأنا منك لا يهنى، عضو

بالمسرات سائر الأعضاء

على حين جاء مزاحمه شاعر القرن العشرين ليقول للخديوي :

فاسمع لميدك ، وابن عبيك ، منطلقا
متطائرا بفت في الفوق صبيته (١)

هذا هو شوقي الذي صار عتيده العناد ليهدم سلالته في عدم الردب
الشعر وإذا بالعناد يعن حربا عونا على نقن الشيموي الذي يمتله
شوقي ، مسد بخ شوقي اغنية في دسمتبداد والاسنهاده بـنـجب وادب .

ويمتد ن نجل اسباب حرب العناد على شعر شوقي في .

اولا : ان العناد يؤمن بتأثير الشخصية الانسانية في الشخصية
الفنية ايمانا عميقا . وشخصية شوقي كشاعر لنقص ومرتبطة بالطبقة العليا
كما سبق القول ، قد اسهمت في افساد سمرة وفوه ، فاصبح شوقي يصيح
ويهجو ويرثي وما الى ذلك من اهداف الشعر الموروثة .

ثانيا : ان العناد بوصفه منتقيا الى الطبقة الثورية الناشئة يحمل
دواء اجتماعيا وضحا ومباشر لشخصية الشاعر الاجتماعي . في مستوى
الفكرى والقومي الوطني .

وحزم العناد الامر شادا به يتقدم فصولا في القصد لشعر شوقي ثم تعرضها
للغة العربية من قبل . ويختب شوقي قصيدة رقاء في زعيم وعنى يديس
له الشعب المصري بالكثير من آيات الضال الثوري . وهنا يتناول العناد
هذه القصيدة بالقتد لاعتقاده ان الشاعر المكي لا يمكن ان تتسابق
وشعره حاميس اشريين ازا فسد احد زعمائهم الوطنيين . محاولا في
نقده نلمس مدى الصق الذي تنطوى عليه القصيدة في بكاء عزيم
الوطني محمد فريد . وقد لفتت العناد الى الجانب الفني في القصيدة
على اعتبار ان المعايير الفنية اذيفه تكشف لنا مدى انساق ادي يعنص
في وجدان الشاعر ، او الزيف الذي يغنف كلامه ، وقد تناول العناد قصيدة
شوقي في رثار مصطفى كامل من قبل التي مطلعها :

المشرقان عليك ينتحبان فاصيهما في ماتم والدني

واقام عليها نفس الحاميس الفنية التي تكثف زيف الشاعر ، وابان
تفكك اجزائها بحيث يقتضى ان يشا ، ان يضع ابياتها على اي وضع ثم
يعيد ترتيبها على وضع آخر لافتقارها الى الوحدة التي لا قوام للقصيدة
بغيرها . ويقول في ذلك :

(١) عبد الرحمن صدقي : مقال بجلة الهلال - مارس ١٩٦٦ .

« إن القصيدة ينبغي أن تكون عملاً فنياً تاماً يكمل فيها تصوير خاطر أو خواطر متجانسة ، كما يكمل التمثال بأعضائه والصور بأجزائها » ، واللحن الموسيقى بأنغامه » .

ويثير العقاد في قصيدة شوقي عن محمد فريد قضية الشعر وبغية الشارع ، هل يمكن على سبيل المثال أن يستعير الشاعر تعبيرات الشحاذين الاستجدائيين في صياغة معانى الموت ، أنى يمكن استلهاها من هذه التدميريات ببساطة ويسر . إى أننا نستمع إلى الشحاذ يتوكأ على عكازه منتصباً في نغم حزين : « دنيا غرور ، كله غان ، من قدم شيء الققاء ، يامسا دست جبايرة تحت التراب ، للى عنده باقى » إلى آخر هذه الغائصة من الدعايات في استزاجها لتلويب الناس عن طريق تذكيرهم بالآخرة . . فإذا جاء وصاغ نفس هذه العبارات شعراً ، ماذا يمكن أن نلاحظ ؟

والعقاد يؤثر على « أسلوب » شوقي في استخدام لغة الشارع لأن شوقي اكتفى بتحويل الحكمة لشعبية لتداوله برنينها العذب أنالوف إلى بناء فصيح مؤسس على الهندسة الكرسبكية للشعر العربى ، فلا هو يعطى الكلمات المألوفة معنى غير مألوف ، ولا هو يجزل في العطاء فيسوخ على الحكمة القديمة ببناء حديث . وإنما نراه قد استدرج اللفظ من مخبئه الشعبى الدافئ، إلى قصر من الرخام البارد يزمو برصف الكلمات على نحو عروض موزون غير مختل ، وقافية وقورة غير لمبوب . وإذا قرأنا لشوقي في رثاء محمد فريد :

كل حى على النيسة غاد
تتوالى الركاب والموت حاد
ذهب الاولون قسرننا فقسرنا
لم يدم حاضر ولم يبق بـاد
هل ترى منهم وتسسم عنهم
غير باقى مآثر وأبـادى

أحسننا على الفور أن العقاد لم يكن يهزل في تفضيل ادعية الشحاذين على هذا «النظم» الخالى من حرارة الخلق العفوى والابداع الذاتى . ثم تكاد نوقن بأن لحدى أدوات « الصدق » الفنى الاساسية قد غابت عن صياغة شوقى لهذه الابيات تلك هى توظيف الصورة الشعبية المألوفة في احتواء مضمون جديد ، ينتقل بالحكمة العامة التى يمكن أن تقال في رثاء إى انسان إلى المعبرة الخاصة بانسان محدد . لهذا أيضاً يتوقف العقاد

كثيرا عند الأبيات التي تصف موقع القبر أو استخدام الأمثال الدارجة في مقام الوعظ والارشاد لكي يقرر بعدئذ أن شوقي يهتم أشد بالاعتصام بالمرص دون الماعية ، بالمظهر دون الجوهر . ومن هنا تنفتحت التصيدة الى مشورات متفرقة لا يجمع بينها سوى الحبر الواحد والعاية الوجة(١)» .

• وهكذا لم يستطيع الشعر المحافظ أن يتلاقى مع الفكر التحديدي للمقاد ، الذي ارتبط بتقدم الفكرة السياسية عنده في ذلك الوقت ، كلاهما دفعه لأن يمدد محمد فريد ويفضله على مصطفى كامل (٢) . بل ويضعه في مصاف شهداء الانسانية في العالم كله ، كما جاء في مقاله بمجلة « المصور » .

• ومن هنا تبني العقاد أكثر الاتجاهات الثورية نضجا في النقد الأوربي الحديث كمدخل الدراسة أكثر لاتجاهات الكلاسيكية نضجا في الشعر المصري الحديث ، وهكذا شارك العقاد في وضع الاساس في بناء عصر النهضة الأدبية في تاريخ مصر الحديث .

• ويصدر العقاد كتاب « الديوان » بالاشتراك مع ابراهيم عبد القادر المازني في سنة ١٩٢١ وكان المقاد آنذاك محررا بالأعرام ، وطبعته مكتبة السعادة بأول شارع درب الجماهير وجعل عنوانه « كتاب في النقد والأدب يتم في عشرة أجزاء » بيد أنه لم يصدر منه سوى جزآن .

• وكان شوقي صنف المقاد والمنطوطي صنف المازني ، وقد جاء في مقدمة الديوان ، التي نرجح أن كاتبها هو المقاد :

« ان كان للسكوت عن الخوض في احاديث الأدب دافع فقد زال ذلك الداعي اليوم ، وقد تجددت دواعي للكتابة في أصوله وفنونه اخصها الأمل في تقدمه لالتفات الأذهان الى شتى الموضوعات ، ومتنوع المباحث^(١) والحذر عليه من الانتكاس لاجترأ الادعاء والفضوليين عليه وتسلسل القلام المغمورة ، والمأرب المنتمية الى حظيرة » وكتابنا هذا مقصود به مجازاة ذلك الأمل ، وتوقى تلك الملل ، وهو كتاب يتم في عشرة اجزاء ، موضعه الأدب عامة وجهته الابانة عن المذهب الجديد في الشعر والنقد والكتابة ، وقد سمع الناس كثيرا عن هذا المذهب في بضع السنوات الأخيرة ، وراوا بعض آثار موتيات الأذهان الفنية التهذية لفهمه ، وللتسليم بالمعيوب التي تؤخذ على شعراء الجيل الماضي وكتابيه ومن سبقتهم من القلدين^(٢) فنحن بهذا الكتاب في اجزائه العشرة وبما يليهم من الكتب نتم عملا مبدؤا ، ونرجو ان نكون فيه موفين الى الافادة مسعدين الى العاية .

(١) مجلة الطليعة - انظر الملف الخاص بالمقاد .

(٢) راجع التخييل بالديوان .

« وأوجز ما نصف به عملنا - أن افلحنا فيه - أنه إقامة حد بين عهدين ، لم يسبق ما يسوغ اتصالهما والاختلاط بينهما . وأقرب ما نميز به مذهبنا أنه مذهب إنساني مصري عربي : إنساني لأنه من ناحية يترجم عن طبع الإنسان خالصا من تقليد الصناعة المشوَّعة ، ولأنه من ناحية أخرى ثمرة لقاح الفرائح الإنسانية عامة أو مظهر الوجدان المشترك بين النفوس ناطقة ومصري لأن دعائه مصريون تؤثر فيهم الحياة المصرية ، وعربي ، لأن لغته العربية . فهو بهذه المثابة أتم نهضة أدبية ظهرت في لغة العرب منذ وجدت ، إذ لم يكن أدبنا الأوروبي في أعم مضامره إلا عربيا بحنا ، يدير بصره إلى عصر الجاهلية .

وقد مضى التاريخ بسرعة لا تتبدل ، وقضى إن تحطم كل عقيدة أصناما عبت قبلها . وربما كان نقد ما ليس صحيحا أوجب وأبر من وضع قسطاس الصحيح وتعريفه في جميع حالاته فلماذا اخترنا أن نقدم تحطيم الأصنام الباقية على تفصيل المبادئ الحديثة ، ووقفنا الإجزاء الأولى على هذا الغرض . وسنردفها بنماذج للأدب الراجح من كل لغة ، وقواعد تكون كالسيار والميزان لآثارها . فإن أصدنا الهدف والا فلا أسف ، وحسبنا بهذه المقدمة الوجيزة بياننا .

وَدَّ عرض العقاد للديوان بعد خمس سنوات من صدوره في البلاغ الأسبوعي (١) حيث قال :

« .. منذ بضع سنوات نشر كتاب « الديوان » فذاع ذيوعا لم يسبق له مثيل في مصر ونفدت طبعه الجزء الأول منه في أقل من أسبوعين . وشارت حوله ثائرة الناقدتين المسوسين عليه . والذين يغنيهم وغر نفوسهم عن الايقار والاعراض فخيّل اليهم أنهم طامسو أشره ومخفوا صوته وعادلون بالقراء عن الأصفاء إليه والافتناع بحقه . وبقينا نحن نلمس آثاره في أقوال الحديث ومقالات الكتّابين وتعليق المعجبين على ما ينشر من الشعر ويروى من الأدب القديم والحديث ، إلى أن جاء يوم الاحتفال الذي دبره شوقي لتكريمه . وسئل الأدياء رأيهم في شعره فكان فريق الناقدتين أرجح من فريق المقرطين فعرفنا الآراء التي بدسطنها في كتاب الديوان وهي تتخلل مقالاتهم وملاحظاتهم .

« وكان أناس يوافقوننا في مجمل الرأي ويطلبون إلينا أن نتخذ النقد لهجة غير التي اتخذناها لنقدم مظنة التحامل على شوقي والنظر إلى شخصه فكنا نقول لهم أن مثل شوقي وإحبابه هي التي ينصبها لترجيح امره والكيد لميره لا تستحق منا غير تلك اللمحة .. » .

(١) البلاغ الأسبوعي : يوم ٢٤ من يونيو ١٩٢٧ .

الفصل الثاني

اتجاهات جديدة

توالى تعطيل البلاغ بعد صدوره في عشرة ايام بنحو عشرة اسماء .
وعلم العقاد ان عبد القادر حمزة قد اشترى مقادير كبيرة من ورق في الوقت
الذي اغلقت فيه كل صحيفة أصدرها ، وكان ذلك دليلا على ان البلاغ لابد
عائد الى الظهور ولن يظل ، والا ما اشترى صاحبه هذه الكميات الوفرة
من الورق . وعاد البلاغ الى الصدور بعد احراج العقاد واخراجه منه ، وبقي
منظما في صدوره عدة شهور . واحتجبت - بدلا منه - صحيفة كوكب
الشرق التي نشر فيها العقاد مقالاته ثلاثة ايام متواليات ، وظلت محتجبة
طوال الوقت الذي انتظم فيه صدور البلاغ .

واشتغل العقاد في عدة صحف بعد ذلك فكانت تغلق الواحدة بعد
الآخرى . منها كوكب الشرق ثم المؤيد الجديد ، وهي التي كتب فيها مقالاته
التي كانت موضع المحاكمة والسجن ، وبعد خروجه من السجن أصدر
« الضياء » ، وحتى اذا جاء عام ١٩٣١ نجد عبد القادر حمزة يصدر
البلاغ من جديد بعد ان أصدر مجلس الوزراء قرارا بتعطيلها نهائيا في منتصف
شهر يونية سنة ١٩٣٠ ، وتصدر البلاغ باسم (البلاغ الجديد) ونجد
العقاد لا يشترك في تحريرها من بعد خروجه في سنة ١٩٢٩ .

ولكن العقاد يحرر في جريدة (مصر) في عام ١٩٣١ الى ان يصدر
محمد توفيق دياب جريدة (الجهاد) ١٩٣٢ يحرر بها العقاد حتى سنة
١٩٣٤ ، وكانت الجهاد من أقوى الصحف التي واجه بها الوفد حكم
اسماعيل صدقي وقد لقي صاحبها في سبيل ذلك كثيرا من المعت والاضطهاد
وتعرض للمحاكمة والسجن . وقد توقفت عن الصدور عام ١٩٣٨ بعد ان
غرقت في ديون عجز صاحبها عن سدادها .

تم ما لبثت روز اليوسف اليومية ان صدرت وفدية في عام ١٩٣٥ ،
ولكنها اختلفت بعد ذلك مع الوفد فأصدر قرارا بقطع الصلة بينها وبينه في
اواخر العام نفسه . ثم حار بها بعنف بسبب موقفها المعارض من حكومة
توفيق نسيم التي كان الوفد يهادنها لما وعدت به من إعادة دستور ١٩٢٣ ،
ولما كان متوقعا ان يترتب على ذلك من عودة الوفد الى الحكم .

وفي عام ١٩٣٧ تتوقف روز اليوسف اليومية نهائيا ويعود الى البلاغ
التي كانت قد تحولت عن الوفد منذ عام ١٩٣٢ .

وقد تميزت هذه الفترة ببعض الأحداث المهمة التي أثرت حياة البلاد . وقد تفاعلت بها الصحف وكان لها ازاءها مواقف ايجابية واضحة منها بعد حكم محمد محمود ، وحكم اسماعيل صدقي عام ١٩٣٠ والغائه دستور ١٩٢٣ ، واقامة دستور جديد ضيق فيه ما اكتسبته الأمة من حقوق في الدستور السابق وزادت فيه سلطة القصر ، وما لبث حكم صدقي أن انهار ، وطلب الشعب بمودة دستوره القديم . ولكن وزارة توفيق نسيم تلكت وظل الوفد يؤيدها أملا في أن تعيد الدستور الملغى وأن تجرى الانتخابات ، ولكن المظاهرات التي تعبر عن سخط الراي العام المصري قامت معلنة غضبها ، فقامت مظاهرات الطلبة في نوفمبر ١٩٣٥ واستشهد فيها عدد منهم .

وكانت وزارة نسيم الثانية (١٩٣٥) تلقى التأييد من الملك والانجليز ثم من حزب الوفد كما سبق ، وشاع يومئذ وصف الوزارة بهذا اللفظ . (قنطرة) « لعبور الوفد الى الحكم ، مع ان بيان الوزارة صريح في انها جاءت لاصدار دستور ترصاه الأمة » ولم تشر قط الى أن غرضها إعادة دستور سنة ١٩٢٣ نفسه ، ورابت المقاد هذه التراثن مجتمعة ، وهو الذي قاتل بضراوة في سبيل دستور ١٩٢٣ ، وأحس بأن وراء تسويقها نية المخالفة فشن على وزارة توفيق نسيم عامي ١٩٣٤ ، ١٩٣٥ حملة ضارية في روز اليوسف اقتضت مضجعا ، كما اقتضت مضجع الوفد الذي كان يؤيدها ، وحمل المقاد على وزير المعارف في الوزارة النسيجية حملة شديدة حتى قيل انه دخل على رئيس الوزارة ذات يوم واستقالته في يده ومقالات المقاد في اليد الأخرى .

وطلب مصطفى النحاس من المقاد ان يكف عن عجمه على الوزارة . واستدعاه لمقابلته بالاسكندرية ودار بينهما حديث يعتبر فصل الختام لجانب هام من حياة المقاد ، وبداية انفصال المقاد عن حزب الوفد ، ولعل أهمية هذا الحديث تقتضى ذكره ، فبعد أن وصل المقاد الى الاسكندرية توجه لمقابلة النحاس ودارت بينهما هذه المناقشة الحادة :

النحاس : لماذا تحمل على الوزارة يا أستاذ عقاد ؟

المقاد : لانها انحرفت عن الطريق السوى وهي تماطل في إعادة الدستور وتعمل لصالح السراي والانجليز ووزير معارفها نجيب الهلالي يضطهد المواطنين .

النحاس : ولكن الوفد يؤيد هذه الوزارة وعند توليه الحكم يصلح كل شئ .

المقاد : أنا لا أستطيع أن اغض الطرف عن أعمال الوزارة ، ولن أقف موقف الإغضاء عن مساوئها وهي تنكشف يوما بعد يوم .

النحاس : أنا زعيم الأمة أؤيد الوزارة فما عساك تصنع يا عباس يا عقاد ؟

المقاد : أنت زعيم الأمة لأن هؤلاء انتخبوك (مشيرا الى بضعة اشخاص من أعضاء الوفد) ولكنى كاتب الشرق بالحق الالهى .

النحاس : ان الوزارة باقية ما دام الوفد يؤيدها ويضع ثقته فيها .

المقاد : لن تنتهى برية هذا القلم الا وقد انتهى أجل هذه الوزارة (وأخرج قلما صغيرا من جيبه) .

وانصرف المقاد والحاضرون يتشبهون به ويلحقونه حتى يزيئوا ما بينه وبين النحاس ، ولكن المقاد أصر على الانصراف .

ويقول رفيقه في هذه الرحلة الأستاذ طاهر الجبلاوى : « وكانت أول كلمة سمعتها من فيه بعد هذه المقابلة » لسنا مع الوفد بعد اليوم (١) » .

واتصل المقاد بصحيفة روز اليوسف اليومية التي كان يكتب فيها وطلب اليها ان تعد عنوانا مرسوما « أكلشييه » ليواصل حملاته ضد الوزارة ، وخرج المقاد على الوفد ، ولم تمض أيام حتى تنكست نوايا الوزارة النسيجية ، وسحب الوفد ثقته منها ، ودار الزمن وخرج من الوفد من كانوا يلومون المقاد على موقفه منه ، وتبعهم مكرم عبيد (باشها) الذي كان يناوىء المقاد ويناضله ويقول له « أن من يخرج على الوفد لا بد أن يتحطم » وكان المقاد يجيبه بمقالاته المشهورة تحت عنوان « لسنا عبيدا يا عبيد » .

وكانت هذه أول محنة حقيقية يتعرض لها الوفد عندما بدأت تنسلخ منه عناصر أشد من قيادته اصرارا على الديمقراطية وجنوحا الى التجديد في ذلك الوقت . وفي حالة المقاد كان المثقفون من الشباب يرون رأيه ويشحون أزره ويتظاهرون من أجله ويرون أن الوفد قد أخذ يفرط في الدستور مكتفيا بمكاسب جزئية وقائما بمعسول الوعود لأنه تعب من النضال ومن فداحة التضحيات . وقد دخل الوفد من قبل في تاريخه الطويل سواء في أيام

(١) محمد طاهر الجبلاوى : في صحبة المقاد ص ١٠٢ .

سعد زغلول أو في أيام النحاس معارك عديدة رهيبة مع أعداء الديمقراطية وانتصار الحكم الأوتوقراطي ودعاة التفاهم مع الإنجليز ، ولكن كل هذه المارك لم يكن الا جولات عظيمة في ملحمة الكفاح الديمقراطي العظيم ، وكان الوفد في كل مرة يخرج منها منتصرا ومؤكدا سيادة الشعب بعد أن يدفع ضريبة الكفاح الفادحة وينزف نزيفا غزيرا في المال والرجال . ولم تكن هذه أول مرة يتعرض فيها الوفد للتصديق والانشقاق ، ولكن هذا الانشقاق كان يجري عادة في صفوف قيادته لا في قاعدته الشعبية ، وكان المنشقون منه عادة هم فئة « المعتدلين » في الوطنية « المعتدلة » في محاربة الملكية المطلقة ، أو باختصار دعاة المهادنة من ميمنة الوفد ، فكان الوفد باستمرار يظهر صفوفه منهم ويحتكم الى الشعب فيخرج من الاحتكام أشد تماسكا وأصلب عودا ، وكان آخر المنشقين من قيادة الوفد هم جماعة السبعة ونص التي كانت تشكل أكثرية القيادة فطردت الأقلية الكافحة الأكثرية المهادنة وأحالها الى ضميم في أربع وعشرين ساعة (١) .

بل لم تكن هذه أول مرة يتعرض فيها الوفد الى انسلخات من القاعدة ، كما يبين ذلك الدكتور لويس عوض ، على أساس أن ربح الفاشية والنازية التي ميّطت على أوروبا أدركت منها مصر موجات في أوائل الثلاثينات تحت ضغط الأزمة العالمية فظهرت في مصر شيع من الشباب التحمس اليائس من جدوى الديمقراطية والتمست الحل الوطني في تشكيلات مصر الفتاة بين المثقفين (٢) وفي تشكيلات عباس حليم بين العمال . ولكن هذه الانسلخات في قاعدة المثقفين وفي قاعدة العمال كانت انسلخات الى اليمين لا الى اليسار وكانت تتضمن تفريطا في أحد وجهي فلسفة ثورة ١٩١٩ ، وهو الوجه الديمقراطي في سبيل تحقيق الوجه الآخر ، وهو الوجه الوطني . أما أزمة الوفد التي بدت تباشرها في ١٩٣٥ وبلغت مداها حين وقع الوفد معاهدة ١٩٣٦ فقد كانت أول أزمة حقيقية مربها الوفد لانها لم تكشف فقط عن ظهور تصدع في قاعدته الجماهيرية بل كشفت أيضا عن بدايات الانسلاخ منها نحو الوان من اليسار والشعبية بعضها داخل الاطار الديمقراطي وبعضها خارج عنه تماما .

(١) الدكتور لويس عوض : الأهرام - عدد الجمعة يوم ٢٠ مارس ١٩٦٤ .

(٢) أصدرت جماعة مصر الفتاة عدة صحف هي :

الصرخة - الضياء - الفجر - ثم صحيفة تحمل اسم الحزب « مصر الفتاة » . . . وكان المقاد يكتب فيها مع لثيف من كبار السياسة .

وسرعان ما أدرك الوفد ما سبق للمعقاد أن أدركه : أدرك أن توفيق نسيم المهان في أوج الغليان الوطني سنة ١٩١٩ هو عينه توفيق نسيم المهان في أوج الغليان الديمقراطي سنة ١٩٣٥ فانقض عليه وأعلن على حكومته الجهاد حتى سقطت واضطر الملك فؤاد صاغرا أن يعيد دستور ١٩٣٣ . وأجريت الانتخابات وتولى الوفد الحكم في جو دولي عاصف تجملت فيه كل مقدمات الحرب العالمية الثانية . ووقع الوفد معاهدة ١٩٣٦ ووقعت معه المعاهدة كافة الأحزاب ذات الوزن في حياة مصر السياسية بناء على طلب الانجليز . كان واضحا يومئذ أن الانجليز يمهدون للحرب العالمية الثانية بتأمين كافة جيدهاتهم الخارجية وبتبريد كاسفة انقاض التهبة ، وفي مقدمتها مصر ولو بتقديم بعض التنازلات استعدادا لمواجهة المحور . وبعد أن وقع الوفد معاهدة ١٩٣٦ طرده الملك من الحكم وأقام مكانه سلسلة من حكومات الأقلية حتى فرضه الانجليز فرضا ثانيا ، الحرب بانذار ٤ فبراير ١٩٤٢ كجزء من استراتيجية الحرب لتأمين الجبهة المصرية . التي طوقتها النازية من الخارج ومن الداخل كان واضحا في ١٩٣٦ وفي ١٩٤٢ أن الانجليز كلما تازمت أحوالهم الدولية لم يجدوا مناصا من التعامل مع حزب الأغلبية حتى يتاح لهم أن يخرجوا من مأزقهم (١) .

وأيا كان تقدير الوفد ، فإن أزمة الديمقراطية المصرية بمعناها الليبرالي الذي ورثناه عن ثورة ١٩١٩ ممثلا في حزب الوفد تكتشف بتوقيع معاهدة ١٩٣٦ فبعد ١٩٣٦ عمت حياتنا السياسية بليلة عظمى ثم تصدع عظيم في قاعدة الوفد وفي قيادته جميعا . وبعد انسلاخ المعقاد انسلاخ ماهر والفقرشي وإبراهيم عبد الهادي انسلاخ مكرم عبيد ورجال الكتلة وبعد هؤلاء جميعا انسلاخ نجيب الهلالي وعبد الحميد عبد الحق وعديد من « المستقلين » ويقول الدكتور ليس عوض أنهم راوا كل من ينسلاخ من قيادة الوفد كان يعاهد الناس عن مبادئ سعد ثم يتعاون تعاوننا كاملا مع فاروق ورجاله (٢) .

وبعد خروج المعقاد من الوفد حاربه الوفد محاربة عنيفة ومنع نشر مقالاته في الصحف واضطهد كل صحيفة تنشر مقالاته ولو كانت في الأدب والمعرفة ، وعدد أصحاب المكاتب ومنعها من شراء مؤلفاته ومنها كتابه العظيم عن « سعد زغلول » الذي أصدره في عام ١٩٣٦ .

ولقد كان هذا الكتاب عظيما حقاً - لا لأنه كان دعوة وبشرى وعهدا بتجديد الكفاح الديمقراطي الذي كان سعد زغلول عنوانه الاول ، ولكن لأنه

(١) الدكتور نوبيس عوض : المرجع السابق .

(٢) نفس المرجع .

– كما يقول الدكتور لويس عوض – كان بمثابة المذكرات التي يكتبها العظماء في نهاية حياتهم ليرثوها بها شبابهم الزاصر ويبنكوا فيها إبداع الكفاح البطولي من أجل الديمقراطية الليبرالية الذي شارك فيه العصاد بدم القلب وبوجه الفكر وبصلابة الفولاذ . لقد أدرك العصاد أن هذا العهد مضي وانقضى وما من رجعة اليه ولو في الأحلام فدون على قبره – ذلك الشاهد العظيم الذي سماه « سعد زغلول : سيرة وتحية » (١) .

ولم يابه العصاد لمحاربة الوفد لله ، فهاجم معاهدة ١٩٣٦ وفند ابوابها في مقالات نشرتها صحيفة « مصر الفتاة » .

ويحدثنا الأستاذ طاهر الجبلاوي أن خصوم الوفد دعوا العصاد عتب حملاته على الوفد الى حفل شعبي في الجزيرة وأعلنوا في الصحف انه سيلقى تصديدا سياسية في هذا الحفل فحضره ثلاثون ألفا من المستمعين وكانت حفلاتهم لايفتأعا أحد غير افراد معمودين ، والحق أن الوفد دالت دولته بعد انصراف العصاد عنه ، وكشف الستار عما حل به من الضعف والتدهور ولم يتحطم العصاد كما زعم مكرم عبيد ولكن تحطم الوفد .

ومما يذكر أن العصاد حين أصدر صحيفة « الضياء » بعد ان اخرجته الوفد من الصحف التي كان يحاربه فيها ، لم تلك الحكومة الا ان اشترت اعدادها جملة من متعهدي توزيع الصحف لقاء ثمن أعلى من ثمنها ، حتى تحول بين الناس وصوته ، ولجأت الى غير ذلك من إقامة المرائيل امام تلمه حتى لا يصل الى الناس .

وينشر العصاد في تلك الفترة كتابه « عالم السحود والقيود » مفكرا في جهاده الوطني وما يلي فيه ومما ذاق من مرارة السجن . وصور فيه رحلته في السجن لمدة تسعة أشهر وعرض لبعض وجوه الإصلاح التي ينبغي ان تجري في السجون .

الفصل الثالث

صحيفة جديدة

اصدر محمد توفيق دياب صحيفة « الجهاد » اليومية في عام ١٩٣١ وذلك بعد عدد من الصحف اغلقتها له السلطات ، وهي من الصحف التي واجه بها الوفد عهد اسماعيل صدقي .

وبعد أن خرج العقاد من السجن في ١١ يناير سنة ١٩٣١ كتب في صحيفة مصر ثم استقر في « الجهاد » منذ صدورها في سبتمبر ١٩٣١ حتى غادرها إلى « روز اليوسف اليومية » عام ١٩٣٥ .

وتميزت هذه الفترة التي كتب فيها العقاد في الجهاد ببعض الأحداث المهمة التي كان للعقاد دور كبير فيها ومواقف ايجابية واضحة ، وهي على الترتيب اجراء الانتخابات وغاز الوفد الساحق فيها ثم تأليف الوزارة برئاسة مصطفى النحاس من اول يناير سنة ١٩٣٠ ويدات مفاوضات رسمية بينه وبين مستر هندرسن وزير الخارجية البريطانية في سنة ١٩٣٠ بيد أن هذه المفاوضات بعد أن أوشكت على النجاح اصطدمت بالفص الخاص بالسودان . واستقال مصطفى النحاس في ١٧ يونيو من السنة نفسها وعهد القصر إلى اسماعيل صدقي بتأليف الوزارة ، وعندما تولى الحكم عام ١٩٣٠ ألفى دستور ١٩٢٣ وأقام دستوراً جديداً ضيق فيه ما اكتسبته الأمة من حقوق في الدستور السابق وزادت فيه سلطة القصر وألف حزب الشعب ، وقد هاجمته الصحف الوفدية بمنتهى العنف وهادنته « السياسة » في أول الأمر ثم اختلف معه حزب الاحرار الدستوريين وتحالف مع الوفد ، ومن ثم اشتركت « السياسة » مع الصحف الوفدية في مهاجمة حكم صدقي .

وأغلب الظن - كما يقول الاستاذ زكي عبد القادر في مذكراته - أن اسماعيل صدقي كان يعرف جيداً حقيقة مهمته ، وأنه جاء ليحكم باسم السراى ، وليس باسم الاحرار الدستوريين . وربما كان الانجليز يريدون شيئاً آخر . ولعلمهم قصوداً أن يؤدي الحكم إلى تقوية أصحاب المصالح الحقيقية على نحو ما كانوا يسمونهم حينئذ ، لكي تتاح لهم الفرصة لمقعد المائدة التي يريدونها ، بحسبانهم أكثر اعتدالاً من الوفد . ولعلمهم حسبوا أن وفاة سعد زغلول ووجود انشقاق أو ما يشبهه في صفوف الوفد فرصة

(١) محمد زكي عبد القادر : مجلة الدستور ص ٧١ وما بعدها .

مواتية نبلوغ هذا الغرض . ولكن السراى انتهزت الفرصة على «الحرى وارادت ان ننمى بجهايه»سماعيل صمى لى مؤيد سلطانها (١) .

وقد وقف العقاد بعد خروجه من السجن الى جانب الوفد ورئيسه الجديد ، معتقدا نفس البىادى ، التى دافع عنها خلال زعامه سعد للامه .
ومدعما عن الوفد فى مرحلته الجديده لاعماده ان الوفد مازال يسير فى نفس الحط النضالى الذى بدأه سعد زغلول .

وفى جريدة البلاغ نلمس هذا الموقف بعد اشتقاق الثمانية الذين كان منهم نجيب الغرابلى وفتح الله بركات وعلى الشمسى وذلك فى عام ١٩٣٢ وقد تعرضت جبهة الوفد الى كثير من النقد مما جعل العقاد يدافع عنها بايمانته القديم وحماسه النضالى فيصدر رئيس الوفد بياناً بعد اشتقاق الثمانية على الوفد وهنا نجد العقاد يكتب فى الجهاد تحت عنوان :

أصااب الرئيس (٢)

وقد احتل هذا القال افتتاحية الجهاد التى اتخذت عنوانا ثابتا لها وهو « حديث الصباح » وكان يكتب هذه الافتتاحية محمد توفيق دياب صاحب الجهاد فى بعض الاحيان ، وكان العقاد يكتب كذلك تحت عنوان ثابت فى الصفحة الخامسة « الموقف الحاضر » ، وكان « المانشت » فى صدر الصفحة الاولى من الجهاد يحمل عنوان القال الذى يكتبه العقاد مبرزا أهمية .

ويواصل العقاد حملته على المنشقين على الوفد فيرد الغرابلى باشما ونجد الجهاد تنشر هذه المناوين :

« الغرابلى باشا يتخذ من قانون الطبوعات

وسيلة الى نشر رده على الاستاذ عباس محمود العقاد

رد الغرابلى باشا – وتعليق الاسنآ على رده (٣) »

وفى اليوم التالى يكتب العقاد فى الافتتاحية بعنوان :

« أصااب الرئيس

وسخف الغرابلى باشا (٢) »

(١) للجهاد : يوم ٢٨ من أكتوبر سنة ١٩٣٢ (العدد ٤٠٧) .

(٢) للجهاد : يوم ٢٩ من أكتوبر ١٩٣٢ العدد ٤٠٨ .

(٣) للجهاد : يوم ٣٠ من أكتوبر ١٩٣٢ العدد ٤٠٨ .

ثم بصور تأييد الأمة لوقف الوفد في مقاله الافتتاحي الذي جمل
عنوانه :

« الوزارة تتظاهر حول بيت الأمة (١) »

وعكذا وقف العقاد من الوفد بعد الأزمة التي تعرض لها نفس موقفه
القديم مدافعا عنه ، وحاملا مرأوة التأديب لكل من يخرج عليه ، أو بمعنى
ادق لكل من يخرج على المبادئ التي وضعتها الأمة له بزعامه سعد زغلول .

ولم ينس العقاد موقف حكومة صدقي منه ودخوله السجن لدفاعه
عن الدستور ولم يشنه عن مواصلة حملته على الحكومة الدكتاتورية التي
فرضت نفسها على الشعب وكذمت انفسه ، فبين علاقة صدقي بالانجليز
ويشرح حقيقة هذه العلاقة في افتتاحية الجهاد التي احتلت نصف الصفحة
الاولى :

« المراوغة مع الاصدقاء

عكيف بالخصوص ؟ » (٢)

« صدقي باشا لا يأمن الانجليز ولا يتفاهم معهم على نية صريحة في
امر الحاضر ، ومستقبله ، ولا يجرى ما هم صائمون به حين تريب او بعيد .
هذه حقيقة لا ريب فيها عن العلاقة القائمة بين صدقي باشا
والانجليز ، يشعر بها صدقي باشا قبل غيره ، لأنها تؤله وتخييب رجاءه ،
ففيها من قسوة الحضور في الذعن والمثول أمام النظر ، في كل شيء يؤلم
ويخييب الرجاء . »

صدقي باشا على ريب شديد من الانجليز ، وصدقي باشا مع هذا
قد كان أولى الناس أن يأمنهم ويستريح اليهم لو كان للمستعمرين امان ،
وكيف وهو وزير مصرى أفاد الانجليز من المال والمأرب والسياسة ، فوق
ما أفادهم وزير ممن وزرائهم المعدودين ؟ فلا مكدونالد ولا سنواين ولا بلدوين
ولا أحد من زملائهم يستطيع أن يزعم لنفسه أو لقومه أنه أضاف إلى
ثروتهم ومصالحهم بسياسته المباشرة مثل ما أضافه إلى تلك الثروة وزيارنا
المصري الخطير إلى ما تحت قدميه فلا يحس الأرض ثابتة مكنية تحت
قدميه ، وينشد أمنيته الكبرى عند السياسة فلا يصيب عندها جوبا غير
المراوغة والتسويق .

(١) الجهاد : يوم أول نوفمبر ١٩٣٢ للعدد ٤١١ .

(٢) الجهاد : يوم ٢ من نوفمبر ١٩٣٢ .

ثمانية وعشرون شهرا في انتظار المعادة ولا معاهدة ولا مفاوضة ، بل لا زيادة للمعاصرة البريطانية يشيع عنها الانتصار عنا ما يتبعون ، بل لا مثاله سياسيه بين الوزير المصرى ورجل من رجال الانجليز المسؤولين ولو في ناحيه من نواحي المعارة الاوربيه ، وكل ما ظفر به صاحبنا بعد المحاولة والاحاف ان يجلس مع وزير الخارجيه البريطانيه جلسته خاصه في جنيف كم ايجتمع اى رجلين في مهرة من القهوات ، ثم اسفرت هذه الجلسة القهويه عن ثناء الوزير البريطاني على سياسه صدقى باشا المالليه كما قال صاحبنا في خطابه الاخير ، وعاد صاحبنا فظن انه قد ظفر بشئ كبير ، او ان هناك انسانا في مصر لا يستطيع ، ان يذهب اليوم الى جنيف فيلثى فيها وزيرا بريطانيا يسمع منه مثل هذا الكلام في معرض المجاملة وازجاء الفراغ .

« لا . بل يحق لنا أن نقول أن ثناء الوزير البريطاني على سياسة صدقى باشا مالنية إنما هي من ضرب التقاضى والاستزاده وليست ضربا من التحية والمجاملة وازجاء الفراغ .

اذ اى وزير بريطانى لا يثنى على السياسة التى تكسيهم جبل الاولياء ، وصفقات القاولات والتوريدات ، ومكاسب الافراد والشركات ، وريح الملايين من قناطير القطن التى تباع في ابلان المواسم ، وريح زيوت الوقود التى يخسر المصرى بضمة قروش في كل صفحة منها فرق ما بين الواردات البريطانية والواردات الروسية وريح الفرق بين عملة الورق والذهب ، وريح الفوائد التى نقصت واحدا ونصفا في المائتة على الاستاذ الانجليزى ، وريح ما وراء ذلك من المنافع التى لا تدخل في حساب ولا يجهلها الوزراء البريطانيون .

اى رجل من رجال انجلترا المسؤولين لا يثنى على سياسة مالية تفيدهم كل هذه الفوائد وتجلب لهم كل هذه الاموال ، ان من الخيانة العظمى ان لا يثنى السرجون سيمون على مثل هذه السياسة او يستزيدها جهد الطاقة وما كان لصاحب الدولة ان ينتظر الخيانة العظمى من السرجون سيمون .

فاذا كان هذا قيمة ما خرج به صاحب الدولة من ثناء الجلسة القهوية في جنيف فقد خرج بغير طائل ، بل خرج مدينا لجليسه الأريب ، مطالبنا بالمزيد ومضاعفة الجهود !! .

ثم كان التصريح الاخير في البرلمان الانجليزى فماذا جنى منه صاحب الدولة او ماذا يجنى منه بعد الآن ؟

لا شيء ، أو أقل من لا شيء

فهلفاوضوه ؟ لا ٠٠ لم يفاوضوه !

هل وعدوه المفاوضة في وقت معلوم أو في موعد يسهل تقديره والاتفاق عليه ؟

« لا ٠ لم يعدوه ولم يقولوا إلا أن المفاوضات غير مستحيلة في الوقت المناسب ثم لم تخلص نيّتهم حتى بهذا الوعد الهزيل الضئيل فسرعان ما نطقوا به حتى أوعزوا إلى صحفيهم أن تفسده وتمزجه بالمنقصات والمغيبات، فقالت المورنينج بوست : « ان لناقد النزيه يرى أن على تصريح وزارة الخارجية صيغة البيانات الرسمية لخلوه مما يتقيد تأثله ، فهو لا يشير إلى التحفظات والضمانات التي يمكن أن تطلبها الحكومة البريطانية قبل الشروع للجدي في المفاوضة »

أرأيت يا دولة اللباشا ؟

انك اذن غير موعود بشيء، وإن السكوت كان خيرا لك على الاتل من ذلك التصريح الهزيل الضئيل

أعرفت الآن يا دولة اللباشا « شغل الحواة » البارعين انذى يتقنه كل الاتقان جون بول صديقتك الحميم

– أتريد المفاوضة هكذا يا صديقى ؟

أحريص أنت كل هذا الحرص على المفاوضة يا نور عينى ؟

اذن خذ : هاك المفاوضة برمتها ٠٠ افتح يدك ٠٠ اطبقتها جيّدا لكيلا تفر منها المفاوضة ٠٠ المفاوضة في يدك الآن فافرح يا صديقى ٠٠ افرح يا نور عينى ٠٠٠ وارقد وانت مستريح ٠٠

« وهكذا قال لك جون بول يا صاحب الدولة وهو صديقتك الحميم فافتح يدك فماذا ترى فيها الآن ؟؟

يا للعجب ٠٠٠ لا شيء، ٠٠ لا شيء على الاطلاق ٠٠ لا مفاوضة ولا وعد بالمفاوضة ولا إمكان المفاوضة متروكا بغير تحفظات ولا منقصات ولا مغيبات!! وكذلك غليكن شغل الحواة البارعين ٠٠

* * *

« ولقد فرح صاحب الدولة وأنصاره لأن وكيل الخارجية قال في البرلمان الانجليزى ما معناه أنهم لا يعترضون على الوزارة الصديقية في شئون العلاقات

بينها وبين الحكومة البريطانية . فرح صاحب الدولة وفرح انتصاره بتلك الكلمة التي « لا طلعت ولا نزلت » فحدثت الى قلوبنا الغيرة الشديدة من حسن الحظ الذي يلقاه جون بول وسوء الحظ الذي يلقاه « نحن عند هؤلاء الوزراء القانعين الطيبين » .

هاتحين اولاء نقول لهم ان الانجليز يعطفون عليهم ويرضون عنهم ولا نكتفى بانهم يحتفلونهم ولا يعترضون على سياستهم في الشئون التي بينهم ، ما نحن اولاء نقول لهم اليوم ان « الحيداء البريطانى » ان هو الاحياد مزيف وان الوزاريين يملعون في مصر كل ما يريده الانجليز الحايدون . فاذا كانوا يطربون ويرتحن للكلمة الصغيرة التي قالها الوكيل البريطانى فلماذا نجود عليهم باضعاف اضعافها فلا يطربون ولا يرتضون !

« اطربوا وارقصوا يا معشر الوزاريين القانعين الطيبين ، ثم انتخبوا ايحكم آخر لامر فانها على كل حال تخرج بيضاء . ولكن لا تقول بيضاء من غير سوء ، والحمد لله » .

عباس محمود العقاد

وكانت حكومة العمال البريطانية تد اختارت سير برسي لورين مندوبا ساميا لها في مصر خلفا للورد جورج اللويد ، بعد ان عزلت هذا الاخير في ربيع عام ١٩٢٩ . وكان السير برسي لورين من رجال السلك السياسى البريطانى ، واعتقد السياسيون في مصر انه كان يطمع في ان تتوج مفاوضات النحاس - مندورسن بالنجاح ، فيحسب ذلك انتصارا له . فلما فشلت هذه المفاوضات وتوالى صحفى باشا الوزارة واحل دستوراً مكان دستور ، بقي سير برسي متظاهرا بالابتنعاع عن تحت مسؤوليتها (١) . ويذكر الدكتور هيكل في مذكراته السياسية ان سير برسي لورين ذكر لعلى باشا يكن ان الحكومة البريطانية مستعدة ، اذا تالفت وزارة قومية في مصر برئاسة رجل كمدلى باشا ، ان تعقد مع مصر المعاهدة التي انتهت اليها مفاوضات سنة ١٩٣٠ ، وان تشير باعادة دستور الامة اليها (٢) .

وفي الواقع لقد كان الانجليز ينظرون الى على يكن على انه رجل « معتدل » ولذلك خصوه برئاسة حكومة قومية يضمون ان تكون «معتدلة» في مفهومهم ورحب الاحرار الدستوريون الذين حظوا لدى الانجليز بنعت « المعتدلين » بقبول فكرة الوزارة القومية وجتهدت في ذلك انهم ظنوا ان

(١) هيكل : مذكرات في السياسة المصرية ج ١ ص ٣٣٧ .

(٢) نفس المرجع ص ٣٣٨ .

عرضها قد لا يبدو ان يكون مناورة ، أريد بها احباط نشاطهم في مقاومة
صدقى باشا ومستوره ، فان هي كانت مداورة ولمية سياسية واعلن
الدستوريون والوندديون جميعا قبولها على اساس اعادة دستور الامة وعقد
الماعادة ، اسرع انكتشاف المداورة وان هي كانت حقيقة كسبت مصر من
ورائها اكبر غنم (١) ، *

وناقش الوفد الفكرة ، وانقسم في امرها ، وكان النحاس يرفضها كل
الرفض يؤيده في موقفه مكرم عبيد بينما ايدعها واصف غالى وعلى الشمسى
ونجيب الغرابلى . وكان النقاش حول هذه الفكرة سببا في فصل ثمانية
من أعضاء الوفد . وهكذا انقسمت الكتلة المعارضة لصدقى شطرين وكان
الفضل للبراعة السياسية التي ابداعها سير برسي والتي ادت الى هذه النتيجة .
وهكذا استطاعت السياسة الانجليزية في مصر ان تزيد من مؤيديها
وان تفتت من جبهة المقاومة . *

ويقف المقاد ازاء هذه الاحداث مفسرا واعيا مدركا لخفايا السياسة
الانجليزية واعادتها من تفتت الجبهة الوطنية المناضلة ويكتب تحت عنوان:

« التطرف والاعتدال » (٢)

حيلة قديمة مفي آوانها

ماذا وراء السير برسي لورين ؟!

« لما ظهر الخلاف الاخير في الوفد المصرى كتبت فيه الصحف
الاستعمارية والصحف الوزارية واسرعت الى ذكر التطرف والاعتدال على
عادتها في مثل هذه المسائل ، وهى بطبيعة الحال تنصر المعتدلين وتخدل
المتطرفين ان كان لها نصر وخذلان غير النصر المعكوس او الخذلان المعكوس*
ولسنا نتعرض هنا لصوابها أو خطئها فيما ذهبت اليه فذلك شأن لا محل
للكتاب فيه الان ، وانما نستعرض هذه الحيلة الرثة البالية التي لا يقطع
عنها المستعمرون وأشباههم مع ما يتبين لهم من خطئها وسوء ما فيها
في كل يوم . فقد كان الاحتفال باسم التطرف والاعتدال نافعا او مرجو النفع
يوم كان الزعماء هم كل شئ يدخل في الحساب وكانت الامم تبعها مهملين
زعمائها تتقلب بينهم حيث يتقلبون ، فاما في القضية المصرية حيث لا مكانة
لزعيم الا بمقدار ما تنوئه الامة من مقام الثقة والولاء فمن السخف ان يعول
أحد على حيلة التطرف والاعتدال بعدما رثت ايماء رثاءة وابتذلت ايماء ابتذال،

(١) المرجع نفسه ص ٢٢٨ *

(٢) الجهاد : يوم ٦ من نوفمبر ١٩٣٢ - العدد ٤١٦ *

فكل من يسميه المستعمرون معتدلاً فمعنى ذلك عند الجميع انه يتقبل ما يراء المستعمرون ، وكل من يسمونه منطرفاً فمعنى ذلك عند الجميع انه لا يتقبل الا ما تريده الامة بغير نقص ولا هوادة . وما دام المرجع الى الامة فالهم اذن هو تريده الامة بغير نقص ولا هوادة . وما دام المرجع الى الامة فالهم اذن هو الجانب الذى تكون معه او يكون معها لا الجانب الذى ينعوتونه عندها وهناك بنعت المتطرف او نعت الاعتدال ، وتلك حقيقة واضحة قد آن تفهم وتذكر بعد ان طال الابد على اعمالها وكان من عواقبها السيئة ما كان في كل بلد عالج فيه المستعمرون تقريبا اول تمييزاً بين المتطرفين والمعتدلين .

« ان المعتدلين - ونعنى الذين يسميهم المستعمرون بالمعتدلين لم يقودوا قط امة في العصر الحديث ولن يقودوا امة ابداً ما دام للامم حساب في توجيه الامور . وسبب ذلك بسيط لا يحتاج الى انعام طويل ولا لجاج كثير سببه ان المعتدلين يحصرون انفسهم في المصالح الوقتية القريبة ولو كانت من المصالح العامة القومية ، والامم لا تستوعبها المصالح الوقتية القريبة ولا تأبث ان تنتفض فيها هذه المصالح بانقضاء وقتها حتى يزول ما كان لها من خطر وما كان لدعاتها من نفوذ ، فمن يمشى مع المعتدلين لا يمشى معهم الا خطوة واحدة حتى ينقطع بينهما الطريق ، ثم يعود الامر الى المتطرفين حين لا تجدى مساومات الاعتدال ولا خطواته الضئيلة .

« قال مصطفى كمال في مذكراته : « كانوا يقولون للامة من جهة ولحكومة الاستانة من جهة اخرى لا تعترفوا بمصطفى كمال ولا تثقوا به لأن الحلفاء لم يشتدوا على تركيا الا من جراء فعله ، كانوا يقولون ذلك ويؤمنون انه اذا قضى عليه نالت البلاد عند الدول الاجنبية كل صداقة وهوادة » .

قالوا ذلك للترك فهل يدري القارىء من الذين قالوه ؟! انهم هم هم الانجليز الذين كانوا يحتلون العاصمة التركية في ذلك الحين .

قالوه للترك كما قالوه للمصريين عن سعد زغلول وكما يقولونه الان عن مصطفى انحاس .

وقالوه للترك كما قالوه للهند عن غاندى ورجال المؤتمر الوطنى ، وكما قالوه للارلنديين عن دى غاليرا .

ثم انقضت كل تلك الاتاويل ولم تسفر الا عن شئ واحد هو الثابت المستقر الان وبعد الان . فقد نظر المستعمرون الى معتدليهم الذين اعتمدوا عليهم فاذا هم قد ذابوا من تحت ايديهم واذا بتركيا والهند واورلندا ومصر ولا زعامة عليها الا لمصطفى كمال وغاندى ودى غاليرا ومصطفى انحاس ؟

ولا يزالون بعد هذا يقولون : المعتدلون والمتطرفون • ويحاولون عندنا أن يستغلوا المصريين حين يزعمون لهم انهم يبغون استقلال مصر ولا يشترطون كذلك إلا ان يهدموا مصطفي النحاس !! •

« لقد كانت للمستعمرين عبء عن الهند اكبر من عبئهم في مشكلة ايرلندة الاخيرة •• فهذا المؤتمر الوطني الذي يستولي اليوم على قيادة الهند ويقيم القيامة على الانجليز من الذي انشأه ولفقه يوم ظهر ملفقا مرقعا قبل سبع واربعين سنة ؟

« هل انشأه الهنود كما قد يتبادر الى اذهان بعض الناس ؟ كلا • لم ينشئه الهنود وانما انشأه المستعمرون في عهد رجال من كبار اساطينهم المعروفين بيننا وهو اللورد دوفرين ، وظن هذا اللورد انه خلق الهيئة التي يستولى بها على قيادة الهند ويقضى بها على نزعات التطرف والعداء للدولة البريطانية فما هي الا فترة من الزمن حتى تغلب المتطرفون على المؤتمر امامهم فاشفق المعتدلون ان يحاورهم فانفصلوا ثم عادوا فالتأمو ثم عادوا فانفصلوا مرة اخرى والفسوا : « اتحدهم الوطني الحر » بمزمل عن المؤتمر ورجاله • ولكن الهند ظلت تعرف المؤتمر المتطرف ولا تعرف « الاتحاد الحر » وهي لا تحدين اليوم بالزعامة الا لتلك الهيئة التي تحصل رايصة العصيان المدني وتشن الغارة على الانجليز كما تشنها على انصصارهم • المعتدلين •• وكل خطة تنكرها تلك الهيئة لا تجدى الحكومة البريطانية في سياسة الهند ولا تلبث ان تدخل في خيم كان •

« تلك عبء بالغة وفي تركيا وارلندة ومصر عبر من قبيلها ، ولكن ما أكثر العبر في تاريخ الاستعمار والاعتدال واقل المعتبرين !

« ان الامر في الحقيقة ظاهر بطبيعته كما اسلفنا ، فالفتنة التي يسميها المستعمرون بالمعتدلين لا تمثل الامم ولا تتودم في تضايها الوطنية لانها تنظر الى النفع القريب الذي سرعان ما يتقلب ويطويه النسيان ثم يسؤل الامر الى المصالح الدائمة والآمال الخالدة ، وهي ميدان لا يحسن المعتدلون التقديم فيه •

« هذا من جهة

« ومن جهة أخرى يفشل المعتدلون في قيادة الامم لسبب آخر يرجع الى مزاجهم وطبيعة تكوينهم ولا حيلة لأحد في تغييره واصلاحه فالمعتدل بطبيعته رجل ينفر من النضال ولا يعرض نفسه للخطر • فاذا مشت الامة في طريق فليس هو بالرجل الذي يصمد لها ليصدما عن تلك الطريق • بل أقرب الى مزاجه أن يتجنبها ويمشي في أثرها لا أن يهاجمها ويتمرد عليها ، فاذا ساعته القوة الأجنبية فاجتسرا على مساواة قوية فهو اذن عندو

ظاهر لن يصلح لتمثيل قومه ولن يستمع له أحد اذا تكلم بلسانهم ، ومن
عنا تنتهى سياسة التفريق بين التطرف والاعتدال بالفشل ولا تفيد الا في
اثبات سوء النية والايغال في الحذر والعناء .

« والذى نعتقد اننا قادرون على عام فاصل في القضية المصرية نجمع
فيه الامة كل تجاربيها وعظاتها فتستفيد بتدبر ما يحضرها من البقطة
والصلابة وشجاعة اليقين . ونعتقد كذلك ان الانجليز سيخلون في تجربة
جديدة من تجاربهم العديدة . وربما كانت طبيعة الخطة الخوية ما نشرته
« الديلى اكسبريس » عن مستقبل السير برسي لورين بعد ان اذاعت خسر
سفره الى القاهرة فهي تتوقع ان يتخلى السير برسي عن منصبه هنا لينقل
الى باريس او واشنطن ، وترى ذلك اسبابا كثيرة منها ان السفارة البريطانية
في باريس ستخلو قريبا من سفر . وان هناك مفاوضات منتظرة بين باريس
والقاهرة في شأن قناة السويس . . . الى آخر ما روت من تلك الاسباب .
« فمادا في هذه الاشاعة ؟ وماذا تخفى وراءها من الخطط والمناورات ؟
هل سينقل السير برسي لوين حقا او هو باق هنا الى نهاية العام ؟ ليكن
من حقيقة ذلك ما يكون ؟ وليبق في مصر او ينقل الى حيث تشاء حكومته
او يشاء ، فهذه الاشاعة لن تصلح لتحرير المصريين وحملهم على الانتظار
شهورا بعد شهر حتى ينتقل السير برسي الى وظيفته الجديدة ويخلفه المندوب
الذى يناط به تغير السياسة البريطانية !! فربما كانت الاشاعة مسبوبة
لفرض مثل هذا يساعد على المراوغة والتأجيل والتعليق والتأويل : يعمود
السير برسي والناس ينتظرون نقله ولا ينتظرون تغييرا على يديه . .
« ينقضى الشهر بعد الشهر في هذا الانتظار حتى ينتصف العام ، وعند ذلك
يقال ان العادة لم تجر بنقل السفراء في اواسط الاعوام فلننتظر ايضا
الى الاجازة الصيفية وما بعد الاجازة الصيفية . . وهكذا ينصرم العام
كله في غير طائل وينتقل السير برسي لوين اولا ينتقل حد سواء ، لن
ينقاد المصريون بعد اليوم لاساليب التخدير والتفجير ، فلننلق الاشاعات
على حذر وبخطا ، ولا نستبعد غنى خصوصنا اية نية واى تدبير . »

عباس محمود العقاد

وفي اليوم التالي يواصل العقاد كشف الاسرار الخفية وراء اشاعة نقل
السير برسي لوين فيكتب تحت عنوان :

ما وراء السير برسي لوين ؟ (١)

اشاعة في طيها شرك !!

(١) الجهاد : يوم ٧ من نوفمبر ١٩٣٢ العدد ٤١٧ .

يبين في مقاله بتحليل سياسي عميق أهداف الاستثمار الانجليزي ونواياه والخطط التي يملكها لتفريق المصريين والسيطرة الكاملة على موارد مصر . ويتضح من هذا المقال اطلاع العقاد الواسع في السياسة وإدراكه للعوامل التي تحركها في العالم ، مما اضفى على مقالاته الشيء الكثير من الاتقان المنطقي والتحدرة الجدلية في مواجهة الصحف الانجليزية التي لا يرضيها غير هذا الأسلوب ، اتقان وحض الحجة والبرهان بالبرهان .

ثم يواكب قلم العقاد الاحداث اليومية في السياسة المصرية ، فتحدث الافتتاحية عن دعوة « الحكومة القومية » وتتوالى مقالاته تحمل عناوين مختلفة منها :

« مناظر متفرقة

من فصول البئر الصبغانية

مهزلة الوزارة القومية (١) »

ثم يتابع تأييده للوند فيكتب بعنوان :

الوند السالد (٢) .

مبينا ومعربا عن تأييده على الرغم من اشتقاق الاعضاء الثمانية على الوند .

بواصل بعنوان :

خذلهم الدعاوى

حتى الدعاوى الشخصية (٣)

وحدث بعد فصل الاعضاء الثمانية أن أظهر محمد محمود باشا والاحرار الدستوريون تأييدهم لهم ، فاقام لهم حفلة تكريم وأبدى تضامنه . تصاهن الاحرار الدستوريين منهم . وهنا كتب العقاد محلا مومع الاحرار الدستوريين في مقال بعنوان :

ارضاء الوزارة وتأييد المفصلين شيء واحد (٤)

(١) الجهاد : يوم ٢ من ديسمبر ١٩٣٢ العدد .

(٢) الجهاد : يوم ٤ من ديسمبر ١٩٣٢ .

(٣) الجهاد : يوم ٥ من ديسمبر ١٩٣٢ .

(٤) الجهاد : يوم ٦ من ديسمبر ١٩٣٢ .

ثم يصدر الغرابلي بأشأ بياناً عن المنشقين ويصدر مكرم عبيد بياناً عن الوفد . وهنا يكتب العقاد مواصلاً حملته على المنشقين :

بعد البيان

بيان الغرابلي بأشأ الاستاذ مكرم عبيد (١)

وفي هذه الاثناء توفي فتح الله بركات بأشأ على اثر مرضه ويكتب العقاد مقالا يواصل حملته على السبعة الباقين بعنوان :

نقصوا واحدا (٢)

وقيل ذلك كتب مقالا بطريقته الساخرة جمل عنوانه :

« بركة الثمانية ! » (٣)

ويكتب عن زعيم الوفد مرمبا عن الأسباب التي يستند اليها في تأييد الرئيس الجديد إبان تلك الفترة لخرجة التي مر بها الوفد فيقول تحت عنوان :

زعامة النحاس بأشأ

هي القضية المصرية

كلمة بكلمة وخرفا بحرف (٤)

« لقد أيننا رئيسنا الأمين في مواقفه الصريحة الحكيمة كما أبدته مصر بأسرها لأننا نظرنا إلى دعاوى الانجليز زعامته وزعامة سعد من قبله هذه النظرة المستقيمة التي لا تحتاج إلى تأمل ولا طول دراسة وما أيننا لأمر بعينه هو ، أو يتلحق بذاته ، ولكننا أينناه لأن الزعامة تولى مسألة الاستقلال ومسألة الدستور ومسألة الثقة بالنفس الغيرة والكرامة » .

* * *

وخلال هذه الفترة وقعت حوادث مشهورة باسم حوادث البدارى وكانت هذه الحوادث صورة من صور الاستبداد من جانب الإدارة في عهد صدقي بالشعب وبالفلاحين على وجه التخصيص . ووصلت قضية

(١) للجهاد : يوم ١٢ من ديسمبر ١٩٣٢ .

(٢) للجهاد : يوم ١٣ من ديسمبر ١٩٣٢ .

(٣) للجهاد : يوم ٢٣ من نوفمبر ١٩٣٢ .

(٤) للجهاد : يوم ٢٢ من نوفمبر ١٩٣٢ .

البدارى الى محكمة النقض والادرام وكان يرأسها عيد المزييز فهمى . . .
وأصدرت محكمة النقض حكما أثبتت فيه اعتداء البوليس على الاهالى
ووصفت تصرف الحكومة بأنه « إجرام فى اجرام » . . . وأراد عيد الفتاح
يحيى أن يحقق فى حوادث التعتيب على ضوء هذا الحكم . . . ورفض صدقى
خضية أن يكشف التحقيق عن سائر تصرفات الحكومة نحو الاهالى . . .
فاستقال عيد الفتاح يحيى احتجاجا . . . وأعلن انه مستقيل ايضا من منصب
وكيل حزب الشعب !

وعنا وجد المقاد فى حوادث البدراوى فرصة لشن حملة جديدة
تضاف الى حملاته على استبداد حكومة صدقى ويبدأ هذه الحملة بمقال
جمل عنوانه :

فظائع القرون الوسطى

أين نحن ؟ وأين أعداء القوضى فى الادارة المصرية (١)

ويستمر فى حملته بمقالات متواصلة جمل عناوينها هكذا :

الادارة التى يؤيدها الاستعمار

لا تكون الا على هذا المثال (٢)

وايضا :

تخفيف الحكم لا يكفى

فى قضية مأمور البدارى (٣)

ثم بطريقته الساخرة التى تنتفض مرارة الماء من أجل الفلاحين :

لماذا التحقيق ؟

وما هى النتيجة المطلوبة ؟ (٤) .

ويبين علاقة الانجليز بحوادث البدارى فى هذا المقال :

حادثة البدارى

والف حادثة مثلها

(١) الجهاد : يوم ١٩ من ديسمبر ١٩٢٢ .

(٢) الجهاد : يوم ٢٠ من ديسمبر ١٩٢٢ .

(٣) الجهاد : يوم ٢١ من ديسمبر ١٩٢٢ .

(٤) الجهاد : يوم ٢٢ من ديسمبر ١٩٢٢ .

لأ تمنح المستعمرون أن يفاوضوا (١)

ويكشف بعد ذلك خفايا الاستبداد من جانب صدقي بالشعب ، ويذكر الناس بالحوادث الماثلة لحادث البدارى في مقال :

البدارى مثل واحد

من امثال كثيرة (٢)

وتستمر الحملة فيكتب بعنوان :

لأنة اصيلة

غابحتوا عن جذورما (٣)

وفي هذا المقال يحلل العقاد بأسلوب سياسى بارع تصيغه صيغة حزن عميق من أجل ما يلاتيه مواطنوه من استبداد وخسف ، ويكشف أسراراً جديدة تضيف الى مقالاته السابقة تنويراً بالتضحية وبعثاً لها في ضمير الرأي العام .

ويعود الى الحديث عن دور الانجليز في هذه الحوادث ومؤازرتهم لاستبداد صدقي بالشعب فيكتب :

تبعة تامة أكبر من كل تبعة

تلك هي تبعة الاستعمار البريطانى (٤)

ويستخدم الاسلوب الساخر بحدة في مقال :

اسلوب يبيع

لاحترام القوانين (٥)

ثم يختم حملته بعد البدارى بهذا المقال :

نتيجة منتظرة

هي النتيجة التي انتهت اليها مسالة البدارى (٦)

- (١) الجهاد : يوم ٢٣ من ديسمبر ١٩٣٢ .
- (٢) الجهاد : يوم ٢٥ من ديسمبر ١٩٣٢ .
- (٣) الجهاد : يوم ٢٧ من ديسمبر ١٩٣٢ .
- (٤) الجهاد : يوم ٢٨ من ديسمبر ١٩٣٢ .
- (٥) الجهاد : يوم ٢٩ من ديسمبر ١٩٣٢ .
- (٦) الجهاد : يوم ٣٠ من ديسمبر ١٩٣٢ .

ويمكن القول ان حوادث البدارى كشفت عن سلوك صدقى اثناء الانتخابات ذلك ان الشعب قاوم هذه الحكومة مقاومة عنيفة وكان للنحاس يجوب البلاد في رحلات تؤكد كرامة الشعب للحكومة ويسقط فيها القتلى عشرات ، وكانت محاولات الاغتيال لتجنح البلاد ، وحين فتح صدقى باب الانتخابات اعلنت الأحزاب مقاطعتها للمعركة ٠٠ ويورد الدكتور هيكل في مذكراته عريضة تصد أن يوقعها رجال القانون ترسم صورة صادقة للإجراءات التي اتخذها صدقى في ذلك الحين ٠ وهذا بعض ما جاء فيها : « ان وزارة حضرة صاحب الدولة اسماعيل صدقى باشا قد جرت في حكمها البلاد على طريقة يعافها القانون وتأيابها مبادئه وأصوله الأولية ٠ فهو لم يكنها ان لغت دستور مصر ٠٠٠ وان وضعت من تلقاء نفسها نظاما للحكم يسلب الأمة سيادتها ويجعل السلطة التنفيذية في الواقع مصدر السلطات في البلاد ٠٠ بل تجاوزت بعد ذلك كل قانون معروف في تصرفاتها لتفرض هذا النظام الذى استصدرته بوسائل عرفية ، مستهترة بكل ما كتلت القوانين للأفراد والجماعات من حقوق وحرىات ٠ عطلت حرية القول وحرية الرأى وحرية الصحافة وحرية الاجتماع وحرية التنقل في بلاد الدولة واكرهت الموظفين على أن يكونوا أدوات هذا التعطيل وهذا الإزدراء للمهين للقانون ، وغامرت بالروح المعنوية للبوليس والجيش بأن سخرتها لأغراضها العرفية ولحاربة النظام والقانون ٠٠ ثم أنها تدفع رجال الإدارة جميعا كى يقولوا ، اثناء الحركة الانتخابية التي تحاول اكرا هالفاس على الاشتراك فيها ، بكل ما يحقق أغراضها وما يخالف القانون في سبيل غاياتها ، بل بارتكاب الجرائم في سبيل هذه الغايات (١) » ٠

وشاهدت الديمقراطية في مصر اعتداء صارخا عندما أعلن صدقى إنه فاز في الانتخابات وأن الذين اشتركوا في الانتخاب بلغت نسبتهم الخوية الى مجموع الناخبين ٧/٨ ٦٧ في المائة وهي بالفعل نسبة عالية لو أنها كانت صحيحة ! لكن أحدا ممن شاهدوا يوم الانتخاب ، لم يستطع أن يصدق هذا الرقم ، رغم أنه الرقم الرسمى الذى ظلت الحكومة متشببة (٢) بصحته ، ولقد كشف القضاء عن تسامح صدقى مع موظفى الإدارة في معاملتهم الناس غاية في البطش حيث تخطى العنف الى التعذيب في اقتبح صور التعذيب ٠

وكشفت حملة العقاد المعنيفة هذه الحقائق اتفق عليها جميع المصريين ، وإنها وصمت عهد صدقى اقتبح وصمة ٠

(١) هيكل : مذكرات في السياسة المصرية ج ١ ص ٢٤٤ ٠

(٢) الدكتور هيكل : نفس المرجع ص ٣٤٥ ٠

ونزعم هنا أن حملة العقاد بشأن حوادث البدارى لم تكن لنزعها
سياسية قائمة بنفسه وتعارض حكومة معادية للوفد ، ذلك أن كلمة
المصريين جميعا اتفقت على أن استبداد رجال الادارة بالشعب وصمة
تصنع عهد صدقى أفتح وصمة ، وكان عبد العزيز فهمى أحد زعماء الاحرار
الدستوريين قد ساهم في كشف هذه الحقائق عندما أصدر حكمه مدعما
بجيتيات وصمت عهد صدقى كله أفتح وصمة ٠٠ وحملت صف الوغد
وصحف الاحرار الدستوريين على صدقى وعلى رجال الادارة ، مما يجعلنا
نقول أن حوادث البدارى كانت من الحوادث التى التقت عليها تلووب
الصوريين ، وكان دفاع العقاد عن الشعب ضد صدقى جنوحا منه الى
القضية الوطنية والى الشعب الذى دافع عنه طيلة حياته ٠

وشامت فترة كفاح العقاد الصحفية بجريدة الجهاد لقضاء انجلترا
لمثلها في مصر سير برس لوين في أغسطس سنة ١٩٢٣ اى قبيل استقالة
اسماعيل صدقى في سبتمبر ١٩٢٣ ، وانتخب حزب الشعب عبد الفتاح يحيى
رئيسا له ٠ واستمر البرلمان الذى ايد اسماعيل صدقى مؤيدا للرئيس
الجديد ، وكان ذلك ايذانا بأن الحكم اصبح خالصا للقصر وهنا يطلق
الانجليز المعركة بين القصر والشعب ، وينتظرون كيف تسير ٠ وقد استمر
العقاد في الجهاد يكشف عن دور الانجليز في هذا كله ويكشف للشعب
الحقائق التى تساعده على اختيار طريقه من بعده ٠

الفصل الرابع

العقاد والوفد

• صدرت روز اليوسف اليومية وعدية عام ١٩٣٥ . ثم ما لبثت أن اختلعت مع الوفد فاصدر قرارا بقطع الصلة بينها وبينه في اواخر العام نفسه ، وحاربها بعنف بسبب موقفها المعارض من حكومة توفيق نسيم التي كان الوفد يهادنها لما وعدت به من اعادة دستور ١٩٢٣ ، ولما كان متوقعا أن يترتب على ذلك من عودة الوفد الى الحكم .

اصيبت الجريدة باضطراب احوالها مما ادى الى جعلها لا تصدر بانتظام فاصدرت حكومة الوفد قرارا بالغاء رخصتها في منتصف عام ١٩٣٧ . وقد امتازت بتجديداتها في التحرير والاخراج .

وتذكر السيدة فاطمة اليوسف في مذكراتها أنها فكرت في مهتل تنفيذ فكرة اصدار الصحيفة اليومية في أن تضم العقاد الى اسرة الجريدة ، وذهب اليه رسول يستطلع رايه . . . وسأل العقاد :

• – الجرنال حيكون اسمه ايه ؟

• – روز اليوسف اليومية .

• – لا . . . أنا لا أعمل في جرنال يحمل اسم واحدة ست !!

ولكن الرسول لم يياس من هذا الموقف فمضى يفارضة . . . وعسدل العقاد عن موقفه نظير بعض الشروط المالية : ان يكون مرتبه ٨٠ جنيها في الشهر – وكان مرتبه في الجهاد ٧٠ – وان يأخذ مرتب اربعة شهور مقدما تخضم من مرتبه بالتقسيط – ٣٠ جنيها كل شهر – وان تكون سياسة الجريدة وضحية .

• واشترطت عليه صاحبة الجريدة ان يكتب مقالا افتتاحيا كل يوم ، وصنعة ادبية كل اسبوع . . .

• وتذكر السيدة فاطمة اليوسف انها عاتبت العقاد بعد ذلك على كلمته عن العمل في جريدة تحمل اسم سيدة ، فقال انه لم يقصد الى كونها تحمل اسم سيدة ، بل كان اعترضه على تسمية الجريدة باسم شخص ايا كان . . .

ولو كانت الجريدة تحمل اسم سعد زغلول نفسه لایدی نفس الملاحظة .
وعد ضمت « روز اليوسف اليومية » مجموعة بارزة من المحررين إلى
جانبا العقاد منهم الدكتور محمود عزمى والدكتور محمد ابو طاييه والدكتور
رياض شمس وكامل الشناوى وغيرهم . .

وتذكر السيدة فاطمة اليوسف ان الجريدة الناشئة لاقت من عنت الوفد
الكثير على الرء من مساندتها اياه فى اول الامر فرفض النحاس ان يرسل
كلمة يصدر بها العدد الاول رغم ان كاتب الجريدة الاول هو كاتب الوفد
الاول « عباس العقاد » .

وارادوا ان يستعصوا عن ذلك ، فاختاروا يبحثون عن كلمة ماثورة
يجعلونها شعارا للجريدة . . ولاحظ العقاد ان النحاس - ع - عكس سعد
زغلول مثلا - لم تشتهر عنه كلمات ماثورة . . واخيرا اختاروا قوله : « من
كذب بالامة او دخله فيها الشك فليس منها (١) » . .

وكانت الافتتاحية التى يكتبها العقاد تحتل الصفحة الاولى من الجريدة
. . ولكن حدث ان وضعوا فى اسفل الصفحة الاولى من العدد الاول فى برور
صغير كلمة تقول : « ابدا بقراءة الصفحة الثانية » وهى الصفحة التى تحتوى
على الاخبار السياسية الداخلية الهامة وعلى كلمة السيدة فاطمة اليوسف
وعلى مقال الدكتور محمود عزمى رئيس التحرير .

وتحدثنا صاحبة الجريدة ان العقاد غضب من هذا غضبا شديدا ، ورأى
ان فيه افتياتا على كرامته .

وكان من عادة العقاد ان يكتب مقاله الیومی فى البيت ويتركه فى
الجريدة صباحا ويترك للاستاذ كامل الشناوى مهمة مراجعته . . ثم يعود
ليلا ليلقى عليه بنفسه نظرة اخيرة . . كذلك كان يهتم بقراءة مقال الدكتور
عزمى رئيس التحرير - ولو بغير علمه - اذ كان يعتقد ان عزمى غير وفدى .
وانه ربما وضع فى مقاله كلمة تنسئ الى الوفدين من قريب او بعيد(٢) .

وتشن روز اليوسف اليومية حملات على وزارة توفيق نسيم التى يؤيدها
الوفد ، وكانت روز اليوسف اليومية ان تكون الصحيفة الوحيدة التى ترفض
ان تهادن توفيق نسيم بعد ان ظهرت نواياه . .

(١) فاطمة اليوسف : ذكريات ص ١٥٦ .

(٢) المرجع السابق ص ١٦٦ .

ريشن المعتاد في روز اليوسف اليومية حملة شديدة على نجيب الهلالي وزير المعارف الذي لم يكن في تاريخه القديم وفديا ولكنسه لم يكذب يدخل وزارة توفيق نسيم حتي عرف انه تقرب من الوفديين حتي صار صديقا لهم .. ومن أبرز مراحل حملة المعتاد سلسلة متصلة من المقالات بعنوان :

وزير المعارف يحلم *

شغلت افتتاحيات « روز اليوسف اليومية » اياما كثيرة .. *

كتب المعتاد في احدى هذه المقالات يقول *

« كان وجود نجيب الهلالي بك في الوزارة دليلا عنقنا على أن الدستور لن يعود الى مصر قبل سنتين ، الا اذا حدث ما يبجل النيات غير النيات » *

« ولسنا نعتني تاريخ صاحبنا في ماضيه واعماله المهدودة ايام الوزارات الرجعية ولكننا نعتني أن مجرد قبوله الوزارة دليل على علمه ببقاء الوزارة أو بقاءه هو في المركز الوزاري سنتين على أقل تقدير ، لا سيما وهو متصل ببعض الانجليز في دار النحوب السامي » فهذا الموظف كان في منصب دائم مضمون وهو منصب المستشار الملكي ، وهذا الموظف شهاب لم يبلغ سن المائتين ولم تمض عليه في خدمة الحكومة مدة كافية ، للوصول الى معاش يرضيه .. فلماذا يجازف بخدمته كلها ليعتزل العمل بضعة اشهر ؟ *

« أهو من رجال المجازفات في ماضيه ؟ *

« كلا .. بل هو على نقض رجال المجازفات » *

« أهو ممن يعولون على زعامة في الحياة القومية او الحياة الحزبية سواء في ميدان السياسة او ميدان المشروعات العامة ! *

« كلا .. ولو خرج للزعامة القومية او الحزبية بمعترك الحياة لما ظفر منها بنصيب » *

ثم يقول في مقال آخر :

« .. والان يحلم صاحب العزة برئاسة الوزارة المقبلة أو بوزارة مقبلة غير بعيدة » وصاحب العزة الوزير الحبيب يعلم أن من يطعم في رئاسة الوزارة لا غنى له عن رضى الانجليز .. فاذا سار الوزير الحبيب سيرته في تعيين الموظفين الانجليز وتثبيت الموظفين الانجليز ، ومحاربة *

الموظفين الانجليز ، وتعميم الصبغة الانجليزية على الطريقة الدبلوماسية في الجامعة والمدارس المالية والمدارس الثانوية . فلماذا لا يكون رئيسا للوزارة المقبلة او لوزارة اخرى تطلع على البلد بتجربة جديدة من التجارب التي لا مكان فيها للدستور ١٩٢٣ على اقل تقدير ؟ »

وتحقققت نبوءة العقاد بالفعل . فراس نجيب الهاللي وزارة لاجسراء تجريبه لا مكان فيها للدستور ، بعد نشر هذا الكلام بثمانية عشر عاما . . . اي في اوائل عام ١٩٥٢ .

وبعد ان خرج العقاد على الوند مضى في حملته على هذا المستوى من العنف وكان ذلك سببا في ان قرر الوند فصل « روز اليوسف » وترغم مكرم عبيد الحملة عليها واوز الى الجهاد جريدة الوند بمهاجمة روز اليوسف ، وذهب الاشتياك بين العقاد وتوفيق دياب الى بعد الحدود . فنشر توفيق دياب ان العقاد مصاب « بالبارانويا » والجنون .

وتذكر السيدة فاطمة اليوسف ان العقاد دخل عليهم ذات ليلة وعو بهد صانحا : سوف اقضى على توفيق دياب :

« وتجمع حوله منسائلين ، ونظرنا اليه متوثبين ، واستطرد مسو يقول : لدى مستندات خطيرة جدا ، سوف يكون في نشرها القضاء عليه . .

« وطينا منه ان يطلعنا على المستندات فرفض . وقال انها سرية جدا . وانه يريد ان يذهب بها احد موظفي الجريدة الى محل زنكغراف ليصورها ويعيدها اليه . . . ورضخنا لرغبته وتفرقنا عنه واستدعي اليه ابراهيم خليل واعطاه المستندات الخطيرة في مطروف مغلق ، لكي يذهب بها الى محل الزنكغراف ، وخرج ابراهيم خليل ، وقبل ان يبرح الادارة استبد به الشغف لكي يطلع على هذه المستندات الخطيرة جدا ففتح المظروف في حجرة ثانية . . . ورأى المستندات فوق داهلا . . . ونادى على فذهبت اليه. وناديت انا على كامل الشناوى . . . وتجهنا في الحجرة نتأمل المستندات الخطيرة جدا ونحن نكاد ننفجر من الضحك .

« وكانت المستندات تثبت ان الاستاذ دياب لم يكن يدفع للعقاد مرتبه في مواعيده حين كان يعمل معه في « الجهاد » ! اى انها تثبت ان الجهاد لم يكن في حالة مالية حسنة ! ومو - كما ترى امر غير خطير . . . وليس فيه ما يشين الاستاذ دياب في شئ . فقد جرت عادة أغلب الصحف على ان تتأخر في دفع مرتبات موظفيها ، ولكن العقاد - وله تلب طيب

حسب انهما مستندات خطيرة • وكنا حريصين على الا نغضبه ، فجاريناه في نشرهما ، وكنا نتظاهر امامه باهتمامنا بها ، فاذا تولى عنا انظقتنا - بزعامه كامل الشاوى - ضاحكين (١) •

وفي الواقع ان هذا الامر من العقاد لم يكن ليثير هذا الضحك اذا علمنا ان توفيق دياب كتب مقالا في الجهاد من بين حملته على العقاد ، يعيره بعمله في الجهاد ، يقول فيه : (٢)

« فلما خرج العقاد من السجن كانت عقيدتنا هي التي نشرت له ما نثر وما نظم في تلطف وعطف شديد عرضت عليه مائة جنيه في الشهر ••• ويعلم الله كم كان هذا العرض فادحا لو تبيله الاستاذ لاقتل ميزانية الجريدة وانما اردت به التضحية للكاتب مهما يكن اسباب سجنه فقد كان احسد كتاب الوطن •

« وشكرنى العقاد وطلب الى تاجيل جوابه يومين او ثلاثة رأى في خلالها ان يتعاطد مع جريدة اخرى هي جريدة مصر •

« فلما سئل كيف أثر « مصر » على « الجهاد » أجاب بأنه يريد ان يكون على رأس جريدة يقول لصاحبها « مات فهو » فيحطها اليه بنفسه دون امتعاض ، فقد كان ذلك لسان العقاد ، ولسانه بسذى اذاع حتى لأولياء نعمته •

« ولكن العقاد كما يزعم ، فاذا شئت فهو جبار الحقد ، جبار الحسد لكل نعمة يرى ظواهرها على مخلوق ، وانقضت السنة شهر ، ثم لزم العقاد بيتشه يفكر وينعى مصيره على الدنيا وعلى الوجود وعلى جهل الامة بمقداره وتنكر ما لآثاره حتى تعرض عن جريدة هو رأسها المدير - اى مولها الذمير - فكان يهذى في المجالس بالسخط على الوطنية الوفدية والوفديين وكان وجود العقاد كدمه في الجهاد فلم يزد ذبوعها نسخة واحدة ، ومما يروى انه بينما كان داخلا الى دار الجهاد ذات ليلة وقع نظره على جمع من عمال الصف الجالسين وكان من سوء حظهم انهم لم ينفذوا الى وصول العظيم الجبار والصنديد الغوار امير الشعراء ، وشيخ الخفراء عباسيا العقاد فلم ينهضوا واقفين ، فوقف على الاقريز وصاح بهم صيحة افزعت اليه محررى الجهاد •

(١) فاطمة اليوسف : ذكريات ص ١٨٥ - ١٨٦ •

(٢) الجهاد : يوم ٢٤ من سبتمبر ١٩٢٥ •

« كيف تظنون جالسين والعقاد يقترب منكم ايها الكلاب ، فلماذا
قالوا له انهم لا يعرفونه . قال : او في مصر من لا يعرف العقاد ايها
الحمقى الجاهلون . وطلب فصلهم جميعا » .

* * *

ولم يكن امام العقاد الا ان يواجه الحملة بحملة مماثلة ، ويرد الهجوم
ببسلح مماثل فكتب العقاد تحت عنوان :

الفضائح الدامغة للمهجر السياسي الجبال (١)

« كتبت لى وبالكزى ما كتبت : يخنوك العيش والمخ يا استاذ
يا عظيم ، عيش الجهاد لا عيش ، سموات ، كان عملى فى الجهاد فضلا
لصاحب الجهاد فى عنتى ويعبرنى به الان لاننى كنت فيه عالة لا تمرد
عليه بخير .

لقد كان توفيق دياب يجلس فى مكتبه وفى بيته بلا عمل
فى التحرير ولا فى الادارة غير قبض الاموال والبحث عن ضيعة يقتنيها
او عقار يشتريه . وكان الاسبوع بعد الاسبوع والشهر بعد الشهر
وينتضى قبل ان يكلف نفسه كتابة مقال من ذلك الهراء الذى تسود
به الصحف ، ولا يعمل هو ولا يعمل احد ماذا يعنيه . اما الصحيفة فما
كان وجود عليها بدرهم فى تحسين لازم او زيادة ضرورية ما دام قادرا على
الكسب وجمع الاموال وشراء الضياع .

وقد سجن صاحب الجهاد فلم ينقطع عن العمل غير اسبوع واحد فى السنة
مع الحاجة القاهرة الى الراحة والعلاج والرياضة مبالغه حتى فى العناية
بالصحيفة فى غيبة صاحبها .

« وانما تركت الجهاد لم يستطع صاحبه ان يعوض عملى فيه بأقل
من سبعة او ثمانية من الكتاب الدائمين او التطوعين .

« تلك هى فائدة الجهاد منى فماذا كانت فائدتى انا من الجهاد مرتب
لا يساوى عشر ما كان يكسبه توفيق دياب فى الشهر الواحد علنا ولا عشر
ما كان يكسبه سرامن مصادر السحب الموهودة .

« وسيدعش القراء بالغ الدهشة اذ يعلمون انه - حتى هذا المرتب -

(١) روز اليوسف اليومية : يوم ٢٥ من سبتمبر ١٩٣٥ .

لم يكن استوفيت في كل شهر الا مشطاً مملوفاً مؤجلاً من وعد الى الوعد
ويجئ بعد يمين حتى لا انتقم به ولا ادري كيف اعول عليه لاننى لا اعرف
متى ياتي وكيف يكون حسابه عند الحاجة اليه .

« ولو ان مضم الحقوق واختلاس الاجور والاكتار من المواعيد والانسام
التي برع فيها واستهلكها كما برع فيها اجمعون كان اضطرابا تقضى به على
الناس وسمح الموردين له عذر مقبول .

« ولكنه يماطل ويسوف ويتشمس ويأكل حق الضعفاء والكاتب في اليوم
الذي يعتمد فيه صفته بالآلاف الجنيهات على شراء ضيعة كبيرة يتفق على
شراؤها مع عبد الفتاح يحيى ويكتننها بعد ذلك باسم زوجته .

« بل في الشهر الذي ما طئنى في دفع مرتبتي وانا ذاهب الى رأس النهر
التواضع التماساً للراحة القليلة والاستجمام اليسير - كان هو يستأجر
في الاسكندرية قصراً من قصور بولكي باريمانة جنبه في أشهر الصيف
ويستأجر سائساً (جرماً) يركب الى جانب السائق ليبادر الى النزول
عند وقوف السيارة كي لا ينتج اليك باب السيارة بيده الشريفة ولا ينتظر
السائق حتى ينزل اليه .

وعلى هذا النحو يفهم الرجل الشريف تجارة الصحافة وتجارة الوطنية
وتجارة الاخلاق ويطن في اخلاق العفاد لان عمله في الجهاد لم يكن الا مروة
مضاعفة من الاخلاص للعمل والقناعة بما دون حقه والصبر على مكاره الغبن
لخسيس والوفاء لمن لا يستحق الوفاء » .

* * *

وفي الواقع لقد كشفت هذه المعركة الصحفية ، التي دارت بين توفيق
دياب في الجهاد من جهة ، وبين العقاد في روز اليوسف اليومية من جهة
أخرى ، حقيقة الصراع في ميدان الصحافة من الباب الخلفي ايضاً ، كيف كان
يمكن للصحفي الوطني المجاهد في سبيل القضية الوطنية أن يواجهه
وجود اصحاب الصحف الذين يتاجرون بالقضية على حساب الوطن ،
مستغلين في سبيل ذلك جهد الوطنيين الشرفاء الذين كل مهمهم هو النذر
الذي من خلاله يمكنهم مواصلة الكفاح . .

هذه هي المعادلة الصعبة التي كان على كل صحفي مصري مجاهد ان
يحلها في عمله بالصحافة السياسية خلال عهد الاحزاب ، وقد خرج العقاد
من سجنه في عام ١٩٣١ ويعرض عليه صاحب الجهاد ان يعمل بصحيفته ،

نيقبل العقاد ، وتسوء المعاملة المالجية . لأن أصحاب الصحف يريدون الضياع والقصور ويخجلون على الصحفية بما يبنى نفقاتها ، وتنتهى اسمه بانتقال العقاد الى صحيفة اخرى ، فماذا يسوء صاحب الجهاد بن ورا: ذلك : غيشت حملة تنأى به عن اصول شرف المهنة ويعميره بعمله في صحيفته. وفي الواقع اياكان تقدير هذه الحملة من الطرفين ، الا انها كشفت عن حقيرة الصحافة من واجهتها الخلفية .

ونعني لكيواجهة الصحافة الخلفية مقومات الصحفية المادية التي تعتمد عليها في القيام بتكاليفها . وصحيفة الجهاد التي تتحدث باسم الوفد تحظى برضاء سكرتيره مكرم عبيد صاحب الكلمة العليا في الوفد ، وعسا نجد ان اساس المعركة التي دارت بين العقاد في « روز اليوسف اليومية » وبين صاحب « الجهاد » تخمن في المصلحة التي بين مكرم عبيد وصاحب الجهاد الذي يعطي العقاد مرتبه على دفعات ويبالغ عندما يزعم انه كان يعطي مئمانين جنيهها مشاعرة والوثائق التي نشرها العقاد في « روز اليوسف اليومية » تثبت مدى صدق دعوى العقاد . وتكشف عن العناء الذي كانت تكبده الصحف الوطنية .

ونقدم لقارىء « افتتاحية للعقاد شغلت معظم الصفحة الاولى ونصف الصفحة الثالثة من « روز اليوسف اليومية » تكشف لنا حقائق عن الوفد وعن الخط الوطني الصريح الذي سبده في ثورة ١٩١٩ ٠٠ كتب العقاد هذا المقال اثر اعلان الوفد فصله لصحيفة روز اليوسف اليومية ، واحتسد هذا الهجوم ويأخذ العقاد موقف الدفاع في روز اليوسف اليومية ، وكانت الحرب الايطالية الحبشية في ذلك الوقت على الابواب ، ولوحت انجلترا في تصريحات المسئولين فيها بان مصر ستكون « في حمايتها » طوال مدة الحرب التي توشك على الاشتعال وكان موقف الجهاد مائعا من هذه القضية ٠٠ ونشر مرة يقول : « عكذا شاعت سياسة الاحتلال ان تظل مصر في حاجة الى حماية القوم حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين » ، واتخذ العقاد من هذه العبارة مجالا لحمالات عنيفة على الجهاد .

ثم تنشر الجهاد كلمة بامضاء محام اسمه « ولیم بطرس الديويني » يقول فيها انه « رأى السيدة روز اليوسف والدكتور محمود عزمي يجلسان مع احمد عبيد باشا في فندق مينا هاوس يتهايمسون ، وقد أمسك عزمي ورقة وقلم ، وتذكر السيدة روز اليوسف في مذكراتها ان هذا اللقاء لم يحدث قط . ولكن الجهاد ارادت بنشره ان تقول ان روز اليوسف تأخذ مالا من عبيد (١) . »

(١) غاطمة اليوسف : ذكريات ص ١٨٦ .

« ولييم الكذاب » (١)

كان المقال كله حملة عنيفة على «وليم الدوينى» صاحب النبا الملقق .
ولكن مكرم عبيد ثار ثورة مائلة ، اذ رأى فيه وفى عنوانه بالذات تلميحاً
الى شخصه هو . . . اذ كان مكرم عبيد يحمل لقب ثورة ١٩١٩ اسم ولييم ثم تنازل
عنه حين شبت الثورة . وثارت لثورة مكرم الدواشر الوفدية ، اذ كيف
تطمعن جريدة وفدية في سكرتير الوفد او تعرض به على هذا النحو ؟

وتذكر السيدة روز اليوسف أن هذا كان السبب المباشر الذى دعا الوفد
الى فصل للصحيفة اليومية ، وعرضت حول كثيرة لتسوية الموقف منها
اخراج محمود عزمى من الجريدة بوصفه صاحب المقال ، ولكن صاحبة
الصحيفة رفضت هذا العرض بعد أن أبدى الدكتور عزمى استعداداه لتترك
الجريدة اذا كان في ذلك ما ينهى الأزمة ، ثم تضامن الدكتور عزمى مع العقاد
على مؤازرة الصحيفة وصاحبيتها في هذا الموقف ، فما لبث الوفد ان أصدر
بيانه في ٢٨ سبتمبر ١٩٣٥ بان « هذه الجريدة لا تمثل الوفد في شئ ولا
صلة لها به » .

ونترك مقال العقاد يصف لنا الحقائق وراء هذه الوقائع :

الرئيس الجليل « مكرم عبيد »

يسوق البلاد بدساتمه الى هاوية الخراب

السر ان طال احتجاجه فلا بد له من ظهور (٢)

« لا يزال الاستاذ مكرم عبيد يتهاك بكل ما عنده من حيلة وطمع
ودسيسة على شئ واحد ، وهو أن يوقع في اذهان الانجليز أنه هو القابض
على ناصية الوفد والمسيطر على ارادة رئيسه وأعضائه من ورائه . فاذا
حسبوا له حسابيه فلا ضير عليهم بعد ذلك أن يهملوا حساب كل انسان وفي
مقدمتهم الرئيس »

يحرص الحرص كله على هذه الامنية ولا يتورع في سبيلها أن يجازف
بأكبر المصالح القومية كما يجازف بأصغر الأمور . ومساعيه الخفية في

(١) روز اليوسف اليومية : العدد ٢٠١ .

(٢) روز اليوسف اليومية : يوم ٢٥ من يناير ١٩٣٥ .

يرى منها الكثير لمن يعملون الكثير ، وأظهرها وأخطرها في الزمن الأخير تصرفه العجيب في مسألة الدستور قبل اجتماع الوزارة (يقصد وزارة توفيق نسيم) في شارع الهرم ، ذلك الاجتماع الذي وصفته الصحافة يومئذ بالاجتماع الخطير لما سينبئ عليه من مستقبل السياسة الوزارية ، وقد ينبئ عليه تحول في خطة الوفد وفي خطة الانجليز « والقراء » يذكرون أن ذلك الاجتماع انما كان مقودا لافضاء الوزراء الى أعضاء الوفد بما لديها من معلومات وحقائق عن المسألة الدستورية . وكان من الجائز أن يعدل الانجليز عن بعض عنادهم (إذا حسوا أن البلاد ستتقلب على الوزارة اصرارا منها على طلب الدستور ، وكان من الجائز كذلك أن تضاعف الوزارة جهودها إذا أحسست هذه العقبة الشوك فيها ، فإذا لم يكن هذا ولا ذلك جائزا على غرض من الفروض فالواجب على كل حال أن لا يعلن رأي الوفد قبل حصول الاجتماع وسماع ما يدور فيه والا كان انعقاده عبثا لا معنى له وفضولا لا خير فيه .

لكن كيف يعبر الأستاذ مكرم عبيد عن اعتقاد الانجليز أن للاعضاء الآخرين في الوفد رأيا يحسب له حساب ؟ كيف يترك عند الانجليز ذرة من الشك في قبضه وهو على ناصية الحال وسيطرته هو على جميع الاعضاء وتسخيرهم من ورائهم لجميع البلاد ؟

ذلك مستحيل . . . والفرصة سانحة لماورة يثبت فيها من جديد انه هو وحده « كل شئ » ولا شئ غيره يصح أن ينظروا اليه ، فجازف بالمستقبل الدستوري كله وبسمعة الوفد علانية ، وبكل امل في النتيجة المرقوبة . وقام في جلسة الجمعية العمومية للمحامين السابقة لاجتماع الهرم مباشرة يعلن اقتراحا يقول فيه أن المحامين المجتمعين الآن « يعمرون عن املهم القوى في ان تواصل الوزارة التسمية السمي لاعادة دستور الامة الصادر في سنة ١٩٢٣ اليها حتى تحيا البلاد الحياة الدستورية التي ترتضيها »

سكرتير الوفد يعلن في نقابة المحامين على الملا اجمع نتيجة الاجتماع الذي سينعقد بعد يوم . .

يعلن تأييد الوزارة وطلب الوفد منها ان تبتى في المناصب حتى تعيد الدستور ، ويلمح للانجليز من خلف الرؤوس تلميحاً هو التصريح بيمينه قائلا : « أرايتم من هو صاحب الراى في الوفد وفي البلاد ؟ اتصدقون بعد اليوم أن الاعضاء المؤقرين الذين يسرعون الى مواعيد الاجتماعات ويتناقشون هنالك في جد ورصانة يملكون أو يملك رئيسهم أن يتفصوا شيئا مما يريد تيل ذلك مكرم عبيد » .

ولقد فضح بفعلته الوفد كله ، وعيث بالمسألة الدستورية على هواه ، واستراح الى ما صنع ، لأنه يرى المآرب الذي يعنيه فوق جميع المآرب • وهو اقناع الانجليز بالاتجاه اليه وحده وثقله المبالاة بأحد من الناس غيره كائننا من كان •

* * *

« ولا بد للاستاذ مكرم عبيد من السيطرة على الصحافة الوفدية بغير شرك ولا منازع حتى يتسنى له السيطرة على الرأي العام واقناع الانجليز بقدرته على توجيه السياسة العامة حيث يشاء •

وهو يستفيد من ذلك فائدة أخرى لا تقل عن الفائدة الأولى في نظره وهي الاعلان عن حركاته وسكنته وقضاياهم ومساعيهم ، ولتمهيد للاضرار بالناس عن طريق التشهير او الظهور بهم من طريق التحبيب والتبشير •

ولهذا لا يطيق هذا الرجل صحيفة واحدة ونوعية تحيا في البلاد ما لم تكن طوع يديه ورهينة امره في كل كلمة وإشارة • ولهذا تولي حماسة « الجهاد » كما تولي حمايته لسبب غير ذلك السبب ، ونعني الحساد المشهور بين صاحبه وبين الدكتور ماهر والحادث الذي لا يعرفه القليلون قبل ذلك بين صاحبه والاستاذ الفقراشي ••

فلا ينبغي أن يعلم أحد من الصحفيين ولا أن يعلم الانجليز خاصة أن احدا من اعضاء الوفد بهم الصحفيين رضاه وفضله ما داموا في حماسة الاستاذ •• الرئيس الجليل •

* * *

« سيقول الماجورون والأفئاب كثيرا عن سبب القرار الأخير الذي حفز الوفد الى التفخ في النفي العام والهولة بالقطار السريع من الاسكندرية الى القاهرة يجتمع ويتباحث ويعلن بعد الاجتماع والبحث ان « صحيفة روز اليوسف لا تمثل الوفد ولا صلة لها به » ••

سيقول الماجورون والأفئاب كثيرا ويجدون من يقول ، لأن السادة الذين يخدمونهم يشملون في صف واحد الدولة البريطانية والوزارة النسيجية والاستاذ •• الرئيس الجليل مكرم عبيد •

سيقول الماجورون والأفئاب كثيرا ولكننا نسرد لهم الحقائق فيعلمون ان الماجورين مآجورون وأن الأفئاب أفئاب ، وأن صحيفة روز اليوسف لم

ترض الوفد لانها لم ترض الاستاذ مكرم عبيد ، وانها ما كانت لترضى لمكرم
نعميد الا لا بحالة واحدة دون سواها ، وهي الا تظهر يتاتا في عالم الوجود ،
والا تحيا لتكون لكتابتها حرية يتولون بها خلاف ما يطليه عليهم ، وتكون
حياتها على اطلال « الجهاد دليلا يفهم منه الانجليز ويفهم منه الصحفيون
أن الاستاذ « الرئيس الجليل » لا يحير ولا يجيب .

* * *

« فقبل أن تظهر صحيفة « روز اليوسف » فكر بضعة عشر عضوا من
الوفد والهيئة الوفدية في الاكتتاب لانشاء صحيفة تعبر عن الوفد وتريحه
من سمنة المرتزقة بالصحافة . فكروا في ذلك على اثر حادث المؤتمر وقرروا
الاكتتاب بعشرة الاف جنيه وخاطبوا النحاس باشا أولا فقبل وبدأ عليه
السرور ثم عادوا اليه فماذا كان ؟

كان أن الأستاذ . . . الرئيس الجليل « أدخل في روح النحاس باشا
أن المسألة من بدايتها الى نهايتها مكيدة من بعض منافسيه الطامحين الى
الرئاسة . . . بدأوا بحادث المؤتمر وشفعوا بالاكتتاب ، وسيفشعونها
غدا بالدعاية لرئيس غير النحاس والاشراف على الراى العام من غير طريق
للزعامة . . .

« فصحق النحاس باشا لانه يصدق ان مكرها لا ينافسه ولا يخلط الى
الرئاسة الوفدية ولا الى الرئاسة الوزارية ، ولكن الآخرين قد ينافسون ،
ولما جاء رسول المكنئين بخاطبه في التفصيلات اذا به يتهم ويتبرم
ويصيح به « ما دامت عندكم فلوس فلماذا لا تتبرعون بها لخزانة الوفد ؟ »
وعلى ذلك اسحل الستار

واتفق ان شاعت الاخبار بقرب ظهور هذه الصحيفة على اثر ما تقدم
فسرعان ما تناول صاحبنا اذن النحاس باشا وقال له : ارايت انهم
المسيمة القديمة تبرز في ثوب جديد . . . انه الاصرار بعينه . . . انه تبييت
النية على الجريمة . . . والعقاد الذي كان سيكتب في الصحيفة المطلوبة هو
الذي سيكتب في الصحيفة الجديدة . . . ومن لك بضمان العقاد أن يقول ما
تريد كما تريد ؟ .

وحوربت الصحيفة قبل ظهورها بطريق مباشر وغير مباشر ، فقبل ان
يظهر العدد الاول منها اوعز الاستاذ « الرئيس الجليل » الى صاحب العزة
على سالم بك أن يتولى سياسة الجهاد تحصينا له في وجه هذه الصحيفة
التي لم تزل في عالم الغيب .

وكان ذلك كله خلال رحلة الصعيد . فارسلنا مندوبا خاصا لنسأ
يوافقنا بأخبار الرحلة عن كتب فتوبل أسسوا استقبال ، وأبى مكرم أن
يراجع معه الخطاب التي يلقيها النحاس باشا وهي على حسب العرف
لا ترسل ولا تنشر إلا إذا عرضت على السكرتير أما مندوب الجهاد
فكان يرسل الخطاب بمراجعة أو بغير مراجعة ولا تثريب عليه والغرض
من هذه المناورة المكشوفة أن يفهم الناس أن « الجهاد » وصاحبه مستقبل
يومئذ من الهيئة الوفدية - هو صحيفة الوفد المرعية دون الصحيفة الجديدة . . .
وإذا عجزت صحيفتنا عن نشر الخطاب بعد هذه الماكسات قال النحاس باشا :
« أرايت ؟ . . . ما هم أولاء يضرِبون عن نشر خطبك استخفافا وتمهيدا لما
كانت تمهد له الصحيفة الطوية » .

وتجاوزت هذه المناورة في التحيز الواضح فأرسلوا جواب النحاس باشا
إلى امام الليبين ردا على تهنتته بالمؤتمر الوطني إلى الجهاد وحجبه عن
هذه الصحيفة عامدين .

« ثم عاد النحاس باشا إلى القاهرة واستقبلناه في بيت الامة مرات
فهل سمع احد من حضرات القراء أنه فاه بكلمة ترحيب واحدة بهذه
الصحيفة قبل سبعة شهور من خلق العلل التي يتعللون بها الآن ؟ هل زارها
النحاس باشا كما يزور الملاعب والرافض وعلى الكسار ؟ هل زار المقاد في
عمله الجديد كما يزور « الوردة البيضاء » ست مرات أو سبعا في القاهرة
والاسكندرية وحيثما انتقلت بين مسارج القاهرة ؟

الجواب عند القراء

* * *

وجاءت مسألة « الخير الفني » ولزمت الصحافة الكرمية الصمت العميق
وحملتنا نحن حملتنا العنيفة على الكارثة التي قل نظيرها في تاريخنا
الحديث وهذا ما كانوا يخشونه من صحيفة لا يملى عليها الاستاذ « للرئيس
الجليل » . . . وهذا ما خاطبوني فيه يومئذ .

وطرا هنا سبب قوى للقضاء على الصحيفة التي يكتب فيها العقاد . .
فان الانجليز شكوا من حملاتنا وكرروا توجيه النظر إلينا ومطالبة الوزارة
بمعالجها وكيف يشكو الانجليز شيئا ولا يتكفل لهم بمعالجة الاستاذ مكرم
عبيد ؟

لقد ذكرت الصحف يومذاك ما ذكرت عن تلك الشكاية وتأهبنا نحن
للثاء الجزاء المبر بعد تبينيت وتدير .

« فلم يكذب ظننا فيما تأهبنا له من جزء . وما مضت فترة وحيرة
حتى نشرنا خبرا عنمناقلة سياسية عامة في شارع الهرم غمار الرئيس
الجليل أو قل ثار الرئيسان الجليلان . . . وطردوا مندوبنا من بيت الأمة
ومنعوه ان يتلقى اخبار الدار ، وتكلم الاستاذ مكرم عبيد مع صاحبة الصحيفة
مهيدا متوعدا فأحالتة على كاتب هذه السطور .

وكان سكوت ! . . .

ولكنهم لم يستطيعوا ان يتخذوا من الخبر البسيط تعة ، لفصل
صحيفة واصدار قرار وهرولة بالقطار أو بغير القطار . . . ولا سيما وهو خير
لو لم يعرفه الناس عنا لمعرفه من صحف أخرى ، ولا فائدة للوفد ولا للصحافة
الوفدية في أن تمتاز الصحف المادية علينا أو تستأثر بتقدير القراء .

ثم كانت مسألة وزير المعارف وحملتى عليه لعدائه الصريح للوفديين.
وتتفيذه سياسة داللوب في معاهد التعليم ، فظنوا الفرصة ملائمة ولكنهم
لم يصدقوا الرجاء ، ومرت هذه المسألة دون أن ينجح فيها الاستاذ الرئيس
الجليل . . . فهل يتركها تفوت وهو مستحث في تنفيذ الطلب الانجليزي لايعلم
متى تسنح بمسألة طريفة ؟ . . .

كلا ! بل جانا بعد انتهاء المسألة يامرنا . . . نعم يامرنا والا تحطمت
رؤوسنا أن نطن بأبدينا « أن الظنون تحوم حول هذه الصحيفة فنحن
لا نرى بدا من التصريح بما باننا وفديون نخضع للرئيس الجليل . . . »
اترا لكرم عبيد . . . الى آخر ما فرضوه وقرروه .

« فطنا سبحان الله . . . متى اتهم انسان نفسه بنفسه ؟ وما معنى ذلك
الا ان الشبهة تمكنت من النفوس حتى احتاجت منا الى المبادرة بالتفديد ؟
وما ضرورة ذلك والصحيفة تنشر انباء الوفد ورئيسه وتقرن عنوانها بكلمة
عن كلامه ؟ ما ضرورة ذلك الا قصد الاضرار والاعنات ؟

أبيننا أن نطعن انفسنا بأبدينا فهل يستريح مكرم عبيد ويدع الامور
تسير حيث تسير ؟

معاذ الدسية والوقيمة والتحريض والفرض المستور . بل جانا بعد
يومين اثنين بطلب جديد .

وماالطلب الجديد ؟

أن يخرج الأستاذ محمود عزمى على الفور ... لماذا ؟ هكذا ولا كلام !

قلنا : ولكن الصحيفة لاتستغنى عن محرر سياسى فى هذه الأزمة التى تناط بها الأنباء، الهامة جميعا بالدوائر السياسية العليا ونحن فى منافسة لا يفتقر فيها التقصير ! ...

لا يهم ... بل يخرج والسلام !

قلنا : هل عنذك من يعوضه فى عمله ؟ وهل تنسون حقوقه المسطورة فى المعتود ؟ وهل تنسون أن الرجل لا ذنب له وأنا لسنا بأطفال حتى نلقى التبعة عليه ونعجز عن حماية أنفسنا فيه ؟ وهل كان عزمى مأمونا فى الجهاد مع توفيق دياب فأصبح شخصا آخر فى هذه الصحيفة ؟

لا يهم ... بل يخرج والسلام !

ولو خرج عزمى لتتقدم مكرم فى اليوم التالى ليأخذه من يده إلى الجهاد ليقول ها عر الشريد قد عاد إليك تائبا فانتظر قليلا ريثما يجيئك العقاد !

كذلك صنع فى أمر الأستاذ عبد الرحمن نصر حن أوعز بإخراجه من صحيفة « روز اليوسف الأسبوعية » وأخذه بيده إلى صحيفة أسبوعية من طرازها ... ونال الأستاذ عبد الرحمن حكما بالتعويض لأنه « وفدى » مظلوم يستقبله الأستاذ مكرم فى بيت الأمة ... وقد تجنت عليه الصحيفة فأخرجته ظلما لأنها زعمت أنه يخالف فيما يكتبه المبادئ، الوفدية !

* * *

والآن وقد انتقضت جميع تلك المحاولات التى أريد بها الاضرار بنا هل يقطع الأستاذ الأريب عما نواه ؟

أبدا ...

بل يحرم مندوبنا فى الاسكندرية الخطب الرسمية حتى ما يصل إليه مزيد غيره ، ويظن أننا عالة على خطبه نسعى إليها زاحفين على الركب مستغفرين *

« ضاقت صدورنا بهذه اللجاجة الصببانية فى إبدائنا مرة بعد مرة وخلصنا للاشكال بعد الاشكال ، ونحن صابرون كاظمون »

فأجبنا أن يفهم الرجل أننا لسنا عبيدا له ولا عبيد للمسخرين فى يديها وحذفنا لقب المجاهد الكبير الذى لا نرى له مصداقا الا فى جهاده فى

السناس والتخريب ، رأينا أن ننشر له خطابا اذا وصل اليها في الموعد الذي يصل فيه الى صحف الصباح ، ونشرنا مقتبسات من إحدى خطبة « المرتجلة » على النحو الذي لابد منه ولا نشبع من الصغار ولا نفرط في لبانة وهي تسوم الناس أن يفرطوا في الكرامات والمبادئ والحقوق .

وهنا وقعت الواقعة والى القراء البيان .

افحص القراء أن سببا من الأسباب الهامة - حتى ما أشيع عن استقالة الوزارة النسيجية - له دخل مباشر فيما صدر من قرار وخف الرئيس والأعضاء على عجل في حملة الانتاذ و « الاستيسال » ؟ كلا . كل أولئك في المذلة الثانية عندما يصاب مكرم من قريب . أو عند ما يصاب في مكرم الدسيمة وسر الصنعة . أو سر الارتجال !

لقد نشرنا للمقتبسات المرتجلة (١) (!) صباح الخميس فإذا الصحيفة المكرمية تتفجر في العدد التالي على الفور بتلك الضجة المفتعة التي اختلقتها باسم الزعامة والجهة الوفدية . في جرة الواقع من التواطؤ والأعضاء وهي الصحيفة التي سكنت ثمانية أيام سكوت الخائف للوجل حين فاجأها بما اقترفته من جنابة التبشير بالحماية !! وهي الصحيفة التي تدعن للصفح في ذلة وصغار خلت من كل رجولة وحياء ، وهي الصحيفة التي أجفلت من تهم البلاغ إذ لم يكن يسندما من ورائها الأستاذ « الرئيس الجليل » . وهكذا لا يعرف المجاور أن « يضحج » ويثور الا مدفوعا مسحورا !

وبعد « استواء » الحملة في زعم الأستاذ البارح برزت أول لجنة وفدية بالاحتجاج على المقاد والصحيفة المارقة من الوطنية - إيماننا بدعوى الجهاد . أين كانت هذه اللجنة ؟ في الاسكندرية !! في الاسكندرية التي كان فيها مكرم عبيد .

ثم سيق النحاس باشا الى القاهرة غضبا للزعامة أو غضبا للمبادئ الوفدية ! وغضبا لكذا وكذا وكذلك وكذا وصدق من صدق أن « الوفد » قد اجتمع وبحث وقرر وعلم من علم أن مكرما قد اجتمع وحده وبحث وحده وقرر وحده منذ سبعة شهور وما على الجماعة الا التنفيذ !! وما أنا ذا أيها الانجليز فهل في الوفد - هل في مصر - أحد سوى يحسب له حساب ؟

تلك هي الوقائع ناطقة بلسانها المتين ، وتلك هي المشيئة الوفدية كما زاد عليها في هذه الأيام . . .

يراد منا أن نسكت عن كارثة الخبر الفنى كما سككت الصحافة
الكريمة فلم تنطق الا بعد أن أخرجناها بالنقد واستحال عليها السكوت ..

يراد منا أن نخدع الأمة بقرب عودة الدستور ونحن على يقين جازم -
كما قلنا من اللحظة الاولى - أن الأمر غير جد وأن الدستور غير مطلوب
ولا عائد في ذلك الحين *

يراد منا ان نهمل بالتبليغ البريطانى كما هملت الصحافة الكريمة
ولولا أن أدركناها بالبيان الصحيح *

والتبليغ البريطانى ، مع ذلك حماية في أشنع الوان لحمايات لأنه لم
يفرض علينا الحماية العسكرية وحسب ، بل يضيف اليها حماية الأمة
التاصرة التي لا تفقه معنى التطورات الدولية الا أن يرشدها اليها البعض كما
يرشد الآباء أطفالهم الصغار يراد منا أن نقول ان الوزارة التسمية مقدمة
على الدستور كانتا لم نقل للناس قبل سنوات قليلة : ادبحوا انفسكم في
سوارع العاصمة من أجل الدستور *

يراد منا أن نتغنى بعهد الوزارة لانها أطلقت نا حرية الصحافة كانتها
أطلقت لنا الحرية لنفقدنا بإيدينا ، وكأنها لم تحتفظ بقوانين الحجر
والاستثناء حتى هذه الساعة ، وكأنها لم تسخر الوفد في وظيفة اسكات
الصحف التي كان يؤيدها - في عهد الوزارات المتبودة - مراقبون في ادارة
المطبوعات ..

يراد منا هذا وأمثاله ، ويراد منا مع هذا وأمثاله الا نخسى أبدا أننا
آلات في يدي مكرم عبيد ، وأبواق له تحوطه بالدعاية وتخالفه على الخصوم
ولا تتف دون العداوة لكل من ينحرف عنه ولا يصطفيه * وتتوخى مواقع
هواء قبل أن يجهر بها ، لأن المساسين لا يجهرون *

فان كنا كذلك فنحن أبرار احرار ولو كنا جواسيس مجرمين مبشرين
بالحماية ودعاية الاستعمار ، وان لم نكن كذلك فلا شفاعة لنا ولا حقوق
ولو كانت بنا ألف شفاعة وألف حق في ذمة البلاد ، لأن مكروا يستطيع
ان يقول لرئيس فيقول الرئيس للوفد فيقول الوفد لعبيده المصريين : هذا
العقاد مارق فاذا هو مارق ، وهذا الجاسوس بطل شريف فاذا هو بطل
شريف برئت من الوفدية ألف مرة ان كانت هذه هي الوفدية *

« ما علمناها حين أيدناها الا حرية وكرامة ، فكيف نفقد حريتنا
وكرامتنا لأننا نطلب الحرية والكرامة للناس أجمعين .. »

ما علمنا حين أيديناها الا الأمة كاملة لا الامة منصرفة سائفة كما شاعت
سياسة مكرم النحاس ، فكيف تتعطل وظائف النقد في امة كاملة من أجل
وزارة لم ترمض قط للانجليز طلبا ولم تحقق قط املا المصريين !

وانى لأسف أن يصير النحاس باشا بالوفد الى هذا المصير ، وان ينعكس
المتصود من ثقة الامة على يديه فيصبح قصارى نفعه ان يتقرب بضمانات
الانصار على مذابح الخصوم . ولكنى على اسفى هذا احمد الله ان تفيض لى
الحرية الداخلية ، وساق النحاس باشا لنفسه الى اطلاق قلمى فيما يععب
به على الاعمال والاراء والهيئات والتجمعات ، لا فرق بين النحاس باشا
ونسيم باشا . وسائر المسئولين عن سياسة البلاد . ويزيدنى حمدا اننى
حين انفصل بينى وبين النحاس باشا وجماعته كنت انا في مكاني وكان
هو الذي تحول عن مكانه ، واستقبل حياة الدعة والرخاء ، وحصر القضية
كلها في التنسيج للوزارة المعبودة عسى ان تسبح عى للانجليز عسى ان ترق
لنا قلوبهم بدستور ممسوخ او حكمه دستوريه يعصفون بها في لحة عين !!

وما كان انتظار الرحمة على هذا الثوال بالبرنامج الخطير الذي يفتقر
الى زعامة ومشاورة وخطط ظاهرة وخطط خفية فيما به يلغطون . ولكنه
برنامج قانع وادع سقيم عقيم ندركه ونحن نائمون .

فاذا كان لا بد من انفصال الراى بينى وبين هذه السياسة الخاشعة
الخائفة ففى هذا الفترق الكريم فلننفصل على بركة الله . والحمد لله على
ذلك ثم الحمد لله ، .

* * *

وهكذا يمكن القول بأن صحيفة روز اليوسف اليومية شهدت الفترة
الآخيرة من تأييد العقاد للوفد وتعاطفه معه ، ثم فيها كان الحد الفاصل
بين تعاطف العقاد وانفصاله عن الوفد .

والرحلة التي تعاطف فيها العقاد مع الوفد منذ ثورة ١٩١٩ حتى انفصاله
عنه في عام ١٩٢٥ ، تمثل مرحلة الكفاح الشعبى بمعناه الحقيقي . ولكن
بداية انفصال العقاد عن الوفد تؤرخ لبداية ابتعاد الوفد عن القضية الوطنية
وانحرافه عن الخط الكفاحى للشعب المصرى وقد توج هذا الانحراف ببعثه مع
الأحزاب الأخرى معاهدة ١٩٣٦ ..

ونحب أن نعطي في هذه الصفحات أمثلة من تأييد العقاد للوفد ، ثم
نتابع من هذه الأمثلة مسلك كل من العقاد والوفد وما أدى اليه في النهاية من
انفصال العقاد عن الوفد صراحة ..

كتب العقاد في العدد الأول من الصحيفة بعنوان :

الوفد في غنى عن الدعاية (١) .

يقول :

« الوفدية عقيدة وطنية

والوفدية هيئة سياسية

وكلتاها من عقيدة ومن هيئة - في غنى عن الدعاية والتبريج بين الأمة المصرية ولا نعرف مكانا أولى بتقدير هذه الحقيقة من صدور العدد الأول في صحيفة وعدية ترفع شعارها وتقدم على ميدانها ، فإنه من شرف الصحافة الوفدية في رأى نفسها ورأى قرائها أنها وسيلة للتعبير عما نفوس الأمة وليست وسيلة للدعوة الى خطة مفروضة عليها ، فهي بين المصريين ترجمان عقيدة وليست بترجمان دعاية ، وهي لسان الأمة الذى يتحدث بوجودها وليست بلسان الأجنبي المسلط على أذانها .»

ثم يقول :

« انما تؤدى الصحافة الوفدية واجب التعبير عن عقيدة البلاد للسياسية لا واجب الدعاية الحزبية وما إليها ، وما من ميدأ أصيل تدين به صحيفة مصرية بريئة الا الأمة تصدقه قبل ذلك تصديق من لا يحتاج فيه الى انفاع او تدليل ، ومن الشرف لهذه الصحيفة أن تعرب في عددها الأول عن تلك الحقيقة الوفدية الأولى .

« محسبها من الرضى عن عملها والأمل في مستقبلها أن تقوم بتسطها الكامل في هذا الواجب الشامل ، وأن تكون لسانا معبرا صادق التعبير عن تلك العقيدة القومية التى يحمل لواءها الرئيس الجليل مصطفى النحاس باشا ويمشى في طليعة صفوفها صحابته الأمانة ويجتمع على الإيمان بها أمة ناعضة عرفت في تلك العقيدة معنى اجتماع الكلمة والثبات عليها كما لم تعرفه من قبل في أمر من الأمور » .

ويواصل العقاد في هذه الصحيفة حربه على الانجليز ولا ينى عن حفض مزاعمهم وكشف نواياهم .» ويتنزه ذكرى تصريح ٢٨ فبراير ويكتب بعنوان :

(١) روز اليريسف اليومية : يوم ٣٠ من سبتمبر سنة ١٩٣٥ .

يقول :

» انما الواقع أن السياسة البريطانية كانت خليفة أن تكرهنا على قبول ذلك التصريح ولو بذلت في سبيل ترويجه بيننا كل ما تستطيع لانها وضعت هذه السياسة العامة لكي تروج بها :

• أولا :سمعة الحرية والانصاف بين أمم العالم على اثر الدعوة للولسنية •

ثانيا : إيقاع الفتنة بين الوظيفيين وتديخهم بالانازعات الداخلية بدلا من الاتفاق بينهم على السيطرة الأجنبية اذا جهرت بالقبض وحدها على اعنة الحكومة •

ثالثا : لقاء الطبيعة عن كاهلها وقذفها على كواهل الوطنيين لتعود في يوم من الأيام فتتخذ من سوء الادارة في جو المنازعات والمساكنس حجة لها على أولئك الوطنيين •

• رابعا : ارضا، الأفراد وذوى الأغراض الذين ترصيههم المظاير والصور الخلابة فيحسبون أنهم مستقلون لأنهم يوصفون بأوصاف المستقلين •

• ومثل هذه المعانم التي قدرتها السياسة البريطانية من وراء أسلوبها الجديد خليفة أن تسعى بها وتحتال على بلوغها وتدخل ما في وسعها من الثمان لو لم يحاول فريق منا أن يندفع لها ويدعى لنفسه تلك الدعوة الصببانية من خداع الانجليز ! ••

• من أجل هذا أصاب سعد حد الاصابة حين قال عن تصريح ٢٨ فبراير انه نكبة وطنية ونعمة استعمارية •

• ومن أجل هذا صدقت المواقب ما تتشام به الوفد من البداية عن دخائل ذلك التصريح •

* * *

• ويدرك العقاد خطر الدعاية السياسية لمصر كسلاح لا يقل شأنا عن الأسلحة التقليدية في سبيل التحرر ، ونراه يكتب بعنوان :

» الدعاية لمصر

(١) روز اليوسف اليومية : يوم أول مارس ١٩٣٥ •

يتحدث عن ضرورة وجود دعاية سياسية واسعة تتولاهما الحكومة نفسها * تدفع الوساوس التي خاومت قلوب السانحين من جراء «أكاديب» الإثيمة التي دأبت على ادّعتها في مصر والعالم وزارات الاستبداد والطفيلان ومن يعاونونها من انصار الاستعمار ودعاة التشهير بالبلاد المصرية من الوجهة السياحية ومن كل وجهه يقدرون فيها .نفعه لهم والضرر لهذه الأمة المعروف ان وزارات الاستبداد والطفيلان كانت لا تقوم الا على الارهاب والشذوذ واعتساف الخطط الاستثنائية في القوانين واختيار نظام الحكومة ، وكانت الأمة المصرية في حالة من الفوضى والاضطراب لا تفلح في سياحتها الا امثال حجتها التي لا غناص لها من اللجوء إليها لتسويغ هذه المظالم والفضائح ان هذه الخطط العنيفة ، لانها قد ادّعت لانس من المهيجين الثائرين المعروفين بالعداء للأجانب والفوضى في ادارة الحكومة الوطنية حين يستولون على مقاليدما في عهد من العهود *

فرسخ في اذمان الأجانب البعيدين من هذه الأمة انها لا تكون الا في احدى حالتين ككتاعما لا توافقان للسائح الراغب في الراحة والفرجة أو الراغب في الشفاء والامان *

فان كانت في عهد وزارات الاستبداد والطفيلان فهي اذن في حالة تستوجب اعلان حكم الارهاب واتباع سياسة القمع والاستثناء والشذوذ في معاملة المحكومين * وان كانت في عهد الوزارات الدستورية فهي اذن في رعاية الطائفة التي يشيع عنها المفروضون من المستعمرين واذناب المستعمرين انها تنشر الفوضى والاضطراب وتدين بالعداء للأجانب المقيمين أو القادمين للسياحة *

« وللعريب اليميد من الديار العذر اذا هو اشفق من زيارتها في هذين المهدين وتوجس من المصريين في ظل الحكومات الطاغية والحكومات الدستورية على السواء ، فاذا اتقن بما يسمعه عن مصر من دعاية واسعة عن الاقطار الاخرى المشهورة بمشائيتها ومصايفها والمخابرة على الدعاية لنفسها بلسان حكوماتها ولسان شركاتها ولسان أدبائها ورجا لفتونها ومن يكتبون عنها فلا جرم يعرض السائح عن مصر ويقتل على غيرها وهو لا يشغل بانه بالمخالعة في التقصى والبحث وراء الاشاعات والاقاويل » *

ثم يتفق أن يجيء عيد التضحية وعيد الدستور في يوم واحد ، فيكتسب مقالاً بعنوان :

(١) روز اليوسف اليومية : يوم ٤ من مارس ١٩٣٥ *

عيدان في يوم (١)

يجدد في هذا المقال كفاحه مع الشعب طلبا للدستور الذي تداولت عليه معاول الهادمين فليس « اتفاق التضحية والدستور بالشيء العجيب ولا بالشيء النادر لأن تاريخ الدستور هو تاريخ التضحية في جميع الأوقات وجميع الشعوب ولكن اتفاق العيدين مصادفه نادرة نرجو ان تكون علامة خير وبنساره توفيق وقال صادقا للمتأملين » ..

ويكتب مقالا بعنوان :

حرية الاجتماع وحرية الصحافة (٢)

يقول فيه :

« وإذا كان أعداء حرية الاجتماع لا يعرفون لهم حجة تسوغ الصرامة والبطش في منع الاجتماعات وتقييد حرية الجماهير المعقولة فلن يجدوا حجة تسوغ مذمهم في الحجر على الصحافة والكتابة على الجملة وتجزئ لهم أن يتعمدوا في هذا الحجر الى شل الانلام واعتبار الصحف شرا يحتمله الحكام احتمالا حتى يجدوا الوسيلة للقضاء عليه أو إبقائه في حالة مكبوحة يستوى فيها البقاء والزوال »

فنحن قد رأينا عواقب اطلاق الحرية للحكام ورأينا قبل ذلك عواقب اطلاق الحرية للصحف والكتاب ، فهل حدث من جرائم الغلو في النقد شيء كالأذى حدث من فضائح الغلو في تسليط الحكام على الناس وحمايتهم من العقاب !

* * *

وخلال هذه الفترة - ١٩٣٥ - تلقى وزارة توفيق نسيم الثانية التأييد من الملك والانجليز ثم من حزب الوفد الذي ظن انها قد جاءت لتجرى انتخابات حرة تعيده الى الحكم ، بعد أن تعيد دستور سنة ١٩٢٣ (وكان قد عطل قبل ذلك ثم استبدل به دستور سنة ١٩٣٠) وشاع يومئذ وصف الوزارة بهذا اللفظ « قنطرة Bridge » لعبور الوفد الى الحكم ، مع أن بيان الوزارة صريح في انها جاءت لاصدار « دستور ترضاه الأمة » ولم تشر قط الى انها ترمي الى اعادة دستور سنة ١٩٢٣ نفسه ، وكان ذلك مع غيره من القرائن هو الذي رآب العقاد في الوزارة فلم يهادنها على الرغم من تأييد الوفد لها ،

- (١) روز اليوسف اليومية : يوم ١٦ من مارس ١٩٣٥ .
(٢) روز اليوسف اليومية : يوم ١٧ من مارس ١٩٣٥ .

وكانت حملة العقاد المعنيفة على هذه الوزارة سبباً في انفصال العقاد عن الوفد كما بينا في الفصل السابق ، ومن مقالات العقاد هذا المقال :

احراج ينجم عليه غيرنا (١)

يبين فيه العقاد موقفه من الوزارة النسبسية بعد ان حمل عليها ، واحدت الصحف الأخرى ومن بينها الجهاد تلوم العقاد على موقفه متضامنة في ذلك مع مكرم عبيد الذي كان يؤيد الوزارة . . . يقول العقاد :

« كان في وسعنا ان نذني على الوزارة الحاضرة فيما احسنت وفيما اسات من اعمال سياسية أو اعمال الادارة الدلخلية . . »

وكان في وسعنا اذا صدرت قرارات مجلس الوزراء وفيها قرار بتعيين الموظفين الانجليز - ان نسكت كما يسكت غيرنا ، ونتقاضى كما يتقاضون حتى تمر المذكرة أو المذكرات بسلام ثم نواصل السكوت أو نعقب على الامر بكلمات لا تخرج عن (براءة العتب) كما يقال في الاحاديث العامة . .

وكان في وسعنا اذا صدرت قرارات مجلس الوزراء وفيها قرار بتعيين « خير فنى » لوزارة التجارة مزود بحق الاتصال ان نشايح الوزارة ولا نطالبها باستدراك خطتها ولا ننبهها الى الخطر الجسيم الذى تنطوى عليه تلك الصيغة وقد انطوت عليه امثالها فيما سلف من المعاهدات المرفوضة وكان في وسعنا الا تمثّل للوزارة غضب الأمة من هذه الأخطاء الجسام حتى يتساح للانجليز ان يجدوا في الطلب ويتاح للوزارة ان تجدد القبول وكان في وسعنا ان ننسى سيئات الهدايا والمجانبة في وزارة المعارف لا يرا لاصحابها بقية في تلك الوزارة ، وان ننسى كذلك حقوق المناصب الكبيرة وما ينبغي لها من الماضى الناصع والخلق المتين والشجاعة على احتمال التبعات ولجنتساب المروغة بين المهود والوزارات « . .

« كل أولئك كان في وسعنا

وكان اجدى لنا وايسر علينا

وكان شيئاً لا بدعة فيه قياساً على ما يصنعه غيرنا ويعرضونه على الأمة باسم الاخلاص والوطنية !

ولكننا حيننا أنفسنا فاخترنا أن نفقد الوزارة فيما هي مخطئة فيه ، وأن ننبه الى الخطر الجسيم كلما انتبهنا اليه ، وأن نعبر عن شعورنا وعن

(١) روز اليوسف اليومية : يوم ١٧ من مارس ١٩٣٥ .

شعور الناس فيما يحسن أولا يحسن من أعمالها ، ومضيفنا في سبيلنا كما رأى القارىء فلم يجب ذلك أناسا من الصحفيين وراحوا يستطيلون ويعيدون الاستطالة حتى عرضوا « للنيات والغايات والتهم » فيما تكتبه هذه الصحيفة من هذه الشئون .

« ولقد مضيفنا في سبيلنا دون أن نعرض لنيات غيرنا أو غايتهم أو لتهمة يتهمهم بها كائن من كان ، ولكن « غيرنا » هؤلاء يابرون أن يتركونا كما تركناهم ثم يابرون ألا أن يستطيلوا علينا حين يفتفوا من أفعالهم بأخبت النيات والغايات !

فبالله كيف تكون هذه النيات وهذه الغايات ؟

اتكون يا ترى لأننا نتوخى رضى الانجليز ونحن لا نفتأ نحارب مطالبهم في التجارة وفي وظائف الدواوين ؟ ..

اتكون يا ترى لأننا نتوخى رضى الوزارة ونحن لا نسكت عن أخطائنا ، أو مأخذها ولا نزال نستحثها على اتمام واجبها والخود عن مصالح بلادنا ؟ !

اتكون يا ترى لأننا نتوخى رضى الابراشيين والصدقيين وليس أشد عليهم في الماضي ولا الحاضر من ممارضتنا والحافنا في القضاء على عهدهم وعلى آذناهم وبقاياهم ؟

انكون نحن المتهمين في نياتنا وغاياتنا « لأننا نغضب الاقوياء جميعا ونسجل الاخطاء على الانجليز وعلى الابراشيين وعلى الوزراء » ، ثم تكون الذية المباركة واللزامة عن المارب عند من تزلفون الى هؤلاء جميعا ويحنون كل ما في ايديهم من الخير والمعونة ؟

« هل بلغ من استغلال العقول أن يطمع طامع في تصديق هذه الأحاجي والألغاز وإن يجر على مواجهة الناس في وضوح النهار ؟

تعست صناعة القلم وتعست السياسة ان ارضختنا على احتمال هذا ..

فيا ايها الناس : اننا لا نجاد لكم فيما تكتبون ، فدعونا وما تمليه علينا ضمائرنا واستمعوا أنهم لما تمليه عليكم ضمائرهم كما يطيلها الاملاء والا فاذا بلغ من قلب الأوضاع ان نسكت عنكم وانتم لا تسكتون عنا فمرحبا اذن بما أردتم وما اشتبهتكم ، وستعلمون أنه احراج تضيق به الصدور ولكننا لا نندم عليه نحن ولا نتحاماه .. بل غيرنا النادمون » .

وتتشدد حملة العقاد على الوزارة النسيجية ويكتشف تسويقها وتلاعبيها ..

ومن مقالاته العنيفة :

• هم اعداؤه من قديم (١) •

• طريقة أخرى من طرق التسويق والتأجيل (١) ••

• تقديرات واضحة حول المسألة الدستورية (٢) •

• ماذا يرجون من الانتظار (٣) •

• اعداء مقلقة لا تدعو الى طمأنينة (٤) •

• الوزارة والنقد (٥) •

• لا بد من القول الصريح فالسكوت عن هذا اجرام (٦) •

• اذن لا دستور ولا قضية وطنية الا الوزارة النسيجية تبقى حتى تنتهى الحرب المظورة (٧) •

• ثم يخرج العقاد على الوفد ، ويواصل كفاحه الوطنى متعاطفا مع الشعب ويكتب مقالا يبين فيه خطته الجديدة في الكفاح بعد انفصاله عن الوفد في مقال :

• خطتنا في السياسة المصرية (٨) •

• ويتحدث في هذا المقال عن :

• ١ - خطته مع الاحزاب والوزارات •

• « فلن نؤيد بعد اليوم الا (اعمالا) ولن نحارب بعد اليوم الا (اعمالا) ولن نقيم بعد اليوم مقياسا للخطط والبرامج غير الاعمال » •

• (١) روز اليوسف اليومية : يوم ٢٢ من مايو ١٩٣٥ •

• (١) روز اليوسف اليومية : يوم ٢٤ من مايو ١٩٣٥ •

• (٢) روز اليوسف اليومية : يوم ٢٦ من مايو ١٩٣٥ •

• (٣) روز اليوسف اليومية : يوم ٢٧ من مايو ١٩٣٥ •

• (٤) روز اليوسف اليومية : يوم ٣١ من مايو ١٩٣٥ •

• (٥) روز اليوسف اليومية : يوم ٩ من سبتمبر ١٩٣٥ •

• (٦) روز اليوسف اليومية : يوم ١٧ من سبتمبر ١٩٣٥ •

• (٧) روز اليوسف اليومية : يوم ٢٧ من سبتمبر ١٩٣٥ •

• (٨) روز اليوسف اليومية : يوم ٢٩ من أكتوبر ١٩٣٥ •

٢ - خطته في القضية الوطنية .

وهي « توجيه القوى الوطنية كلها الى محاربة الاستعمار وتاليف الاعداء المختلفين عليه وسلاحنا في حرب الاستعمار وسيلتان : الدعاية والمناظرة الاقتصادية وهي تتناول المناظرة المدنية كلما اوجبتها الاحوال » .

٣ - الزعامة .

« والواجب في الزعيم المصري على ما نعتقد ان لا يرشح نفسه لوزارة وان يكون « قائدا » لا سياسيا ولا حاكما من حكام الادارة ، وخير لصر ان يكون شابا في الأربعين وأن لا يكون من الموظفين الاقدمين . . . وعمل هذا الزعيم ان يجعل الحركة الوطنية حركة الاستقلال لا حركة المنافسة على الوزارات والتطاحن بين الأحزاب . وقد أصبح الوصول الى الاستقلال من طريق الوزارات أمرا غير معقول ولا منظور بعد أن تعسر هذا الطلب على وزارة سعد زغلول .

« فليكن للزعيم المصري بعد اليوم عمل غير المناصب أو البرامج السياسية، وليكن قيام الوزارات وسقوطها بعد اليوم معلقين على الرأي العام الذي ينصل بزعيمه على أساس صلة لا تقوم على الترشيح والتنصيب ، ولكنها تقوم على الشعور للنزبه الصادق الذي لا ينظر الى غير الاستقلال والحرية ، كما كان ينظر اليهما المصريون في النهضة القومية » .

الفصل الخامس

المودة الى البلاغ

رأينا أن العقاد قد استمر مشاركاً في تحرير البلاغ منذ انشائها وصدورها في عام ١٩٢٣ حتى سنة ١٩٣٠ ، ولكنه عند صدور البلاغ مرة أخرى في عام ١٩٣١ لا يعود الى التحرير فيها ، وليس غريباً أن لا يعود العقاد الى البلاغ في طوره الجديد وقد أخرج وأخرج منه في نهاية طوره الأول عندما توالى تعطيل البلاغ بعد صدوره في عشرة أيام بنحو عشرة أسماء ، ثم عاد البلاغ الى الصدور بعد خروج العقاد منه ، وبقي منتظماً في صدوره ، واحتجبت بدلا منه - صحيفة كوكب الشرق التي نشر فيها مقالات ثلاثة أيام متوالياً، وظلت محتجبة طوال الوقت الذي انتظم فيه صدور البلاغ .

واستمرت البلاغ في تأييد الوفد بعد صدورها في طورها الثاني ثم ما لبثت أن خرجت على الوفد في أواخر عام ١٩٣٢ متضامنة مع الأعضاء الثمانية الذين فصلهم الوفد اختلّفوا معه حول تأليف الوزارة الائتلافية وكان موقفهم هذا يتفق مع موقف الأحرار الدستوريين الذين رحبوا بالفكرة رغم أنها من بنات أفكار النحوب السامي الذي أراد بدوره من ورائها إمكان إسقاط الوزارة الائتلافية بخروج بعض أعضائها إما بإيعاز من الانجليز إن أمكن ذلك ، وإما بإيعاز من القصر نفسه كما حدث في سنة ١٩٢٨ . بيد أن مصطفى النحاس ومكرم عبيد رفضا هذه الفكرة وكانا على حق في ذلك استناداً على نصوص (الميثاق) الذي عقد في شهر سنة ١٩٣١ ومن أهم قواعده الا يقدم على تأليف الوزارة غير حزب الأغلبية .

ولكن خروج هذه الجماعة التي أطلق عليها في ذلك الوقت حزب السبعة والنصف كان في الحقيقة تطهيراً للقيادة الوطنية أكثر منه انقساماً في صفوفها كما يذكر في أكثر الأحيان^(١) فقد كانت هذه الجماعة تمثل قطاعات من الرأسمالية النامية في اتجاه الاحتكار من ناحية والفئوية من ناحية أخرى . فخرجها جعل القوى المركزية المسيطرة في الوفد تنتمي الى الطبقة المتوسطة ، الأمر الذي ساعد بالتالي على تقارب قيادة الوفد مع قواعد الجماهيرية (١) . وعلى ذلك فقد كان تضامناً البلاغ مع المنشقين على الوفد لا يمثل ظاهرة طيبة في الكفاح الوطني ، ومن هنا لا نرى أن حملة العقاد التي شنها على البلاغ أثناء عمله بتحرير الجهاد الا من قبيل التادييب لكل من خرج على الخط الوطني الصريح .

(١) راجع ، الدكتور محمد أنيس والدكتور السيد رجب حراز : ثورة ٢٣ يوليو أصولها التاريخية ص ١٤٩ .

وتد استمر العقاد مرتبطا بالوفد حتى سنة ١٩٣٥ ، وقد استطاع طوال هذه الفترة ان يكون في طليعة كتاب الطبقة الجديدة يجسد افكارها وفلسفتها ومبادئها ، فهو ثوري في السياسة من اجل الدستور ، وهو في الفكر مدافع الى اقصى حد عن حرية الفكر ، وعن الاتصال بالثقافة الغربية بدون الانفصال عن الماضي الذي يمنح الانسان جنورا واصولا تذكي شعوره القومي وتؤكد . .

ولكن شتان بين من يخرج على الوفد في مرحلته الاولى ومن يخرج عليه بعد معاهدة ١٩٣٦ ، فالذين خرجوا منه في مرحلته الاولى خرجوا وهو في قمة نضاله الوطني ، وكانت انسلخاتهم تتضمن تفريضا في احد وجهي ثورة ١٩١٩ وهو الوجه الديمقراطي في سبيل تحقيق الوجه الاخر وهو الوجه الوطني ، بينما الذين خرجوا عليه في اواخر عام ١٩٣٥ وبعد توقيع معاهدة ١٩٣٦ كانوا يجنحون الى الجماهير الشعبية . لذلك لم يكن غريبا بعد سنة ١٩٣٦ - وبالأذات خلال الحرب العالمية الثانية - ان تنسحب الى قيادات الوفد عناصر تنتمي الى كبار الملاك الزراعيين أمثال سراج الدين واليدراوى والوكيل . وكان نتيجة تحول الوفد عن اهدافه ان اتسعت الهوة السحيقة بين تسيادته الجديدة وبين القواعد الجماهيرية للوفد . .

وهنا نخلص الى ان العقاد عندما انضم الى الوفد بكل ثقته منذ ثورة ١٩١٩ كان ذلك جنوحا منه الى التقدم الوطني المتصرف الذي يدرك بايمان عميق قيمة التمسك بوجهي فلسفة ثورة ١٩١٩ (الديمقراطي ، والوطني) . وكان خروجه على الوفد عام ١٩٣٥ جنوحا منه ايضا الى التقدم الوطني معتقدا نفس الاعتقاد القديم مدافعا عنه بكل ثقته كذلك .

ويعود العقاد الى صحيفة البلاغ التي سبقته في الخروج على الوفد، ولم تكن محقة في موقفها ، ولكنه عاد اليها ليضيف عليها بمقالاته السياسية دفاعها القديم عن وجهي فلسفة ثورة ١٩١٩ ، ومنذ اكتوبر عام ١٩٣٧ شهدت صفحات البلاغ القلم الجبار الذي ابد الوفد بكل جبروته يهاجم الوفد الذي انحرف عن مبادئ ثورة ١٩١٩ بكل جبروته كذلك .

ويعكس العقاد صورة الوفد في مقالات نشرها بالبلاغ يقول في بعضها :

« ليت سعد في ميدان النهضة الوطنية تسع سنوات ثم انتقل من عالم الحياة الى عالم الخلود علولا ان الوفدا كان هيئة لابد لها من رئيس لا خطر لاحد

من المصريين أن يجعل مصطفى النحاس خليفة لسعد زغلول ولا استحال على زملائه انفسهم أن يتفقوا على اختياره لذلك التمام *

« لو سألت في السنوات الأخيرة ماذا ابقت الزعامة لمصطفى النحاس لما علمت لذلك من سبب إلا أنه تكفل بتسهيل الوطنية المصرية فعملها من اءون الواجهيات بعد أن كان السر في اختيار سعد والجمع على اختياره ان المصريين قد اردوا أخطر الرجال لأخطر الأعمال (١) » *

ثم يقول في مقال آخر يصور تفريط مصطفى النحاس في الوجه الاول لفلسفة ثورة ١٩١٩ ونعني به الوجه الدستوري (٢) *

« ماذا يكون مصري دستورنا اذا استبد مصطفى النحاس وقتلنا له لا يستبد فقال : لا : اما أنا فاستبد ويستبد معي أذنابى وأتباعى ومن أشاء // واما أنتم فان رضيتم فذلك شأنكم ، وإن لم ترضوا فاضربوا ما بدا لكم وانظروا كيف يدوم الدستور » *

ثم يكتب مقالا آخر يصور فيه انشقاق الجانحين الى التقدم الوطنى تاركين الوفد ليستقطب العناصر التى تنتمى الى كبار الملاك الزراعيين والهوة المحيطة التى اتسعت بين الوفد وقواعده الجماهيرية :

« اليوم ينفضى عن الوفد جميع أبناء الجيل الجديد بغير استثناء فرد واحد لان الافراد القلائل الذين يحومون حول الوفد من أبناء هذا الجيل لا يولونه حبا ولا اعتقاد ولا غيرة على مبدأ من المبادئ ، ولكنهم يوالونه لانهم أبناء هذا أو اقرباء ذلك ، فإذا قلنا أن الجيل الجديد كله يحارب الوفد بغير استثناء فذلك هي الحقيقة التى لا مبالغة فيها أو هي تلك الحقيقة التى تدل على حقائق كثيرة بعيدة الغور متشعبة الأطراف » *

ويصور رأييه في النحاس بعد تحوله عن أهداف الوفد بزعمه سعد زغلول يقول : (٣)

« ان صاحب التمام الرفيع أعظم رؤساء الوزارات المصريين رجسا وأقلمهم خسارة باشتغاله بالسياسة دون استثناء واحد من أولئك الرؤساء في القديم و الحديث أو بين الاحياء والاموات » *

(١) البلاغ : يوم ١٣ من نوفمبر ١٩٣٧ *

(٢) البلاغ : يوم ٦ من نوفمبر ١٩٣٧ *

(٣) البلاغ : يوم ١٩ من أغسطس ١٩٣٧ *

« فالنحاس باشا كان قاضيا من الدرجة الاولى او الثانية في ايام الثورة الوطنية فاصبح وزيرا بعد بضع سنوات واصبح رئيس وزارة بعد بضع سنوات اخرى ولا نعلم رئيس وزارة ، وثب هذه الوثبة في سلم الترقيّة منذ كانت في هذا البلد وزارات ومصطفى النحاس تولى الوزارة أربع مرات ، وليس بين الاحياء من تولاهما أكثر من مرة واحدة ما عدا توفيق نسيم ، ومصطفى النحاس باشا - قد نشأ في بيت من الطبقة المتوسطة الفقيرة في بلاد الريف ثم وثب من هذا البيت الى اعلى المناطات الحكومية . أما رؤساء الوزارات الاخرين فجميعهم بالاستثناء لم يخبوا هذه الوثبة ولم يصعدوا هذا الصعود لانهم كانوا ابناء باشوات او سروات ولدوا في بيئة الحكم والفرار . »

« والنحاس باشا قد انفق في شئونه الخاصة ما لا يقل عن نفقات الوزراء الآخرين ، وانفق في الدعاية السياسية ما لا يقل عما أنفقوه . وعاش في دعة لا تقل عن الدعة التي عاشوا فيها وزاد عليهم بالتصفيق والتهاويل والتمجيد والتبجيل اسم التفضية واسم البلاد في ميدان الوطن . »

وفي مقال آخر يتم لنا صورة النحاس يقول (١) :

« أي خطوة من خطواته ليس لها اشتهاء التصف والامتانة فيه . وأى امر أقدم عليه منذ جرت مفاوضة بين المصريين والأتجليز لم تكن الغاية منها حب التصب او الاتجاه اليه ، نادى بمشروع ملنر وغضب من نأنتيه لانه كان يطمح في دخول الوزارة التي أساس المشروع ، ثم انحنى باللائمة على مشروع ملنر وانقلب عليه لانه يئس من دخول الوزارة الدخلين . »

« وبقي مع سعد لأنه موظف في الوفد يتقاضى شهريا أكبر من مرتب الوظيفة . »

« واستقيل في رفض المعاهدة بين تشمبرلن وثروت لأن الرفض طريقه الى رئاسة الوزارة . »

« واستقيل في رفض المعاهدة بين هندرسن ومحمد محمود لأن الرفض طريقه مرة اخرى الى رئاسة الوزارة . »

(١) البلاغ : يوم ٣١ ديسمبر ١٩٣٧ .

ويستخدم العقاد سلاحه العظيم ، سلاح السخرية ، برجال الوفد ،
وذلك عندما يكتب محمد نجيب الهلالي بجريدة المصرى سلسلة من المقالات
تحت عنوان « مخالف القط » فينبى له العقاد مستخدما سلاح السخرية
فى مقال بعنوان :

« واستبسل فى قبول المعامدة الأخيرة لأن القبول طريقه الى رئاسة
الوزارة » .
مطالب الشطوط ومطالب الخطوط
أو جوانب المعبط فى مخالف القطط(١)

وهو مقال طويل مسرف فى الطول نكتفى منه بهذا القدر الضئيل .
وأوله كما يلى :

« قالت البيغاء الخضراء وهى تكثر من الهراء ، وتلفتت الى الوراء
(يعنى بالبيغاء هنا نجيب الهلالي) : عنذت الذى عليهم الوزير الاكبر
درسا بل درسا فى الرسم والهندسة والهيئة والظك . فعلمهم أن الخط
المنحنى خير من الخط المستقيم ، وأن الزاوية المنفرجة الكبرى اضيق من
الزاوية الحادة أو الصغرى . وأن القطع خير من الوصل . وأن أجمل
الدوائر هى الدائرة المخروطة : أما عرض من غير طول وأما طول من غير
عرض . ولا بأس من أن تبتدىء الدائرة من سطح مستديرة ، ثم تستدق
حتى تنتهى الى نقطة . الى آخر ما قالت البيغاء بحرف كلامها ونص
نظامها . فالتفت اليها الراوى يقول وهو يسأل الله حسن القبول :
لك الله يا بيغاء من حكمة رعناء . أنك لا تنسين ما تصبحين فيه
وتحسين من دوائر وخطوط وزاوية ومخروط . فهل خرجت من هذه الطغولة
الى حد الرجولة قبل أن تنكشف الفسولة ؟

قالت البيغاء : ان قول الحق لم يدع لى صديقا . فهل تركتم
من افعال طريقا ؟

قال الراوى : بل لمل الباطل – لاقول الحق – هو الذى جنبك
الأصدقاء ، وأكسبك عداوة الأعداء ، واليك حقيقة الأنبياء :
قالت البيغاء : وما حقيقة الأنبياء ؟

(١) البلاغ : يوم ٧ من فبراير ١٩٣٨ – أنظر أيضا « أقب المقالة الصحفية فى مصر ج ٨
ص ٣٢٧ » الدكتور عبده الطيف حمزة .

م

قال الراوى : حقيقة الانبياء يا صاحبتى البيغاء هي أنك حمقاء ، وأن حسيبك من الانكباء . فقد كنت في وظيفة غير صغيرة ، فاعرضت عنها لتصبحي وزيرة . وتلك حمافة منك أيتها البيغاء فيها من خلل الحساب وما فيها من تبحر الرياء .

قالت البيغاء : أيتها الراوى الذى هو للتاريخ حاوى ، إن كان مازعمت خللا حساب وتبيحا من رياء ، فلماذا رضى عنى زعيم الزعماء . ودخلت من أجله في زمرة الأولياء ؟

قال الراوى : لأن زعيم الزعماء صغير النفس صغير الذكاء . صغير الهمة صغير الرجاء . نسي جنابك على الدستور أنك أسأت الى (وندى شهور) ، كل ذنبه أنه صديق النفرانى وماهر . وتلك عند الزعيم كبيرة الكبائر ، وآفة البواطن والطواهر . وهكذا يكون الجزء عند زعيم الزعماء اذا كان صغير النفس صغير الذكاء .

قالت البيغاء : ثم ماذا من مثل هذا يامن لا يزال للعقل ملامذا وللباطل نبأذا ؟

قال الراوى : الذى هو للعقل ملامذا وللباطل نبأذا : ثم فاتك الدخول في المنصب المأمول . فملأت الأرض والسماء بالفتوح والبذاء . أيتها البيغاء الرعناء . وجعلت تخرجين من قهوة الى قهوة ومن ندوة الى ندوة . ولا حديث لك الا الطعن المقصود في الزعيم المعبود والمجاهد المحسود . حتى انفصل النفرانى من تلك الزعامة ، وقامت على رأسها القيامة . فعاد الزعيم كما كان في الابتداء صغير النفس صغير الذكاء . ولجأ الى كيد الأطفال . ودق الكف وأخرج اللسان وحك الأنف وتلقبب المقال . وظن أن دخولك الوزارة يغيظ العدا ويبدل على الشطارة . وما درى أنها نكبة جناها عليك ، ونفعة ساقها اليك . ولا تزالين فيها ولم تزالى ، ولو أنفقت في السجع الليالى ، والحديث الخيالى والجنون القصرى الهلالي .

(الى آخر المقال)

* * *

رأينا كيف بدأ العقاد حملته على الوفد بعد انفصاله في روز اليوسف اليومية ، ولكننا نجد هذه الصحيفة بعد ائتلاف الأحزاب وتشكيل الجبهة الوطنية ترفض استمرار العقاد في حملته ، وهنا تتفرق خطة الصحيفة وعباس العقاد فيتركها ليواصل حملته في صحيفة أخرى تنتج له ذلك ، وقد عمل العقاد بصحيفة البلاغ منذ أكتوبر ١٩٣٧ ، وقبل أن يحرق بالبلاغ كان الملك فاروق قد دعا النحاس الى تأليف وزارته الرابعة في أغسطس

١٩٣٧ ، وتآلفت الوزارة بعد ان انشق على الوفد محمود فهمى النقراشى ومحمد غالب وعلى فهمى ومحمد صنوت ، وكان ذلك تصدعا جديدا في الوفد وبدأت تنسرب الى الوفد عناصر تنتمى الى كبار الملاك الزراعيين ، وبدأ النحاس - فقد ثقة الجماهير به ويزعامته ، ولذلك سخر العقاد في البلاغ من تلك « الزعامة المتدسدة » ولم يقل عنف مقالاته أثناء وجود مصطفى النحاس في الحكم ، وكانت حملته على النحاس سببا في اسقاط وزارته الراحمة . واستمرت هذه الحملة الى ما بعد سقوط الوزارة واليك بعض العنوانات التي استخدمت في هذه الحملة منها :

- اصحاب العقول في راحة (١) .
 - شارب البحر (يريد النحاس باشا) (٢) .
 - الزعامة الظاهرة بالاستقلال تستجدى الانجليز التدخل باعادتها الى الحكم . ويستخطها ويثير نفسها تصريح المستر (ايدن) ان حكومته تحترم استقلال مصر ولا تتدخل في شئونها (٣) .
 - القنبلة النحاسية تنفجر على رأس النحاس باشا (٤) .
 - النحاس باشا يرفض السلم الذي ارتقى فيه الى غايته ويتنكر لسعد ونكراه بعد أن تاجر باسمه واتخذ من كفه راية له (٦) .
 - جنون النحاس باشا (٥) .
 - أصبح الانجليز يكون حلوا اذا كان النحاس باشا وزيرا . فاذا اتقى عن الحكم فهو اصعب سياسة خادعة (٧) .
 - لنحاس باشا يحرص على الثورة . فان كان عاقلا فحاكموه . وان كان مجنونا فقتلوه (٨) .
- وما لبث العقاد ان اعتقل بسبب هذه المقالات . ولكنه عاد بعد اربعة ايام من خروجه من المعتقل الى حملته الساخرة باقى مما كان ، وبقي على

(١) البلاغ - يوم ٣ من يوليو ١٩٣٧ - راجع الدكتور عبد اللطيف حمزة : ادب القالة الصحفية ج ٨ ص ٣٣١ .

(٢) البلاغ : يوم ٢٦ من أكتوبر ١٩٣٧ .

(٣) البلاغ : يوم ٨ من ديسمبر ١٩٣٨ .

(٤) البلاغ : يوم ٢٦ من يوليو ١٩٣٨ .

(٥) البلاغ : يوم ٣ من أغسطس ١٩٣٨ .

(٦) البلاغ : يوم ٢٥ من أغسطس ١٩٣٨ .

(٧) البلاغ : يوم ١١ من أكتوبر ١٩٣٨ .

هذه الحال حتى سقطت وزارة الوفد للرابعة في ٣٠ من ديسمبر سنة ١٩٣٧
فشيخها العقاد بمقاله المشهور :

دالت دولة المهرجين (١)

ومنها قوله :

« كل ما يسقط الوزارات اقتصرته الوزارة الحاسبية جهارا نهارا . وهي
لا تحسب حسابا للسقوط اعتمادا منها على انها بذلت الثمن للانجليز .
وانظر فرحة المناقطين الاخساء يوم يقال ان الوزارة في ازمه . وان
الانجليز يجهونها من عواقب هذه الازمه . انك لترى اذناهم واشياهم
في الضربات والاندية ينبشرون ويتعاقون ويتقبلون النهاية بما يسميهم ان
يشيرون . ولا يخطر لواحد منهم ان يسأل : ازعاهم وطنية بالحرب
الاجبية ؟ ايجمى الانجليز هذه الوزارة لانهم تخدمهم ، او لانها تخدم
الصريين ؟ كل ذلك لا يعنى الاشياح والاشياح ان يسألوه . ولكن يعينهم
ان تبني الوزارة . وان تبقى غنائم الوزارة ، وان يهتفوا بوزارة الاستقلال ،
وهم يومنون كل الايمان حين يهتفون انهم ينتظرون الحماية من دولة
اجنبية ، ولا يرحبون بنى ، كما يرحبون بتأييد الاحتلال ودوم الاحتلال !!

لتبقى الوزارة في الحكم وليكن بعد ذلك ما يكون . لتشتت البقاء من
كل طائفة غاضية متواعدة على حساب الادارة والنظام . لتشتت البقاء من
الطلية على حساب التعليم ومستقبل الوطن . لتشتت البقاء من المجرمين
المتشردين على حساب الحرية والدستور والاعراض والارواح . لتشتت البقاء
من لصحنين على حساب خزانة الدولة . لتشتت البقاء من كل نصير تارة
بالقروض من بنك التسليف ، وتارة بالهبات واشياء الهبات من املاك
الحكومة ، وتارة بالوساطات والشفاعات ، وتارة بتوظيف الابناء والاخوان
والاصهار ، وتارة بالعمد والمشايخ ينتخبون ، وتارة كثيرة بكل ثمن
الا العدل والاتصاف والانتقال على مصالح البلاد .

هكذا يفهم للنحاس باشا الدستور ويفهم الاستقلال . وكلامها ليس
له من مظهر في رايه الا قيامه في المناصب . وانطلاقه بالعريضة والتهريج على
هواه . فالاحتلال معيب حين يفصيه عن المناصب . وكذلك الدستور لا معنى
له من حرية الناس ولا من توزيع السلطات ولا من توزيع السلطات ولا من
اصلاح الشؤون ، ولا من عقوبة اللصوص والفسدين ، وانما معناه الوحيد
ان يحكم مصطفى النحاس ولا يحكم أحد غير مصطفى النحاس . وان يحكم
دون غيره لا لغرض وطني أو برنامج سياسى ، و لا لاشتغال بأمر غير المنفعة

(١) البلاغ : يوم ٣١ من ديسمبر ١٩٣٨ .

انظر الدكتور حمزة : ادب المقالة الصحفية ج ٨ ص ٣٣٢ .

القريبة والتهويش المبثمل السليم • ولكن الفرغسة وتفريغ الحباب
عنه وهى يغش ريشة ، ويصمر خده ، وينيه بمنظره الذى نولا شومه
ونحسه لكان من مضحكات المسارح فى ساعات الاجون •

وهؤلاء المصريين الذين استكثروا على احمد فؤاد وتوفيق اسماعيل
ان ينفردوا بالسلطان ، وان تجتمع فى ايديهم وحدهم افة الامور يمسكون
يرتكسون حتى يصبح الامل الاعلى عدهم الى عرف مصطفى النحاس ان
يجمعوا بين يديه وتحت قدميه سلطان الزعامة ، وسلطان البرلمان ، وسلطان
الادارة ، وسلطان الجيش يقسم له اليمين ، وسلطان القصر لا يناقشه
فى كثير ولا قليل • ثم لا يكتفيه ذلك حتى تجتمع بين يديه شرادم من
الشردين المتعطلين يرسلهم الى من يسلم من هذه السلطات جميعا ليضربوه
ورجموه • وهم فى حراسة الشرطة ، وينجو من الحساب والعقاب •

هذا هو الدستور وهذا هو تقسيم السلطات ، وهذه هى حريات المصريين
التي جاعوها من اجلها ويجاعونها ، ويبذلون من اجلها الغالى والرخيص لانهم
لم يجدوا فى اجياهم انسانا فى راحة مصطفى النحاس ، ورصانة مصطفى
النحاس : لا النحاس ولا الثورة • وذعب المسكين الى حيث لا رجعة
هذه الحريات وجميع هذه السلطات وهم تابعون صاغرون !!

الارواح والاموال يبذلها المصريون من اجل مصطفى النحاس • مالها من
مهولة كان اولى الضاحكين منها اولئك المهرجون الذين اشفقوا على البلد
بالامن ان تجرى فيها بحار الدماء ، وتنفجر فيها الحمم والزئران يوم يتخطى
عن الحكم مصطفى النحاس • لقد نادى المهرجون : النحاس والثورة • فنادى
النحاس : لا النحاس ولا الثورة • وذعب المسكين الى حيث لا رجعة
ولا مأب •

اذ ذاك ولد الدستور من جديد • فما الدستور ان لم يكن احدا يقول
لكل انسان : هنا مكانكقف لا تتعداه ؟ !

و (تف هذا مكانك) التي قيلت للنحاس وحواشيه يوم اتبل من الوزارة
هى مولد الدستور وهى مولد الحرية المصرية من جديد • اما (الذعب فى طريقك
الى غير مدى) كما قال له الماجورون والمهرجون فهى هى اللوبال ، وهى هى
القضاء على ما حضر وما مضى وما ياتى بعد اليوم من جهاد •

(الخ ما جاء بالمقال الذى شغل الصفحة الاولى كلها)
ويستمر المقاد فى خطته ، ثم يفترق مع البلاغ عندما تعود وبعد وفاة
صاحبها عام ١٩٤١ الى صفوف الوفد ، فيحرر فى صحف اخرى كالدستور
والكتلة والاساس •

الفصل السادس

العقائد والاتجاهات الجديدة

لاشك ان الفترة الخطرة على نضال الشعب المصرى فى هذه الفترة الطويلة الحافلة بالخدعة ، ما بين انتكاسة سنة ١٩١٩ الى حين تنهت القوى الشعبية للخطر الحقيقى الذى يتهدهما من منطق المساومة والاستسلام ، ومن ثم بدأ التآعب النفسى لثورة يوليو ١٩٥٢ .

وعنا يجب ان نسجل لانفصال العقائد عن الوفد وكشفه لمساوئه ومساوىء الحزبية ، وللقيادات الجائفة من ذكريات الثورة التى فتحت كل طاقاتها الثورة واسلمت كل الشعارات التى رفعها الشعب سنة ١٩١٩ الى كبار ملاك الارض الذين كانوا دعامة للتنظيمات الحزبية القائمة ، نسجل للعقاد بأنه يكاد يكون الحارس الوحيد على أمانى الثورة الحقيقية ، ولم يستسلم للأغراء اذى جذب جماعات كثيرة من المثقفين .

وننظر الى المقال الذى نشره فى عام ١٩٣٥ فى روز اليوسف اليومية الى أنه التبشير الحقيقى بوجود تحول نضال الشعب ضد هذه الأوضاع الفاسدة والتبشير بزعماء جديدة لها صفات ارتأها العقائد تتفق مع أثبتة التاريخ من بعد .

« الواجب فى الزعيم المصرى على ما نعتقد ان لا يرتشح نفسه لوزارة ولا نيابة . وإن يكون « ثائدا » لا سياسيا ولا حاكما من حكام الادارة ، وخير لصر ان يكون شابا فى الأربعين وأن لا يكون من الموظفين الانتميين .

« وعمل هذا الزعيم ان يجعل الحركة الوطنية حركة الاستقلال لا حركة المنافسة على الوزارات والتطاحن بين الأحزاب . وقد أصبح الوصول الى الاستقلال عن طريق الوزارات أمر غير معقول ولا منظور بعد ان تعسر هذا الطلب على وزارة سعد زغلول ..

« فليكن للزعيم المصرى بعد اليوم عمل غير المناصب أو البرامج السياسية، وليكن قيام الوزارات وسقوطها بعد اليوم معقلين على الراى العام الذى يتصل بزعيجه صلة لا تقوم على الترشيح والتنصيب ، ولكنها تقوم على الشعور النزيه الصادق الذى لا ينظر الى غير الاستقلال والحرية كما كان ينظر اليهما المصريون فى أوائل النهضة القومية » .

» وهكذا يكشف العقاد الواجهة الديمقراطية المضللة التي استعانت بها
الفلول المنهزمة من ثورة ١٩١٩ لتخدع بها الشعب عن حقيقة مطلية .

وإذا كانت القيادات الثورية أغفلت أغفالا لا يكاد يكون تاما - مطالب
التغير الاجتماعي فان تبرير ذلك واضح في طبيعة المرحلة التاريخية التي جعلت
من طبقة ملاك الأراضي أساسا للأحزاب السياسية التي تصعدت لقيادة
الثورة » .

ويحدثنا الدكتور محمد أنيس في كتابه « دراسات في وثائق ثورة
١٩١٩ » أن « حركة العمال في مصر قد اشتدت إبان ثورة ١٩١٩ بسبب
تحول جزء من رأس المال المصري من الزراعة إلى الصناعة إبان الحرب العالمية
الأولى ونتيجة لارتفاع تكاليف المعيشة بعد الحرب فشاعت فترة ١٩١٩
تأليف عدد كبير من النقابات » وكثرت « اعتصابات العمال » - أي إضراباتهم
- كثرة دعت بعض الصحف الأجنبية إلى اتهام الحركة العمالية والحركة
الوطنية كلها بالبلشفية » .

ولكن قيادة ثورة ١٩١٩ لم تلتفت إلى المطالب الاجتماعية للجماهير ،
ولا إلى تحسين أوضاع العمال والفلاحين الذي اتركوا في الثورة بكل ثقلهم ..

ويقول عبد الرحمن الرافعي إننا « إذا رجعنا إلى زعامة ثورة ١٩١٩ نجد
أنها أهملت الناحية الاقتصادية أهملًا شاملا » ..

وهذه حقيقة واضحة من دراسة موقف قيادة ثورة ١٩١٩ . فلم يكن
في بيانات مؤلّاء القادة ولا في خططهم السياسية محاولة للتعبير عن مشاكل
الجماهير العملية ووضع حلول لها .

ويكشف الأستاذ رجا، النقاش في مقال له بمجلة الهلال عن تردد قياد :
الثورة إلى أقصى حد في عقد أي علاقة من هذا النوع ، بل كانت أكثر من ذلك
رافضة كل الرفض لهذه العلاقة . ومن جهة أخرى حاولت الثورة بكل جهدها
أن تجذب التنظيمات العمالية إلى الرضوخ لمنطق أصحاب رأس المال وقوانينهم
المختلفة ، وكانت تعمل بقوة على إضعاف أي نزعة ثورية اجتماعية في
العمال . وفشلت قيادة الثورة في أن تجعل من حزب الوفد الذي كان على
رأس الثورة حزبًا للعمال والفلاحين ، وعجزت عن تحديد برنامج اجتماعي

واضح محدد فيه لحة من لمحات الفكر الاجتماعي النابع من تجربة التطبيقات الشعبية في مصر ، أو المتأثر بالاحتكاك الواعي بالقوى الاجتماعية المادية .

وفي الواقع لقد كان العقاد أول من بذور الفكرة الاشتراكية في مصر ، وبين أصولها النظرية « وفي كتابه (الفصول) الذي نشره عام ١٩٢٢ بحث مستفيض علق فيه على ترجمة فتحي زغلول شقيق سعد زغلول على كتاب جوستاف لوبون الذي يهاجم فيه الاشتراكية ، وفي هذا المقال يدافع العقاد عن المذهب الاشتراكي ويبرئه من جميع الزاعم التي الصقها به الفيلسوف لوبون في كتابه المشهور « سر تطور الأمم » .

ونقتبس من المقال يضع فقرات كتوله :

« نالكتاب بجملته جملة منكزة على المساواة والاشتراكية ، نحيل اليك أن الدكتور لوبون يكتب عن المساواة بقلم شارل الأول أو لويس السادس عشر . وأنه يكتب عن الاشتراكية بإيعاز من رتشيلد أو روكفلر . فتراه ينعى على مبدأ المساواة ، ولكنك لا تعلم منه كيف يكون عدم المساواة . وتراه يتشائم من الاشتراكية . كما يتشائم الناس من نعييب اليوم . لا يعلمون لذلك التشائم سببا .

ويقول العقاد :

« .. على أن دعاء المساواة لم يشطوا في مذهبيهم ، ولا قالوا أن الناس طبعوا على غرار واحد في العقل والفضل . وهل ترى أن دعوتهم الى تساوى الناس في الحقوق أمام القانون تعطل تنازع البقاء بينهم ، وتذهب بمزايا التفاوت بين قادرهم وعاجزهم ؟ اليسى هى أخرى أن تفسح المجال لهذا التنازع ، وترفع الموائق التي يضعها في طريق المنافسة استئثار بعض الناس ببعض المنافع بلا موجب للاستئثار ؟ .. وكل ما يعنى به الداعى الى المساواة ذلك العامل الفقير أنه يكون متساويا مع سائر الناس في الأمن على حياته . وهل في ذلك صغير ؟ ومتى كان مبدأ المساواة لا يمنع انسانا حق التمتع بثمرة تفوقه في المعارف أو المواهب العقلية على سواء فأى ضرر في ذلك .. »

ويهاجم العقاد كذلك رأى لوبون في الاشتراكية ، فيقول :

« .. اما الاشتراكية فهي كما يرى من الشخرات التي نقتلها عه شديد الطيرة منها وهو يمثلها تمثيلا مشوها . ويعمد الى شر مذهبيها ، فيعرضها على القساري، في حالة مشوهة ، ثم يعمم حكمه على مذاهب الاشتراكية بحذافيرها . فتارة يحكم بانها مستوذي بالالم الى اربل درك الانحطاط حيث يقول : « نعم لان يكون الانسان ضليعا في علم النفس ، ولا في علم الاقتصاد ، لينفي بان العمل بمقتضى مبادئ الاشتراكية يفضي بالالم الى اربل درك الانحطاط واقسى صور الاستبداد » .

وتارة يعرضها لك كما تتصورها اذهان الجاهل الواهمين . فيسبق الى ظلك ان هذه الاشتراكية صنف من الافيون استوردته ائمة الاشتراكيين من بيكين » .

ويقول العقاد :

« الحقيقة ان نظام مجتمعنا الحاضر مشتمل على تناقض ومثالب لا ينفرد بالمسخط عليها ، وطلب تبديلها الاشتراكية . ومن العلماء من انفسهم من الاشتراكيين ولا يحسبهم الاشتراكيون منهم ، وهم مع هذا يشكون ظلم النظام الحاضر شكوى غلاة الاشتراكية ، ويرون رايهم في بعض الحلول التي يقترحونها - ومن هؤلاء العلماء انسير او ليفرلوج رجل لا يذهب في هواه ، ولا تفكيره ولا شبهة عليه من جانب الاشتراكية ولا من جانب اي حزب اجتماعي آخر ، ولكنه يقترح في فصل كتبه عن وظائف المال أن تهتم الحكومة بشخصية الحائزين للمال كما تهتم بشخصية الحائزين للسلاح لأن المال ربما كان أخطر في يد الشرير من السلاح في يد الفاتل ، وفي رايه أن الثروات العظيمة خطر على المجتمع ، وأن هذه الثروات تكثر من جراء أنظمة مصطنعة يمكن تبديلها ، وليست هي ما تقضى به طبيعة سير الأمور ، وأنه يجب أن يعاد النظر في قانون التوريث ، وأن يفتح ..

ويقول في فصل آخر عن « الإصلاحات الاجتماعية » بعد التساؤل عن علة مصاعبنا الحاضرة في ملكية الأرض :

« ولا يسعى الا القول بأن عادة السماح للأفراد بحق الملك المطلق على الأرض بحل من المجابية هي أساس كثير من هذه المصاعب » .

ويقول العقاد :

« ان الاشتراكية الصحيحة ليست أسطورة من الاساطير ، ولا هي وعد خيالي يبشر الناس بالتعامل في الأقدار والتساكن في المنازل والأزواق ..

كسلا ! فليست المساواة بين الناس من مهمها ، ولكنها انما تدعو الى المساواة بين الاجر والعمل ، ونطلب ان يعطى كل عامل ما يستحقه بعمله . وان ينتفع بالجموع باكثر ما يمكن الانتفاع به من قوى «اغراد» .

والذى دعا اليه العقاد عام ١٩٢٢ مذهب من مذاهب الاشتراكية ليس من الماركسية في شيء ، او كما يقول الدكتور لويس عوض (١) ، قريب جدا من الديمقراطية فنظروا اليه اليوم فنقول انه راديكاليه متطرفة . وقد ظلت اشتراكية العقاد هذه حتى ثورة ١٩٥٢ اتسبع نوع من انواع الاشتراكية في « الراى العام » المصرى الذى ما جئسح قوامه في يوم من الايام الى الاشتراكية الا في حدودها الراديكالية .

ويعتمد دفاع العقاد عن الاشتراكيين في الدعوة الى مذهبهم على طائفة من الحجج لا يجد الاشتراكيون خيرا منها على حد تعبير الدكتور لويس عوض .

والحجة الاولى هي ان الاشتراكية ليست فلسفة اجتماعية تهبط على المجتمعات من السماء ، او بتوليد من ادمعه بعض المفكرين لحالين الذين اولسوا بالتفكير المجرد وبخطيوط مستقبل البشرية بالحبر على السورق ، ولكنها نتيجة لاضاع اجتماعية قائمة بالفعل ولدلل دقيقة في جسم المجتمع . وفي هذا يقول العقاد :

« واذا كانت الاشتراكية على هذا التقدير عرضا للعلة وليست هي العلة نفسها فماذا يجدينا ان نمحوها ونكتم افواه الداعين اليها وماذا في محوها من الدواء للانحلال والندهور الذى لا مفر منه ؟؟ الا يكون ذلك كعمالجة الجدرى بنسوع قشور طمحة من ظاهر البشرة وترك جراثيمه تنسرى في اللحم وترتفع في باطن الجسم ولا من يلتفت اليها فيعمل عمل الجدرى على استئصال شافتها او تخفيف ضررها ؟؟ فان كان ثم دواء فليكن الدواء للعلة الاصلية والا فلا معنى للقدح في الاشتراكية ولا فائدة من اضطهاد دعائها » .

والحجة الثانية التى يسوقها العقاد دفاعا عن الاشتراكيين وحقهم في التعبير عن مذهبهم « هي الجبرية التاريخية التى ادت الى ظهور المذهب الاشتراكي او ما يسميه هو « الضرورة » التى شمر بها الناس غنشات فيها المبادئ الاشتراكية وفي هذا يقول : « وهذه المبادئ والقواعد لا تدحض

(١) مقالات في النقد والأدب ص ٩٤ .

بالسفسطة ولا تنقض بالتعويض والحوثلة ، لانها نشأت من حاجة ضرورية
شعر بها الناس وتكلموا فيها قبل أن يعلنها الفلاسفة وأهل النظر (١) »

والعقاد يذهب إلى أن المنطق ذاته والبيئة ذاتها غير كافيين لإزالة
« الحاجة » إلى الاشتراكية ، وفي هذا يقول : « وكيف تدفع الحاجة إلى
الاشتراكية بالسفسطة والمغالطة أو بالمنطق والبيئة وهي كما يقول الدكتور
« جوستاف لوبون » سر لا يعترفه إلا علماء النفس الواقفون على اسرار
الحياة ولا تاتى الأدلة التي تقنع به من طريق العقل ؟ »

ويرد العقاد ظهور المبادئ الاشتراكية إلى الوضع الاقتصادي الناجم
عن الثورة الصناعية أولا وإلى الانتاج الضخم ثانيا ، فيقول : « ومنذ
أخرج العلم للناس تلك الآلات الضخمة ، أصبح كل صاحب معمل يتمتع
بتعب الالوف من الصناع الذين يستخدمهم في معمله ، فكان التعب والحرمان
من نصيب فريق والراحة والأرباح من نصيب الفريق الآخر ، فتجددت الشكوى
القديمة ، وعادت الاشتراكية ، ولكن هل تراها عادت اليوم لتشهد خاتمة
هذه المدنية وهل لا مفر من هذه الخاتمة بعد عودة هذه الاشتراكية الجديدة ؟

« لا نظن ذلك - لأننا اليوم في مأمن من غارات القرون الأولى ، ولأن
العلم والنظام قد أصبحا في هذه العصور ملكا للإنسانية عامة وليسوا
من خواص امة يذهبان بذهابها »

وليس معنى هذا الكلام أن العقاد كان ماركسيا في اشتراكيته ،
ولكنه يوضح لنا أن الاشتراكية الفابية كانت أقرب إلى تفكيره حين قال
في مقال آخر :

« لقد كانت الاشتراكية الفابية نصب عيني حين كتبت في تعزيز
الفلسفة الاشتراكية والرد على خصومها قبل أكثر من خمسين سنة . ولا
تزال الفابية كما بقيت إلى اليوم أقرب إلى اعتقادي من سائر الجماعات
ومبادئها تقوم على الاسس الاخلاقية قبل قيامها على الاسس المادية
الاقتصادية . ووجهتها الكبرى هي بناء المجتمع ارفع المثل العليا في
الأداب الانسانية والفابيون تطوريون وليسوا بانقلابيين . وعندهم أن
نشر المعرفة وتاليف الانتصار من جميع الطبقات والتوسل بالوسائل
الديمقراطية إلى ولاية الحكومة للمرافق العامة أصلح لتحقيق الغرض المقصود

(١) راجع الدكتور لويس عوض : مقالات في النقد والأدب ص ٩٤ .

من الاشتراكية وهو منع الاستغلال والاحتكار والقسوة بين الناس في فرص
الاعمال والمشاركة في ادارة الاداة الحكومية .

ومفهوم العقاد للاشتراكية واضح مرن مستخرج من طبيعة البيئة
ذاتها قبل ان يكون نظاما اجباريا . « لهذه الاشتراكية او لهذه
الاشتراكيات على الاصح عشرون تطبيقا على الاقل في انحاء العالم لا يتشابه
بينهما تطبيقان على نحو واحد . اذ كل امة يناسبها نظامها الحكومي
وظروفها الاقتصادية وعلاقاتها الخارجية التي لا تناسب امة غيرها . ولا
يزال كل تطبيق من هذه التطبيقات قابلا للتعديل بين عام وأخرى غير
امد محدود .

وتشرح العقاد فكرة الاشتراكية الاصلية في العدل والمساواة فيقول :
« وانما المساواة شرف حين ترتفع بالادنى الى ما هو أعلى منه وحين تعطى
الرفيع حقه وتأتي عليه أن يجور على حق غيره وحين تكون انصافا للمعجز
لانها تستنهضه الى القدرة وانصاف للقادر لانها تكافئه على الزيد
ولا تعاقبه عليها بحرمانه من جرائها . وحين تكون في أعماقها انصافا
للفطرة السليمة التي فطرت على التفاوت والتنوع من أجرام النضياء الى
ذرات العناصر في المادة الصماء . وذلك هو انصاف الحق والخير وهو انصاف
الاسلام (كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم) .

* * *

ذكرنا ان ثورة ١٩١٩ أهملت مطالب التغيير الاجتماعي وخرج العمال
والفلاحون من الثورة دون مكاسب ، بل ان اشتراك العمال في الثورة
والمكاسب اياها ذلك الطابع العنيف الذي لم يكن موضع رضا البورجوازية،
دفع الحكومات البورجوازية المتعاقبة الى محاربة الحركة العمالية . ولكن
الطبقة العمالية نمت في مصر باطراد في فترة ما بين الحربين العالميتين من
ناحية الكم والكيف ولقد كان نمو الطبقة العاملة المصرية امرا طبيعيا
من ناحية الكم نتيجة لازدهار التجارة والصناعة التدريجي في مصر وقيام
عدد كبير من المشروعات الصناعية والتجارية ، الامر الذي أدى الى زيادة
عدد الطبقة العاملة وتركيزها في ديد من المناطق . غير انه مما تجسدر
ملاحظته حول نمط الطبقة العاملة المصرية من ناحية الكيف ، ان قضية
التناقض بينها وبين اصحاب رؤوس الاموال لم تكن المسألة الوحيدة التي
شغلتهن ، بل كان للمسألة الوطنية وزنها الكبير في الحركة العمالية ، لان
الكثير من هذه المشروعات الصناعية والتجارية كانت في يد رؤوس الاموال
الاجنبية ، فكفاح العمال في سبيل تضاييهم كطيفة ارتبطت اوثق الارتباط
بكنائهم الوطني . وهذه حقيقة على جانب كبير من الخطورة في تقويم

الحركة العمالية في مصر (١) . وقد كتب العقاد في سنة ١٩٣٥ مقالا يصور فيه تعاطف العمال مع القضية الوطنية ، ومننا يجب ان نذكر ان العقاد نائب عن العمال في مجلس النواب وتحمل مؤنة الدفاع عن حقوقهم فكانوا يجتمعون في بيته ويستشيرونه في جميع شئونهم ومن شعره يخاطب العمال :

ايها العاملون لبيكم اليوم
ولبيكم غدا في المجال

نعم جيش السلام اقم اذا ما
جرد البغى جيشه لاغتيا

لكم المدة التي ما استطاعت
أمة تخط تركها في نزال

وعذا هو مقال العقاد :

« مسألة العمال » (٢)

« قرار الوفد في مسألة العمال قرار واجب على الوفد من جهة كما يجب عليه الاهتمام باصلاح القرى وتحسين احوال الفلاح والعناية بما عدا ذلك من شئون الامة التي تتناول التعليم والحماية والتشريع والمسائل الصحية وسائر المرافق القومية العامة » .

« وهو من الجهة الاخرى قرار سديد في مرامي نافع في جميع نواحيه ، ليس في شيء منه ما يعترض عليه أحد ممن يعينهم الامر او يتفق لهم ابداء الرأي فيه فالشريف عباس حليم يؤيد الصلة بين الوفد وحركة العمال ولا يرى في هذه الصلة خروجاً بالحركة عن مبادئها او انحرافاً بها عن غايتها ، وقد كان الشريف رئيساً للجنة العمال في المؤتمر الوفدي نجاء في تقرير اللجنة : « من اجل ذلك نادى العمال بانهم وفديون قبل ان يكونوا عمالا » من اجل ذلك ابى العمال ان تتقدم مطالبهم الخاصة مطالب الامة العامة ، مغتبطين في الوقت نفسه اذا ما وسع جهااد الوفد رعاية شئونهم وسندهم كطائفة من مصلحة الشعب ان تتحرر من كل عسف بل من عزته وكرامته ان تتمتع بجميع النشاطات الاجتماعية التي يتمتع بها العمال في

(١) انظر الدكتور محمد أنيس والدكتور السيد رجب حراز : ثورة ١٩٥٢ وأصولها التاريخية ص ١٥٤ وما بعدها .

(٢) روز اليوسف اليومية : يوم ١٦ من فبراير ١٩٣٥ « وكان العقاد مايزال مرتبطاً بالوفد » .

جميع البلدان . وكان لرابطة العمال بالوفد أخطر النتائج ، فإذا ما انتصر
الوفد تنفس العمال مستنشرين بالخير من إطلاق الحريات فتنشيط
جماعاتهم وتقوى روابطهم وينزل الحيف عنهم ^(١٠) ، أما إذا عصفت بالبلاد
زواجع الانقلابات ومخازنها كان العمال الهدف الأول لبطش القوات المسلحة
وما كان العمال في ذلك بمعتمدين ولكنهم كانوا في موقف المدافعين عن النفس
والكرامة والحق مننصرين للديمقراطية السمحة ضد اجرام الدكتاتورية
اليغرضة الحمقاء .

ومن البداية أن تأييد الصلة بين الوفد والعمال أول ما يقتضيه
هذا الموقف الطبيعي المقبول .

* * *

« أما الحكومة المصرية ونعني بها هنا الحكومة على اطلاعها - فالمنتظر
منها والمفروض عليها أن ترحب بكل علاقة تجمع بين حركة العمال ووحدة
الامة على اختلاف طبقاتها .

والمنتظر منها والمفروض عليها أن تأبى كل نزعة منفصلة تمزق
العمال عن سائر الطبقات وتفردهم وحدهم في مصر كأنهم طائفة لا شأن لها
بما يعنى وطنها ولا شأن لوطنها بما يعنىها .

« فلا يخفى على كل من الم بطرف من حركات العمال في العالم ان
هذه الحركات لا يبد أن تسير في احدى طريقتين :

فأما ان تسير في طريق العصبية الطائفية « المعروفة في مذهب كارل
ماركس والتي شعارها : « اتحدوا يا صماليك العالم » ولا تمويل لها
على الوطن ولا على الطبقات الاجتماعية الاخرى ، ونهايتها في خاتمة المطاف
الى الشيوعية وما هو من قبيلها .

وأما أن تسير في طريق الوطنية والتضامن بين الطبقات الاجتماعية ،
على علم بانها حركة نائفة للوطن وأن الوطن نافع لها ، وانسه ما من
طبقة في الامة غنية كانت او فقيرة ، وكبيرة كانت او صغيرة ، الا وهي جزء
من الجزاء الامة يسندوها وتسندوه ، وبحسب حاج اليها وتحتاج اليه وهذه هي
الطرق القديمة التي اختارها الوفد واختارها العمال من البداية ولم يعارضها
ولن يعارضها الا الذين يريدون اغتصاب الامة المصرية بجميع طبقاتها
وطوائفها ، ويريدون اذلالها في حياتها السياسية وحياتها الاقتصادية وكل
مظاهر من مظاهر استقلالها .

« فإذا كانت هذه هي الحقيقة التي لا مراء فيها ، وكان لابد للعمال من أن يصبحوا طائفة ممزولة على ذلك النمط أو جزءا من الإصمة على اكمل نمط مستطاع .. فإين هي الحكومة الصالحة التي تدفع بالعمال الى الطريق الموجأ وتناى بهم عن الطرق القومية وتستحق بعد ذلك أن تسمى حكومة تعرف ما يجرى حولها وما يجرى في بلادها وتنتظر الى الحاضر والمستقبل نظرة الحكمة والإصلاح والغيرة على جميع الطبقات ؟ »

« ولقد سمعنا صوتنا في هذه المسألة من جانب بعض الصحف الاستعمارية أساءت الى أصحابها والموعزين اليها من حيث ارادت النفعه لهم على أسلوبها المقيم الذي فضحته الحوادث الكثيرة وعرف المصريون خباياه منذ زمن طويل »

فهذه الصحف تتخوف من اتصال الوفد بحركة العمال وتأبى أن يتم هذا الاتصال على وجه من الوجوه .

فلماذا ذلك التخوف ؟

ولماذا ذلك الألباء ؟

لا نظننا من الحماقة بحيث تزعم أنها تغار على مصلحة العمال المصريين وتحب انصافهم من أصحاب الاموال وطلاب المنام والاستغلال فإذا كانت تغضب من الاتصال بين الوفد وحركة العمال فمعنى ذلك يغير جدال ولا خلاف أنها تتروقب النفعه للعمال من وراء اتصالهم به واتصاله بهم وتخشى كل الخشية أن يبالوا حقوقهم بهذه الوسيلة من الشركات الطامعة وأصحاب الاموال الجائزين وأشباههم أو أنهم من الذين تدافع عنهم تلك الصحف وتسمى في تحقيق مطالبهم وتعصف في سبيل ذلك بحقوق العمال وحقوق المصريين أجمعين .

« وعلى هذا النحو قامت الصحف الاستعمارية بدورها المعكوس المألوف في تأييد قرار الوفد وإظهار فوائده ووضع المصلحة فيه !

ولا نحسب أن أحدا أحق باستنكارها والسخط عليها من أولئك الذين توليهم وتفضلهم على الوفد وتضمني لهم أن يقبضوا بأيديهم وحدهم على زمام حركة العمال .

فإن من يقرأ الأكاذيب التي نشرتها تلك الصحف خليق أن يسأل : لماذا تخاف الصحف الاستعمارية من الوفد ولا تخاف من غيره ؟ .. اليسوا بهم

ومن يكون في وسع الصحف الاستعمارية أن توحى الجواب عنا كما ابتدأت
بإيهام المسؤول ..

وعلى أن الرأي الأول والآخر في مسألة العمال إنما هو للعمال أنفسهم
العربية» وإن هذا الرأي المعروف محفوظ لاخفاء فيه من بداية الدهشة
وليس لأحد من الذين يكتبون عنهم في الصحف الانجليزية أو في الصحف
الوطنية اليوم .

وعكذا لم يكن العقاد مجددا في مجال الشعر والادب فحسب ، ولكنه
كان مجددا في السياسة « متعلقا مع القضية الاجتماعية ، وكانت نظريته
أقرب ما تكون الى الاشتراكية الغابية كما سبق القول ..

ولكنه لم يكن يؤيد الماركسية ، وظل يحاربها بلا هوادة باعتبارها
في طليعة المذاهب الصداقة ، واعتبرها بتعبيره « مذهب ذوى المعامات » .

والعقاد في النهاية كان الحارس الوحيد على أمانى ثورة ١٩١٩
الحقيقية ، ولم يجرفه انحراف الاحزاب في تياره ، ووضع بانفصاله عن
الوفد وكشفه مساوئه ومساوى الحزبية معالم ثورة ١٩٥٢ من بعيد ..

الباب الثالث

العقاد أديبا

4

•

•

2

•

•

•

•

الفصل الأول

المقاد ورواد شعراء مدرسة الديوان

- ١ -

المقاد (٢٨ يونيو ١٨٨٩ - ١٢ مارس ١٩٦٤) شخصية نادرة في تاريخنا الأدبي والفكري الحديث .
فهو عبقري موهوب ، وأديب مفكر ، وثاقف ، وكاتب عصامي ، وإمام من أئمة الأدب والشعر في العالم العربي ، كان شاعرا مجددا يجمع بين قوة العاطفة ، وعمق الفكر ، ظهور في الميدان الأدبي والفكري والسياسي في مصر ، من أوائل القرن العشرين ، واشترك في مختلف الحركات الوطنية والفكرية ، ونقل الصدارة في كل مجال وميدان .

ظهر في سنة ١٩١٣ الجزء الثاني من ديوان عبد الرحمن شكرى وفيه مقدمة قيمة بقلم الأستاذ المقاد عن الشعر ومزاياه يقول في مستهلها عن الشعر : « ليس الشعر لغوا تهذى به القرائح فتتلقاه العقول في ساعة كلالها وفقرها ، فلو كان كذلك لما كان هذا الشأن في حياة النفس ، لا بل الشعر حقيقة الحقائق ولب الالباب والجوهر الصميم من كل ماله ظاهر في متناول الحواس والعقول . وهو ترجمان النفس والناقل الأمين عن لسانها » .

وفي عام ١٩١٤ ظهر الجزء الأول من ديوان المازنى ، وفيه مقدمة رائعة بقلم المقاد عنوانها « الطبع والتقليد » يقول في أولها : « حسب بعض الشعراء اليوم أنه ليس على أحدهم أن أراد أن يكون شاعرا عصريا إلا أن يرجع إلى شعر العرب بالتحدى والمعارضة ، فإن كانت العرب تصف الأبل والخيام والبقاع ، وصف هو البخار والمعاهد والأعصار ، وإن كانوا يشيرون في أشعارهم بدعد ولبنى والرباب ، ذكر أسما من أسماء النساء اليوم . ثم يحور من تشبيهاتهم ، ويغير مجازاتهم بما يناسب هذا التحدي ، فيقال حينئذ إن الشاعر مبتدع عصري ، وليس بمقلد قديم ، وهذا حساب خطأ ، فما أبعد هذا الشعر عن ابتداع ، والأخلق به أن يسمى الابتداع التقليدي ، لأنه ضرب من ضروب التقليد ، فلو أن شاعرا سبق هؤلاء الشعراء لما استطاعوا أن يعارضوه » .

وفي سنة ١٩١٦ ظهر الجزء الأول من ديوان المقاد الذى أسماه في الطبعات التالية « بفتلة الصباح » ، وقد امتازت تصانيف هذا الديوان بما كان يسميه المقاد « الوحدة العضوية » فكانت القصيدة تتوهم على موضوع

والحد تتناوله من شتى نواحيه ، في وحدة مسلسلته ، وترايط يكاد يكون منطقيا ، على خلاف ما الفناء في الشعر القديم وفي شعر الشعراء الذين كانوا يتبعون في نظم قصائدهم طرائق القدماء ، وقد اعجبتني هذه الطريقة في ديوان شكرى وديوان المازنى وديوان العقاد . ولا شك انهم تأثروا بأدب العرب في اتباع هذه الطريقة وبخاصة في العهد الذي ساد فيه الأدب الرومانى .

- وظهرت الحركة القومية التى قادها المرحوم سعد زغول ، وكان العقاد في طليعة الكتاب الوفديين المناضلين عن مبادئ الوفد وخطه ، وقد ناصره العقاد بقلبه ، ووقف بالمرصاد لخصومه ، وبرز في الجسد السياسى ، والجماعات الحزبية ، ولم يحل ذلك دون بذله الجهود الادبية، فظهر في سنة ١٩٢١ الجزء الاول والثانى من كتاب الديوان ، وقد اشترك معه في تحريره الاستاذ المازنى ، وهاجم العقاد في كتاب الديوان شعر شوقى مجوما عنيفا ، ونقده نقدا مريرا . . . لم يكن دائما الجادى . . . بل كان موقفه موقف المدافع الذى يرد الهجوم . . . وكان شوقى لا ينفك يغرى به صاحب جريدة عكاظ الشيخ فهميم قنديل ، فكان لا يخلو عدد من اعدادها من نقد العقاد ادخل في باب الهجاء والسباب منه في باب النقد الادبى .
- وكان في العقاد حدس الشاعر ورهافة حسه ودقة ملاحظة المعالم وقدرته على التحليل والتعليل وعمق الفيلسوف ونفاذ نظراته وسعة احاطته، وكان العقاد يلتزم القصد في حياته ويتحرى الاعتدال فيعيش في كتبته ومطالعاته ولكنه مع ذلك لا ينسى نصيبه من الدنيا ولكن في غير اسراف ، وكان حريصا على حياته وصحته ووقته ولم يكن بخيلا بماله ، وكان يعتز بلغته ودينه وعروبه ، ومع ذلك كان واسع الافق انسانى النظرة، يكتب عن غاندى ويشيد به كما يكتب عن عمر بن الخطاب وأبى بكر الصديق ، ويعجب بالزعيم الباكستانى جناح كما يعجب بمحمد فريد وسعد زغول ، ويكتب عن عبقرية محمد كما يكتب عن عبقرية المسيح .
- وكان أدب العقاد وشعره كذلك سواء فيما قدمه من خواطر انسانية أو فيما جملة صورة كذلك لاجتمعه وبيئته .
- وقد استغل هذا المضمون في شعره الوطنى والاجتماعى ، فهو عندما أراد أن يدعو مواطنيه الى العزة والصمود والاستقامة والكرامة لم يقف موقف الواعظ ، ولكنه وقف موقف الاديب المثائر فصور مجتمعه وكأنه متشائم من الاوضاع التى يراها ، فالمثائمون التملتون لهم أسمى الوظائف ، وأعيان الدولة جماعة ضعفت نفوسهم وقلت علومهم ونشت خستهم ودنايتهم وكثر نفاقهم .

وتملقهم وجثوا خاضعين تذللًا ، والنفسام قد بلغوا أسامي الدرجات فكانهم القروود وقد اعتادوا التسلق • فهو الذي يقول في تصيدة جمل عنوانها « زمانفنا » (١) :

فشئت الجهالة واستفاض المنكر
فالحق يهمس والضلالة تجهـر

أنا لفسى زمن كان كبساره
بسوى الكيائثر شسانها لا يكبر

كان العقاد مولعا بالتجديد والإبداع والابتكار ، وقد دفعه هذا الولع إلى الاسهام في خلق مدرسة شعرية وكذلك مدرسة شعراء الديوان التي تعد أساسا للادب الرومانسى في الادب العربى •

وأهم اللواعث عند عاتيه المدرسة في نظم الشعر ، الحب وصديق الماطفة وجمال الطبيعة وتحبيب القيم المعنوية والاعتزاز بالنفس وتخليد مظاهر البطولة وإبراز الخواطر والتأملات ، فهي قد حررت الشاعر من ريشة العبودية وأبعثته عن التعلق والتكسب •

وكان العقاد يتناول الأغراض الشعرية المتنوعة ، ولكنه كان يبدع في الوصف وفي إبراز عواطف الحب الكامنة في نفسه ، وفي إبداء خواطره الفلسفية التي اقتبسها من تجاربه ومن ثقافته الواسعة التي روضت فكره على التعميق في البحث والامعان في الملاحظات •

فقد تحدث في شعره عن الانسان وعن سر وجوده وعن عجزه عن معرفة سر الكون الغامض وعن حاجته الى الايمان ، كما عبر عن كثير من خوالجه وتأملاته وارتساماته التي كانت مرآة لأرائه في الحياة ، ومن ذلك قوله :

ما وجدنا من البريئة الا
خلقا زائفا وجهلا مبينا (٢)

وقوله :

انصفت مظلوما فأنصف ظالما
في ذلة المظلوم عذر الظالم

(١) الجزء الأول من ديوانه صفحة ١١١ •

(٢) عن الديوان لأول صفحة ٣٦ •

من يرض عدوانا عليه يضربه
شبر من المادى عليه الغانم (١)

وقوله :

إذا صاحت الاطماع فاصبر فانها
تنام اذا طال الصباح على الذهم
وقهر الفتى آلامه فيه لسدة
وفي طاعة اللذات شئ من الألم (٢)

والذى يقتنع شعر العقاد يجد فيه طابع التبرم والشكوى ، يظهر
ذلك فى جل الاعراض التى نظم فيها ، ولقد كان يحاول ان يخفف بالشعر
عن نفسه من حين لآخر ، لكنه لم يزد السورد الا عطشا فهو الذى
يقول (٣) :

ظلمان ظمان لا صوب الغمام ولا
عذب المدام ولا الانداء تروينى
حيران حيران لا نجم السماء ولا
معالم الارض فى الغماء تهدينى

وهذه القصيدة تعد بحق من روع قصائد العقاد ، فهى نفثة من
نفثاته ، وعصارة حبه ، ومراه وضاعة لنفسه الرقيقة الحزينة الفلقة

انه ظمان حيران يظنان ، انه غصان اسوان حزين ،
انه يعيش وحيدا فى هذه الحياة لا يجد قلبا يسعده ولا
خلا يأسوه ، انه يتمنى ان تنتهى حياته وان ينقذه الموت من الوجود
لتفنى عبراته وأثاته ومكذا نجد العقاد يصور خوالجه وفيها من رنات
الاحزان ما يسترق القلوب ويستجلب المدامع . ولعل هذا الفلق من الحياة
هو الذى دفعه الى الحذر منها والى التفكير فى مصير الطائرثين عليها ، انها
مادامت حياته الاما واحزانها فلماذا يعمل من جديد على ايجاد ابنائه فيها .
لهذا أثر حياة الوحدة ، فهو من هذا الجانب شبيه بالمعمرى الذى كان يقول :

(١) عن ديوانه وحى الأريمين .

(٢) عن الديوان الأول ص ٢٧ .

(٣) الجزء الثانى من ديوان العقاد ص ١٩٤ .

وإذا اردتم بالبنين كرامة
فالحزن اجمع تركهم في الازهر

وقد كتب العقاد قصيدة رائعة جعلها حواراً بين المعري وبنه ، الابن يريد ان يخرج الى الوجود ، ان يستمتع بالحياة ، فقد ضاق بالنعم وأحب ان يرى مفاصل الطبيعة وان يستلذ بمحاسنها ، انه يتوق الى رؤية الوجوه احسان « ويود ان يرى الورود والازهار والملاء والبحار ، ولكن الاب يشرح لابنه اسباب اعراضه ، فيقول عن الحياة :

شرها يا بنى شر ثقيل خيرا يا بنى خير قليل (١)

وكان العقاد جعل ماته القصيدة تعبيراً عما يحس به ، لذلك قدمها بتعميق وجيز قال فيه عن المعري انه والد رؤوف صمد ابننا عن الحياة رحمة بهم ، غيالتها من رحمة لا يعرفها له أبناؤه .

وكان العقاد يقصد من تشاؤمه ان يستغله لاثارة غريزة الخير في الانسان ، فهو اذا صادر الرذيلة فانما يريد بذلك ان ينقذ الانسان منها . واذا تضايق من معاملة البشر بعضهم لبعض فانما يريد بذلك ان يخفف من سورة الظلم في النفوس الطاغية عساها ان تشعر بالشر الذي ترتكبه فتترك اخلافتها وتعمل للمصلحة الانسانية عامة ، وقد حقق بعض الباحثين ان الادب كلما كان مادفاً الى اصلاح المجتمعات فهو ادب ايجابي ثوري ، وان قدم في صورة تشاؤمية .

وتدعاجم العقاد طيلة حياته الشعر الحر ، وثار على الابتذال والعامية والسوتية « وراى الشعر فنا يجب ان ترتفع الافواق الى مستواه ، لا ان ينزل هو الى مستوى الناس ، وكتب في « مجلة الهلال » (١) يقول :

ليس في وسع « المتحررين » ان يحاربوا الشعر القديم بتحريره كما يقولون من الوزن والقافية واللوازم الموسيقية ، لأن أوزان الشعر أصيلة عميقة القرار في طبيعة الشعب كما نرى من أوزان الأجزاء والواوئل وتراتيل الفرح والنواح في كل بيئة من بيئات الحضر والريف . . . وبعض هؤلاء المتحررين يجهل أو يتجاهل معنى العروض فيقول أنه يزن الشعر بالتفعيلة

(١) الديوان الثاني ص ١٨٤ .

(١) عدد فبراير ١٩٦٢ .

وهي كلمة لا ترق بينها وبين ألف الكلمات في الأوزان المعروضة . إذ تبس في اللغة كلمة يتجرد من أوزان التفاعل بين فاعل وفعول وفاعلان ومستفعلن ومفاعيلن وغيرها من مركبات الفعل والاستفعال ، وانما يأتي الوزن من جميع التفعيلات معا ويختلف بين بحر وبجر باختلاف التركيب واختلاف حركات الحروف . ومن قال أن التفعيلة هي « تصميم » البيت فهو كمن يقول أن الحجر الواحد هو « تصميم » المنزل أو الحجرة أو النافذة أو الباب ، ولن يقوم بناء فوق وجه الأرض على مثل هذا التصميم .

وقد عجزت هذه الدعوات - قديما وحديثا - عن المساس بتركيب الأغاني الشعبية التي يمكن أن يقال إنها تستغنى بانغماس الآلات عن الأوزان المعروضة ، وعجزت عن المساس بتركيب الزجل وهي مقياس للشعر الذي يمكن أن يشيع في اللغة العامية ، فإذا عجز هذا الشعر المتحرر - كما يقولون - عن الشيوخ في الكلام الدراج فهو أعجز من الشيوخ في اللغة الفصحى ، وهو على هذا أعجز من أن يهتم بالتأثير في عيوب الشعر الحديث .

ولسنا نبرئ الأسباب الأخرى جميعا ، من هذا التأثير إلا أننا نستبعد أن نجرد الطبيعة الانسانية حاسة الشعر في فترة من الزمن ، لأن التجرد من هذه الحاسة هو بعبارة أخرى مرادف للتجرد من بواعث الحياة . .

وقد خلف العقاد ثروة كبيرة من المؤلفات في الأدب والفن والفقد والدفاع عن الاسلام وتحليل عبقرياته ، ومن أوائل كتبه : مراجعات ومطالعات وسواهما . ومطالعات ، وسواهما .

وقد حارب بعض الشباب العقاد في حياته ، وكتب العقاد يقول (١) : انه يكتب للخاصة ، ولا يسوؤه أن يقرأه العامة . وكان يجب بتوثيق الحكيم ومحمود تيمور ونجيب محفوظ وصوفي عبد الله وجاذبية صدقي في القصة . . وأكد العقاد أن الشعر الحديث كافة ليس شعرا على الإطلاق ، إذ تنقصه الموسيقى والوزن ، والشعر وزن قبل كل شيء ، وقال : إن الأدباء وشبابهم يعيشون في عصرى أنا ، عصر العقاد .

(٢)

وللعقاد مع شكرى والمازنى قصة طويلة ، فقد جمعت زمالة العلم والشباب في مدرسة « المعلمين العليا » في القاهرة في أوائل القرن العشرين

(١) عدد المساء الأسبوعي - نوفمبر عام ١٩٦٦ .

بين إبراهيم عبد القادر المازني وعبد الرحمن شكري ، وكنا طالبين من أنبغ الطلاب في هذه المدرسة ، وربطت بينهما هذه الزمالة بصلات وثيقة ، ثم ألفت للحياة ووحدة الثقافة والاتجاه بينهما وبين المقاد ، وصار هؤلاء الثلاثة يمثلون فكر أدبيا جديدا دعوا إليه ، وكتبوا حوله ، ودخلوا معارك نقدية كثيرة من أجله .

في عام ١٩١٣ أصدر شكري الجزء الثاني من ديوانه ، وكان قد مضى على صدور الجزء الأول منه أربع سنوات ، وكتب المقاد مقدمة هذا الجزء (الثاني) وأثنى على شاعرية صديقه شكري وعلى موعبته ، وكتب المازني في العام نفسه عدة مقالات نشرها في جريدة عكاظ الأسبوعية المصرية وازن فيها بين حافظ وشكري ، وفضل صديقه شكري على حافظ ، ومن أجل ذلك هاجم حافظ المازني وعاد المازني يكتب عن أخطاء حافظ الشعرية .

وفي العام نفسه أصدر المازني الجزء الأول من ديوانه^{١٤} فكتب المقاد مقدمته ، يرحب فيه بالديوان ويرفع من شأن المازني الشاعر واتجاهه الرومانسي الغالب على شعره .

وكان الاتجاه الرومانسي دائما في الأدب المصري آنذاك بتأثير المنطوقى وكتاباتته وبتأثير ذيوع أدب لا مرتين وهو جو وغيرهم من الشعراء الغربيين في محيط الأدباء المصريين آنذاك ، وبتأثير مطران وكتاباتته كذلك .

وأكثر الثلاثة آنذاك من الدعوة إلى مذهبهم الجديد في الشعر والنقد ، وبدأوا يطمعون شعرهم بالأخيلة والمعاني والصور الغربية^{١٥} . ويكتبون في وحدة القصيدة ، ويدعون إلى الأصالة وصدق الشاعر في الماطفة والإحساس والتعبير ، وظهور شخصيته الفنية واستلهاهم الشاعر للطبيعة ، وتنازله لشقى الموضوعات الانسانية ، ويحاربون التقليد وشعر المتلدين وشعر الخاسبات الطارئة .

ومن حيث كان مطران ينادى بالشعر الموضوعي^{١٦} والجانب الوجداني في الوصف ، كان المقاد وزميله يدعون إلى الجانب الذاتي أو الغنائي منه . وخرجوا بنظراته جديدة أسموها « شعر الوجدان » واتخذ شكري شعارا له على الجزء الأول من ديوانه ، الذي سماه « ضوء الفجر » هذا البيت من شعره :

ألا يا طائر الفردو

س إن الشعر وجدان

ومن نظرية الشعر الوجداني عند هؤلاء الثلاثة، نبهت الدعوة إلى أن يكون الشعر تعبيراً عن ذات الشاعر وشخصيته، وأن يبعد عن الحاسبات، وأن يخلط عليه طابع الألم والآنين وحب الطبيعة وتصويرها، وأن تسوده وحدة عضوية كاملة، ويعبر عن تجربة شعرية عميقة، وأدخل المازني في تعريف الشعر العاطفة والخيال، واتجه العقاد إلى شعر الفكرة، وأخذ المازني على شعر شوقي ومدرسته تفكك الوحدة الموضوعية في قصائدهم وأغرقهم في شعر المناسبات وفي التقليد للقديما، وصور ذلك في مقدمة كتابه «شعر حافظ» الذي صدر عام ١٩١٥ وتقد فيه حافظاً نقداً لاذعاً، ودعا المازني لذلك إلى الرومانسية في كتابه «الشعر: غاياته ووسائله» الذي صدر في هذا العام (١٩١٥) كذلك.

ويقول المازني: كان شكري أول من أخذ بيدي، وسدد خطاي، ودلني على المحجة الواضحة. وكان الجزء الأول من ديوان شكري، ويوميات العقاد، بداية لفتح المذهب الجديد في الأدب، وفتاحة الصراع بينه وبين المذهب القديم، ومذهب شوقي وحافظ وأضرابهما كما يقتول المازني... وعندما يقول وردت زورت: إن الشعر انفعال يستترجمه الشاعر في عذو، وكان المازني يعود به إلى منبئه الأول وهو العاطفة والوجدان. وكان شكري كما يقول العقاد من أوائل من دعا إلى وحدة القصيدة، وجدد في موسيقى الشعر، وألف القصة الشعرية العاطفية والاجتماعية والتاريخية، بل كان شكري من أوائل من مهدوا للمذاهب النقدية الحديثة في الأدب المصري الحديث... ويقول فيه الدكتور مختار الوكيل في كتابه «رواد الشعر الحديث في مصر» - ص ٤٦: «إن شاعريته تحتضن الحياة جميعها وتصور الوجود بأسره» وفي عام ١٩١٦ أصدر العقاد الجزء الأول من ديوانه، وسماه في الطبعة التالية «يقظة الصباح» وقصائده فيه تحتفى بالوحدة العضوية للقصيدة احتفاءً ظاهراً، والعقاد حريص كل الحرص في شعره على نظرية «الوجدان الشعري» فما هو ذا يقول في الجزء الثاني من ديوانه ص ١٩٤:

ظلمان ظمان، لا صوب الغمام ولا
عذب المدام، ولا الأنداء ترويني

وهكذا صار المضمون الشعري عند هؤلاء الثلاثة لا بد وأن يتخذ في الشعر الغنائي الطابع الوجداني سواء استعده الشاعر من الطبيعة الخارجية أم من ذات نفسه العاطفية أو الفكرية.

ويرجع هؤلاء الثلاثة في النقد إلى هازليت وماكولي وارنولد وشاستري وأغلب آراء العقاد في النقد تعود إلى آراء وليام هازليت ومحاضراته عن الشعراء

الانجليز ، ويشبه العقاد كثيرا في عفته النقدى ، من اثار للمذهب الذغى
في النقد الذى كان يؤثره شكرى كذلك .

وخاص الثلاثة معركة الجديد مع شوقى وحافظ والمنفلوطى ، ولكن الايام
عادت ففرقت بينهم ، ففى عام ١٩١٦ انفصل شكرى عن زميله بعد أن
استفحلت الوشائيات بينهم ، وشارت أثر ذلك الخصومة بين ثلاثتهم ، فآخذ
شكرى يمتب على المازنى انتحاله لبعض الاشعار الانجليزية بعامة ، ومما
دون في « الكنز الذعبي » بخاصة « وكتب في مقدمة الجزء الخامس من ديوانه
يندد بهذه السرقات الشعرية ، ويتبادلا النقد على صفحات جريدة « النظام » ،
وكتب شكرى يهاجم المازنى والعقاد - الذى انتصر لصديقه المازنى - معا
على صفحات « عكاظ » في مقالات نشرها عامى ١٩١٩ و ١٩٢٠ .

وفي عام ١٩٢٠ و ١٩٢١ اصدر العقاد والمازنى جزئين من كتاب جديد
سمياه « الديوان » نقد فيه العقاد شوقيا والمنفلوطى ، ونقد المازنى فيه
حافظا وعبد الرحمن شكرى ، الذى ساء « صنم الالاعيب » ورماه بالشعوذة
والجنون .

واطلق اسم مدرسة شعراء الديوان على هؤلاء الثلاثة الشعراء على الرغم
من ان الكتاب هو للعقاد والمازنى فقط ، وعلى الرغم من انه يحمل مجوما
على زميليهما شكرى .

وقد احدث كتاب « الديوان » ضجة كبيرة في العالم العربى ، وكان
حافزا للظهور كتاب الغريال الشاعر المهجرى نعيمة ، لذى كتب العقاد مقدمته .

وببوازع من شوقى وشكرى كتب رمزى مفتاح كتابه « رسالة النقد »
يهاجم فيه العقاد ويتهمة بالسرقة من شكرى .

ويذكر العقاد في كتابه « شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضى » -
الذى كان ينشر « مقالات في صحيفة « الجهاد » القديمة التى كان يصدرها
الصحفى المصرى محمد توفيق ديباب : ان ثقافة مدرسة
شعراء الديوان تتناول كل الثقافات العالمية ، عن طريق
اللاعب الانجليزى ، وانها استفادت من النقد الانجليزى ، واتخذت
مازلت رائدا لها في النقد ، وكان مرجعها الاول كتاب « الكنز الذعبي » الذى
كان يحتوى على مختارات من الشعر الانجليزى من شكسبير الى نهاية
القرن العشرين .

ويقول العقاد : ان مدرسة الديوان هي أول حركة تجديدية في الشعر الحديث متجاهلا مطران ودعوته التجديدية قبل مدرسة الديوان ، وان كان صوت مطران في الدعوة الى التجديد قبل مدرسة الديوان غير جهوري .

وفي رأى هؤلاء الشعراء الثلاثة أصحاب مدرسة الديوان ان شخصية الشاعر هي كل شيء في الشعر ، وان الشعر اذا كان يشعر بعظمته وقوته فهو النموذج الذي يجب ان نحقق به ^{١٠} وكان وردزورث الشاعر الانجليزي يقول ، وقد سئل عن شعر شاعر : « انه ليس من الحتم في شيء » ، يريد ان منزلة الشاعر مستمدة من شعره ، فاذا أصبح شعره على لسان الناس ، ولا غنى لهم عنه ، ويمثلون به في مختلف جوانب حياتهم العامة ، فهو شاعر قد فرض نفسه على الشعر وعلى النقد والفلاس .

ولا ريب ان هؤلاء الشعراء الثلاثة ، على اختلافنا معهم في كثير من آرائهم في النقد ، وأحكامهم على الشعر والشعراء ، قد فرضوا شعرهم على الحياة من حولهم ، وفرضوا شخصيتهم على الأدب الحديث والشعر المعاصر فرضا .

ويشاء الله أن يعود الصفاء بينهم فيحل محل العدا والجناء ، وكان ذلك عام ١٩٣٤ ، فيتصافون ويعد بعضهم يديه الى البعض الآخر .

ويكتب العقاد والمازني الفصول الطويلة عن شكوى ، اعترافا بفضل ، وأقر المازني باستاذية شكوى له ، ونظم شكوى قصيدته الطويلة « بعد الاخاء والعداء » ، ونشرها في مجلة الرسالة وقال فيها :

حنوت على الود الذي كان بيننا
وان صد عنه ما جنينا على الود

وهؤلاء الثلاثة هم رواد مدرسة شعراء الديوان المعروفة في ادبنا الحديث ، ومدرسة الديوان من المدارس الشعرية المعاصرة والجديدة ، وهي المدرسة المجددة الابتداعية - الرومانسية - وقد خلفت مدرسة البارودي وشوقي وحافظ ومطران الحافظة - الكلاسيكية - وتزعمت حركة التجديد في الشعر ، والحت في الدعوة اليه .

اعلامها الثلاثة : عبد الرحمن شكوى ، وابراهيم المازني ، وعباس العقاد ، قاموا بدور كبير في خدمة نهضتنا الشعرية ، وفي نشر حركة التجديد في الشعر العربي الحديث . وتسمى « مدرسة شعراء الديوان » نسبة الى هذا

الكتاب النقدي المشهور الذي ألفه لثنان من هذه المدرسة ، وهما : العقاد والمازني ، وأصدراه في جزئين وبسطة فيه دعوتها الجديدة . ونقدا فيه حافظا وشوقيا والمنطوطي ، كما نقدا زميلهما الثالث وهو عبد الرحمن شكري ، وقد أحدث هذا الكتاب الصغير ضجة كبيرة في الجو الأدبي والشعري في مصر والعالم العربي ، وكان له تأثيره على شوقي والمنطوطي ، وغير من نظرية عمود الشعر القديمة * وعلى الرغم من أن شكري غارق زميليه وترجها وحدها في الميدان إلا أنه يعد رائد هذه المدرسة الأول ، وأمامها الذي اقتدى به زميله ومؤلا. الثلاثة ثقافتهم انجليزية «، وجهتهم هو الادب الانجليزي *

وقد لحتم الخلاف بين المازني وشكري ، وإسرفا في نقد بعضهم لبعض فكتب المازني في « الديوان » يهاجم عبد الرحمن شكري في مقال نقدي بعنوان « صنم لأعيب » : وكتب شكري يهاجم في مقدمة الجزء الخامس من ديوانه زميله القديم المازني ، كما كتب رمزي مفتاح كتابه المشهور « رسائل النقد » يهاجم فيه العقاد ، وينتهمه بالسرقة من شكري *

وقد قرر العقاد في كتبه ومقالاته أن مدرسة الديوان هي أول حركة تجديدية في الشعر الحديث ، وأنكر فضل مطران على حركات التجديد هذه ، وكانت ثقافة مطران فرنسية ، وذكر العقاد كثيرا أن شوقيا وحافظا تأثرا به وبمدرسة الديوان « وقد يكون ذلك مبالغة لا غير *

ومن حيث كان مطران يتزعم الدعوة إلى الشعر الموضوعي ، كانت مدرسة الديوان تدعو إلى الجانب الذاتي أو الغنائي ، فشعرها هو شعر الوجدان الذي يعبر عن ذات الشاعر وشخصيته أبلغ تعبير *

وادخل المازني في تعريف الشعر العاطفة ، والخيال ، واتجه العقاد إلى شعر لفكرة ، ودافع عنه في ديوانه « بعد الأعاصير » *

وقد صدر للعقاد في حياته : الجزء الأول من ديوانه (١٩١٦) – الأريمة الاجزاء الأولى من ديوانه (١٩٢٨) – وحي الاربعة هذبة الكروان (١٩٣٣) – عابر سبيل (١٩٣٧) – أعاصير مغرب – بعد الأعاصير (١٩٥٠) *

ولقد حمل رواد مدرسة الديوان : العقاد وشكري والمازني لواء الشعر بعد شوقي ، وأعلنوا الثورة على الشعر القديم (الكلاسيكي) ، وكتبوا أعنف الفصول النقدية التي غيرت مسار الشعر العربي المعاصر *

وقد جمعت زمالة العلم والشباب في مدرسة « في القاهرة » في أوائل القرن العشرين بين ابراهيم عيد القادر المازني وعبد الرحمن شكري وكاننا

تلميذين في المعلمين العليسا ، ثم تعرف بهما العقاد ، وصاروا مدرسة واحدة • إلى أن انفصل عنهما شكري ، ودب الجفاء بينهما ، ونقد شكري والمازني بعضهما بعضا نقدا شديدا •

وإشياء الله ان يعود الصفا بينهم فيحل محل العدا والجهاء ، وكان ذلك عام ١٩٣٤ ، فيتصافحون ويعد بعضهم يديه الى البعض الآخر •

ويكتب العقاد والمازني الفصول الطويلة عن شكري ، اعترافا بفضله ، واتر المازني باستاذية شكري له ، ونظم شكري قصيدته الطويلة « بعد الاخاء والعداء » ونشرها في مجلة « الرسالة » وقال فيها :

جنوت على الود الذي كان بيننا

وان صد عنه ما جنينا على الود

وقد تحدث الشاعر عبد الرحمن شكري في الجزء الثاني من ديوانه عام ١٩١٣ في قصيدته (نبوة شاعر) ، فائسرا ناقدا لاذع للتقليدين في شعرهم ، ولعله كان يتصد بهذا مدرسة الكلاسيكيين من امثال شوقي وحافظ وازراهم ••• ويوضح شكري مذهبه في الشعر في قصيدته (شكوى شاعر) التي نشرها في الجزء الثاني من ديوانه أيضا حيث يقول :

تد طال نظمي للأشعار مقتدرا

والقوم في غفلة عنى وعن شائى

قد أولعوا بكبير السن أو رجل

يبنى له الجاه ما يغلو به البانى

ويشرح شكري مذهبه في الشعر في مقدمته الطويلة التي كتبها مقدمة الجزء الخامس من ديوانه بعنوان (في الشعر ومذاهبه) ، التي نادى فيها بوحدة القصيدة ودعا الى حرية التعبير ، وطلاقة الأسلوب ، وتصوير الشعر لنفس الشاعر ، وتعبيره عن وجدانه تعبيراً صادقا مباشرا ، وأعلن الثورة على التقليديين ومذاهبهم •• وبهذا بدأ شكري دعوته الى التجديد في الشعر المصري الحديث الذي كان مطران ينادى به ، ويدعو اليه •• وبدأ شكري بعد ذلك كفاح مدرسة شعراء الديوان في سبيل التحرر الفني للقصيدة ، وحرية الشاعر في تعبيره ، ومن أجل تطوير أسلوب الشعر وأفكاره وموضوعاته، وقد اتسم شكري في شعره بنزعة انسانية عميقة تتجلى في مثل قصائده :

اليتيم ، غلام مريض ، رشاء عصفور ، ليتني كنت لها « التي ينسأدى فيها بانسانية الحياة والتفكير والعمل •• ويسود شعر شكري النزعة التصويرية العميقة ، التي تتجلى في عمق حبه للطبيعة وروعة تصويره لها . ولنقرأ قصيدة شكري القصيرة « سحر الطبيعة » التي يقول فيها الشاعر :

كؤوس من النور هذى الزمو
ر أم هى أخيلة الشاعر
وليست بحلم ولكنهما
أجل من الحلم الباهر
وما خلقت لفنون الخيا
ل فتنه حسن لدى الخاير
وماء الحياة ونبع الخلو
د فى مائه السلسيل المائر

وهيام شكرى بالطبيعة وحبه لها جزء أصيل من كيانه فقد ولد ونشأ
على شاطئ البحر الأبيض المتوسط فى بورسميد فى الثانى عشر من أكتوبر
عام ١٨٨٦ ، وعاش فيها أيام عزلة سبعة عشرة عاما من سنة ١٩٣٨ حتى
عام ١٩٥٥ ، وأصيب فيها بالشلل النصفى فى أواخر ١٩٥٣ ، ثم ودعها فى
أكتوبر عام ١٩٥٥ ليعيش مع أسرته فى الاسكندرية ، حيث الشاطئ والبحر
والجو الجميل لى أن قضى حياته ، ولفظ أنفاسه الأخيرة فى منتصف ديسمبر
عام ١٩٥٨ .

ويؤمن شكرى بالنزعات الانسانية النبيلة ، ويعد من بين شعراء الديوان
شاعر الحب والخير والجمال ، الحب الذى يقول فيه شكرى من قصيدته
« ليتنى كنت إلها » :

انا بالخير قائم واخسى
ابليس بالششر قائم والوعيد
كم سخرنا من خائف غير ندب
انما الجبن آفة الرعيد
وطربنا من عابد العمل الجم
عظيم القواد غير قعيد
اننا والحب خالدا نكلان
نؤ خيال ونشوة وجنود

ومن أجل رسالة الانسانية والحب التى آمن بها شكرى ، ترك شكرى
زميله فى مدرسة الديوان ، ثم اعتزل الحياة . وبين الحين والحين كان
يرسل نغمات يراعه الى مجلتي الرسالة والمقتطف ، وكنا منذ قامت رابطة
الأدب الحديث نريد أن نזור شكرى فى عزلة انعرب له عن اعجاب الجيل

العاصر به ويشعره ، ولنكبر جهاد في سبيل أمته وشعبه . وفي سبيل الأدب الذي أعزه ، والشعر الذي آمن به . . . ولكننا كنا كمن يبحث عن السراب . لم نعرف عنوان شكرى لنذهب إليه ، ثم ودع الحيساء الوداع الأخير . .

وكتب نثرلا يرسف في جريدة المساء عن شكرى (١٢ أكتوبر ١٨٨٦ - ١٥ ديسمبر ١٩٥٨) يقول :

كانت وصيته الأخيرة . . المكتوبة بيده اليسرى غير المشلولة :

« لا تدفنوني في حجرة تقفل على كالمسجن » ولكن في قبر يهال عليه للتراب » .

والحق أنه لم يجب القيود . . فكان متحرر النفس من الرذائل . . متحرر العقل من الخرافات . . متحرر الشعر من أغلال الشكل والموضوع . . منطلق الخيال في رحب الفضاء . . معتزلا تيبود الوطائف . . مطأبًا في عهود الاحتلال والاتطاع يتحرير بلاده من رقة الاستعمار والاستغلال . .

أما السجن المادي فقد جنى على أبيه وعلى أسرته من قبل ، يوم اعتقل أعوان الخديوى ، والده - محمد شكرى عياد - المناصرته الثورة العربية ، وصادقته لعبد الله النديم . . فنجم عن هذا السجن والتعطل ، وإما كابده من الضيق والارهاق ، أن خرج أبناؤه غير الشداء العود . . كما جنى أعوان المحتلين على الشاعر في حركة مصطفى كامل عام ١٩٠٦ لا وقف زميل الشاعر عبد الحميد بدوى « القاضى بمحكمة العدل الدولية » والقى على الجماهير تصيدة عبد الرحمن شكرى الوطنية :

ثباتا فان العار اصعب محملا

من الذل لا يفنى بنا الذل للعار

فاتهموا الشاعر بالتحريض على الثورة ونصلوه من مدرسة الحقوق بعد أن قضى بها عامين . . ويلحق الشاعر بمدرسة المعلمين بالقاهرة . . ويتخرج منها عام ١٩٠٩ ، ليرسل في بعثة إلى جامعة شيفيلد ، ويعود في خريف ١٩١٢ ليشتغل بالتعليم مدرسا فناظرا فمفتشا بالتعليم الثانوى . . ولكنه يظل ينظم الشعر ، وينشر الأبحاث الأدبية والنقدية في الصحف والمجلات . .

وكان ديوانه الأول : « ضوء الفجر » قد ظهر عام ١٩٠٩ - والشاعر في الثالثة والعشرين . . يقف على عتبة الحياة ، ولم يقتحم بعد ساحات

مشاكلها وتجاربها . ومع ذلك فإن الروح الثائر المجرى الذي سطع في تلك
الليابرة كان باهرا ، فانبهرى صديقه المازني بفرطه في الصحف .

وفي ١٩١٥ يظهر الجزء الثالث « أنشيد الصبا » ويتلو كل من الرابع
والخامس عام ١٩١٦ ، فالسادس عام ١٩١٨ ، فالسابع : « أزهار الخريف »
عام ١٩١٩ ، ثم تشغله مهوم المهنة التعليمية والتنقل في البلاد عن جمع
اشعاره في دواوين أخرى بعد هذا التاريخ ، فيكتفي بنشر شعره وابحاثه في
عديد للصحف والمجلات مرددا :

التقى بشعري في خلق الزمان ولا

أبيت منه على هم ويلبسال !

وقد أمكن جمع ما نشره من الشعر بعد عام ١٩١٩ في الجزء الثامن .

وأما كتبه الشعرية التي تضم فصوله وابحاثه في الأدب والنقد والدراسات
النفسية والفلسفية « فقد طبع منها في حياته خمسة كتب وهي : « القدرات »
و « حديث إبليس » و « الاعترافات » وقد ظهرت جميعا عام ١٩١٦ . ثم
« الصحائف » - ١٩١٨ وقصة « حلاق الجنون » - ١٩١٩ (بتوقيع ع . ش)
ولم يطبع منها بعد خمسة أخرى كان قد نشر فصولها فيما بين ١٩١٩
و ١٩٥٢ في مجلات الرسالة والثقافة والمتنطف والهلل وغيرها . . . وهي :
كتابه « نظرات في النفس والحياة » وقد نشر مسلسلا بمجلة المتنطف فيما
بين ١٩٤٧ - ١٩٥١ . و « الشعر العباسي » و « دراسات نفسية » و « بين
القديم والجديد » و « أبحاث ودراسات شتى » . ولم يضع الشاعر أسماء
لهذه الكتب الأربعة الأخيرة التي تفرقت فصولها في عدد من الصحف والمجلات . .
وهكذا لم ينقطع الشاعر عن نظم الشعر وكتابة الأبحاث حتى عام ١٩٥٢ يوم
أرغمه الشلل الذي أفلج نصفه الأيمن ولازمه إلى نهاية حياته على الكف عن
الانتاج الأدبي وإن كان لم ينقطع عن كتابة الرسائل الخاصة بيده اليسرى
إلى أهله وأصدقائه وتلاميذه حتى نهاية حياته .

وما كاد الشاعر يعتزل وظيفته بوزارة التعليم عام ١٩٢٨ بعد أن مارس
التعليم نحو ربع قرن حتى رغب في شغابه أن يوفر على النقص بعض
الجهد ، فأخذ ينشر فصول كتابه « الاعترافات » في الصحف ثم طبعها
عام ١٩١٦ في كتاب : كما نشر بعض الذكريات عن نشاطه وعن التعليم . .
وراح يصحح بعض الأخطاء التي وقع فيها ناقدوه في مقدمات دواوينه وفي
مقالاته التي لم تجمع أو رسائله التي لم تنشر . . ويشرح رأيه في الشعر
ومذاهبه ، والشعراء ومدارسهم ، كما عرف الشعر والشاعر ، وتوالت

الأنبياء عن سوء صحة الشاعر ، وحين جدت الدولة في تكريمه مات الشاعر
المعظم شكري راشد شعراء مدرسة الديوان ، وكانما كان يتمثل ما قاله في
صدر شبابه وهو في الغربة :

كنت مثل الغيد جرى به من
روضه والزمان غير نعيم
حيث وجه النهار جذلان بسا
م وجه الظلام غير بهيم
ودواع الى الغنساء كثرار
من حبيب وموطن وحميم
انزلوه في منزل مثل بطن الا
رض جهنم السماء جهنم الأديم

الفصل الثاني

المعناد ٠٠ وفن المقال الصحفي

- ١ -

يرتبط فن المقال في أدبنا الحديث بتاريخ الصحافة في بلادنا ، وهو فن جديد ، نشأ في أدبنا الحديث بتأثير اتصالنا العقلي بأدب الغرب .

ويختلف النقاد في تحديد معنى المقالة وخصائصها الفكرية ، وأول ما يصفونها به ، أنها لا تخرج عن كونها تعبيراً عن احساس الكاتب ، وعن آرائه الخاصة في الحياة .

فهذه دائرة المعارف البريطانية تذكر عن المقالة الادبية أنها « تضم مؤلفة ، متوسطة الطول ، وتكون عادة منشورة في أسلوب يعتد بالسهولة والاستطرد ، وتعالج موضوعاً من الموضوعات ، ولكنها تعالجه - على وجه الخصوص - من ناحية تأثير الكاتب به (١) » .

ويصفها أدهم سوهالكاتب آرثر بنسن - بأنها تعبير عن احساس شخصي أو اثر في النفس ، أحدثه شيء غريب ، أو جميل ، أو مثير للاهتمام ، أو شائق ، أو يبعث الفكاهة والتسلية ٠٠ ثم يسترسل في كلامه ، فيقول : وهكذا تكون المقالة قريبة للصلة بالقصيدة من الشعر الغنائي ! ولكنها تمتاز الى جانب ذلك بما ينتجه الفكر من الحرية ، وباتساع الأفق وبمقدرتها على أن تتناول نواحي يتحاماها الشعر ٠٠ ثم يستطرد بنسن : فيصف لنا كاتب المقالة بأنه شخص يعبر عن الحياة ، وينفذها بأسلوبه الخاص ٠٠ انه لا ينظر الى الحياة نظرة المؤرخ ٠٠ أو الفيلسوف ٠٠ أو الشاعر ٠٠ أو القصاص ولكن في فنه شيئاً من هذا كله ٠٠ انه ليس يعينه أن يكشف نظريات جديدة أو يوجد الصلة بين أجزائها المختلفة . إن طريقته في العمل أدنى الى ما يسمى الأسلوب التحليلي : يراقب ، ويسجل ٠٠ ويفسر الأشياء كما تجول له ٠٠ ثم يدع خياله يمرح في جمائها ومزاجها . والغاية في هذا كله أنه يحس احساساً عميقاً بصفات الأشياء ، ويمسحها ، ويريد أن يلقي عليها كلها نوراً واضحاً رقيقاً ، لعله يستطيع بذلك أن يزيد الناس حباً في الحياة « وأن يعدم لما اشتغلت عليه من المفاجآت المفردة والمحرزة (١) » .

(١) محاضرات عن فن المقالة الأدبية - للدكتور محمد عوض محمد .

(٢) المصدر السابق ، د ٠٠ عبد العزيز شرف : فن المقال الصحفي ، دار المعارف (طبعة كتابك) .

وعلى هذا النحو نجد المؤرخ « هـ ب » تشارلتن « استاذ الادب في جامعة مانشستر يقول عن المقالة الأدبية : انها في صميمها قصيدة وجدانية ، صيغت نثرا . لنتسرع لما لا يتسع له الشعر المظلم ! ثم يضيف : ان الأسلوب الجيد في المقالة يجب ان يكون « ذاتيا » لا يبنى على أساس عقلى ، ولا يبسط حقائق موضوعية (١) .

تلك هي - في اجمال - آراء الغربيين في تعريفهم للمقالة الادبية .

• وهذه الآراء - أو الأوصاف - نفسها نصادفها عندما نستعرض ماكتبه عنها بعض المعاصرين من الكتاب العرب كالكتور محمد يوسف نجم فهو يعرف المقالة الأدبية بانها قطعة نثرية محدودة في الطول والوضوح ، تكتب بطريقة عنوية سرية خالية من التكلف والرهق ، وشرطها الأول ان تكون تميرا صادقا عن شخصية الكاتب (٢) .

والكتور محمد عوض محمد يذكر فيما يذكره ، في محاضرة من محاضراته ان المقالة الأدبية الموفقة تشترك وأنت تطالعها ان الكاتب جالس معك يتحدث اليك . . . وأنه مائل أمامك في كل عبارة وكل فكرة (٣) .

• والمعاد يرى ان من شروط المقالة الحديثة انها ينبغي ان تكتب على نمط المناجاة ، والأسمار ، وأحاديث الطرق بين الكاتب وقرائه ، وأن يكون فيها لون من ألوان الثثرة أو الانفصاء بالتجارب الخاصة ، والأذواق الشخصية (٤) .

• ونعمات احمد فؤاد في دراستها لأدب المازني الذي ترى فيه كاتب المقالة الأول . في الأدب العربي الحديث . . . تقول في حديثها عن المقالة : انها ليست دراسة . . . ولكنها كلام ليس المقصود به التعمق والتركيز ، وهي في مدلولها الحديث ثثرة بليغة محببة . . . يبدأ صاحبها ولا يعرف كيف ينتهي (٥) .

(١) فنون الألب تأليف « تشارلتن » تعريب الدكتور زكي نجيب محمود .

(٢) ادب المقالة للدكتور محمد يوسف نجم .

(٣) محاضرات الدكتور عوض .

(٤) فرنسيس باكون للاستاذ المعاد .

• (٥) ادب المازني للدكتورة نعمات احمد فؤاد . . . ومن الجدير ان نشير هنا الى ما تراه الكاتبة من ان المقالة بمدلولها الحديث الذي لا يعترف بالتنظيم والتبويب والنطق نجدها عند الجاحظ فالبيان والتبيين مثلا باجزائه الثلاثة مجموعة مقالات تقوم الواحدة منها على فكرة يستطرد منها الجاحظ الى فكرة أخرى وان لم يجمعها رابط . والكاتبة تخالف الرأي السائد في ان مولد المقالة انما كان في الغرب .

أما عن موضوع المقالة الأدبية ٠٠ فيمكن القول : أن كل ما يوصف به
- في كلمة موجزة - موضوع المقالة الأدبية ، هو « اللاحدود » إن جاز هذا
للتعبير ! ٠

إن كل موضوع بالنسبة للمقالة الأدبية ملائم لها ٠٠ أو كما يقول
الدكتور أحمد أمين : كل شيء في الحياة صالح لأن يكون موضوعاً : من الذرة
الحقيرة إلى الشمس الكبيرة ، ومن الرذيلة إلى الفضيلة ، ومن كوخ الفلاح
إلى قصر الملك ، ومن الماضي إلى الحاضر إلى المستقبل ، ومن أتبع قبيح إلى
أجمل جميل ، ومن الحياة إلى الموت ، ومن الزهرة الناضرة إلى الزهرة
الذابلة . ومن كل شيء إلى كل شيء (١) ٠

والمعروف عند نقاد الأدب الغربي ، أن أول ظهور للمقالة بالصورة
التي عرفت بها كان في سنة ١٥٨٠ ميلادية حينما ظهرت مجموعة مقالات
الكاتب الفرنسي الحكيم « مونتين » ٠ ويرى عنه أنه رأى في مدينة
« بارلي دك » بفرنسا صورة رسمها لنفسه « رينيه » ملك صقلية فسأل
مونتين نفسه قائلاً : لماذا لا يباح لكل إنسان أن يصور نفسه بالقلم على
هذا النمط كما صور ملك صقلية نفسه بالألوان والخطوط ؟ وقد استطاع
مونتين أن يرينا في مقالاته جوانب شتى من شخصيته وأسلوب حياته ،
حتى قيل عنه « أنه أول من قال بوصفه أدبياً ما شعر به بوصفه إنساناً » ٠

فاول ميزة للمقالة هي أنها تعبير عن وجهة النظر الشخصية وقد تطورت
كتابة المقالة منذ عهد « مونتين » ولكنها مع ذلك لا تزال مختلفة بابرز
مميزاتها وهي تناول الموضوعات من وجهة النظر الشخصية ٠ وقد أصبحت
هذه العلامة الأكيدة بين الكاتب والمقال الذي يكتبه هي السمة الدالة والعلامة
التي تميزها من سائر ضروب الكتابة الفكرية ٠

وتتمتاز المقالة في العصر الحاضر بالإيجاز ٠ ولكنها لم تكن كذلك في
مختلف مراحل تقدمها ٠ فقد جاء وقت كانت المقالة تستغرق عشرات
الصفحات ، وقد كان « ماکولي » و « كارلايل » من أقدر كتاب المقالة و
الأدب الانجليزي خلال القرن التاسع عشر ، ولكن مقالاتهما كانت طويلة
ضافية ، أقرب إلى أن تكون بحثاً شاملاً مع احتفاظها بالمميزات الأصلية
للمقالة ، والمقالة بطبيعتها لا تحاول - قصرت أو طولت - استيفاء الحقائق
جميعها أو حشد المعلومات الغزيرة ، وإنما يختار كاتب المقال جوانب من
الموضوع الذي يطرقه ، ويعرضها للبحث والنظر ، ويسلط عليها أضواء

(١) فيض الخاطر - جزء أول - للدكتور أحمد أمين ٠

فكرة ، ويلونها بلون شخصيته ، وهو في هذا العرض يكتشف عن مدى قدرته الفنية ، لأن عليه ان يتحرى اظهار النواحي التي تثير الاهتمام بموضوعه ويفغل التفاصيل الملهمة ، ولا يستلزم هذا البراعة وحسن التأنى في اختيار الموضوعات فحسب ، بل يستلزم كذلك القدرة على انتقاء المواد المناسبة وانماء الفكرة ، وتحديد الهدف ، ولا بد من ان يبرز كاتب المقالة الجيد اجادة الاستهلال وبراعة القطع .

الغاية الأساسية للمقالة هي الامتناع . فاذا انحرفت المقالة عن هذا الهدف الرئيسي ، أصبحت غايتها اعطاء دروس في الاخلاق ، أو غطت ادبية ، أو رسم صورة تامة ، أو سرد قصة عاطفية ، أو أي لون آخر من ألوان الأدب ، والمقالة بطبيعتها تقدم لك الكاتب كما تقدم لك الموضوع الذي يكتبه بوحى من شعره وفكره والحالة النفسية المستولية عليه .

واستجابة الكاتب للحالة النفسية الغالبة عليه وصياغتها ، قد يكون باعثها تبرمه بمادة من امادات ، أو كراهيته لتقليد من التقاليد ، أو ارتياحه لشحو طائر مفرد ، أو إعجابه بصفة تستوجب الإعجاب ، أو تأثره بوعكة طارئة ، أو تسجيل خاطرة عابرة ، فالحالة التي تحدثها أمثال هذه الأمور هي موضوع المقالة وللب لبايها .

وما دامت المقالة تتناول موضوعها يميز عن عقل الإنسان وشخصيته ، فلا بد أن تكون حرة طليقة غير خاضعة لدعوة من الدعوات . أو محبذة لمبدأ من المبادئ ، أو مسخرة من أجل عقيدة من العقائد ، أو مذهب من المذاهب . حالة الكاتب وانما فكرته ، لابد من اجادة تصميم المقالة ومراعاة الانسجام بين الفكرة واسلوب الأداء ، والمقالة في العادة تقوم على فكرة رئيسية ، وعلى الكاتب أن يختار اللفظ الملائم الذي لا يبعده عن الهدف المقصود ، فالوحدة والتماسك والتسودج في الانتقال من خاطرة الى خاطرة أخرى من الخواطر التي تتجمع حول موضوع المقال ، من الزم ما يلزم في أدب المقالة ، والمقالة قبل كل شيء عمل فني يستدعي لقائه والتبريز فيه اقتران الوهبة بالممارسة والتجربة ، فتلتقي حينئذ في كاتب المقال للصفات العقلية بالمزايا للشخصية لأنها - أي المقالة - تعبير عن وجهة نظر خاصة .

وعناك تجارب بين التطورات التي حدثت في كتابة المقالة والأحوال التي احاطت بكتابتها ، فهي مثل سائر فروع الأدب ، تتأثر بالبيئة وتعمل على أن تلائم بين طبيعة فنها وبين التيارات الفكرية ، والاتجاهات النفسية، والأحوال الغالبة ، وربما كانت الصحافة أقوى المؤثرات في كتابة النفسية ، الحديثة ، فالمصحفة تتحرى خدمة عدد ضخم من القراء مختلفي المشارب

والأذواق ومتفاوتى القدرة على الفهم والتقدير ، ولما كان الذّائب يكتب المقال ليتمتع القارئ ، لذلك أصبح لزّما عليه ان يراعى احوال لقراءه الاجتماعية ومدى ما يملكون من الوقت ، فمن القراء من يحاولون قراءة المقال وهم في إحدى مركبات الترام أو السكّة الحديدية في طريفهم الى مقار اعمالهم التي تستأثر بوقتهم وجهدهم ، ومنهم من يبعد الى قراءة المقال بعد عودته من عمله متعبا ، هذا فضلا عن تفاوت المستويات الثقافية ومعايير التقويم والتقدير .

والقالة في الأدب العربي ليست من غنون الأدب المجهولة ، فكانت قديما تعرف باسم الرسالة ، وليس المقصود الرسائل الديوانية أو الرسائل التي تتبادل بين الكتاب ، وإنما المقصود الرسالة التي كانت تدور حول موضوع يختاره الكاتب ، مثل رسائل الجاحظ وابن القفّح وابن شهيد وغيرهم من كتاب العرب ، ولكن المقالة في الأدب العربي الحديث مختلفة بطبيعة الحال عما كان يعرف قديما بالرسالة ، فقد تأثر كتاب المقالة الحديثة باتجاهات السائدة في الأدب الغربية ، وفي الحق أن تاريخ المقالة العربية الحديثة متصل اتصالا وثيقا بتاريخ الصحافة في الشرق الأوسط ، ومعنى ذلك أنه يرجع الى عهد غزو نابليون بونابارت للشرق ووجود الطابع الحديثة وإنشاء الصحف ، وهذه العلاقة الأكيدة بين تاريخ الصحافة في الشرق الأوسط وكتابة المقالة ، جعل ظهور المقالة الأدبية مقترنا ومعاصرا لظهور المقالة الصحفية ، وقد ظلت الجرائد فترة طويلة محتفظة بطريقة المقال الافتتاحي ، وكان يدور في الغالب حول الموقف السياسي وما يعرض فيه من الأحوال والتقلبات والاصلاح الاجتماعي بوجه عام ، ومحاولته إيجاد وعى تومى ، وحينما تألفت في مصر الأحزاب السياسية ، رأى زعماء الأحزاب أن يكون لكل حزب جريدة تعبر عن وجهة نظره وتؤيد مبادئه ، وكان يراعى في كتابة المقال الافتتاحي المبادئ الأساسية التي تألف من أجلها الحزب .

وقد ظهر المقال الأدبي الى جانب المقال الصحفي ، فانتقال الصحفي يتناول المسكلات القائمة والقضايا المعارضة من الناحية السياسية ، والمقال الأدبي يعرض لمشكلات الأدب والفن والتاريخ والاجتماع ، وبضرورة الحال كانت المقالة الأدبية أقرب الى طبيعة المقالة وفنها الاصيل من المقالة الصحفية ، وقد وجد بين كتابتنا من استطاع الاجادة في النوعين مثل عباس محمود العقاد ، فقد اشتهر في مقالاته السياسية ، بحملاته الشّعواء على خصومه السياسيين والدكتور حسين هيكل امتازت مقالاته الصحفية بالفقه القانوني والتأثير بالماذهب السياسية والاجتماعية الحديثة ، والدكتور طه حسين كانت مقالاته الصحفية تظهر فيها ذخائر اطلاعه على الأدب العربي والتاريخ الاسلامي .

واشتهر بعض الكتاب بإجادة المقالة الصحفية دون أن تكون لهم مشاركة ماثورة في كتابة المقالة الأدبية ، ومن هؤلاء الكاتب الصحفي التقدير عبد القادر حمزة ، وقد كان في مقالاته الصحفية ، من اقدر الكسب على الدفاع عن ارائه السياسية ، واحمد حافظ عوض ، وكان يمزج مقالاته الصحفية بالفكاهة اللطيفة والسخرية اللاذعة ، والدكتور محمود عزمي ، وكانت تبدو من خلال مقالاته الصحفية ثقافته الاقتصادية واسلعه على تيارات السياسة الغربية ، ومن اقدر كتاب المقالة الادبية الخالصة ميخائيل نعيمة ، وجبران خليل جبران والانسامي وعبد العزيز البشري ، ولابد من توفر شرط مهم في كاتب المقالة الصحفية وكاتب المقالة الادبية على السواء ، وهو أن يعرف الكاتب كيف يكتب ، وأن يكون غزير العلم ، واسع الاطلاع ، متنوع الثقافة ، مع توفد القريحة ، ونفاذ البصيرة ، ودقة الملاحظة ، ورهافة الذوق ، حتى يعرف كيف يخطف القارئ ويستحوذ دون أن يترك الشطط ويعتسف للطريق ، وكلما كان الكاتب موفور الحظ من الثقافة الادبية جاءت مقالاته مل كمة النسيج شائقة العرض قويمة التفكير متماسكة المنطق .

والقالة الصحفية أو الأدبية معرض لدقائق الأحاسيس وشريف الخواطر ويمكن أن تكون مرآة جيدة الصقل تمكس صورة الكاتب وظلال العصر الذي يعيش فيه والبيئة الاجتماعية والسياسية التي تحتويه (١) .

وإذا حاولنا دراسة المقالة عند أديب معاصر كالمقاد خاتنا نلاحظ أنه لم يكن كثيرا باللون الأدبي الصرف من المقالة لاسيما في طور اديه الأخير ، وإنما كان يلبس مقالاته في العلم والاجتماع ثوب الأدب الشائق ، ومع هذا فإن ما كنبه مما يقع تحت هذا الضرب من المقالة كان يضمه في الغالب فكرة اجتماعية أو إنسانية سامية ، ففي مقال له في « الهلال » (نيسان ١٩٥٠) عن « زهرة الربيع » يقول في خاتمته « ولعلنا لا نتمنى لهذه الأرض المضطربة أمنية هي أسلم لها وأكرم عليها من أن تنتسج فيها رقعة الزهر ولو جارت على رقعة المصانع والمامل والكاكين » أو مقالة الذي نشره في الهلال (عدد تشرين الأول ١٩٤٧) بعنوان « حديث مع عرون الرشيد » ضمنه أكثر من متعة أدبية عابرة ورأيا خاصا في حياة العرب السياسية من وجوده .

وهو على كل لون تتجلى فيه الحلاوة في السرد ، والتماسك بين أجزاء الموضوع ، والفكرة المكتملة بنفسها ، فلو توقفت عند فقرة معينة انتهت

(١) راجع مجلة القافلة عدد رجب ١٣٨٥ ، من مقال لمي آدم ، د. عبد العزيز شرف : فن التحرير الاعلامي ، القاهرة (هيئة الكتاب) ١٩٧٨ .

عندما مطالعتك ثم عدت لما يليها بعد انقطاع عن القراءة لما أحسست أنها
دخيلة على البحث ، وإنما هي في موضعها على قدرها الملائم ذات صورة
منفصلة متصلة في آن واحد .

أما « الشكل » في مقالة العقاد الأدبية فغنى عن الوصف : بيان صاف
منين ، وسبك جلي ، جيد متراض ، وطلاقة بمصاحبة ، ولفسة وضاحة
لا تموزها الصحة ولا البروعة ، ولا الفكرة الصائبة التي انتهكت درسا
وتمحيصا ومعالجة .

فالمقالة لدى العقاد هي مزيج من الأدب والعلم والاجتماع معا ، وإن كانت
الصيغة الطاغية عليها هي صيغة الأدب أسلوبيا ولغة وشكلا ، ولكنها ذات
موضوعات ليست أدبية خالصة في الغالب ، وهكذا . والحديث عن أدب
المقالة عند العقاد هو حديث عن المقالة الأدبية والعلمية والاجتماعية مجتمعة .
ومقالاته التي كان يولي نشرها في « أخبار اليوم » نموذج صالح لذلك ، وقد
يكون العقاد على حق في هذا الجمع إذ هو فهم المقالة كفهم الكاتب « دوجلاس
ميد » لها « حيث يقول في كتابة « القراءة الجيدة » عن المقالة : « هي نزعة
حافلة بالهواجس كاتبها القائد وقارئها الجذدى فيها . يجول الكاتب بين النقد
اللاذع أو البحث في الجمال أو التاريخ ، وتلك ميزة في نظرى لقادة العقاد
بالجامعة ، وأول ما يلتفت انتباهك في مقالات العقاد تلك الاستهلاكات البارة
العنيفة التي تصور من شخصية العقاد كثيرا من المعالم ، فتحس من أول وهلة
أنك قد أخذت وانصرفت لتتبع ما يكتب صاحب هذه البداية المتميزة بحق ،
يقول الأديب « مادوس » في كتابة « المقالة وكتابتها » : « أما بداية المقالة
فعلى غاية من الأهمية والبراعة والتأثير ، ... وهذا بالضبط ما أشرنا إليه
كسمة بارزة في مقالة العقاد .

والمادة في مقالة العقاد ميسرة تحس أن كاتبها قد ألم بدقائقها
واكب عليها درسا وتمحيصا وترتيباً ، ثم هي مسكوبة بنظام واحكام
بعد أن جازت في مخيلة الكاتب أطوارا عديدة من التصميم ، وهذا بالضبط
ما ذهب إليه الدكتور إسحق موسى الحسيني حين قال في أدب المقالة من
أن كاتب المقالة لا بد من أن يقيم لها صورة مصغرة تحتوى على كل
دقائقها وأفكارها والا فهي ضرب من التائق اللفظي لا طائل تحته ولا غناء
فيه ، الا بضع أفكار تاتت بكذ الذهن ، فتبعثرت في ثنايا الالفاظ بعشرة
تبيضة من الدر في كيس من الرمل .

ولا تموز العقاد الحقائق في مقالته أبدا ، وإنما هو يحشد لها
حشدا مسلحا بمتاد البلاغة النفاذة ، وهكذا فهو أقدر على الاقتناع والتأثير

دون أن يجهد لهذا . وهي مادة قوامها لديه العمق بل التعميق أحيانا حتى ليعجز القارىء في شبه مهامه من الأفكار والآراء الشائكة وهي ليست في الغالب إلا جسدا لا منزل فيه ولا دعابة ، لا قليلا ، أو منزل في جسد إن شئت. ولكنه مصيب بكلا الأمرين أو بدونهما فيما يبيغيه من قارئه من متعة وإيناس بما يدخله أحيانا من روح تلطيف ولذعات فما تحس فيما تحس فيمسا تقرا له بسام وإن كنت تحس أحيانا بتمب ، تغوص في أجزاء بعض الآراء التي يعرضها ، أو حين تضطر لنغزاهما من جديد مثنى وربما ثلاث ، وهي مقالة عادية متزنة ولكنها قوية صلبة فيها كثير من العنف المكبوت ، أو الجبروت المتطامن على الأصح أما ثقة العقاد فيها بنفسه فتداني الاعتداد على الدوام . لهذا كان عامل شخصيته فيما يكتب بارزا أجلى بروز فما تخطئ أسلوبه حواسك بين ركام من أساليب سواء وأثارهم . ولعل من آثار هذا الاعتداد أنه واحد من نفر ضئيل من الكتاب لا يستعمل ضمير المتكلم إلا جمعا على الدوام ، وقد يشتت علمه فيكتب بضمير المتكلم المفرد سهوا ، فيمسود مستدركا يستأنف بضمير المتكلم الجمع .

إن روح النقد والتعالي والكبرياء والافتخار والتفرد على التأثير هي من أهم مقومات المقالة عند العقاد .

٢ -

والعقاد الكاتب تسنده أصوله كبيرة وثقافته واسعة وخبرة وتجربة للحياة ، ويعد أكبر كاتب عربي معاصر كما يقول شوقي ضيف (١) ، وكتاباته تشيع فيها روح فلسفية قوية ، وتحدث الناس عن عقرياته طويلا (٢) ، وقد شغل العقاد الناقد الكثير من الدراسات والدارسين (٣) ، والدراسات الأدبية عند العقاد متنوعة ، ومنها دراسته عن « ابن الرومي » وقد استخدم مذهب التحليل النفسي فيها في فهم حياة الشاعر ، وكذلك دراسته الأصلية عن المتنبي في كتابه « مطالعات » .

وقد عاش العقاد يرفض الشعر الحر ، ويدافع عن العربية .

ويقول عثمان أمين (٤) فيه : العقاد أديب وفيلسوف ومن المفكرين المبدعين ، وكتاباته تزود المكتبة العربية ب ذخيرة رائعة من مختلف

(١) مع العقاد - سلسلة اقرأ - أشواقى ضيف - عدد ٢٥٩ .

(٢) راجع في مجلة الأزهر عام ١٣٨٦ مقالات لثمات فؤاد عن عتريات العقاد الإسلامية .

(٣) راجع كتاب عبد الحى دياب الضخم « لعقاد ناقد » وهي رسالة نال بها الماجستير من دار العلوم وكان يكتب فيها حياة العقاد .

(٤) راجع ص ١٣ وما بعدها من كتاب نظرات في فكر العقاد لثمان أمين .

الثقافات ، وأدبه يتميز بالاصالة والاحتفال بالتجربة والمعاناة ، والتعبير الجميل عن الشعور الصادق والأدب ما هو إلا محاولة للفهم بتجربة شاملة، وتفكير الأديب ما هو إلا جزء من الحياة ونوع من الابدوة .

والمعقاد باحث معتمد برأيه وناقض نائذ البصيرة ، وجدلى بارع الحجة . والمعقاد يرفض المحاكاة ، والفن عنده مراتب بحسب وفرة نصيبه من الحرية والإبداع والبدع عن المحاكاة (١) .

والمعقاد يربط الجمال بالحرية ، وكان رأى شلى الشاعر الانجليزى للكبير ، وقد توسع المعقاد فى معنى الحرية ، فلم يقتصر على فهمها بالمعنى الإرادى البشرى ، بل جعلها تتسع ليعمض الأشياء الطبيعية الماثلة ، فالجمال والحرية عنده وجهان لحقيقة واحدة ، ويربط الجمال بالحياة أيضا من خلال وسيط مهم هو الحرية .

والمعقاد مع ما بلغه من المنزلة العالية فى النثر الأدبى ، ومع ما أحدثه من التطور فى الأسلوب ، هو شاعر ، وشاعرية المعقاد يعقلها ديوانه بأجزائه الأربعة ، التى سماها : بقطة الصباح ووجه الظهيرة وأشباح الأصيل وأشجان الليل ، وقد أعاد نشر هذه الدواوين عام ١٩٢٨ م .

ثم نشر للمعقاد ديوانه : وحى الأربعمين وهدية الكروان عام ١٩٢٣ ، وفى عام ١٩٣٧ نشر ديوانه عابر سبيل ، وفى عام ١٩٤٢ نشر ديوانه « أعاصير مغرب » وكان قد نيف على الخمسين من عمره ، وفى عام ١٩٥٠ نشر ديوانه « بعد الأعاصير » وهذه كلها ثروة شعرية أصيلة تمثل جانب تجديديا واضحا فى شعرنا المعاصر .

(١) مجلة القافلة - رمضان ١٣٨٥ هـ - عن مقال لؤكربا أبو عييم .

الفصل الثالث

المعاد ومدرسة شعراء الديوان

كيف نشأت هذه المدرسة :

مدرسة الديوان من المدارس الشعرية الجديدة بعد مدرسة البارودي وشوقي وحافظ ومطران ، تزعمت حركة التجديد في الشعر ، وألحت في الدعوى إليه .

أعلامها الثلاثة شكري والمازني والمعاد قاموا بدور كبير في خدمة نهضتها الشعرية ، وفي نشر حركة التجديد في الشعر العربي الحديث . وتسمى مدرسة شعراء الديوان نسبة إلى هذا الكتاب النقدي المشهور ، الذي ألفه اثنان من هذه المدرسة ، وهما المعاد والمازني ، وأصدراه في جزئين ، وبسطا فيه دعوتهما للجديدة ، ونقدا فيه حافظا وشوقيا والمنفلوطي ، كما نقدا زميليهما الثالث وهو عبد الرحمن شكري ، وقد أحدث هذا الكتاب الصغير ضجة كبيرة في الجو الأدبي والشعري في مصر والعالم العربي ، وكان له تأثيره على شوقي والمنفلوطي ، وغير من نظرية عمود الشعر القديمة ، وعلى الرغم من أن عبد الرحمن شكري فارق زميليه وتركهما وحدهما في الميدان إلا أنه يعد رائد هذه المدرسة الأولى ، وإمامها الذي اقتدت به ، ومؤلاؤا الثلاثة ثقافتهم انجليزية ووجهتهم هو الأدب الانجليزي .

وقد احتدم الخلاف بين المازني وشكري ، وأسرفا في نقد بعضهما لبعض ، فكتب المازني في كتاب « الديوان » نفسه يهاجم عبد الرحمن شكري في مقال نقدي بعنوان « صنم الألاعيب » ، وكتب شكري يهاجم في مقدمة الجزء الخامس من ديوانه زميله القديم المازني ، كما كتب رمزي مفتاح كتابه المشهور « رسائل النقد » يهاجم فيه المعاد ويتهمة بالسرقة من شكري.

وقد ذكر المعاد في كتابه « شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي » أن ثقافة مدرسة شعراء الديوان كانت تتناول كل الثقافات العالمية ، عن طريق الأدب الانجليزي ، وأنها استفادت من النقد الانجليزي فوق استفادتها من الشعر وكل فنون الأدب الأخرى ، وأنها اتخذت هازلت إماما لها في النقد ، وكان مرجعها الأول مجموعة « الكنز الذهبي » وهي مختارات مشهورة من الشعر الانجليزي من عهد شكسبير إلى أوائل القرن العشرين .

وذكر العقاد كثيراً أن شوقيًا وحافظًا تأثرا بمدرسة الديوان ، وهو في ذلك مدّ مسرف في المغالاة والإدعاء .^٥

ج

وقد كرر العقاد في كتبه ومقالاته في حياته أن مدرسة الديوان هي أول مدرسة تجديدية .

ومن حيث كان مطران يبتزعم حركة الدعوة إلى الشعر الموضوعي في الأدب الحديث^٦ كانت مدرسة شعراء الديوان تدعو إلى الجانب الذاتي أو الغنائي منه ، فشعرها هو شعر الوجدان الذي يعبر عن ذات الشاعر وشخصيته أبلغ التعبير ، واتخذ شكراً شعاراً له على الجزء الأول من ديوانه الذي سماه ضوء الفجر^٧ وهو اسم رومانسي ، هذا البيت من شعره :

ألا يا طائر الفردوس إن الشعر وجدان

وأدخل المازني في تعريف الشعر الماطفة والخيال ، واتجه العقاد إلى شعر الفكرة ودافع عنه في ديوانه « بعد الأعاصير » ونقد مندور العقاد في شعره في كتابه « الميزان الجديد » (١) ، ونقده الرفاعي في كتابه « على السفود » ودواوين العقاد هي : ديوانه (الجزء الأول ١٩١٦) ، الأريمة الأجزاء الأولى من ديوانه (١٩٢٨) ، وحى الأربعين ، هدية الكروان (١٩٣٣) ، عابر سبيل (١٩٣٧) ، أعاصير مغرب ، بعد الأعاصير (١٩٥٠) .

لقد حمل العقاد وشكراً والمازني لواء الثورة ضد الشعر الكلاسيكي والشعر القديم ، وحالوا هم زعماء الشعر العربي المعاصر ، وكتبوا أعنف الفصول النقدية التي حفظها تاريخنا الأدبي وثائق ذات قيمة كبيرة في تاريخنا الفكري والشعري المعاصر .

ولنتحدث عن رواد مدرسة الديوان^٨ واحداً واحداً ، لنتعرف إليهم وإلى أفكارهم في الجتديد .

عبد الرحمن شكرى رائد مدرسة الديوان

كان شكرى (١٢ أكتوبر ١٨٨٦ - ١٥ ديسمبر ١٩٥٨) من رواد المدرسة الحديثة في الشعر العربي ، وهي المدرسة التي خلفت المدرسة القديمة التي تمثلت في شوقي وحافظ وأصراحيهما ، والتي ورثت بلاغة البارودي ومذهبه ، والتي بقيت امتداداتها حتى اليوم ممثلة في شعراء كثيرين لا يؤثرون بالشعر العمودى المجدد شيئاً .

وكان شكرى من أشهر هؤلاء الرواد ، وأكثرهم دعوة الى التجديد ، وحرصاً عليه ، وإيماناً به . . ولداته وزملاؤه في الدعوة الى التجديد والجديد : خليل مطران ، وأحمد زكى أبو شادى ، وعبد القادر المازنى ، والمقاد .

وقد تأثر الدكتور أبو شادى ومدرسته بمطران ، وعدوه رائد الشعر الجديد وإمامه ، تأثر كثيرون بشكرى وعدوه عميدهم ورائدهم ، ومن أوائل من تأثر بشعره وشاعريته عبد القادر المازنى زميل شكرى في مدرسة المطميين العليا ، والذي كتب الكثير في شتى المناسبات عن استاذية شكرى وإمامته ، ومما قاله المازنى عنه : كان شكرى أول من أخذ بيدي ، وسدد خطاى ، ودلنى على المحجة الواضحة ، ويقول كذلك : « كان الجزء الاول من ديوان شكرى ، ويوميات المقاد ، بداية افتتاح المذهب الجديد في الأدب ، وفاتحة الصراع بينه وبين المذهب القديم » مذهب شوقي وحافظ وأصراحيهما ، وبعد وفاة شكرى كتب المقاد ينوه بألميته وسعة اطلاعه ، وتعدد مواهبه ، وإن كان لم يعترف باستاذيته ، ولم يجعل نفسه عالة على أحد في المذهب الجديد في الشعر .

وقد تعارف شكرى والمازنى والمقاد من عهد طويل ، عرف المازنى شكرى في دار المطميين العليا ، ثم تعرف بالمقاد ، وعرف به شكرى ، وجمعت ثلاثتهم روابط الأدب وصلات الشعر ، والدعوة الى المذهب الجديد فيه ، وقدم المقاد الجزء الثانى من ديوان شكرى عام ١٩١٢ ، وأثنى على شاعريته وموهبته ، وكتب المازنى عام ١٩١٣ مقالات نشرها في جريدة عكاظ الأسبوعية يوازن بين شكرى وحافظ ويفضل شكرى عليه . . وقد استقطاع الوشاة فيما بعد أن يفرقوا بين هؤلاء الثلاثة ، فأخذ المازنى ينقد شكرى .

وكتب شكرى عام ١٩١٦ في الجزء الخامس من ديوانه ينقد المازنى ويمعيب عليه سرقاته الشعرية من الشعر الغربى . وتبادلا النقد على صفحات جريدة النظام . ونقد شكرى المازنى والمقاد على صفحات عكاظ في مقالات نشرها

عام ١٩١٩ و ١٩٢٠ ونقد المازني شكري في كتاب الديوان ، الذي ظهر عام ١٩٢١ وسماه صنم الالاعيب ، ورماء بالشعوذة والجنون ، ولم يعد الصفاء بين الشعراء الا عام ١٩٣٤ ، حيث كتب المازني من جديد ينوء بشكري ، ويقر باستاذيته . وظل طول حياته يعد ذلك وفيما له .

وكان ابو شادي اكثر الناس حبا لشكري وتقديرا له ، وانصافا لواهيه ، وكتب عنه الكثير من الآراء النقدية ، التي ضمنتها كتابي « رائد الشعر الحديث » وكذلك كان شعراء مدرسة أبولو ، ممن عدوا شكري بنبوغا من ينابيع الشعر الحديث في مصر والعالم العربي .

وشكري يتمثل تجديده في ديوانه الذي ظهر الجزء الأول منه « صوء الفجر » عام ١٩٠٩ ، وأعيد طبعه عام ١٩١٤ ، ثم الجزء الثاني منه « لآلى الأفكار » عام ١٩١٣ ، والثالث « أناشيد الصبا » عام ١٩١٥ ، والرابع « زهر الربيع » ، والخامس « خطرات » عام ١٩١٦ ، والسادس « الأفنان » عام ١٩١٨ والسابع « أزهار الخريف » عام ١٩١٩ . ثم أعيد طبع الديوان في مجلد واحد عام ١٩٦٠ بعد وفاة شكري في طبعة ضخمة على نفقة الاستاذ عبد العزيز مخيون ويتقديم الأستاذ نقولا يوسف ، وأضيف إلى الأجزاء السبعة، جزء ثامن ، جمع فيه شعره منذ عام ١٩١٩ حتى وفاة الشاعر .

كما يتمثل كذلك في كتبه المطبوعة : الغمرات ، والاعترافات ، وحديث ابليس ، التي ظهرت عام ١٩١٦ ، والصحائف وقد طبع عام ١٩١٨ ، والحقاق المجنون ، وقد نشر عام ١٩١٩ ، وفي كتبه المخطوطة التي نشرت فصولها في الصحف والمجلات ولم تطبع في كتاب بعد ، والكثير منها وثائق حية لحياة شكري الانسانية والفنية .

وكان شكري كما يقول العقاد من أوائل من دعا الى وحدة القصيدة ، ونظم من الشعر المرسل ، وعدد صور القافية ، وجدد في بحور الشعر ، ولف القصة الشعرية العاطفية والاجتماعية والتاريخية . . ولم يحفل بشعر المناسبات ، وليس في ديوانه الكبير منه شيء .

وشعره الغنائي الوجداني المعبر عن ذات الشاعر وعاطفته مثل للتجديد في الشعر المعاصر .

وكان شكري كذلك من أوائل من مهد لمذاهب النقد الحديثة في الأدب العربي . وسار على المذهب النفسي ، وطبقه في دراساته للشعراء القدامى والمعاصرين .

وقصائده : في سبيل الجامعة ، ومصرى عربى ، والتأليف ، ورثاء مصطفى كامل ، وهى مما تضمنه الجزء الأول من ديوانه ، وكذلك قصائده : التجدد والتغير ، وليتنى كنت لها : ، والحجاب ، والحرية والإيمان بالحياة ، التى تضمنها الجزء الثانى من ديوانه ، وكذلك قصائده * صوت النسكير وهى من أعز قصائده التى احتوى عليها الجزء الثالث ، وكذلك قصائده : نجى النجوم وليلة الحسن * والبطل المنتظر ، وخميلة الحب ، وعيش الأدياء ، وشقوة العيش ، والأمال الداوية ، وقد تضمنها الجزء الخامس من ديوانه ، وقصائده : ابو الهول * وهمم خوفو ، والمثل الأعلى ، والفصول ، وهى من عيون قصائده فى الجزء السادس ، وقصائده آية الحسن ، والشلال ، وياوضى البسمات ، والوت وهى من قصائد الجزء السابع : وقصائده : الطفل ونحو الفجر ، وسر الحياة ، وصوتك * وشفق الغروب - وهى مما تضمنه الجزء الثامن ، وغيرها من قصائده * كل هذه القصائد صور حية ناطقة بتجديد شكرى ، ومذهبه الجديد فى الشعر * كما يتمثل فى قصيدته « خميلة الحب » الثانية التى تأثر فيها بابن الفارض . وكان شعره من أوائل ما قرأه شكرى من دواوين الشعراء القدماء ، وكان فى مقدمة من قرأ لهم : ابن الفارض والبارودى والمتنبى والشريف الرضى والمعري وابن الرومى ، كما قرأ لشعراء الغرب مختارات من شعرهم تمثلت فى كتاب « الكنز الذهبى » ، وكان يدرس بالمعلمين العليا * ويقول شكرى فى مطلع قصيدته « خميلة الحب » :

تمهل رعاك الله أقصى لبائتى
واتلو على تلك الرياض تحيى
فانى تعلمت الهوى فى ظلالها
وفيهما رايت الحسن أول رؤية

وشعره فى الطبيعة تأثر فيه شكرى بحياته وبيئته وبشعراء الغرب ، وبالطبيعة الانجليزية التى سحر بها أبام دراسته فى إنجلترا ، ويقول من قصيدة له :

قم فان الدهر غفلان وقضاء النحس وسنان
رق ليل أنت راقده فكان الليل ولهان
إن جرما أن تنام ما لهذا الجرم غفران

ومن أشهر قصائده : ظالى ما أعدك ، وهى فى الجزء الثالث من ديوانه ، ويقول فى مطلعها :

ظالى ما أعبدك فاقض إن الحكم لك

وتصيحته شكوى شاعر ، ونبوءة شاعر ، وهما في الجزء الثاني من ديوانه ومطلع الأولى :

قد طال نظمي للأشعار مقتدرا والقوم في غفلة عني وعن شأني
وفي الثانية يقول :

أئن خائننى الذكر الجليل وملنى مسامع قومي أو غلبت على أمري
سيروى عظامي شاعر بدموعه وينثر أزهار الربيع على قبري

وفي ديوانه كثير من القصائد التي تحدثت عنها ، وعن شعره وشاعريته ، وعن مذهبه الجديد في الشعر * :

هذا هو شكوى الشاعر الكبير المجدد الرائد ، الذي فقحناه في الخامس عشر من ديسمبر عام ١٩٥٨ ، والذي كان ميلاده في بورسعيد الخالصة في الثاني عشر من أكتوبر عام ١٨٨٦ م *

عاش شكوى اثنتين وسبعين سنة قضى منها أيام نشأته الأولى في مدينة بورسعيد حتى نال الابتدائية من إحدى مدارسها عام ١٩٠٠ ، ثم عاش في الاسكندرية بعد ذلك أربع سنوات هي أيام تعليمه الثانوى في مدرسة رأس التين الثانوية * ثم سافر إلى القاهرة والتحق بالحقوق إلى أن فصل منها عام ١٩٠٦ ، لاشتراكه في المظاهرات الوطنية ، ونظمه الشعر في التنديد بالاحتلال ، فاضطر إلى الالتحاق بالمعلمين العليا (١) ، حيث تخرج منها عام ١٩٠٩ ، وأوفد في بعثة دراسية إلى إنجلترا لتفوقه ، فسافر إليها وأقام فيها ثلاث سنوات حتى انتهى من دراسته عام ١٩١٢ وعاد إلى وطنه مدرسا في مدرسة رأس التين الثانوية * ثم في المدرسة العباسية ، وبقى بعد ذلك عام ١٩٣٤ ناظرا بالمدارس الثانوية ، وعمل مفتشا في التعليم

(١) في عهد النفوذ الغربي في مصر أريد للأزهر العزلة عن المجتمع فأُنشئت دار العلوم عام ١٨٧١ ، ثم أنشئت مدرسة المعلمين العليا عام ١٨٨٠ للنهوض بالتعليم ولايجاد مدرسين للعلوم والرياضة والأدب وقد ظلت مدرسة المعلمين العليا قائمة حتى بدأ الغاؤها بالتدريج منذ عام ١٩٢٨ لاحتلال معهد للتربية محلها ، وكان مقر المعلمين العليا في حارة المسبلي بحي درب الجنيبة بالقرب من ميدان العتبة في المبنى الذي تشغله الآن محكمة ونيابة الزسكى * ثم نقلت عام ١٨٨٨ إلى المدرسة التوفيقية - قصر للزهره الذي شاده محمد سعيد باشا وإلى مصر عام ١٨٥٥ - ثم نقلت عام ١٩٠٦ إلى درب الجماميز (مكان المدرسة الخديوية الآن) * وكانت مدة الدراسة بها ثلاث سنوات ، ثم خففت إلى عامين ، وكان من أساتذة اللغة العربية بها : حسن الطويل وضيف وأبو النصر (ص ١٣ و ١٤ الكتاب الذهبي لمدرسة المعلمين العليا مطبوع عام ١٩٣٥) *

الثانوى بعد ذلك ما بين عام ١٩٣٥ و ١٩٣٨ ، الى ان اعتزل الخدمة وأشر
التفرغ لنفسه وللشعر .

وعاد الى العزلة في مدينته الاولى بورسعيد ، فاقام فيها سبعة
عشر عاما « ما بين عامى ١٩٣٨ و ١٩٥٥ ، وكان قد اصيب بالشلل النصفي
في يناير عام ١٩٥٢ ، وفي عام ١٩٥٥ انتقل الى الاسكندرية حتى استأثرت
به رحمه الله .

ويقول المازنى عن شكرى وبداً صكته به : « كنا طالبين في مدرسة
المطمين العليا وكانت صلتى به وثيقة .: وكان كل منا يخطط صاحبه
بنفسه ، ولكنى لم أكن يومئذ الا مبتدئاً على حين كان هو قد انتبهى
الى مذهب معين في الأدب ، ورأى حاسم فيما ينبغي أن يكون عليه . ومن
اللؤم الذى اتجافى بنفسى عنه أن أنكر أنه أول من أخذ بيدي ، وسدد
خطاى « ودلتنى على الحق الواضحة ، واننى لولا عونه المستمر لكان الأرجح
أن أضل أتخطى أعواماً أخرى ، ولكن من المحتمل جداً أن أضل طريق الهدى

ويذكر صديقه العقاد - عام ١٩٥٩ - بعضاً من تلك الذكريات فيقول:
« عرفت عبد الرحمن شكرى قبل خمس وأربعين سنة « فلم أعرف قبيله ولا بعده
أحداً من شعرائنا وكتابنا أوسع منه اطلاعاً على أدب اللغة العربية ، وأدب
اللغة الانجليزية ، وما يترجم اليها من اللغات الأخرى . ولا أنكر أنني
حدثته عن كتاب قرأته الا وجدت منه علماً به وإحاطة بخبر ما فيه ،
وكان يحدثنا أحياناً عن كتب لم نقرأها ولم نلتفت اليها « ولا سيما
كتب القصة والتاريخ ، وقد كان مع سعة اطلاعه صادق الملاحظة .
قوى الفطنة ، حسن التخيل ، سريع التمييز بين ألوان الكلام . فلا جرم أن
تهيأت له ملكة النقد على أوفائها . لانه يطلع على الكثير ويميز منـه
ما يستحسنه وما ياباه . فلا يكلفه نقد الأدب غير نظرة في الصفحة
والصفحات يلقي بعدها الكتاب وقد وزنه وزناً لا يتأتى لغيره في الجلسات
الطوال » .

لقد كان شكرى أحد الشعراء المصريين من دعاة مذهب التجديد
في مصر « نبيغ في الشعر صغيراً ، ونظم في الموضوعات الجديدة محتذياً
شعراء الأفرنج . ألف كتاباً في أدب الشعر ثم عن اطلاعه الواسع في هذا
الباب ، وله سبعة دواوين فيها تصايف عامرة بالمعاني المستحدثة والافتكار
المصرية . كما أن له كتابات تدل على فكر ينزع الى التحرر من ريقه
التقليد في الأدب والاجتماع والأخلاق ، وهو أحد الأركان الكبيرة في
حركة التجديد الأدبي في مصر : أبى شادى والعقاد والمازنى وشكرى ، ومن

لنعالين على نقل الادب الغربى الى الغربيه بالترجمة والحز حزو ادباء الغرب فى الفكر والأسلوب .

ويقول مندور عنه : أنه شاعر التأملات النفسية والاستيطان الذاتى ، وقد تحدث عنه وعن شعره الدكتور محمد مندور فى كتابه « الشعر المصرى بعد شوقي (١) » .

ويتناول غيبه الدكتور أحمد زكى أبو شادى وفى مطران .

كان مطران بعد أن تشرب كلا من الأدبين العربى والأوروبى اسمعت تياراته السرب فى العقد الأخير من القرن الماضى الحائلا لا عهد لهم بها من قبل ، وقد دار ابتكاره حول التناول الفنى للطبيعة البشرية فى صورها المتعددة ، ومن بينها نفسه فى حالاتها المختلفة ، مراعىا وحدة التصيدة غير متهيبة تطويع اللغة للمعانى والأخيلة الشعرية ، مرقفا شعره بالرومانطيقية الفرنسية اللطيفة ، وخالقا بجزائره ومواهب الفضة مدرسة متحررة نمت رويدا رويدا ، وأثر فى أدباء كثيرين من التبان فى ذلك الحين : كأحمد شوقي ، ومصطفى نجيب ، وإسماعيل صبرى ، واستمر تأثيره بصور شتى جيلا بعد جيل ، كما تفرعت على تعاليمه مدارس شعرية متحررة منوعة ، منها مدرسة شكرى التى انتسب اليها المازنى والمقاد ، ولكن البسوس الشاسع بين الأستاذ وتلاميذه ، وإن أثر شكرى التوارى بعد أن أصدر سبعة من دواوينه العامة القوية الحيوية .

وقال فيه المقاد : « إن شعر شكرى لا ينحدر انحدار السيل فى شدة وصخب وانصاف ، ولكنه ينبسط انبساط البحر فى عمق وسعة وسكون » .

ولقد عنى شكرى بالجانب الفكرى التأملى فى شعره ، ويتجديد خلفه الرواد له من أمثال المعري وابن الرومى وملتون وبوب ، وبالمزاوجة بين هذه التأملات الفكرية النفسية ، والتأثرات الوجدانية ، والانطباعات الصوفية والذاتية والطبيعية ، وقد شجعتهم والهمته وثبات مطران الرومانطيقية قبل عهده بمعتدين ولكن شكرى عب من الأدب الانجليزى يدل أن يجب أن يعب من الأدب الفرنسى الذى استهوى مطران فى صباه دون أن تستهويه الآداب الأخرى .

كذلك نجد شكرى الرائد المطلق فى الشعر المرسل ، ونفائسه فى هذا المجال فرائد باقية وفخر للشعر العربى ، ولا تقل عنها عظمة معانيه

(١) ج ٦٦ - ٨٦ الراجح - الحلقة الأولى .

انه شاعر عبقري لا يقف دون التعبير عن شعوره وحيال الكون كله شيء ،

ويقول شكلي : ان وظيفة الشاعر في الابانة عن الصلات التي تربط
اعضاء الوجود ومظاهره ، والشعر يرجع الى طبيعة التأليف
بين الحقائق ، ومن اجل ذلك ينبغي ان يكون الشاعر بعيد النظر
غير اخذ عواء المظاهر ماخذ نور الحق ، فيميز بين معاني الحياة
التي تعرفها العامة واعل الغفلة وبين معاني الحياة التي يوحى اليه
بها الابد ، وكل شاعر عبقري خالق بان يدعي مقتديا ، ليس هو
الذي يرمي مجاعل ، الابد يعين الصفر فيكشف عنها غطاء الظلام
وكس شيء في الوجود تصيدة من قصائد الله والشاعر ابليغ قصائده

الشاعر هو الذي لا يعيش مثل أكثر الناس مقبورا في الأحوال التي
تحيطه ، هو الذي اذا عاش كان له من شاعريته وقاء من عداة قتلى
المظاهر ، فاذا مات كانت الشهرة زهرة على قبره ، فاذا لم تسعده شهرة
عبطت روح الطبيعة على قبره . نطلة بجناحها ، وتفرخ فوقه ابتسائها
الشعراء ، تلك الأرواح التي تستمد الوحي من عظامه وتسقيه من دموع
الرحمة والحب والحنان .

وليس للشاعر الكبير من يفي بصغيرات الامور ، ولكنه الذي يخلق
فوق ذلك اليوم الذي يعيش فيه ، ثم ينظر في أعماق الزمن آخذا
بأطراف ما مضى وما يستقبل ، فيجى شعره اديبا مثل نظراته ، وهو
الذي يلج الى صميم النفس فينزع عنها غطاءها ، وهو الذي اذا تكدف
بالشعراء في خلق الابد ساغها . معيب شعرائنا جهلهم جلالة وظيفة
الشاعر . لقد كان بالامس نديم اللوك وحلية في بيوت الامراء ، ولكنه
اليوم رسول الطبيعة ترسله مزودا بالنفقات العذاب ، كي يصقل
بها النفوس ويحركها ويزيدها نورا ونارا « معظم الشعراء في عظم
احساسه بالحياة ، وفي صدق السريرة الذي هو سبب احساسه بالحياة ،
واذا رايت شاعرا ياخذ الحفر ماخذ الجليل من الامور ، ويحسب
الحوادث الصغيرة من الحوادث الكبيرة ، فاعلم انه ضئيل الشعر ، فان
ضئيل الشعر يغتر بضجة الحوادث ، ولا يعلم ان حوادث النفس على
صحتها اجل الحوادث .

سئل وردزورث الشاعر الانجليزي عن شعر شاعر فقال : انه ليس
من الحتم في شيء ، فكأنه يقول ان اجل الشعر ما يخاله المرء قطعة من
لقضاء الابد من حدوثها . فاذا اردت ان تميز بين جلالة الشعر وحقارته
فخذ ديوانا وقراءه ، فاذا رايت ان شعره جزء من الطبيعة مثل النجم

أو السماء أو البحر فأعلم أنه خير الشعر .، وإما إذا رأيت أكثره صنعة كاذبة فأعلم أنه شر الشعر .، فالشعر هو ما اتفق على نمسجه الخيال والفكر بإصاحا للكلمات النفس .

الشعر هو كلمات المواطف والخيال والذوق السليم ، فأصوله ثلاثة متزاوجة ، فمن كان ضئيل الخيال أتى شعره ضئيل الشأن . ومن كان ضعيف المواطف أتى شعره ميتا لا حياة له .، فان حياة الشعر في الإبانة عن حركات تلك المواطف وتوحيه مستخرجة من قوتها ، وجباله من جلالها ، ومن كان سقيم الذوق أتى شعره كالجنين ناقص الخلقة ، غير أن بعض الناس يحسب أن سلامة الذوق في وصف الكلمات كأنما الشعر عنده جليلة ومعتمة بيلا طائل معنى أو كأنما هو طنين الذباب ، ولا يكون الشعر سائرا إلا إذا كان عند الشاعر مقدرة على التاليف بين اللفظ والمعنى ، ولمست أعجب من أحد عجبى من الأدباء الذين ينظّمون الشعر في مواضيع تطلب منهم الكتابة فيها فينظّمون من أجل إرضاء من سألهم ذلك ، كأنما الشاعر آلة وزن . ولكن الشاعر هو الذى لا ينظم حتى تنويه تلك القوية التى تدفعه إلى شول الشعر بالرغم منه في الامر الذى تنهيا له نفسه .

لقد أصبح الشعر عندنا كلمات ميتة ليس تحتها طائل معنى ، يحسب الناس أنه إذا أخذ في النحو والصرف والعروض كفاية ، وأصاب من طرف الشعر غاية ، فقد أجاده ، وإنما الشعر كلمات تخرج من النفس بيضاء مشبوبة ، وكما أن العاطفة تنطق الشاعر كذلك قد تخرسه شذتها ، ومن أجل ذلك كانت ذكرى العاطفة والتفكير فيها شعرا ، وإنما نعنى الذكرى التى نعيد العاطفة والتفكير الذى يحييها ، وليس شعر العاطفة بابا جديدا من أبواب الشعر كما ظن بعض الناس ، فانه يشمل كل أبواب الشعر وبعض الناس يقسم الشعر إلى أبواب منفردة فيقول : باب الحكم وباب الغزل وباب الوصف . الخ .

ولكن النفس إذا غاضت بالشعر أخرجت ما تكنه من الصفات والمواطف المختلفة في القصيدة الواحدة ، فان منزلة أقسام الشعر في النفس كمنزلة المعانى من العقل ، فليس بكل معنى منها حجرة من العقل منفردة بل تتزاوج وتتوالد فيه ، فلا رأى لمن يريد أن يجعل كل عاطفة من عواطف النفس في قصص وحدها .

ويقول شكري : لو كانت الحياة شجرة لكان للجمال زعرها والشعر طائرهما ، لولا للشعر افتقدها جمال الحياة . وكل حى شاعر بمقدار ما

يحبس الجمال في الأشياء والأخلاق والأعمال التي ينشدها ، والعالم عاتان:
 عالم الجمال وعالم القبح ، وكل منهما ممتزج بأخيه منعدم فيه ، والشاعر
 رسول الجمال يسعى في تحقيق عالمه ، وإنما الخير ضرب من الجمال ،
 والشر ضرب من القبح ، والشاعر يعرف أن الشر محتوم ولكنه يعرف أن
 من الحتم أيضا الطلوع إلى ما وراء الشر المحتوم من الخير المحتوم ، ومن
 أجل ذلك كان كل شاعر كماليا سواء أعرف أم لم يعرف ، وهو إذا نبذ
 عقيدة اقتران الجمال والخير إنما ينبذها شوقا إليها كما يهجر المحب
 عشيقته من هجرها إياه ، وإنما الحياة أو الحق كالميزان لا يعتدل
 أعماله إلا إذا استوى جانباه .

ومن أجل ذلك صار للشاعر يعدل بطموحه وخياله وجمال شعره
 جانب الذين لا يعرفون قرض الشعر ومنزلته في الحياة ، كما يعدل كس
 نقضه نقيضه وهذا أساس الحياة ، ألا ترى كيف عدل عيسى عليه السلام
 روح الأثرة في دولة الرومان وكيف أن رفض شوبنهاور للحياة يعدل تقديس
 نييتشه إياها وتقديس كل ما تغرى به ، ومنزلة السعادة في الحياة كمنزلة
 الشعر من الفقر ، والذين يسمون في نصرته الخير واستخلاص المساعدة
 التي فيما دون الجمال يأخذون نثر الحوادث فيجطلونه أوزانا وانغاما .

ومن أجل ذلك يتغنى الشاعر بالبطولة ورجالها الذين يشايهمونه
 في مداواة قبح الحياة ولو لم يكن في ذرعه من الكافحة كي يستخلص من
 الحياة جمالها ، لا التغنى بما يلهمي الماكفين ويلجأ لهم بمغال الجمال
 المنشود ، ولا ريب أن شعر الشاعر ابن طبعه ومزاجه وأن الشعر ضروب متغايرة .

وذلك لا ينفي ما ذكرناه . هذا شكسبير ما ترك جانبا من جوانب
 النفس وهو من رعب النفس بحيث يسع الجرم والجرم ، ولكنك لا تجد
 فيه تزيينا للباطل إلا على لسان أهله وصفا لهم كما أنك لا تجد فيه
 وعظ من لا يرى إلا جانبيه من الحق ، وإنما نريد بذكر ما ذكرنا أن الرغبة
 في الشعر من أجل أنه شعر لا من أجل مقصد خلقى حقيق ، إذا عنى
 الراغب أن الشاعر ينبغي أن لا يتجاوز أصول فنه التي يهي بها لذات
 الفنون كي يبلغ من النفس مبلغه من التأثير فيها بذلك اللذات ، وأما إذا
 قيل إن الشعر لهو ساعة فهذا قول من اللغو .

ويمثل شعر شكسبير قصيدته « بعد الإخاء والعداء » ومنها :
 حنوت على الود الذي كان بيننا وإن صد عنه ما جنبني عي الود
 حنوت ولو أني حنوت وما حننا ولو أنه يبغى هلاكى من الحقد
 ولا اكذب الناس قلبي كطلبه له أنه ميل عن النصف والتصد
 كلانا جنى شرا فعاد إلّاؤنا محالا حكى ذكرى الشباب على بعد
 فيأطيب ذكراه ويا بعد عهد وأين قديم الود من حاضر الصد؟

مضى حيث يمضى عابر بعد عابر
من الأهل والأصحاب والذخر والولد
مضى حيث يمضى كل رأى ومذهب
له أجل كالنفس ظمن بلا عود
إذا أنا أنسيت الإساءة من أخ ذكرت له منى إساءة ذى عمد
فياليت أنى قد غفرت جنياه ونبوته حتى يصد عن الصد
ويذكر لى صبرى على الضيم والأذى
فيأسى على ما كان منه من الكيد
وتكسبنى منه الندامة الفسة وإن كان لى من قبل كالحجر الصلد
أعيش بصفو منه يوما فإن جنى على اثره غدا نخرت له ودى
والذكر نفسى منه عند انصرافها شمائل تستدعى المغيظ إلى الحمد
أبعد يلائى العيش أبهى ميرا وكيف نفسى لى كما الضد للضد
يروقك حسن الفجر والنجم فى الدجى
ومرأى رياض من عرار ومن ورد
وأحسن منها للبشر فى وجهه صاحب
حليفك منه ما استسر ولم يبد
فياليت لى دنيا أبيع حطامها بسود أخ لو يشتري الود بالنقد
إذا الحب لم يخلص من البغض والأذى
فكيف خلاص الود من عنت الحقد :
وخلاننا مثل الجوارح أياهم ففقدنا فبعض النفس فى ذلك الفتد
فمن لى يعود الدهر للسود والصبى
اليقين ما كانا كما النسد للند
إذا انفلت السهم الطليق فما له ولو أنه سهم الدهرى من رد
ويمجز هذا الدهر عن نقض فعله الا وهو الدهر المصر ذو الأيد
وقد كتبها اثر الصلح الذى تم بينه وبين المازنى
ومن تجارب شكرى فى الشعر المرسى قصائده :
١ - كلمات العواطف وهى منشورة فى ديوانه ص ٧٠ - ط ١٣٢٧ ~
١٩٠٩ م .
- قصيدته « الجنة الخراب » وهى فى الجزء الثانى من ديوانه
(ص ١٠١/٢) وهى شبيهة بقصيدة « اليسوت » الأرض الخراب
٣ - قصيدته « عتاب الملك حجر لابنه امرى التيس » ص ١٠٢ ج ٢ .
٤ - قصيدته واقعة أبى قير .
٥ - قصيدته ثابليون والساحر المصرى - ١٠٦ ج ٢ ديوان شكرى .

عباس محمود العقاد :

عباس محمود العقاد (٢٨ يونيو ١٨٨٩ – ١٢ مارس ١٩٦٤) فيلسوف المدرسة ، وهو عبقري موهوب : وأديب مفكر،ونافذ زكي ، وكاتب عصامي،والامام مشهور من أئمة الأدب والشعر في العالم العربي ، كان شاعرا مجددا يجمع بين قوة العاطفة وغنى الفكرة ، ظهر في الميدان الأدبي والفكري والسياسي في مصر من أوائل القرن العشرين ، واشتهر في مختلف الحركات الوطنية والفكرية ، وبسال الصدارة في كل مجال وميدان .

ظهر في سنة ١٩١٢ الجزء الثاني من ديوان عبد الرحمن شكرى وفيه مقدمة قيمة بقلم العقاد عن الشعر ومزاياه يقول في مستهلها: عن الشعر : « ليس الشعر لغوا تهذى به القرائح فتتلقاه العقول في سباح كلالها وفقرها ، فلو كان كذلك لما كان له هذا الشأن في حياة النفس ، لا بل الشعر حقيقة الحقائق ، ولب اللباب » والجوهر الصميم من كل ماله ظاهر في تناول الحواس والعقول . وهو ترجمان النفس والناقل الأمين عن لسانها » .

وفي عام ١٩١٤ ظهر الجزء الأول من ديوان الأرنؤى ، وفيه مقدمة رائعة بقلم العقاد عنوانها « الطبع والتقليد » يقول في أولها : « حسب بعض الشعراء اليوم انه ليس على أحدهم ان أراد أن يكون شاعرا عصريا الا أن يرجع الى شعر العرب بالتحدي والمعارضة ، فان كانت العرب تصف الابل والخيام والبقاع ، وصف هو البخار والمعاهد والأمصا ، وان كانوا يشجبون في أشعارهم بدعد ولبنى والرياب ، ذكر اسما من أسماء نساء اليوم ، ثم يحور تشبيهاتهم » ويغير مجازاتهم بما يناسب هذا التحدي ، فيقال حينئذ ان الشاعر مبتدع عصري ، وليس بمفاد قديم ، وهذا حسابان خطأ . فما أبعد هذا الشعر عن الابتداع ، والخلق به ان يسمى الابتداع التقليدي ، لانه ضرب من ضروب التقليد فلولا ان شاعرا سبق هؤلاء الشعراء لما استطاعوا أن يعارضوه » .

وفي سنة ١٩١٦ وكان قد ظهر الجزء الأول من ديوان العقاد الذي اسماه في الطبقات التالية «بقطة الصباح» ، وقد امتازت قصائد هذا الديوان بما كان يسميه العقاد « الوحدة العضوية » فكانت القصيدة تقوم على موضوع واحد تتناوله من شتى نواحيه ، في وحدة سلسلة ، وترابط يكاد يكون منطقيًا ، غي

خلاف ما الفناء في الشعر القديم وفي شعر الشعراء الذين كانوا يتبعون في نظم قصائدهم طرائق القدماء ، وقد أعجبتني هذه الطريقة في ديوان شكري وديوان المازني وديوان العقاد * ولا شك أنهم تأثروا بأدب الغرب في اتباع هذه الطريقة ، وبخاصة في العهد الذي ساد فيه الأدب الرومانسي *

وظهرت الحركة القومية التي قادها المرحوم سعد زغلول ، وكان العقاد في طليعة الكتاب المؤيدين المناضين عن مبادئ الوفد وخطته ، وقد ناصره العقاد بقلمه ، ووقف بالارصاد لخصومه ، وبرز في الجدل السياسي ، والحملات الحزبية ، ولم يحل ذلك دون بذله الجهود الادبية ، فظهر في سنة ١٩٢١ الجزء الأول والثاني من كتاب الديوان ، وقد اشترك معه في تحريره الأستاذ المازني ، وهاجم العقاد في كتاب الديوان شعر شوغي مجموعا خفيفا ، ونقده نقدا مريرا * على أنه لم يكن دائما البادئ ، بل كان موقفه موقف المدافع الذي يرد الهجوم ، وكان شوقي لا ينفك يقرى به صاحب جريدة عكاظ الشيخ مهيم قنديل ، فكان لا يخلو عدد من أعدادها من نقد للعقاد أدخل في باب الهجاء والسباب منه في باب النقد الأدبي *

وكان في العقاد حدس الشاعر ورهافة حسه ودقة ملاحظة العالم وقدرته على التحليل والتعليل وعمق الفيلسوف ونفاذ نظراته وسعة إحاطته . وكان العقاد يلتزم القصد في حياته ويتحرى الاعتدال ، فيعيش في كتبه ومطالعته ، ولكنه مع ذلك لا ينسى نصيبه من الدنيا ولكن في غير اسراف ، وكان حريصا على حياته وصحته ووقته ولم يكن بخيلا بماله ، وكان يعترف بلغته ودينه وعرويته ، ومع ذلك كان واسع الأفق إنساني النظرة ، يكتب عن غاندي ويشيد به كما يكتب عن عمر بن الخطاب وأبي بكر الصديق ، ويعجب بالزعيم الباكستاني جناح كما يعجب بمحمد فريد وسعد زغلول ، ويكتب عن عبقرية محمد كما يكتب عن عبقرية المسيح *

وكان يؤمن بالحياة والعظمة والبطولة ، ويشك في الذين يتقصصون مواقف الإبطال ويسفهون أحلامهم ، ويحيطون بواقعهم بالريب ، أو يردونها إلى التماس الصلحة الشخصية وطلب المجد الذاتي *

وكان أدب العقاد وشعره كذلك سواء فيما قدمه من خواطر إنسانية أو فيما جملة صورة كذلك لمجتمعه وبيئته *

وقد استغل هذا في شعره الوطني والاجتماعي ، فهو عندما أراد أن يدعو مواطنيه إلى العزة والصمود والاستقامة والكرامة لم يقف موقف الواعظ ، ولكنه وقف موقف الأديب الثائر فصور مجتمعه وكأنه متشائم من الأوضاع التي يراها ، فالأثامون المتعلقون يتولون أسمى الوظائف ، وأعيان الدولة جماعة ضعفت نفوسهم وتلت علومهم وفشت خستهم ودنايتهم وكثر نفاقهم *

وتملقهم وجئوا خاضعين تذلسلا ، واللثام قد بلغوا اسمى الدرجات فكانهم
القرود قد اعتادوا التسلق ، فهو الذي يتحول في تصيدة جبل عنوانها
« زماننا » (١) .

فشئت الجهالة واستفاض المنكر	فالحق يهيمس والضلالة تجهر
والصدق يسرى في الظلام ملثما	ويسير في الصبح الرباء فيسفر
أنا لفي زمن كان كبساره	بمسرى الكباثر شأنها لا يكبر
من كل ذي وجه لو أن صفاته	تندى لكان من الضيعة يقتلر
بئس الزمان لقد حسبت هواه	دنسا وإن بحساره لا تظهر
وكان كسل الطيبات يردهما	فيه إلى شر الأمور مدبر
سبق للثام إلى ذراه فتقهتوا	أن القرود لبالسلق أخبر
ما نيل فيه مطلب إلا له	تمن من العرض الوثير مدر
ويقدر ما بذل أمرؤ من قدره	يجزى فأكبر من تراه الأصغر

كان العقاد مولما بالتجديد والابداع والابتكار ، وقد دفعه هذا النوع
إلى الإسهام في خلق مدرسة شعرية جديدة ، هي مدرسة شعراء الديوان التي
تعد أساسا للأدب الرومانسي في الأدب العربي الحديث .

وأهم المواضع عند رواد هذه المدرسة في نظم الشعر « الحب وصدق العاطفة
وجمال الطبيعة وتحبيب القيم المعنوية والاعتزاز بالنفس وتخليد مظاهر البطولة
وابراز الخواطر والتأملات ، فهي قد حررت الشاعر من ريقه العسودية
وأبعثته عن التملق والتكسب .

وكان العقاد يتناول الأغراض الشعرية المتنوعة ، ولكنه كان يبدع
في الوصف وفي إبراز عواطف الحب الكامنة في النفس ، وفي إبداء خواطره
الفلسفية التي اقتبسها من تجاربه ومن ثقافته الواسعة التي روضت فكره
على التعمق في البحث والأمان في الملاحظات .

فقد تحدث في شعره عن الإنسان وعن سر وجوده وعن عجزه عن معرفة
سر الكون الغامض وعن حاجته إلى الإيمان ، كما عبر عن كثير من خوالجه
وتأملاته وارتساماته التي كانت مرآة لأرائه في الحياة ومن ذلك قوله (١)
ما وجدنا من البرية إلا خلفا زائفا وجهلا مبينا
حشرات لاتعرف الخير والشر وفيهسا الهلاك لنعارفين

(١) الجزء الأول من ديوانه - ص ١١١ .

(١) ديوان وحى الأرمين .

وقوله :

انصفت مظلوما فانصف ظالما
من يرض عدوانا عليه يضيره
في ذلة المظلوم عذر الظالم
شر من العادي عليه الغانم (١)

وقوله :

اذا ساحت الاطماع فاصبر فانها
وتقهر الفتى آلامه فيه لذة
تنام اذا طال الصباح على النهم
وفي طاعة الذات شي من الألم (٢)

والذي يتتبع شعر العقاد يجد فيه طابع التبريم والشكوى ، يظهر ذلك في جل الأغراض التي نظم فيها ، ولقد كان يحاول أن يخفف بالأسر عن نفسه من حين لآخر ، لكنه لم يزد الورد الا عطشا ، فهو الذي يقول (٣) :

ظلمات ظلمات لا صوب الغمام
عذب الدام ولا الأنداء ترويني
وماته القصيدة تعد بحق من اجمل قصائد العقاد ، فهي نفثة من نفثاته ، وعصارة نفسه ، ومرة وضاعة لروحه الرقيقة الحزينة اللطيفة (٤) .

انه ظلمات حيران يقظان ، انه غصان أسوان حزين ، يستعمل الشعر للتخفيف عن آلامه وأحزانه ، ولكن الشعر لا يطفى ، أواره كما لا تطفى الدموع أحزان المحبين ، انه يعيش وحيدا في هذه الحياة لا يجد قلبا يسعده ولا خلا يأسوه ، انه يتمنى أن تنتهي حياته وأن يمحو الموت من الوجود لتفنى حسرته وأثاته ، وهكذا نجد العقاد يصور خوالجه وفيها من رنات الأحزان ما يسترق القلوب ويستجلب الدامع ، ولعل هذا التلق من الحياة هو الذي دفعه الى الحذر منها وإلى التفكير في مصير الطارئين عليها ، انها ما دامت حياة آلام وأحزان ، فلماذا يعمل من جديد على إيجاد أبناء له فيها ، لهذا أثر حياة الوحدة ، فهو من هذا الجانب شبيه بالمعري الذي كان يقول :

واذا أردتم بالبنتين كرامة
فالحزم اجمع تركهم في الاضهر

وقد كتب العقاد قصيدة رائعة جعلها حوارا بين المعري وابنه ، الابن يريد أن يخرج الى الوجود وأن يستمتع بالحياة ، فقد ضاق بالعدم ، وأحب أن يرى مفاصل الطبيعة ، وأن يستلذ بمحاسنها ، انه يتوق الى رؤية الوجوه الحصان ، ويود أن يرى للورود والازهار والفلاة والبحار ، ولكن الاب يشرح لابنه أسباب اعراضه ، فيقول عن الحياة (١) :

(٢) عن الديوان الأول ص ٢٧ .

(٣) الجزء الثاني من ديوان العقاد ص ١٩٤ .

(٤) غوة بها التذاد جميعا .

(١) الديوان الثاني صفحة ١٨٤ .

شمرها يا بني شر ثقيل خمرها يا بني خير قليل
أملها يا بني أمل حقود
قف بباب الحياة لا تدخلها واعتصم يا بني ما أسطعت منها
سوف الفاك - فانتظر - بالصيد

وكان المقاد جعل هاته القصيدة تعبيراً عما يحس به ، لذلك قدمها بتعليق وجيز^(١) قال فيه عن المعنى انه رؤوف ، صد ابتداءً عن الحياة رحمة بهم ، فيألفها من رحمة لا يعمدها له ابتداءً .

وكان المقاد يقصد من تشاؤمه أن يستغله لاشارة غريزة الحير في الانسان^(٢) فهو اذا صور الرذيلة فانما يريد بذلك أن يفر الانسان منها ، واذا تضايق من معاملة البشر بعضهم لبعض فانما يريد بذلك أن يخفف من سوء الظلم في النفوس الطاغية عساها ان تشعر بالشر الذي ترتكبه عتوق اخلاصها وتعمل للمصلحة الانسانية عامة ، وقد حقق بعض الباحثين أن الادب كلما كان هادفا الى اصلاح المجتمعات فهو ادب ملتزم^(٣) وان قدم في صورة تشاؤمية .

وقد عاجم المقاد طيلة حياته الشعر الحر ، وثار على الابتذال والعامية والموسيقية ، وراى الشعر فنا يجب أن ترتفع الانواق الى مستواه ، لا أن ينزل عن الى مستوى الناس ، وكتب في « مجلة الهلال » (١) يقول :

ليس في وسع « المتحررين » أن يحاربوا الشعر القديم بتحريره كما يقولون من الوزن والقافية واللوازم الموسيقية ، لأن أوزان الشعر أصيلة عميقة الفرار في طبيعة الشعب^(٤) كما نرى من أوزان الأجزاء والمواويل وتراتيل الفرج والنواح في كل بيئة من بيئات الحضرة والريف . . . وبعض مؤلفي المتحررين يهل أو يتجاهل معنى العروض فيقول : انه يزن الشعر بالتفعيلة وهي كلمة لا فرق بينها وبين اللف والكلمات في الأوزان العروضية ، إذ ليس في اللغة كلمة تتجرد من أوزان التفاعيل بين فعل وفاعل وفعلول وفاعلاتن ومستعملن ومفاعيلن وغيرها وغيرها من مركبات الفعل والاستفعال^(٥) وانما يأتي الوزن من جمع التفعيلات معا ويختلف بين بحر وبحر باختلاف التركيب واختلاف حركات الحروف . ومن قال ان التفعيلة هي « تصميم » البيت فهو كمن يقول ان الحجر الواحد هو « تصميم » المنزل أو الحجرة أو النافذة أو الباب ، وأن يقوم بناء فوق وجه الأرض على مثل هذا التصميم .

(١) ٥٥٠ جويلير ١٩٦٢ .

وقد عجزت هذه الدعوات - تقديمًا وحديثًا - عن المساس بتركيب الأغاني الشعبية التي يمكن أن يقال إنها تستغني بانغمام الآلات عن الأوزان العروضية ، وعجزت عن المساس بتركيب الزجل وهي مقياس للشعر الذي يمكن أن يشيع في اللغة المامية ، فإذا عجز هذا الشعر المتحرر - كما يقولون - عن الشبوع في الكلام الدارج فهو أعجز من الشبوع في اللغة الفصحى^(١) وهو على هذا أعجز من أن يتهم بالتأثير في مهبوط الشعر الحديث .

ولسنا نبرئ الأسباب الأخرى جميعًا ، من هذا التأثير إلا لأننا نستبعد أن تنجرد الطبيعة الإنسانية من حاسة الشعر في فترة من الزمن ، لأن التجرد من هذه الحاسة هو بعبارة أخرى مرادف للتجرد من بواعث الحياة . . . وقد تقوى هذه البواعث أو تضعف ، قد تصح أو تفسد ، قد تحسن أو تتفح ، ولكنها لا تموت كل الموت في وقت من الأوقات .

وقد خلف العقاد ثروة كبيرة من المؤلفات في الأدب والنقد والنفاج عن الاسلام وتحليل عبقرياته ، وكتابه « ابن الرومي » مشهور ، ومن أوائل كتبه : مراجعات ومطالعات ، وسواهما .

وقد حارب بعض الشباب العقاد في حياته ، وكتب العقاد يقول (١) : انه يكتب للخاصة ، ولا يسوءه أن يقرأه العامة ، وكان يجب بتوثيق الحكيم ومحمود تيمور ونجيب محفوظ وصوفي عبد الله وجاذبية صدقي في القصة . . . وأكد العقاد أن الشعر الحديث كافة ليس شعرا على الإطلاق ، إذ تنقصه الموسيقى والوزن ، والشعر وزن قبل كل شيء ، وقال : ان الأدباء وشبابهم يعيشون في عصرى أنا ، عصر العقاد .

(١) عدد المساء الأسبوعي - نوفمبر عام ١٩٦٦ .

المازني وحوار المدرسة مع خصوصها :

في المعلمين العليا اتصل المازني ١٩ أغسطس ١٨٩٠ - ١٠ أغسطس ١٩٤٩ بزميله الشاعر « عبد الرحمن شكرى » ووثقت الزمالة الصلة بينهما، واجتمعا ومعهما العقاد على حب الادب الانجليزى ، وقرأوا للشعراء الانجليز وخاصة مجموعة « الكنز الذهبى » التى تم اختيارها وجمعها « بلجريف » استاذ الشعر باكسفورد ، وبدأوا يطعمون شعرهم بالاخيلة والماعنى والصور الغريبة ، ويكتبون فى وحدة القصيدة ، ويدعون الى الاصالة وصدق الشاعر فى العاطفة والاحساس ، وفى التعبير كذلك ، والى ظهور شخصيته الفنية ، واستلهاهم الشاعر للطبيعة ، وتناولوه لثنتى الموضوعات الانسانية ، ويحاربون التقليد والزيف والافتعال والتكلف وشعر المناسبات الطارئة .

وصدر الجزء الاول من ديوان شكرى عام ١٩٠٩ ، والديوان الاول للمازني عام ١٩١٣ ، والاول للعقاد عام ١٩١٦ ، من حيث ظهر ديوان مطران عام ١٩٠٨ ، وديوان انداء الفجر لابي شادى عام ١٩٠٩ .

وحدثت بين مدرسة الديوان ومدرسة شوقي وحافظ معارك نقدية ، ظهر فيها عام ١٩١٥ كتاب للمازني فى نقد شعر حافظ ، عنوانه « شعر حافظ » ، وأعلن شكرى بعد ذلك انفصاله عن زميله ، وشارت الخصومة بين ثلاثتهم ، وأخذ شكرى يعيب على المازني انتحاله لبعض الاشعار الانجليزية ، مما دون فى « الكنز الذهبى » مما حفظ صدر المازني عليه .

وفى عام ١٩٢١ اصدر المازني والعقاد كتاب « الديوان » فى جزئين يتقدان فيه احمد شوقي وحافظ ابراهيم ، ونقد المازني فيه المنفلوطى ، كما نقد شكرى بعد أن مدحه فى مقدمة كتاب لشمر حافظ .

ويؤمن أصحاب مدرسة الديوان بان الشعر يجب أن يكون تعبيراً عن وجدان الشاعر وذاته وحياته الباطنية ، وصادرا عن نفس الشاعر وطبعه ، وأساس الحكم بموعية شاعر عند شعراء مدرسة الديوان هو ظهور شخصية والشعر عندهم تغلب عليه الفزعة الوجدانية ، وعند مطران الفزعة الموضوعية - الشاعر فى شعره وصدقته فى الاحساس والتعبير .

وشكرى فى الحقيقة هو الذى الهب احساب المازني الفنى ودله على مناحى التجديد . ولكن المازني هو بطل الحوار والمعارك الأدبية والنقدية مع خصوم مدرسة شعراء الديوان .

وقد بدأ المازني حياته الادبية شاعرا يتأثر بالشعراء الانجليز والشعراء العرب وبخاصة ابن الرومي والمتنبي والشريف ومهيار .

ويأخذ المازني على شعراء المدرسة المحافظة تفكك الوحدة الموضوعية والمضوية في قصائدهم ، واسرائهم في شعر المناسبات وتقليدهم للقضاء ، وبصور ذلك في مقدمة كتابه « شعر حافظ » الصادر عام ١٩١٥ ، ونقد فيه حافظا . ويدعو الى رومانسية الموضوع ورمزية التعبير الشعري ، والى الصدق في الاحساس والاداء في كتابه « الشعر غاياته ووسائله » الصادر عام ١٩١٥ أيضا .

وللمازني من القصص الكثير ، وله في فن المقالة الكثير أيضا ، وهو من طليعة الكتاب المحققين ، واجاد المازني في أدب الترجمة اجادة كبيرة .

جمعت زمالة العلم والشباب في مدرسة « المعلمين العليا » في القاهرة في أوائل القرن العشرين بين إبراهيم عبد القادر المازنى وعبد الرحمن شكرى وكانا طالبين من أبنخ الطلاب في هذه المدرسة « ووطئت بينهما هذه الزمالة بصلات وثيقة ، ثم ألفت الحياة ووحدة الثقافة والاتجاه بينهما وبين العقاد ، وصار هؤلاء الثلاثة يمثلون فكرة أدبية جديدا دعوا إليه . وكتبوا حوله : ودخلوا معارك نقدية كثيرة من أجله .

وكان هؤلاء الثلاثة مثالا رائعا للفكر المصرى في أوائل القرن العشرين فهم يمثلون النزعات الجديدة في الشعر في ذلك الحين ، وهم يقرأون للشعراء الرومانسيين الانجليز من أمثال : ورد زورت ، وبيرون ، وكيتس وغيرهم . ويتأثرون بهم في منحايم الرومانسى . وكانت بايضى الشباب في مصر آنذاك وفي عهد سطوة الاحتلال الانجليزى وتشديده تفيضته على التعليم في ذلك العهد مجموعة شعرية مشهورة ، اسمها مجموعة « الكنز الذهبى » اختارها وجميعها مشرف انجليزى في وزارة المعارف المصرية حينئذ اسمه « فرانسيس بالجريف » وكان أستاذ الشعر في جامعة اكسفورد ، وكانت هذه المجموعة رومانسية الطابع ، وقرأها شكرى والمازنى وتأثرا بطايعها ، وكان العقاد آنذاك صحافيا صغيرا يكتب مقالاته ونصائده في جريدة الدستور التى كان يصدرها الكاتب المعروف محمد فريد وحدى ، وفي غيرهما من الصحف . وجمعت النزعة الأدبية بين العقاد وشكرى والمازنى أحبابا وأصدقاء ودعاة الى الجديد .

وفي عام ١٩١٣ اصدر شكرى الجزء الثانى من ديوانه . وكان قد مضى على صدور الجزء الأول منه أربع سنوات . وكتب العقاد مقدمة هذا الجزء (الثانى) واتنى على شاعرية صديقه شكرى وعلى موعيته ، وكتب المازنى في العام نفسه عدة مقالات نشرها في جريدة عكاظ الأسبوعية المصرية وازن فيها بين حافظ وشكرى ، وفضل صديقه شكرى على حافظ ، ومن أجل ذلك هاجم حافظ المازنى ، وعاد المازنى يكتب عن أخطاء حافظ الشعرية .

وفي العام نفسه اصدر المازنى الجزء الأول من ديوانه ، فكتب العقاد مقدمته ، يرحب فيه بالديوان ورفع من شأن المازنى الشاعر واتجاهه الرومانسى الغالب على شعره .

وكان الاتجاه الرومانسي ذاثما في الأدب المصرى آنذاك بتأثير المفطوطى وكتاباتته ويتأثير ذبوع أذب لاهرتين وهو جو وغيرهم من الشعراء الغربيين فى محيط الأءباء المصريين آنذاك ، ويتأثير مطران وكتاباتته كذلك .

- ٢ -

وأكثر الثلاثة آنذاك من الدعوة الى مذهبهم الجءىء فى الشعر والنقد ، وباءوا يطعمون شعرهم بالاءخيلة والممانى والصور الغربفة ، وىكتبنون فى وءءة القصفة ، وىءعون الى الأصالة وصدق الشاعر فى العاطفة والاحساس والتعبفر ، وظهور شءصفة الفنية واستلهام الشاعر للطبفة ، وتناولو لشتى الموضوعات الانسانية ، وىءاربون التقليء وشعر المناسبات الطارفة .

ومن ءىء كان مطران ىناى بالشعر الموضوعى^{١٠} والجانب الوءءانى فى الوصف ، كان العقاء وزمفلاء ىءعون الى الجانب الذاتى أو الغنائى منه ، وءرجوا بنظرفة جءفة اسموما « شعر الوءءان » واتءذ شكرى شعارا له على الجزء الأول من ءفوانه ، الذى سماه « ضوء الفءر » ءذا البفء من شعره .

ألا با طءاثر الفءرو س ان الشـعر وءءان

ومن نظرفة الشعر الوءءانى عءء هؤلاء الثلاثة انبءقت الدعوة الى أن فكون الشعر تعبفرا عن ذات الشاعر وشءصفة ، وأن ففعمء عن المناسبات ، وأن فقلب على طابع الألم والأنفن وءب الطبفة وتصفوففرا ، وأن تسوءه وءءة عضوفة كاملة ، وفعبف عن ءءربة شعرفة عمفة^{١١} وأءفل المازنى فى تعرفف الشعر العاطفة والءففال ، واتءه العقاء الى شعر الفكفة ، وأءذ المازنى على شعر شوقى ومءرسته تفكك الوءءة الموضوعفة فى تصائءهم وأءرافهم فى شعر المناسبات^{١٢} وفى التقليء للءءماء ، وصور ذلك فى مقءمة كتابه « شعر ءافظ » الذى صءر عام ١٩١٥ ونءذ ففء ءافظا نقءا لاءءا ، وءعا المازنى لءلك الى الرومانسفة فى كتابه « الشعر : غاففه ووسائطه » الذى صءر عام (١٩١٥) كذلك .

وفقول المازنى : كان شكرى أول من آءذ ببفءى ، وسءء ءطافى ، وفلفنى على المءة الواضءة^{١٣} وكان الجزء الأول من ءفوان شكرى ، وففمففات العقاء بءاففة اقءحام المذهب الجءفء فى الأءب ، وفافافه الصراع بففء وبفن المذهب القءفم^{١٤} مذهب شوقى وءافظ واضرابفما كما فقول المازنى . . . وعءما فقول وزءزورء ان الشعر انفعال فسترءءه الشاعر فى ءوء ، كان المازنى فوء

- ٣٠٧ -

به الى منبئة الأول وهو الماطفة والوجدان . وكان شكرى كما يقول العقاد من أوائل من دعا الى وحدة القصيدة ، وجدد في موسيقى الشعر ، وألف القصة الشعرية الماطنية والاجتماعية والتاريخية ، بل كان شكرى من أوائل من مهدوا للمذاهب النقدية الحديثة في الادب المصرى الحديث . . . ويقول فيه الدكتور مختار الوكيل في كتابه « رواد الشعر الحديث في مصر » - ص ٤٦ : « ان شاعريته تحتضن الحياة جميعها وتصور الوجود بأسره » . . . وفي عام ١٩١٦ أصدر العقاد الجزء الأول من ديوانه ، وسماه في الطبعة التالية « يقطعة الصباح » وتصادفه فيه تحتفى بالوحدة العضوية للقصيدة لحناء ظاهرا « والعقاد جريص كل الحرص في شعره على نظرية « الوجدان الشعرى » فيها هو ذا يقول في الجزء الثانى من ديوانه ص ١٩٤ :

ظلمان ظلمان ، لاصوب الغمام ولا

عذب السدام ، ولا الانداء تروينى

وهكذا صار المضمون الشعرى عند هؤلاء الثلاثة لا بد وان يتخذ في الشعر الغنائى الطابع الوجدانى سواء استمدته الشاعر من الطبيعة الخارجية أم من ذات نفسه الماطنية أو الفكرية .

ويرجع هؤلاء الثلاثة في النقد الى هارزليت وماكولى وأرنولد وشاسترى وأغلب آراء العقاد في النقد تعود الى آراء وليام هارزليت ومحاضراته عن الشعر الانجليز « ويشبهه العقاد كثيرا في عنفه النقدى ، مع ايثار للمذهب النفسى في النقد الذى كان يؤثره شكرى كذلك .

- ٣ -

وخاص الثلاثة معركة الجدد مع شوقى وحافظ والمنفلوطى ، ولكن الأيام عادت ففرقت بينهم ، ففي عام ١٩١٦ انفصل شكرى عن زميله بمسد أن استنحلت الوشايات بينهم ، وشارت اثر ذلك الخصومة بين ثلاثتهم ، فأخذ شكرى يعيب على المازنى انتحاله لبعض الأشعار الانجليزية بعامة « ومما دون في « الكنز الذهبى » بخاصة « وكتب في مقدمة الجزء الخامس من ديوانه يندد بهذه السرقات الشعرية ، وتبادلا النقد على صفحات جريدة « النظام » وكتب شكرى يهاجم المازنى والعقاد - الذى انتصر لصديقه المازنى - معا على صفحات « عكاظ » في مقالات نشرها عامى ١٩١٩ و ١٩٢٠ .

وفي عام ١٩٢٠ و ١٩٢١ أصدر العقاد والمازنى جزئين من كتاب جديد سمي « الديوان » نقدا فيه العقاد شوقيا والمنفلوطى ، ونقد المازنى فيه حافظا

وعبد الرحمن شكرى ، الذى سماه « صنم الألعيب » ورماء بالشعوذة
والأجئون ..

وأطلق اسم مدرسة شعراء الديوان على هؤلاء الثلاثة الشعراء على الرغم
من أن الكتاب هو للمقاد والمازنى فقط ، وعلى الرغم من أنه يحمل مجوما
على زميليهما شكرى ..

وقد أحدث كتاب « الديوان » ضجة كبيرة في العالم العربى ، وكان حافزا
لظهور كتاب الغريال للشاعر المهجرى نعيمة ، الذى كتب المقاد مقدمته ..

وببوازع من خصوم المقاد كتب رمزى مفتاح كتابه « رسائل النقد
بهاجم فيه المقاد ويتهمة بالسرقة من شكرى ..

ويذكر المقاد في كتابه « شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضى » -
الذى كان ينشر - مقالات في صحيفة « الجهاد » القديمة التى كان يصدرها
الصحفى المصرى محمد توفيق دياب ، وكان المقاد يتولى تحرير الجانب
الأدبى فيها : أن ثقافة مدرسة شعراء الديوان تتناول كل الثقافات العالمية ، عن
طريق الأدب الانجليزى ، ولها استفادت من النقد الانجليزى ، واتخذت هازلت
رائدا لها في النقد ، وكان مرجعها الأول كتاب « الكنز الذهبى » الذى كان
يحتوى على مختارات من الشعر الانجليزى من شكسبير الى نهاية القرن
العشرين ..

ويقول المقاد : ان مدرسة الديوان هى أول حركة تجديدية في الشعر
الحديث « متجاعلا مطران ودعوته التجديدية قبل مدرسة الديوان ، وان
كان صوت مطران في الدعوة الى التجديد قبل مدرسة الديوان غير جهورى ..

وفي رأى هؤلاء الشعراء الثلاثة أصحاب مدرسة الديوان ، أن شخصية
الشاعر هى كل شيء في الشعر ، وأن الشعر اذا كان يشعرك بعظمته وقوته
فهو النموذج الذى يجب أن نتقن به ، وكان وردزورث الشاعر الانجليزى
يقول : « وقد سئل عن شعر شاعر : « انه ليس من الحتم في شيء ! ، يريد
أن منزلة الشاعر مستمدة من شعره ، فاذا أصبح شعره على لسان الناس ،
ولا غنى لهم عنه ، ويمثلون به في مختلف جوانب حياتهم العامة ، فهو شاعر
قد فرض نفسه على الشعر وعلى القناد والناس ..

ولا ريب أن هؤلاء الشعراء الثلاثة ، على اختلافنا معهم في كثير من آرائهم في النقد ، وأحكامهم على الشعر الشعراء « قد فرضوا شعريهم على الحياة من حولهم ، وفرضوا وشخصيتهم على الأدب الحديث وللشعر المعاصر فرضاً .

ويشأ الله أن يعود الصفاء بينهم فيحل حل العدا ، والجفاء ، وكان ذلك عام ١٩٣٤ . فيقتضون ويمد بعضهم يديه إلى البعض الآخر .

ويكتب العقاد والمازني الفصول الطويلة عن شكري ، اعترافاً بفضلته ، وأقر المازني باستاذية شكري له ، ونظم شكري قصيدته الطويلة « بعد الاخاء والعداء » ، ونشرها في مجلة الرسالة وقال فيها :

حنوت على السود الذي كان بيننا
وان صد عنه ماجنيننا على الود
وفي العاشر من أغسطس ١٩٤٩ توفي المازني .
وفي الخامس عشر من ديسمبر ١٩٥٨ توفي شكري .
وفي التاسع من مارس ١٩٦٤ توفي العقاد .

- ٤ -

ويقول شكري :

لئن خانتني الذكر الجليل وملني
مسامع قومي أو غلبت على أمري
سعيوى عظامي شاعر بدموعه
وينثر ازهار الربيع على قبري
إذا جنني للليل البهيم أطاف بي
خيالا له يزى على صفحة البدر
يجي مجيء النوم من حيث لا أرى
ويسممني ما قد فرضت له شعري
فيا ساكني في الغيب هذي نبوءتي
فذكر بها القوم الألى جهلوا قدرى

- ٣١٠ -

أتيج لهم صناد إلى النملة التي
 شربت بها ريا يبل جوى صدرى
 فساموه أن يسعى على منهج عفا
 فديما كما يسعى للتقيد في الأسر

ويهدد الأبيات القليلة عدا ، الكبيرة مغزى وموضوعا تحدث للشاعر
 عبد الرحمن شكرى في الجزء الثانى من ديوانه عام ١٩١٣ في قصيدة نبوة
 شاعر « ، متنبئا ثائرا ، ناقدا أذاعب التقليديين في شعرهم » . ولعله كان
 يقصد بهذا مدرسة الكلاسيكيين من أمثال شوقي وحافظ وأصراهم . ويوضح
 شكرى مذهبه في الشعر في قصيدته « شكوى شاعر » التي نشرها في الجزء
 الثانى من ديوانه أيضا حيث يقول :

قد طال نظمي للأشعار مقتدرا
 والقوم في غفلة عنى وعن شأنى
 عد أولعوا بكبير الممن أو رجل
 يبني له الجاه ما يفلو به البانى
 ولو سفلت الى حيث الفريض لفسا
 بين الأثافي وربيع المنزل الفانى
 ولو سفلت فقلت الشعر في خبر
 من السياسة في زور وبهتان
 ولو سفلت فقلت الشعر مبدلا
 في وصف مخترع أو ذم ازمان
 لقل نعم لعمري أنت من رجل
 جم الحاسن من صدق وتبيان
 وهما الشعر تصوير وتذكرة
 ومتمعة وخيال غير خوان
 وانما الشعر مرآة لغانية
 هي الحياة فمن سوء واحسان
 وانما الشعر احساس بما خفتت
 له القلوب كاتقدار وحضان

تألوا أتيت بشعر كله بدع
فقلت نعم لمعري قولة الشاعري
من كل معنى يروع الفهم طائله
معنى من الجان في لفظ من الجان

ويشرح شكرى مذهبه في الشعر في مقدمته الطويلة التي كتبها مقدمة للجزء الخامس من ديوانه بعنوان « في الشعر ومذاهبه » ، التي نادى فيها بوحدة القصيدة ، ودعا إلى حرية التعبير ، وطالبة الأسلوب ، وتصوير الشعر لنفس الشاعر ، وتعبيره عن وجدنه تعبيرا صادقا مباشرا . وأعلن الثورة على التقليديين ومذاهبهم . . . وبهذا بدأ شكرى دعوته إلى التجديد في الشعر المصري الحديث الذي كان مطران ينادى به . ويدعو إليه . . . وبدأ شكرى بعد ذلك كفاح مدرسة شعراء الديوان في سبيل التحرر الفني للقصيدة ، وحرية الشاعر في تعبيره ، ومن أجل تطوير أسلوب الشعر وأفكاره وموضوعاته .^{١٠} وقد اتسم شكرى في شعره بنزعة إنسانية عميقة تتجلى في مثل قصائده : اليتميم ، وعلام مريض ، ورثاء عصفور ، وليتني كنت لها ، ينادى فيها بإنسانية الحياة والتفكير والعمل . ويسود شعر شكرى النزعة التصويرية العميقة « التي تتجلى في عمق حبه للطبيعة وروعة بصويره لها ، ولتقرأ قصيدة شكرى القصيرة « سحر الطبيعة » التي يقول فيها الشاعر :

كؤوس من النور هذى الزهو	ر أم هي أخيلة الشاعر
وليست بحسبم ولكنهب	أجل من الحسبم الباهر
وما خلقت لفنون الخيا	ل فنتنة حسن لدى الخابر
وماء الحياة ونبح الخلو	د في مائهها الملسل المائر
وعشب قشيب وظل ظليل	ادنيا أرى أم منى للساحر ؟
ومما يزيد رواء الزهور	أذى العيش والقدر الجائر
لقد خفت أن تنطوى مثلما	يزول الخيال عن الناطر
فأسلمت نفسي لسحر الخيال	لأخلد في حسنها الزاهر
وغيت عن الحس حس الوجود	كانى روح لدى العابر
كانى نقلت إلى جنسية	نات عن سطا القدر الدائر

واليمان شكرى بالطبيعة وجبه لها جزء أصيل من كيانه ، فقد ولد ونشأ على شاطئ البحر الأبيض المتوسط في بور سعيد في الثاني عشر من أكتوبر عام ١٨٨٦ ، وعاش فيها أيام عزلته سبعة عشر عام من سنة ١٩٢٨ حتى

عام ١٩٥٥ ، وأصيب فيها بالشلل النصفي في أواخر عام ١٩٥٢ . ثم ودعها في أكتوبر عام ١٩٥٥ ليميش مع أسرته في الاسكندرية حيث الشاطئ والبحر والجو الجميل الى أن قضى حياته ، ولفظ أنفاسه الأخيرة في منتصف ديسمبر عام ١٩٥٨ .

ويؤمن شكرى بالفزع الإنسانية النذيلة ، وبعد من بين شعراء الديوان شاعر الحب والخير والجمال :^{١٠} الحب الذي يقول فيه شكرى من قصيدته « ليتنى كنت لها » .

أنا بالخير قائم وأخسى	أبليس بالشسر قائم والوعيد
كم سخرنا من خائف غير ندب	انما الجبن آفة الرعديد
أنا والحب خالداً كالنا	ذو خيال ونشوة وجنود

ومن أجل رسالة الإنسانية والحب التي آمن بها شكرى ، ترك شكرى زميليه في مدرسة الديوان ، ثم اعتزل الحياة .^{١١} وبين الحين والحين كان يرسل نغمات يراعه الى مجلتي الرسالة والفتى ، وكنا منذ قامت رابطة الأدب الحديث نريد أن نزور شكرى في عزلته ، لنعرب له عن أعجاب الجيل المعاصر به ويشعره ، ولتكبر جهاده في سبيل أمته وشعبه ، وفي سبيل الأدب الذي أعزه ، والشعر الذي آمن به .^{١٢} ولكننا كنا كمن يبحث عن السراب ، لم نعرف عنوان شكرى لنذهب إليه ، ثم ودع الحياة الوداع الأخير قبل أن نزوره .

وكتب نقولا يوسف في جريدة المساء عن شكرى (١٢ أكتوبر ١٩٨٦ - ١٥ ديسمبر ١٩٥٨) يقول :

كانت وصيته الأخيرة .^{١٣} المكتوبة بيده اليسرى غير المتسلولة : « لا تحفوني في حجرة تقفل على كالسجن ، ولكن في قبر يهال عليه القراب » .^{١٤}

والحق أنه لم يحب القيود .^{١٥} فكان متحرر النفس من الرذائل .^{١٦} متحرر العقل من الخرافات .^{١٧} متحرر الشعر من أغلال الشكل والموضوع .^{١٨} منطلق الخيال في رحب الفضاء .^{١٩} معتزلاً بقيود الوظائف .^{٢٠} مطالباً في عهود الاحتلال والانتفاع بتحرير بلاده من ربة الاستعمار والاستغلال .

أما السجن المادى فقد جنى على أبيه وعلى أسرته من قبل^{٢١} يوم اعتقل أعوان الخديو ، والده - محمد شكرى عياد - المناصرة للثورة العربية

وصداقته لمجد الله القديم .. فنجم عن هذا السجن وهذا التعتل . وعما كابدته من الضيق والارهاق ، أن خرج أبناؤه غير أشداء العود .. كما جنى أعوان المحتلين على الشاعر في حركة مصطفى كامل عام ١٩٠٦ لا وقف زميل الشاعر عبد الحميد بدوى « القاضي بمحكمة العدل الدولية » واللقى على الجماهير تصيدة عبد الرحمن شكرى الوطنية :

ثباتا فان العار أصعب محملا من الذل لا يفنى بنا الذل للعار

فانتهموا الشاعر بالتحريض على الثورة وفصلوه من مدرسة الحقوق بعد أن قضى بها عامين . ويلتحق الشاعر بمدرسة المعلمين بالقاهرة .. ويتخرج منها عام ١٩٠٩ ليرسل في بعثة إلى جامعة شيفيلد ، ويعود في خريف ١٩١٢ ليستغل بالتعليم مدرسا فناظر فمفتشا بالتعليم الثانوى .. ولكنه يظل ينظم الشعر وينشر الأبحاث الأدبية والنقدية في الصحف والمجلات .

وكان ديوانه الأول : « ضوء المجر » تد ظهر عام ١٩٠٩ - والشاعر في الثالثة والعشرين .. يقف على عتبة الحياة « ولم يفتح بعد ساحات مشكلها وتجاربها .. ومع ذلك فان الروح المائل المجرى الذى سطع في تلك البياض كان باعرا . فانتيرى صديقه المازنى يقرظه في الصحف .

وفي ١٩١٥ يظهر الجزء الثالث « أناشيد الصبا » ويتلوه كل من الرابع والخامس عام ١٩١٦ فالسادس عام ١٩١٨ ، فالسابع : « ازهار الخريف » عام ١٩١٩ ثم تشغله عموم المهنة التعليمية والتنقل في البلاد عن جميع أشعاره في دولوين أخرى بعد هذا التاريخ ، فيكتفى بنشر شعره وأبحاثه في عديد الصحف والمجلات مرددا :

اللى يشعري في خلق الزمان ولا

أبيت منه على هم وبليال !

وقد أمكن جمع مانشر من الشعر من الشعر بعد عام ١٩١٩ في الجزء الثامن .

وأما مكتبته النظرية التى تضم فصوله وأبحاثه في الأدب والنقد والدراسات النفسية والفلسفية « فقد طبع منها في حياته خمسة كتب وهى : « الثمرات » و « حديث إبليس » و « الاعترافات » وقد ظهرت جميعا عام ١٩١٦ .. ثم « الصحائف » - ١٩١٨ وقصة « الحلاق المجنون » - ١٩١٩ (بتوقيع خ.ش) ولم يطبع منها بعد خمسة أخرى كان قد نشر فصولها فيما بين ١٩١٩ و ١٩٥٢ في مجلات الرسالة والثقافة والمقتطف والهلال وغيرها .. وهى :

كتابته « نظرات في النفس والحياة » وقد نشره مسلسلًا بمجله المختطف فيما بين ١٩٤٧ - ١٩٥١ . و « الشعر العباسي » و « دراسات نفسية » و « بين القديم والجديد » و « أبحاث ودراسات شني » . ولم يضع الشاعر أسماء لهذه الكتب الأربع الأخيرة التي تفرقت فصولها في عدد من الصحف والمجلات . . . وهكذا لم ينقطع الشاعر عن نظم الشعر وكتابته الأبحاث حتى عام ١٩٥٢ يوم أرمعه التسلل الذي اضلج نصفه الأيمن ولازمه إلى نهايه حياته على الخلف عن الانتاج الأدبي وإن كان لم ينقطع عن كتابته الرسائل الخاصة بيده اليسرى إلى أهله وأصدقائه وتلاميذه حتى نهايه حياته . وماخاد الشاعر يعتزل وظيفته بوزارة التعليم عام ١٩٢٨ بعد أن مارس التعليم نحو ربع قرن حتى رغب في شغابه أن يوفر على النقاد بعض الجهد ، فأخذ ينشر فصول كتابته « الاعترافات » في الصحف ثم طبعها عام ١٩١٦ في كتاب . كما نشر بعض الذكريات عن نشأته وعن التعليم . . . وراح يصحح بعض الأخطاء التي وقع فيها ناقدته في مقدمات دواوينه وفي مقالاته التي لم تجمع أو رسائله التي لم تنشر . . . ويشرح رأيه في الشعر ومذاهبه ، والشعراء وحقيقتهم . . . كما عرف لهم الشعر وأشاعر نظما ، وتوالت الأنبياء عن سوء صحة الشاعر ، وحين جنت الدولة في تكريمه مات الشاعر العظيم ، وكأنما كان يتمثل ما قاله في صدر شغابه وهو في الغربة :

كنت مثل الفريد جي، به من	روضه والزمان غير دميم
حيث وجه النهار جذلان يسا	م ووجه الظلام غير بهيم
ودواع إلى الغنساء، كئسار	من حبيب وموطن وحميم
انزلوه في منزل مثل بطن الأ	رض جهنم السماء، جهنم الأديم
فقضى عيشه غريبا عن الأهل	قليل العزاء جم الهموم
الهوى والحياة واليأس والحزن	وريب من الحياة خصومي

الفصل الرابع

بناء القصيدة عند العقاد

- ١ -

يرتكز الأساس الفلسفي لبناء القصيدة عند العقاد على « عمود الشعر » ، وقد أقام العقاد نظرية كاملة لهذا العمود الشعري ..

وجاء العقاد فأقام أساسا فلسفيا جديدا لبناء القصيدة يرتكز على عمود جديد للشعر .. وذلك ما نحاول شرحه في هذه الدراسة الموجزة .. متوخين الجانب النقدي وحده في هذا البحث ، تاركين الجانب التطبيقي على شعر العقاد لغيرنا من الدارسين .

ولتبدأ كان العقاد رحمته الله (١٨٨٩) (١) - ١٢ مارس ١٩٦٤) رائدا من رواد الأدب والنقد والشعر^(١) وكان كذلك أكبر شعراء مدرسة الديوان أثرا وتأثيرا في أجيال متعاقبة من أدباء النهضة ، وكان موهبة نادرة وعبقورية قلما تتكرر في أزمنة ملاحقة ، وكان العقاد عصاميا في كل شيء حتى في الثقافة والأدب ، عاش عصره كاملا وكان يقول : « لنا على المسابقتين مزية ندين بها للعصر »^(٢) ولا نلوم المسابقتين على خلو عصرهم منها ، ونقص موازينهم من جراء فقدما ، (٢) .

وفي العقاد حدس للشاعر ، ورهافة حسه ، ودفعة ملاحظة الناقد ، وقدرته على التحليل والتعليل^(٣) وعمق الفكر ونفاذ نظراته ، وسعة إحاطته ، وكان واسع الأفق ، إنساني النظرة ، للبطولة عنده تقديرها ووزنها .

والعقاد الأديب تسنده أصالة قوية ، وثقافة واسعة^(٤) وخبرة بالحياة

(١) من ذكرياتي في صحبة العقاد لطاهر الجيلاوي - ص ١٥ .

(٢) ص ١٤١ شعراء عصر وبيئاتهم في الجيل الماضي للعقاد .

وطول تيمرس بها . ويعد أكبر كاتب عربي معاصر (١) ، ويتحدث الكاتبون عن عبقرياته طويلا (٢) ، وقد شغل النقد والدارسين (٣) . وأدبه يتميز بالاصالة وصدق التجربة ، وطول المعاناة ، وبالتعبير الجميل عن الشعور الصادق .

وقد آمن بالادب ، ورسالة الأدب ، ونذر نفسه لإبلاغ هذه الرسالة طول حياته ، وآمن بالحرية كمقيدة تثير بها رسالة الأديب (٤) .

ويقول عنه محمود تيمور : انه خير من ينطبق عليه ذلك الوصف الحقيقي الذي أوجزه ابن الميميد في قوله عن الجاحظ : « كتب الجاحظ تعلم القتل أولا والادب ثانيا » (٥) .

وعاش العقاد معتزا بلغته وعرويته ودينه أيها اعتزال ، والذين عنده ليس عن وراثته فحسب ، بل عن شعور وتامل وتفكير طويل (٦) . وكان كل شيء يهون عنده إذا رضى عقله الكبير ، وارتاح ضميره الحي ، وأطمأن شعوره للمرهف (٧) .

ولقد قامت مدرسة الديوان في الربيع الأول من القرن العشرين ، وتزعمت حركة التجديد في الشعر ، وروادها هم : عباس محمود العقاد ، وعبد الرحمن شكري ، وإبراهيم عبد القادر المازني ، وكانت ثقافة هؤلاء الرواد الانجليزية ووجهتهم هو الأدب الانجليزي .

وتسمى المدرسة بهذا الاسم نسبة إلى كتاب الديوان النقدي المشهور ، الذي ألفه اثنان من هذه المدرسة ، هما : العقاد ، والمازني ، وأصدراه عام ١٩٢١ في جزئين ، وبسطا فيه دعوتيهما الجديدة ، ونقدا فيه حافظا وشوقيا والمنفلوطي ، كما نقدا فيه زميليهما الثالث عبد الرحمن شكري ، وقد أحدث هذا الكتاب الصغير في حجمه الكبير في روحه ضجة أدبية كبرى ، وجسدت في نظرية في نظرية عمود الشعر القديمة .

(١) ٥٧ مع العقاد للدكتور شوقي ضيف - سلسلة اقرأ العدد ٢٥٩ .

(٢) نعمات غزاد في مجلة الأزهر عام ١٣٨٦ هـ من مقال لها عن العبقرية .

(٣) ١٣ نظرات في فكر العقاد للدكتور عثمان أمين ، والعقاد ناقدًا للكاتب عبد الحى دياب

(٤) ١٦ فصول من النقد عند العقاد - لمحمد خليفة التونسي - نشر مكتبة الخانكي .

(٥) ٣٢ - ٣٧ من مقال لمحمود تيمور نشر في الهلال عدد أبريل ١٩٦٧ .

(٦) مقدمة كتاب (أنا) للعقاد - بقلم طاهر الطاهي .

(٧) الإبلاغ عدد ١٩٣٧/٩ عن مقال لإبراهيم عبد القادر المازني .

ويكرر العقاد في كتبه ومقالاته أن مدرسة الديوان أول حركة تجديدية في الشعر الحديث ، ويذكر أن يكون مطران هو أول الدعاة إلى المذهب الجديد . ويعد ظهور هذه المدرسة - في رأيي - بداية حقيقية للأدب المعاصر .

ومن حيث كان مطران يتزعم الدعوة إلى الشعر الموضوعي في أدبنا الحديث ، كانت مدرسة شعراء الديوان تدعو إلى الجانب الذاتي أو الغنائي منه ، فشعرها هو شعر الوجدان الذي يعبر عن شخصية الشاعر وذاته أبلغ تعبير ، واتخذ شكري شعارا له هذا البيت م نشعره :

ألا يا طسائر الفسردو س أن الشعر وجدان

وأدخل المازني في تعريف الشعر العاطفة والخيال ، واتجه العقاد إلى شعر الفكرة ، ودافع عنه في ديوانه « بعد الأعاصير » الصادر عام ١٩٥٠ .

ولقد حمل هؤلاء الثلاثة لواء الثورة على الشعر والأدب الكلاسيكي وأعلامهما في مصر ، وكتبوا أمثع الفصول النقدية التي حفظها تاريخنا الأدبي وثائق ذات قيمة كبيرة في تاريخنا الشعري المعاصر .

ولقد ظهر ديوان مطران عام ١٩٠٨ ، والجزء الأول من ديوان شكري عام ١٩٠٩ ، وديوان أنداء الفجر للكنتور أحمد زكي أبو شادي في العام نفسه . كما ظهر الديوان الأول للمازني (١٩ أغسطس ١٨٩٠ - ١٠ من أغسطس ١٩٤٩) عام ١٩١٣ ، وفي العام نفسه صدر الجزء الثاني من ديوان عبد الرحمن شكري ، وفي عام ١٩١٦ ظهر الجزء الأول من ديوان العقاد ، وكل هذه الدواوين تمثل جوانب المذهب الجديد في الشعر .

وقد أتقبل العقاد وزميلاه على الأدب الإنجليزي ، وقاروا للشعراء الإنجليز ، وبخاصة شعراء « مجموعة الكنز الذهبي » التي اختارها وجمعها فرانسيس بالجريف أستاذ الشعر باكسفورد وكان يعمل موجهًا ومفتشًا للتعليم في وزارة المعارف المصرية ، وبدأ الثلاثة يطمعون شعريهم بالأخيلة والمعاني والصور الغربية ، ويكتفون في وحدة القصيدة ، ويدعون إلى الذاتية والإصالة وظهور شخصية الشاعر ، واستلهم الطبيعة ، ويتناولون شتى الموضوعات الإنسانية ، ويحاربون التقليد والتكلف والافتعال وشعر الناسبات الطارئة ، وبهذا بدأ المسار الجديد لمعود الشعر كما دعا إليه العقاد ومدرسته التي تعد أساسا للرومانسية في شعرنا الحديث . ويقول المازني : « كان ديوان شكري كما كانت يوميات العقاد بداية اقتحام المذهب الجديد

في الأدب للميدان^{١٠} وفاتحة الصراع بينه وبين المذهب القديم ، مذهب شوقي وحافظ وأضرابهما (١) .

ويقر المازني بأن شكري هو الذي هداه إلى الطريق السوي في الشعر ، ولولاه لاتبه بشعره الاتجاه القديم (٢) .

وتعد كتب العقاد مقدمة الجزء الثاني من ديوان شكري ، وبسط فيها أصول المذهب الجديد الذي يدعون إليه . وكتب المازني في العام نفسه عدة مقالات في جريدة « عكاظ » الأسبوعية وأزن فيها بين حافظ وشكري ، وفضل صديقه شكري على حافظ . ونشر المازني عام ١٩١٥ كتاباً في نقد حافظ عنوانه « شعر حافظ » ، وشرح شكري مذهبه في الشعر في مقدمته التي كتبها للجزء الخامس من ديوانه بعنوان « في الشعر ومذاهبه » .

ولقد كان العقاد أكثر الثلاثة دعوة إلى هذا المذهب ، الذي خطط طريق الرومانسية في شعرنا الحديث ، ونفذ العقاد عن طريقه إلى تحويل مسار عمود الشعر العربي ، وإلى صورة شعرية عربية جديدة (٣) . ولقد خص شوقي بحملة نقدية شديدة في كتاب الحيوان^{١١} وأكد فساد المنهج للشعر الكلاسيكي الذي يرتكز على عمود الشعر القديم دون تجديد .

وإذا كان شكري قد اعتزل المدرسة بعد نقد المازني له ، وكف المازني كذلك عن متابعة نشاطه فيها بعد « الديوان » ، فإن العقاد هو الذي حمل الراية إلى النهاية ، وكان « ثباته في الميدان وهو يؤدي رسالة مدرسة الديوان هو الذي جعله صاحب رسالة في الأدب والحياة » (٤) .

ويعتبر شكري في رأي البعض هو رأس هذه المدرسة الجديدة في الشعر الحديث (٥) ، ومنهم أبو شادي ومنصور والسحرتي^{١٢} وفي رأي الآخرين أن العقاد هو رائد العقاد هو رائد هذه المدرسة (٦) .

(١) من مقال المازني نشر في أخبار اليوم عدد ١٩٤٧/١٠/٢٥ .
(٢) ٢٤٤/١ في الأدب الحديث لمصر الدسوقي - وذلك عن مقال نشر في عدد ٥ أبريل من جريدة السياسة بعنوان « التجديد في الأدب » - راجع ص ١٠ ج ٢ من كتاب الأدب العربي الحديث ومدارسه لكاتب هذا البحث .
(٣) ٥ و ٦ مع العقاد للكاتب شكري ضيف .
(٤) البلاغ عدد ١٩٢٧/٩/٤ من مقال للمازني .
(٥) راجع ٢١٧ الأدب العربي الحديث ومدارسه (الطبعة الأولى) ، ٢٣٥/١ دراسات أدبية لمصر الدسوقي .
(٦) راجع : محمد خليفة التونسي في « فصول من النقد عند العقاد » ، العوضي الوكيل في كتابه « العقاد والتجديد في الشعر » ، ص ٢٩ و ٣٠ ، وعبد الحى حبيب في كتابه « العقاد ناقدًا » ص ١٢٥ ، وسواهم .

وبيعول المازني في مقال له : غير زمن كان شكرى فيه محور النزاع بين القديم والجديد ، وذلك أنه كان في طليعة المجددين ، إذا لم يكن الطليعة . والسابق إلى هذا الفصل . ومن اللؤم الذي اتجاف بنفسى عنه أن أنكر أنه أول من أخذ بيدي ، وسد خطاي « وولنى على الحجة الواضحة (١) » .

وفي مقدمة المقاد للجزء الأول من ديوان المازني يحمل العقاد على الشعراء الذين يهيمنون بالمعارضة والتقليد للقدماء .

وفي مقدمته التي كتبها للجزء الثاني من ديوان شكرى يقول : « إن الشعر حقيقة الحقائق ، وللب اللباب ، والجوهر الصميم ، من كل ماله ظاهر في متناول الحواس والمقول » وهو ترجمان النفس ، والناقل الأمين عن لسانها .

ومن نظرية الشعر الوجداني عند هؤلاء الثلاثة انبثقت الدعوة إلى أن يكون الشعر تعبيراً عن ذات الشاعر وشخصيته ، وأن يبعد عن المناسبات ، وأن يغلب عليه طابع الألم والغربة والأنين والحنين وحب الطبيعة والهيام بالريف والقرية ، وأن تسود القصيدة وحدة عضوية كاملة « وتعبر عن تجربة شعرية عميقة ، ومرجع الثلاثة في آرائهم النقدية إلى هازليت وماكولي وشاستري وأرنولد » .

وفي رأي هؤلاء الرواد أن شخصية الشاعر هي كل شيء في الشعر ، وأن الشعر إذا اشعرك بعظمته وقوته فهو النموذج الذي يجب أن تحتفى به .

ومن كل هذه الآراء بدأ اتجاه هؤلاء الرواد وفي مقدمتهم العقاد إلى تغيير صورة عمود الشعر القديمة .

- ٢ -

ونستعرض إلى عمود القصيدة أو إلى عمود الشعر في رأي قدماء النقاد ، فنقول :

عمود الشعر اصطاح جديد ظهر في العصر العباسي وتردد منذ القرن الثالث الهجري ، وفي القرن الرابع ذاع وتداولته الألسنة .

وكان الأمدى (٣٧١ هـ) صاحب كتاب « الموازنة بين اللطائيين » من أشهر النقاد الذين احتفلوا في النقد بالعمود الشعري ، ورجعوا إليه وحكموه في مشكلات النقد وقضايا الشعر . يقول الأمدى في « الموازنة » : سئل البحتري

(١) جريدة السياسة عدد ١٩٣٠/٤/٥ من مقال بمسوان « التجديد في الأدب »

عن نفسه وعن أبي تمام ، فقال : كان أغوص على المعاني منى . وأنا أقوم
بعمود الشعر (١) .

والعمود الشعري في أبسط صوره : كل التقاليد الفنية الموروثة التي التزمها
القديم في شعرهم ، في الأفكار والمعاني والموسيقى الشعرية والألفاظ والأساليب
والصور والأغراض . فهذه التقاليد هي عمود الشعر الذي حتم الكثير من النقاد
التزامه والسير على منواله ، وسموا ما جاء على نمطه من قصائد الشعر قصائد
عمودية .

وتد حرص النقاد على الاحتكام إلى عمود الشعر ، وعلى التزامه .

ويقول الرزوقي : (- ٤٢١ هـ) في مقدمة شرحه على «حماصة أبي تمام» :
كانوا يحاولون شرف المعنى وصحته ، وجزالة اللفظ واستقامته ، والإصابة
في الوصف ، والمقاربة في التشبيه ، والتحام أجزاء النظم والتثامها ، على تخير
من لذيذ الوزن ، ومناسبة المستعار منه للمستعار له ، ومشاركة اللفظ للمعنى ،
وبشدة اقتضائهما للقافية ، فهذه سبعة أبواب هي عمود الشعر (٢) .

وتعد قصيدة الملقات أروع صورة للقصيدة العمودية . وفي العصر
العباسي حاول بعض الشعراء كمسلم وأبي تمام وسواهم الخروج على العمود
الشعري قليلا ما ، فاكثروا من البديع «وطلبوا الصنعة ، وبالقوا في المعاني ،
وافرطوا في الاستعارات والمجازات وأغرقتوا في المبالغة ، وأبعدوا في التشبيه ،
وتعمقهم النقاد^١ وقامت المارك حول تجديدهم وخروجهم على عمود الشعر .

وإذا كان هذا هو رأي القديم في عمود القصيدة ، فإن المحدثين والمعاصرين
خرجوا بالقصيدة إلى أبواب واسعة من التجديد ، وأمعنوا في تغيير شكلها
ومضمونها لمعاناً شديداً ، وطالبوا باسم الحرية الفنية والتجديد المصرية
ما بعد خارجاً على كل تقليد والتزام ، وعلى كل موروثة القصيدة العربية^٢
واختل عمود الشعر وميزاته في أيديهم ، وأصبح الفن عندهم بعيداً عن ماضيه ،
وعن كل القيم الفنية التي حرص الكلاسيكيون والحافظون عليها .

وتحت مدرسة الديوان ، وفي مقدمتها العقاد ، فتحارب باسم التجديد كل
المقومات الفنية القديمة للقصيدة العربية ، ويقول العقاد (٣) : إن الشعر
يقاس بمقاييس ثلاثة :

(١) ١٢/١ الموازنة طبع دار المعارف .

(٢) ٩/١ ص ٩ شرح الرزوقي على حماصة .

(٣) ٨٨ النقد العربي الحديث ومذاهبه ، ونصول في الأدب والنقد ، وهما لكتاب
هذا البحث .

أولها : أن الشعر قيمة إنسانية شبل أن يكون قيمة لفظية أو صناعية فيحتفظ الشعر بقيمته الكبرى إذا ترجم إلى جميع اللغات .

وثانيها : أن الشعر تعبير عن نفس صاحبه ، فالشاعر الذي لا يعبر عن نفسه صانع ، وليس ذا شخصية أدبية .

وثالثها : أن القصيدة بنية حية وليست أجزاء متناثرة يجمعها الوزن والقافية .

وقد حارب العقاد الشعر الجاملي وعابه في كتبه الأولى ومن بينها « مراجعات » - كما أشتد في كتاب « الديوان » في نقد شوقي .

وكرر أنه يرفض أن يحجر على الشاعر حتى لا يفسج شعره إلا على منوال السابقين القدامى (١) ، ورأى أن المحك الذي لا يخطئ في نقد الشعر هو إرجاعه إلى مصدره : فإن كان لا يرجع إلى مصدر أعق من الحواس فذلك هو شعر القشور والطلاء . « وإن كنت تلمح وراء الحواس شعورا حيا ووجدانا تعود إليه الحسوسات ، كما تعود الأغنية إلى الدم ، ونفحات الزعر إلى عنصر العطر ، فذلك شعر الطبع القوي » ، والحقيقة الجوهرية . وهناك ما هو أحقر من شعر القشور والطلاء وهو شعر لحواس الضالة ، والدارك الزائفة (٢) .

ودعا العقاد إلى التجديد في المضمون ، ولم يبال بتجديد الشكل (٣) ، وقال : أن التجديد ليس باختيار الموضوع الجديد « بل بالمضمون الجديد(٤) » .

ورأى أن عصرية الشاعر ليس المعول فيها على وصفه للاختراعات المصرية ، بل المعول فيها على كيفية الوصف ووجهة النظر(٥) ، والمصرية هي أن يترجم الشاعر عن زمنه .

(١) الديوان - ص ٤٠ فصول من النقد عند العقاد - محمد خليفة التونسي - نشر مكتبة الخانجي .

(٢) راجع ص ١٣ مع العقاد للدكتور شوقي ضيف .

(٣) ١٣٩ للنقد والنقاد المعاصرون - الدكتور محمد مندور - يقول الدكتور مندور أيضا : لا يتحقق التجديد المطلوب باختيار موضوع جديد ، بل يحقق بالمضمون الجديد الخ (١٣٩) للنقد والنقاد المعاصرون .

(٤) ٢٣٠ فصول من النقد عند العقاد .

(٥) ٢٩٨ و ٣٠٣ مطالعات للعقاد ، ومقدمة العقاد للجزء الأول من ديوان المازني

ونستبين من كلامه عن التنبؤ كيف أخذ العقاد يصحح مسار العمود الشعري ، فهو يقول عن هذا الشاعر الكبير : التنبؤ فنان على طريقته التي تناسبه من الفن ، فقد ظفر من المعاني بجمال السلامة والبساطة وراء الصحة والقوة ، وتناسب المثانة والكفاية . أما جمال الزينة والرشاقة ، ومحاسن النظرية والأناقسة فليس له منها نصيب وافر(١) .

ودافع عن موسيقى الوزن والقافية في القصيدة دفاعا حارا ، وبعد أن أجاز في مطلع حياته الشعر المرسل المطلق من القافية ، حيث كان يكرر أن التزام القافية . في غير الشعر الغنائي لا مبرر له (٢) . عساذ يؤكد ضرورة التزام القافية . ويرى أن الغاء كل الالغاء يفسد الشعر العربي ، إذ لا تدعوا إليه الحاجة (٣) . ويلتزم العقاد الوزن في القصيدة الغنائية ، ويجيز تغيير البحر من فصل إلى فصل في الملاحم والقصائد المخطوة(٤) .

ويقول : إن أوزان الشعر أصيلة عميقة القرار في طبيعة الشعر (٥) ورأى أن القيود في الفن والشعر جزء من كيانهما ، فمن خلال القيود الفنية تظهر عبقرية الشاعر وموهبته الأصيلة ، والمثل الفرنسي يقول : « لا يحيا الفن بغير قيود » . وفي ذلك يقول العقاد : لا معنى للفن إذا خلا من قدرة خاصة تتجلى فيها الملكة المطبوعة (٦) . ويقول : إن هدم الفن الجميل الذي امتازت به لغة العرب لا يصدر إلا عن عجز أو إصرار على الهدم (٧) .

ونوه العقاد بالشعر المطبوع(الاصيل(٨) ، ورفض شعر القشور والطلاء(٩) ، وقال : إن الشعر الصحيح هو ما يقوله الشاعر الممتاز بالعاطفة والنظرة إلى الحياة (١٠) ، والشاعر هو من يشعر بجوهر الأشياء ، والشعر الجيد (١١)

(١) ١٧٤ - ١٧٩ مطالعات في الكتب والحياة طبعة القاهرة ١٩٢٤ .

(٢) راجع ٢٩٥ - ٢٩٧ مطالعات ، ومقدمة لعقاد للجزء الأول من ديوان المازني .

(٣) ١٠٧ اشتات مجتمعات للعقاد - طبع القاهرة ١٩٦٣ .

(٤) ٤١ و ٤٢ دراسات في المذاهب الأدبية والاجتماعية للعقاد - نشر مكتبة غريب .

(٥) راجع مجلة الهلال عدد فبراير ١٩٦٢ من مقال للعقاد .

(٦) ١٦٧ مهرجان الشعر الرابع - من كلمة للعقاد .

(٧) ٣٦ للغة لشاعرة للعقاد - طبع القاهرة ١٩٦٠ .

(٨) ٣١٢ مطالعات .

(٩) ٣٩ للديوان - فصول من النقد عند العقاد .

(١٠) ١/١٢٤ ساعات بين الكتب .

(١١) فصول من النقد عند العقاد .

هو ما كان مصحوباً بالطبيعة الحية والاحساس البالغ (١) ، وهو الشعر الذى يرينا ما فى الدنيا وما فى نفس الانسان ، وتعرف فيه الطبيعة على لحن صادق (٢) ، وليس الشاعر هو من يأتى برائع المجازات (٣) ، وإنما هو من تتوثر فيه مزية الطبيعة الفنية التى تجعل فن الشاعر جزءاً من حياته (٤) . . . ويمثل فكرة العقاد فى الشعر ما قاله هو فيه :

الحب والشعر دينى والحياة معاً
دين لمعرك لا تنفيه اديان

والشعر السنة تنضى الحياة بها
الى الحياة بما يطويه كتمان

لولا القريض لكانت وهى غائبة
خرساء ليس لها بانفول تبيان

ما دام فى الكون ركن للحياة يرى
فنى صحائفه - لاشك - ديوان (٥)

ومن هذا المنطلق سار العقاد بنظرية الشعر وبالعنود الشعرى فى مسار جديد . . .

- ٣ -

وأول ركن فى بناء القصيدة عند العقاد هو ظهور شخصية الشاعر ، ومن أجل ذلك حارب التقليد (٦) والتسلد عنده من ينمى شعوره ويأخذ برأى الآخرين على غير بصيرة (٧) ، ويقول (٨) : أن الشاعر هو المحرر من اسار التقليد وهو الذى يدرك الدنيا كلها فى صورة تختلف كثيراً أو قليلاً عن سائر الصور ، وهذا هو ما يعنيه بفلسفة الشاعر .

(١) ص ٧ ابن الرومى للعقاد - مطبعة مصر .

(٢) ١٦٠ شعراء مصر وبيئاتهم فى الجيل ١٩ الماضى للعقاد - الطبعة الثالثة ١٩٦٥ .

(٣) ١٠٥ خلاصة اليومىة - ١٩١٢ .

(٤) ٤ و ٥ ابن الرومى - وحول ذلك يقول مندور : أن جودة الشعر تتمثل فى خلاص الشاعر لنفسه وصنوع عما يجده منها راجع ٥٦ - ٦٥ الشعر المصرى بعد شوقى - الحلقة الأولى .

(٥) ٤٣ ديوان العقاد .

(٦) ٩٢/١ فصول من النقد عند العقاد .

(٧) ١٦٥ فصول من النقد عند العقاد .

(٨) ٣١٠ ابن الرومى

وتحدث عن حافظ فقال : انه يعجبه منه جلاله في شعره (١) ، وعندما تحدث عن المتنبي (٢) قال : ان له مذهباً خاصاً في الحياة *

ويرى في شوقي انه ارتفع بشعر الصنعة وهبط بشعر الشخصية (٣) *

ومن ثم اعجب بابن الرومي وبالمتنبي لقوة شخصيتهما في شعرهما ، والترجمة لنفس الشاعر وشاعره هو مظهر شخصيته في شعره ، والتفاوت في التعبير علامة الشخصية والطبع ، والا فلن نحصل من الشعراء الا على نسخ معادة مكرورة (٤) ، فالتفاوت في الأساليب عنده دليل على استقلال الشخصية وظهورها (٥) ، ومن هنا كان اعجابه بابن الرومي كثيراً *

ان ظهور شخصية الشاعر في شعره أحد مقومات القصيدة عن شعراء مدرسة الديوان عامة (١٠) وعند العقاد خاصة ، الذي دعا مع زملائه الى الجانب الذاتي أو الغنائي من الشعر ، وخرجوا بنظرية جديدة سموها « شمس الوجدان » ، ومرد ذلك الى الرومانسية التي ألقت هؤلاء الرواد حولها ، يدعون اليها ، ويبشرون بها في الأدب والشعر والنقد ، فشخصية الشاعر هي كل شيء في الشعر ، والشعر اذا كان يشعر بك بعظمته وقوته فهو النموذج الذي يجب أن تحققي به ، وكان ورد زورت الشاعر الانجليزى يقول عندما سئل عن شعر شاعر : انه ليس من الحتم في شيء (٦) يريد أن منزلة الشاعر مستمدة من شعره ، فاذا أصبح شعره على ألسنة الناس ، ولا غنى لهم عنه ، فهو شاعر قد فرض نفسه على الشعر وعلى النقاد والناس *

- ٤ -

الوحدة العضوية للقصيدة :

ومن مقومات القصيدة عند العقاد ومدرسته (١١) الوحدة العضوية وفي ذلك يقول :

(١) ٢١٨ فصول من النقد عند العقاد *

(٢) ٢٣٦ المرجع نفسه (١٢) وراجع رأيه في المتنبي في كتاب « مطالعات في الكتب والحياة »

(٣) ١٥٦ شعراء مصر - للعقاد *

(٤) راجع ٩٨ - ١٠٠ على الاثر للعقاد - طبع دار الفكر العربي - القاهرة :

ص ١٤٤ - ١٧٣ *

(٥) ٢٩٢ مطالعات *

(٦) ٢/٤٧ الأدب العربي الحديث ومدارسه - الطبعة الثانية *

- ٣٢٥ -

القصيدة ينبغي أن تكون عملاً فنياً تاماً يكمل فيه تصوير خاطر أو خواطر متجانسة كما يكمل التمثال بأعضائه ، والصور بأجزائها ، واللحن الموسيقي بأنغامه ، بحيث إذا اختلف الوضع ، أو تغيرت النسبة أخل ذلك بوحدة الصنعة (١) .

ويقول أيضاً : إن القصيدة الشعرية كالجسم الحي يقوم كل قسم منها مقام جهاز من أجهزته ولا يغنى عنه غيره في موضعه (٢) .

ويقول : أصبحت القصيدة شيئاً يقبل الاسم والعنوان ، وكانت قبلاً لا تعرف إلا أنها نظمت في تهنية زيد ، أو رثاء فلان (٣) .

ومن ثم عاب بعض قصائد شوقي بالتفكك وفقدان الوحدة المعنوية (٤) ، ويؤكد أن القصيدة وحدة الشعر (٥) .

وباشتراط الوحدة العضوية في القصيدة يبطل تعدد الأغراض فيها عنده ، وتتقضى الختمات في مطالعها سواء كانت مقدمات طلبية أم مقدمات غزلية أم خمرية ، والمقدمة الطلالية جعلها ابن قنينة (- ٢٧٦ هـ) جزءاً من البناء الفني للقصيدة ، وكانها عنده جزء من عمود الشعر ، وباشتراط العقاد للوحدة تصبح القصيدة اللغائية عضوية ، أي ذات بنية حية تنمو من داخلها في انساق تام نحو نهايتها (٦) وتصير بنية حية تامة الخلق والتكوين (٧) .

ويؤكد شكراً أنه ينبغي أن ننظر إلى القصيدة من حيث هي شيء، فرد كامل ، لا من حيث هي أبيات مستقلة (٨) .

وكذلك سار المازني على اعتبار القصيدة كلا واحداً ، وعملاً فنياً واحداً ، وبنية حية مترابطة الأجزاء والأفكار والاحاسيس (٩) .

(١) ٨٠ فصول من النقد عند المتاد .

(٢) ٨٠ فصول من النقد عند المتاد .

(٣) مجلة الرسالة لعدد ٢٠٩ السنة ١٣ الصفحة ٢١٣ .

(٤) ٨١ فصول من النقد عند المتاد .

(٥) ١٦٣ المرجع نفسه .

(٦) ص ٣٨٣ الأديب القارئ الدكتور محمد غنيمي هلال .

(٧) ١٥٣ في النقد الأدبي للدكتور شوقي ضيف .

(٨) مقدمة أجزاء الخاضع من ديوان شكراً بعنوان « في الشعر ومذاهبه » ، ٧٩ - ٨٠ .

محاضرات في الشعر المصري بعد شوقي الحلقة الأولى - لندور .

(٩) ص ٩٠ النقد العربي الحديث ومذاهبه لصاحب هذا البحث .

ويرى مصطفى المجرى (١) انه بالوحدة العضوية نرى ذكاء الشاعر وبراعته في التوفيق بين الصور والأشكال والظلال والألوان ، وحذقه في إيقاظ الحياة في الفاظه وأساليبه وأفكاره وأخيلته .

ويرى العقاد أن شكراً أسبق المتقدمين إلى توحيد بنى القصيدة كما انه اسبقهم إلى التصريف في القافية على أنواع من التصريف المقبول (٢) . بينما يقول محمد خليفة التونسي : ان العقاد أول من نادى بيننا بوحدة العمل الأدبي (٣) .

ولا شك أن الوحدة العضوية كانت صيغة من صيحات الرومانتيكيين في الدعوة إلى التجديد ، فان القصيدة عديم نصيب كل صورة من صورها بمثابة عضو حي في بنيتها الفنية ، وهو ما يسمى عديم عضوية الصورة الشعرية ، فالقصيدة الغنائية عديم وحدة تشبه وحدة المسرحية العضوية ، وأول من قرر ذلك لسنج الألماني (١٨٢٩ - ١٨٧١) وهو رومانتيكي في فكرته عذ على الرغم من كلاسيكيته في بعض أرائه ، لأخرى : « وقد أعجب برأيه جوته ، وهو من أعلام المدرسة الرومانسية في ألمانيا ويقرر هذا المبدأ الفني أيضا أوسكار وايلد ، فالقصيدة الغنائية عنده ذات وحدة عضوية حية نامية (٤) » .

وعلى أساس الوحدة العضوية يقوم النقد الحديث الذي ينظر إلى القصيدة جملة باعتبارها عملاً غنياً واحداً ، من حيث كان النقد العربي القديم في أغلبه يعمل على البيت الواحد من القصيدة وينتقي عليه في عملية النقد . على أن بعض النقاد العرب امتدوا إلى هذه الوحدة وترها « فالحاتمي (- ٣٨٨ هـ) يقول : مثل للقصيدة مثل الإنسان في اتصال بعض أعضائه ببعض ، فمتى انفصل واحد عن الآخر وبأينه في صحة التركيب ، غادر الجسم ذا عامة تتخون محاسنه ، وقد وجدت حذاق المتقدمين ، وأرباب الصنعة من المحدثين ، يحترسون في مثل هذه الحال احتراساً يجنبهم شوائب نقصان ، ويقف بهم على محجة الإحسان » ، حتى يقع الاتصال ، ويؤمن الانفصال ، وتأتي القصيدة في تناسب صدورها وأعجازها ، وانتظام نسبها بمديحها ، كالرسالة البليغة . راجعة الموجهة ، لا ينفصل جزء منها عن جزء (٥) » .

(١) الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث ، والنقد من خلال تجاربه .

(٢) راجع ص ٢٠٢ - ٢٠٥ حياة تلم العقاد - مطبعة الاستقلال .

(٣) فصول من النقد عند العقاد .

(٤) ص ٩٠ النقد العربي الحديث ومذاهبه .

(٥) زمر الآداب تحقيق الدكتور زكي مبارك .

ومن قبل الحاتمي دعا ابن طباطبا (٣٢١هـ) إليها ، فهو يقول : يلتزم الشاعر منهاج أصحاب الرسائل في بلاغاتهم ، فإن للشعر فصولا كفصول الرسائل ، فيحتاج الشاعر إلى أن يصل كلامه على تصرفه في فنونه وصنعة لطيفة ، فيخلص من الغزل إلى المديح ، ومن المديح إلى الشكوى ، ومن الشكوى إلى الاستماعة ، ومن وصف الديار والآثار إلى وصف الفياق والنوق بالطف تخلص ، وأحسن حكاية ، بلا انفصال للمعنى الثاني عما قبله ، بل يكون متصلا به ، ومتمزجا معه (١) .

ويرى مندور أن الوحدة العضوية غير متصورة في الشعر الغنائي ، إنما تتصور في الشعر الموضوعي : كفن المسرحية ، وفن القصة ، وأما الشعر الغنائي فمن العسير مطالبة الشاعر بمثل تلك الوحدة التي لا تقبل تقديما ولا تأخيرا في نسق أبياتها (٢) .

وقد أجاز الرميون لأنفسهم الانتقال في قصائدهم من فكرة إلى أخرى على أساس الاحساس والشعور النفسي « مع ضعف الرابطة المنطقية بين الفكرتين ، وأن حرصوا مع ذلك على الوحدة العضوية في مجموع القصيدة ، وهذا الانتقال إنما قصدوا به إثارة عنصر المفاجأة ، والرغبة في تقوية جانب الإحساء (٣) .

أن الوحدة العضوية للقصيدة التي دعا إليها العقاد ورواد مدرستي الديوان وأبو لو قد غيرت بناء القصيدة تغييرا كاملا ، حيث ذهب منها الاستطراد والحشو والتفكك والاضطراب والانتقال من موضوع إلى آخر ، ومن غرض إلى غرض ، وخلت من اقتضاب المعاني وتنافضها ، ومحي منها اضطراب المواطف والمشاعر النفسية ، وأصبحت عملا فنيا عاملا مرتبط الأجزاء ، ملتحم المشاعر والمواطف متناسق الدلالات والإشارات ، وأصبحت القصيدة كأنها تمثال نابض الحياة .

ومن ثم حارب العقاد وزملاؤه شعر المناسبات ، لأنه غالبا لا يكون تعبيرا عن أعماق نفس الشاعر ، ولا صدى لانفعال عميق بفكرة القصيد ، وفي الكثير يأتي شعر المناسبات مفكك الأجزاء مضطرب الأفكار .

(١) ٦ و ٧ عيار لشعر لابن طباطبا .

(٢) راجع ١١٣ - ١١٧ لنقد ولقداد المعاصرون للمكتور محمد مندور .

(٣) ٩١ النقد العربي الحديث ومذاهبه لصاحب هذا البحث .

التجربة الشعرية :

يقول العقاد : أن المحك الذي لا يخطئ في نقد الشعر هو إرجاعه إلى مصدره ، فإن كان لا يرجع إلى مصدر أعمق من الحواس فذلك هو شعر العشور والطلاء ، وإن كنت تلمع وراء الحواس شعورا حيا « ووجدنا تعود إليه الحسوسات ، كما تعود الأغنية إلى الدم ، ونفحات الزهر إلى عنصر العطر فذلك شعر الطبع (١) »

نهر يدعو إلى أن تكون القصيدة معاناة شخصية عاشها الشاعر ، ولا تحل أثرا للتقليد ، والشاعر عنده هو من يشمر بجوهر الأشياء (٢) »

ويقرر العقاد (٣) أن التجربة لا تعرف نمونجا واحدا متفقا عليه بقدر ما تعنى أن يصف الشاعر ما يحبه أو يستحسنه أو يراه »

ويرى العقاد أن التجربة هي تجربة الشاعر وحده ، وليست تجربة أحد سواه ، وهي لفعاله وأحاساسه هو « ومن ثم تكون التجربة مفردة ، ويفتق عنها التقليد »

ويتناول : انه لا كتب في الفن مبادئ المطابقة صحيحة بينه وبين الشعور الذي يصدر عنه (٤) ، والشاعر حينما ينفذ التقليد يتيح بنفسه أن ينقل الينا احساسه بالشئ القديم الوجود بين جميع الناس ، فإذا بنا كأننا نحسه أول مرة ، لما أودع فيه من شعور ، وما أضفاه عليه من طرافة وجدة (٥) »

ويرى (٦) أن احساسنا بالشئ هو الذي يخلق فيه اللذة ، ويبث فيه الروح ، ويجعله معنى شعريا تهتز له النفس »

(١) ٣٩ - ٤٠ فصول من النقد عند العقاد .

(٢) ص ٣٩ المرجع السابق .

(٣) ص ١٠٠ على الاثر للعقاد - طبعة دار الفكر العربي .

(٤) ٣٨٥ حياة تلم للعقاد .

(٥) ١٦٨ شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي - للعقاد .

(٦) ١٧١ فصول من النقد عند العقاد .

وق تقديمه للجزء الثاني من ديوان شكوى الذى صدر عام ١٩١٣ يقول : فى هذه الصفحات نظيرة المندير ، وسجده العابد ، ولحمة العاشق ، وزفيرة المتوجع ، وصيحة الغاضب ، ودمعة الحزين ، وابتسامة السخر ، وبشاشة الرضا ، وعيوسة المسخط ، وفشور الياس وحرارة الرجاء .

وق هذا تأكيد لما يشتمل عليه هذا الشعر من تجربة شعرية عميقة ، وعاطفة قوية صادقة ، والمعاناة السزم شئ للحياة الإنسانية (١) .

وهذه التجربة صارت عند العقاد شعراء مدرسة أدبيون ثم شعراء مدرسة أبولو أخذ القوالب الفنية لبناء القصيدة الحديثة ، وميزة من ميزات القصيدة المعاصرة ، وركنا من أركان العمود الشعرى الجديد ، وبسببها حارب العقاد شعر المناسبات الطارئة ، ورأى انه يضل طريقه الى الاحساس والشعور ، وأنه لا يمت بصلة الى مشاعر الشاعر ونفسه ، ومن ثم حارب التقليد (٢) والتزييف . ورأى ان البهرج لا بلاغة ولا جمال فيه (٣) لأنه بعيد عن أعماق نفس الشاعر واحاسيسه .

- ٦ -

الصورة الشعرية :

والصورة الشعرية هى أحد مقومات البناء الفنى الجديد للقصيدة الشعرية .

وتتكون الصورة من : المعانى والأفكار والمشاعر بما تشتمل عليه من لفظ وأسلوب وروابط ، ومجازات وخيال وموسيقى ، بشرط أن تنقل مشاعر الشاعر وعواطفه نقلا حيا قويا مؤثرا .

فبالخيال هو الملكة التى يستطيع بها الشاعر تأليف صورة وهذه الملكة تتحكم فى الاحساسات السابقة التى لا حصر لها ، والتى تظل محبوسة فى مخيلة الشاعر ، ثم تعيد بناءها من جديد . وكان الكلاسيكيون يعتمدون على العقل ويحذرون من الخيال ويحتقرونه بعكس الرومانسيين الذين اهتموا بالخيال ، لأنهم يلونون بالعواطف والمشاعر أكثر مما يلونون

(١) ١٧٥ فصول من النقد عند العقاد .

(٢) ٩٢ فصول من النقد عند العقاد .

(٣) ٢٥٩ فصول من النقد عند العقاد .

بالعتل • وكذلك عنى البرناسيون به لعنايتهم بالصور الشعرية وصياغتها ، وبالموضوعية في هذه الصور ، فدعوا الى الوصف الموضوعى والصور المرئية التى يخلق عليها اسم الخيال التصويرى • أما الرمزيون فيرون البلد: في رموزهم من الاشياء المادية الى التعبير عن اثرها العميق في النفس عن طريق الايحاء بالرمز المخطط بالحس « وعلى الشاعر في رأيهم ان يلجأ الى الوسائل التى تغنى اللغة الوجدانية . كى يقوى على التعبير عما يصعب عليه التعبير عنسه •

ويؤكد العقاد ان في الشعر شيئا غير الألفاظ والمعانى الذهنية وهو الصور الخيالية ، وما تنطوى عليه من تداعى الشعور(١) •

ويقول ان الشعر صناعة توليد للعواطف بواسطة الكلام ، والشاعر هو كل عارف بأساليب توليدها بهذه الوساطة ، فهو يستخدم الألفاظ والتواليد والاستعارات التى تبعث تنوا في نفس القارىء، ما يقوم بخاطر الشاعر من الصور الذهنية(٢) •

ويرى أن الصور الخيالية هى الأصل في جمال الأساليب (٣) •

ويؤكد أن الفكر والخيال والعاطفة كلها ضرورية للشعر مع اختلاف في الغضب •

وللموسيقى عنده شأن كبير ، حتى لنراه وهو يتحدث عن حافظ يقول : وتمجبتى منه موسيقية في شعره ، يوقع لك النغم ثم يتركك تغنى على ليللاك (٤) • •

ويرى في انتظام القافية متعة موسيقية تخف إليها الأذان (٥) •

ويؤكد أن الأسلوب هو صورة الشاعر نفسه (٦) •

(١) فصول من النقد عند العقاد - والخيال عند العقاد هو ناسج الصور ، وخالع الأجسام على المعانى النفسية ، وهو سلطان موزع في عرش النفس يخلق الحلل على كل ساحة تمثل بين يديه (٣٠٧ مطالبات) •

(٢) فصول من النقد عند العقاد •

(٣) راجع ٢٥٢ - ٢٥٨ المرجع السابق •

(٤) فصول من النقد •

(٥) فصول من النقد •

(٦) ٣٠٧ ابن الرومي •

والمعاني في الصورة الشعرية هي عنده الجهر واللباب الذي تحتويه
للمعاني (١) .

ولا بد أن تكون المعاني هي معاني الشاعر وحده ، وإن يكون صادقا في
التعبير عنها فليست البلاغة في الحروف والكلمات ، بل فيما توحى به الأنفاظ
والمعاني معا من صور خيالية وما ينطويان عليه من خواطر حية متساوية (٢) .

ويؤثر العقاد الصور الشعرية التي تنسجج كما يسبك الحديد لاذاب في
الأتون المتقد ، لا التي ترسل ارسالا ، كما يفيض الماء من البندوب الجياش (٣)
وكان هاردي كما يقول ناقده .

وفي التقديم فإن بعض النقاد في جرير والفرزدق : جرير يغرف من بحر ،
والفرزدق ينحت من صخر ، وعلى هذا يكون شعر الذي نحت من صخر
أولى بالایشار عند العقاد .

وأذا كان أسلوب الصياغة الشعرية بمثابة الجسم في القصيدة ، فإن
التجربة هي الروح ، فالصورة الشعرية التي هي وليدة الخيال وسيلة فنية
لنقل تجربة اشاعر ، والرمز والإيحاء وتداعي الصور وإطلاق المعاني الثانوية
وتأثيرات الموسيقى والحركة في الصورة ، كل ذلك مما يساعد على نشاط
الخيال .

ومن حيث المعاني في الصورة الشعرية فقد حارب العقاد الإحالة - فساد
المعنى - كما حارب التزييف والصنعة التي عرفها بأنها ضعف التعبير عن
نفس الشاعر وجدانه ، ورثع من شأن الطبع الذي هو عنده غوة الشاعر
في التعبير عن نفسه ومشاعره وجداناته ونوازع وذاته .

وبعد فهذه كلها هي صورة لآراء العقاد النقدية في بناء القصيدة
الشعرية .

أعرضها في إيجاز شديد ، لتكون مقدمة لفهم شاعرية العقاد وشعره .

- ٧ -

وكان للعقاد مدرسة في السودان (٤) ، كان هناك تتبع دقيق لكل ما يقول
وبخاصة من الوجوه الشبابة في هذه الفترة التي كانت تعمل على تخطي

(١) ٢٩ فصول من النقد عند العقاد .

(٢) راجع ٩٠ وما بعدها من كتاب مراجعات للعقاد .

(٣) ٢٧١ فصول من النقد عند العقاد .

(٤) ص ١٦٣ العقاد ونقد الشعر - من دراسة الدكتور عبيد بنوي .

الأدب التقليدي والمحافظة إلى أمان أخرى ، ولنتى كانت لها في الغالب صلات قوية بالأدب الانجليزي ، والتي كانت نستوحيها الدعوة إلى أن تكون الذات الفردية أساسا للشعر !

والدور الهام الذي قام به « حمزة الملك طنبلي » معروف ، وكيف أن هذا الدور كان منظور فيه بعمق إلى كتابات العقاد ، وإلى جبل الذات محور الشعر . كما رأينا هذا فيما كتبه محمد عيسى صديق ، ومعاوية محمد نسور ، وفي الاتجاه العام لتيار مجلة « الفجر » . ونحن حين نحاول التجول في حقول الأدب في السودان في هذه الفترة المبكرة بصفة خاصة نجد أن دور العقاد كان مشاهدا وملموسا ولا خلاف عليه . فإذا وقفنا مثلا عند « يوسف القتي » وجدنا أنه كان يذكر دائما أنه نتاج لمدرسة الديوان^(١) ، وديوانه المسمى « ديوان القتي يشهد بهذا ، ونحن حين نتتبع أفكاره وآراءه في مجلة « الفجر » بصفة خاصة نجد أن عليها صيغة عقادية ، فهو مثلا يتكرنا برأى العقاد في « الشعر القومي » حين يأخذ الشاعر القتي في مقال له على الاستاذ أحمد حسن الزيات أنه لم يسعد لأن علي محمود طه سمي ديوانه (الملاح التائه) ولم يسمه « أحلام النخيل » أو « مناجاة الصحراء » مما يتفق وطبيعة مصر . . . كيف جاز عندهم أن يتأثر الشاعر المصري بهذه الصحراء التي تلابس جسمه ثم ينكرون عليه أن يتأثر بوساطة ثقافته الانجليزية التي قد تهيء له أن يفهم الاخلاق الانجليزية أو بلاد اليونان أو إيطاليا أو سويسرا أكثر مما يتذوق جمال صحراء مصر التي ليس ببعيد أنه لم يرها (٢) .

.. وقد كان من الواكبين لهذا التيار « الأمين علي مدني » الذي كان من أقواله المتعددة في مناصرة اتجاه العقاد : نحن في حاجة إلى كاتب كالعقاد في فصوله ، ولسنا في حاجة إلى كاتب كمعيد الحميد الكاتب .

.. وما أكثر ما حض « محمد أحمد المحجوب » السودانيين على قراءة كتب العقاد ، ولنتأمل قوله « .. وما من كتاب أو شخصية تظفر بتحليل العقاد لها إلا إذا كانت مما بلغت نظر ، ومما يفرى للناس بقرارة ذلك الكتاب أو دراسة تلك الشخصية ، فالعقاد كان مرشدا لنا في بيسداه تلك الحياة الشائكة ، ونحن حين نتتبع بعض نقده نجده قريبا من مفاهيم العقاد (٣) .

(١) الشعر الحديث في السودان د . عبيد بنوى ص ٦٤٥ .

(٢) مجلة النجر (١٦ يوليو ١٩٣٤) .

(٣) انظر مثلا كتابه « نحو الفن » .

ونه في رثائه قصيدة مشجيه مظلما :

عيسى الشعر آب قبيل أوانه

رائد الفكر عيسى زمانه

٠٠ اما « محمد محمد علي » فكان من الذين تمثلوا تماما آراء مدرسة الديوان ، وجعلوها منطلقا لهم . فقد كان في كل مماركه الأدبية منكنا على آراء هذه المدرسة ، ولنتأمل قوله « ٠٠ احب ان اؤكد اني لا اعتبر قومييه الأدب في الموضوعات وحدها » ولا في الاسلوب والطريقة فحسب ، بل التوجيه عندى تتمثل في نوع الشعور ولون النظرة الى الأشياء (١) . وحملته القاسية على الخوض في الشعر « التجاني يوسف بشير » منظور فيها الى رأى انعقاد في هذه القضية بالاضافة الى رأيه في ابعاد الشعر عن الحياة المعاملة الخاصة منطور فيها الى بعض آراء العقاد ، ثم انه هو القائل : ٠٠ كتب العقاد تعلم الثارى الصبر على الفراءه ، والتأمل والغوص الى اعق الأشياء ، والنظر الى المجتمع والى خبايا النفس من ابواب كثيرة ، ومن المعروف انه في الفترات التى أقامها في القاهرة كان من المترددين على ندوة العقاد في بيته .

وله في رثائه قصيدة مؤثرة جاء فيها :

لهفى على منزل شجعت جوانبـه

بالعلم والنن ٠٠ لا بالثبر والماس

لهفى على مجلس كنا نطوف به

كانه حرم او قدس اقدس

لهفى على نبيرة الجبار طائفة

تقسم النور صدقا بين جلاس

كانما طوع الله النجوم له

فقاده زمرا من غير امراس

وقد جاء في مقدمة ديوان « نار المجاذيب » لمحمد المهدي المخبوب - وله في العقاد قصيدة طويلة قالها في حفل تكريم العقاد بالسودان - قوله :
أذكر أول التحاقى بالوظيفة ، أن رئيسى في الديوان ، رأتى اختلس النظر الى ديوان العقاد ، وكنت خباته في أحد ادراجى ٠ وعيس ويسر « وقال في اشتاق واستخفاف : شعر ؟ « يابنى الشعر ما يستقيش ميه » ! واعترف

(١) محاولات في النقد ص ١٨٧ .

هنا أننى لم انتقم بنصيحة قط ، وما انتفخت نفسى عن غيها ، وليس لها منى زاجر ٠٠ ومثل هذه الآراء مبنوثة عند الرواد من أدباء السودان وشعرائه ، ومنها نرى أن العقاد له دور في توجيه الأدب في السودان خاصة ٠٠٠ وإذا كان العقاد يحس نحو السودانيين بنوع من الرحم ، فإن هذا الاحساس كان موجودا عند السودانيين ، والإنسان السوداني يعيل الى الصراحة والاقتصار في كل ما يتناول من أشياء والى البعد عن التسيب العاطفى ، والميوعة اللفظية ، والكثير من السودانيين لا ينسى زورة العقاد للسودان في ظرف عصيب ، وأنه خصه دون بلدان العالم العربى ٠٠ والعالم ٠٠! ثم أنه لم يعلق على نفسه الأبواب في السودان ، وإنما حاشر وأذاع ونشر واستجاب للدعوات التى قدمت اليه ، وترك باب الدار التى يقيم فيها مفتوحا لكل القادمين ، حيث كانت الوفود لا تنتهى من تحيته ، والاستماع اليه ٠ وقد عبر عن أثر هذه الزيارة في نفسه في قصيدة من شعره :

وكان لدرسة الديوان كذلك صداها في الآداب العربية ، في كل مكان من اقطار العروبة ، وذاعت آراؤها في بناء القصيدة ، وفي التجديد فيها ، وفي الدعوة الى الرومانسية ونقد الكلاسيكية على كل لسان ، واصبحت مبادئ جديدة في تيار التجديد في الشعر المعاصر ٠٠

الفصل الخامس

صور من شعر العقاد

جزء التحدى

سلينى كيف كنت وكيف صرت
تدبرت على الحوادث بعد لآى (١)
وتسولى ما صنعت وما صنعت
وهأنذا كنانى ما تسدرت
* * *
أخاف وكان لى قلب قسري
أتوق إلى غمد لترك عيني
فهأنذا إذا صفر النذير (٢)
وأرجم من يغار بمن يغبر
* * *
وكانت لى سلام أرتقيها
نعدت مثنيا عجلا كانى
فرادى لا أبالي ما يلبيها
أخو العشرين مرتقيا سنيها
* * *
وكنت من السامة لا أبالي ٠٠٠
فهأنذا أسائل ما عساها
أذم الناس أم حمدوا فعالي
ستسمع فى من قيل وقال
* * *
وكنت مزئت حتى بالجمال
فما لى اليوم لا أرضى بحال
وحتى بالفنسون وبالمعالي
وكنت الأمل أرضى كل حال ؟
* * *
أعود إلى الحياة فتلك عندي
موم المستعيد المستعد

الحب الضاحك

فرغت من الحب الذى يعقب الشكوى
بذلت له نارى ثلاثين حجة
فحبى من النعمى ، وليس من البلوى
فلا نار بعد اليوم ٠٠٠ اليوم للحلوى

(١) الأذى : البطء والجهد .

(٢) النذير : أبوقى للإعلان عن الغارات .

ومحضته ماء للشباب فما ارتوى
رضيت بما أعطى وأحسبه ارتضى
فلا زال في عقباه ضحكا بلا بكاء
فهل في خريف العمر يطعم أن يروى
بما أنا معطيه على غير ما يهوى
ووصلا بلا حرج ، وهجرا إلى سلوى

زهرة ديسجور

خل أيار (١) ونوارا لسه
خير نوارى الذى أهديك
عيد ميلادك من بستانه
هات يا كانون زمرا كلما
ربما أعجب قوما • ربما
زهر في شهر كانون (١) نسا
يا ربهما في الشتاء ابتسما
سقط الزهر تعالي وسما

من تقليد « نشيد الأنشيد »

أجل تلك خياياها
فهل تدوين ماذا
وما تيك خطاياها
ك الذى يدعى مزايها ؟

* * *

لما فيهما من العيب
ولحسن الذى فيهما
سننساء وننساها
سنحى الان نكراما

* * *

سأخص لك ما يجيب
كما أخصيت ما يفضيب
منها ، وهو كالشمس
بمد السمي والدس

* * *

ثنياها • ثنياها
وعيناها ، ويا للقلب ،
ومل ثقت ثنياها ؟
كم تسببه عيناها ؟!

* * *

وتلك الوجنة الخمر
أفى الجنة يا رضوا
ية السكران رائبها
ن تفاح يحاكبها ؟!

* * *

(١) أيار وكانون : شهران يقابلان أوائل الربيع وأوائل الشتاء .

وتلك القامة الهيبة ، زانتها زواياها
إذا ما جـسار رنـفـاهـا أمام الجـور نهـداها

* * *

وتلك النسمة الحلو ة في ثوب الأناسي
هي السروح الفراشة ية في النور السماوي !

* * *

دعيها تفسد الخمس ين إفساد ابن عشرينا
وحاشا . بل هي الأكس ير باسم الحب يحيينا

* * *

وعندي من حميا (١) الش مر إكسري وترياني
ومل كالشمع في الدن يا ربيع دائم باق !

الكذبيني

الكذبيني مبرة أو فاكذبيني مرتين
الف الف من اعاجيب ك في غش ومسين
لن تبيد الفارق الخا لد يا مبرة عيني
والسماوات التي بينك في اللسب وبينني

* * *

الكذبيني والكذبيني كلما شئت الكذبيني
أنا في ثروة وفير منه مهما تسليبيني
انقصيها . أي خير ؟ درهما او درمسين !!

تقويم العام

تقويم هذا العام من لحظاته الأولى لديك
تسوي ارفعيه وارفعي عنه الغطاء براحتيك
من يوم مظلمه الي رجاء موشوف عليك

* * *

(١) الحميا : سورة النحر .

وإذا انتهت أيامه
فطيك أنت وداعه
ويحي إذا دار المدي
ولكل عام منتهاه
وترجيبين بما تلاه
ورعيت وحدي ملتاه

في قبلة ضمت عري
ومنى الخواطر في غد
لا تعجلن به فما
عام كسابقة مالا
عام كسابقة مالا
أقسى الحياة على العجالي

* * *

لا . لا فهذا يومنا
أنا مفض عيني ومس
فإذا سمعت حسده
وغد ، وبعد غد ، خفاء
نمغ إلى حسادي الرجاء
فدعيه يمضي حيث شاء

وعام ثان

تشرأى . ما أنا شامد
دارت بروجك والهموى
وحمدت وجبك مقبلا
يا عام وحدي ملتاك
يخطو وتتبعه خطاك
ومضى . فلم أنعم تفك

* * *

مضى فتاتي هذه !
في يدبغ غولها
في غوايتها وآ
في لا خلاف ولا اشتباه
في في الصبا ، في حلاه
من غوايتها وآ

* * *

ضمي ثبيرك يا بنيدة
لا بالمهود إلى مدي
ان ساعفتني لييلة
وابعثنى منه الأمل
عام ، ولكن بالغيبيل
فدعي المهود إلى أجل

* * *

عام تفتيح بالرجاء
ودعت ذلك العام في
قول ، وقصد ولي . أت
وبالرجاء ختمتبه
قربى كما استقبلته
شرع الوفاء تضجته ؟

* * *

لا تخدعيني يا بنيبة
خنا وخنت ولا أقرو
ذهبت خيانتنا معا

* * *
ذهبت خيانتنا كما
لا ذمة تبقي ولا

* * *
انظر الست ترى فتنا
في جلسة الأمس التي
فكانها ما فارتقت

* * *
واذا سألت وربما
« ماذا تقول مودعي
حيرتني يا عام فاستم

* * *
ما كنت عندي أيهاذا
لكن سويجات مضت
غفرت ذنوبك كلها

* * *
حسبي من الدنيا الذي
حسبي قليل عطاها
ان عاد يوم غد كما

وعام ثالث !

... والثالث الموصول أقدم
رحبت منه بمقبّل
ما كان يكرثنا (١) شفا

* * *

(١) يهنا ويشغل بالنا .

رضينا الفرام رياضة لا نرس المصى فاذعنا
لا جامحا تلقنا ولا تمبا يثن من الونى (١)
انعم بذلك مركبا بين العواثر ليننا

* * *

ما للفرام يسومنا بنعيمه وشقائه
إنا لمفتنم وجهنا مه اغتنام سمائه
لسنا على يده يجو لنا بمحض سخائه

* * *

ما شيب من نار طبخنا فوقها طوى الهوى
أو صب من غيث غمسنا فيه آلام الجوى
أو زف من ريح وهبنا ما الشراع كما استوى

* * *

أهلا بعام ثالث يتلوه عام رابع
بل خامس فيما عهد ت وسادس أو سابع
ما ضاقت الدنيا وفي جنبيك قلب واسع

* * *

قلب تفتح بمد ما استمى بباب واحد
أو قل تشقق بالجر اح فلم يضق بالوارد
ما حيلة الأعوام في غير الزمان الفاسد

* * *

يا قلب إنك قد أردت فأيمن ويحك ما تريد؟
عام سعيد ! إى ور بك .. قل إذن عام سعيد !
هيك اعتزلت سروره أتراه ينقص أو يزييد ؟

(١) الفتور *

بعد سنة

سنة مرت ولا كل السنين
بين صيف من مولانا وشقاء
وربيع خلصا غمام انصاء
والضحى والليل حينما بعد حين

* * *

سنة كان لها نجم فريد
غمر الشمس وغطى القمر
ومضى في حسنه منتصرا
كل برج تحته برج سعيد

* * *

إن يكن لى في سناء رقيب
غالى أرصده لم يرصدوه
والذى انشده لم ينشدوه
والذى هاموا به عنده هب

* * *

سنة مرت على روض الغرام
انبتت فيه نسون الشجر
من رياحين وغرس منمر
وسل الأرواح ما ازكى الطام

* * *

يومها الأول وافى ودنا
فانمس أيامك في ساعاته
واجمع الصافي من لذاته
جرعة ، والطرب عليها زما

* * *

جرعة جمع فيها سكر عام
إن شربنا ما فقد تشربنا
أو سكبنا ما فقد تسكبنا
في الهوى روحين في كأس وقام

* * *

هات لي الذكرى وقرب لي الميـان
فهما يا صاحبي بين يدي
حضرا الساعة يا صاح ادي
ربة الذكرى وذكرها قران

* * *

هات لي الذكرى اراها وتراني
غصة ملهوسة في راحتي
حسوة مسولة في شفتي
جنينة تنبتت في كل اوان

* * *

جنتي لا حيلة تخرجني
ابدا منها ولا احياءها
لا ولا إبليس أو حواءها
أنا فيها خالد كالزمن

أنا منها وهي منى في الضمير
فاذا غارتها بالنظر
لم يفارقتها ضميري عمري
وله العصمة من مس السمعير

سنة كان لها نجم فريد
هات منها أيها النجم وهات
سنة ثانية بل سنوات
ولنا منك مزيد المستزيد

أنت يا نجم معبد ما تشاء
لا السماوات ولا داراتها
غنية عنك ولا أوقاتها
أنت مبيقات وشمس وسما

أنت تحنيها سماء زلفا (١)
تنسج الوقت لنا منفردين

(١) الزلف : التمتع والتقرب .

المرأة والخداع

خل السلام فليس يثنيها ،
هو سترها ١٠ وطلا، زينتها ،
وسلاحها فيما تكيد به
وهو انتقام الضعف ينتقذها
أنت الملووم اذا اردت لها
خنها ! ولا تخلص لها ابدا
حب الخداع طبيعة فيها
وربماضة للنفس تحيها
من يصطفها او يعاديها
من طول دل بات يشقيها
ما لم يرده قضاء باريها
تخلص الي اعلى غواليها

رواية

ما غرني إقناعها
هاذا تخسبي، طفلة
بل غرني علم الطبا
أو ليس علمها بالحيا
إني أشاهد كيف يف
أو كيف يصرى في النفو
أو كيف ينهض بعد طمو
أو كيف يروض بمد ما
دعني فتلك رواية
المى الوجيز رقاعها
وأنا المليم ، وقد علم
كل ولا امتاعها
رقت ورق قناعها
ع ، وللنفوس طباها
ة يهون فيه صراعها
طم في القلوب رضاعها
س الواعيات خداعها
ل سباته دفاعها (١)
خفت السراج شماعها
شافت وشاق شماعها
إن قيل أين رقاعها ؟
ت ، متى يكون وداعها

(١) الدفاع : قوة الموح وكل منفع .

خاتمة الكتاب

هذا هو كتابنا « عباس محمود إسماعيل بين الصحافة والأدب » بابوايه الثلاثة ، وفصوله الخمسة عشر ، والذي تحدثنا فيه عن المقاد صحفيا ومجددا وأديبا وناقدا وشاعرا ، والمنا فيه بصورة واضحة عن عصر المقاد ، وحياته من خلال عصره ، وإسهامه الكبير في شتى النواحي السياسية والوطنية والاجتماعية والصحفية والأدبية طيلة حياته .

والمقاد كان من أكبر المؤثرات في حياته الفكرية والسياسية والوطنية والصحفية أمرا :

الأول : إلتحاقه إلى مدرسة الأفغانى والامام محمد عيده ، وفيها : سعد زغلول وحافظ إبراهيم شاعر النيل ، ومصطفى صادق الرافعى ، ومصطفى لطفى المنفلوطى ، وغيرهم . وقد كتب عن الأفغانى ومحمد عيده أروع الفصول والمؤلفات ، ومن المصعب أنه تنقد حافظا والمنفلوطى في كتاب الديوان ، ووقعت بينه وبين الرافعى أعنف المارك النقدية . وهذا يدل على إخلاص المقاد لأدبيه قبل إخلاصه للأشخاص . وهذا الإلتحاق يفسر لنا وقوف المقاد بجوار سعد زغلول منذ كان وزيرا للمعارف المصرية حتى وفاته عام ١٩٢٧ ، وتأليفه لكتابه الضخم عنه بعد وفاته .

الثانى : إلتحاقه إلى مدرسة سعد زغلول السياسية الوطنية ، أى إلى الوفد ، طيلة أيام سعد ، والجزء الأول من سنى رئاسة خليفة سعد زغلول باشا وهو زعيم الأمة مصطفى للنحاس باشا ، حتى إذا ما وجد أن هناك تيارات ومناورات تحدث في الوفد ضده وضد كرامته ، ويديرها له سكرتير الوفد انفصل نهائيا عنه ، وانضم إلى الأحزاب المعارضة للوفد ، وهى أحزاب النصر والمعارضة ، وكتب أعنف الفصول في هجاء الوفد وزعيمه .

والمقاد مخلص في كل ذلك لمبدئه وفكره وآرائه وشخصيته ، بل مخلص لكرامته أولا وأخيرا .

ومع أن لطفى السيد كان من مدرسة الأفغانى ومحمد عيده إلا أنه انضم إلى حزب الأعيان والباشوات فافقده ذلك الشمسية المريضة التي تمتع بها سعد زغلول ورفاقه ، وهذا مما جعل المقاد لا يملك في الجريدة ، ومما جعله يبتعد عن الطريق الذى سلكه لطفى السيد أن قليلا وإن كثيرا .

والمؤثر الأكبر في حياته الأدبية هو تعرفه إلى زميليه شكري والمزني ، وانضمامه في أول الأمر إليهما ، وظهورهم جميعا مدرسة واحدة في الأدب والشعر والنقد ، تتأثر دعوة الرومانسية ، كما كتب عنها أعلامها ونقادها في الأدب الإنجليزي ، وكان ذلك سر وقوفه ضد الكلاسيكية وأعلام شعرائها وأدبائها في عصره : كشوقي والمنفلوطي وسواهما . . . ومع أن العقاد والمزني بدأ حياتيهما متأثرين بشكري ، ونهج لهما شكري الطريق ، إلا أنهما سرعان ما رادا الطريق وحدهما وسارا فيه بخطى واسعة مستقلين عن شكري .

إن العقاد تاريخ حي مؤثر في حياتنا الإسلامية والفكرية والأدبية في حياته وبعد وفاته على السواء . ونحن أي جيلنا المعاصر الذي يحيا اليوم مدينون له ولا ريب ، بأفدح الديون ، وقد مات العقاد عام ١٩٦٤ ، ولكن ذكره فنيا حية خالدة لا تموت أبدا .

ومن أجل ما أسداه العقاد لنهضتنا الإسلامية والفكرية والأدبية والصحفية كان هذا الكتاب ، الذي درسنا فيه كل ما يتعلق بالعقاد صحفيا وأدبيا وشاعرا وبالله التوفيق .

المؤلفان

مصادر الكتاب

- ١ -

- عباس محمود العقاد : (سعد زغلول سيرة وتحية ١٩٣٦
: رجال عرفتهم ١٩٦٢
: محمد عبده - اعلام العرب - ١٩٦٢
: خلاصة اليومية ١٩١٢
: الشذور ١٩١٥
: الفصول ١٩٢٢
: مطالعات في الكتب والحياة ١٩٢٤
: مراجعات في الآداب والفنون ١٩٢٥
: ساعات بين الكتب ١٩٢٧
: يمسالكك ١٩٤٧
: بين الكتب والناس ١٩٥٢
: على الاثر ١٩٥٣
: الديوان في النقد والادب ١٩٢١
: الحكم المطلق في القرن العشرين ١٩٢٨
: اليد القوية في مصر ١٩٢٨
: شمرا مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي ١٩٣٧
: هتلر في اليزان ١٩٤٠
: النازية والاديان ١٩٤٠
: في بينسى ١٩٤٥
: عقائد المفكرين في القرن العشرين ١٩٤٨
: فلاسفة الحكم في العصر الحديث ١٩٥٠
: ١١ يوليو وضرب الاسكندرية ١٩٥٢
: مطلع النور: طوابع البعثة المحمدية ١٩٥٥
: الشيوعية والانسانية ١٩٥٥
: الصهيونية العالمية ١٩٥٥
: الاسلام والاستعمار ١٩٥٧

- ٣٤٧ -

- ابراهيم عيده (دكتور) : اعلام الصحافة المصرية ١٩٥٠
 : جريدة الامرام ١٩٥٥
 : تطور الصحافة المصرية ١٩٥١
 : روز اليوسف سيرة وصحيفة
 احمد امين : زعماء الاصلاح في العصر الحديث ١٩٤٨
 احمد حسين الصاوي (دكتور) : معالم تاريخ الصحافة المصرية
 : محاضرات لم تنشر القاه على طلبة
 : قسم الصحافة بجامعة القاهرة
 احمد خاكي : قاسم امين - اعلام الاسلام ١٩٤٤
 احمد شفيق : مذكراتي في نصف قرن - الجزء الثاني ١٩٣٦
 : الاسلام والتجديد ١٩٣٥
 : وترجمة عباس محمود العقاد
 اسماعيل صحتي : مذكراتي - دار الهلال ١٩٥٠
 انور الجندي : الصحافة السياسية ١٩٦٢
 : نزعات التجديد في الادب العربي
 : المعاصر ١٩٥٧
 بلنست : التاريخ السري لاحتلال انجلترا مصر
 : ترجمة البلاغ ط ١
 جلال العشري : المعتاد سيرة وتحية
 : (مقالة العقاد الفيلسوف)
 جلال الدين الحمامصي : هذه هي صحافتنا بين الامس واليوم ١٩٥٧
 : معركة نزاهة الحكم ١٩٥٧
 حسين فوزي النجار (دكتور) : احمد لطفي السيد - اعلام العرب
 : رسالة الدكتوراه عن الجريدة
 : الصحافة - رسالة استعداد -
 خليل صابات (دكتور) : علم - فن - ط ٢ ١٩٦٨
 : تاريخ الطباعة في الشرق العربي ط ٢ ١٩٦٧
 سلامة موسى : الصحافة حرفة ورسالة ١٩٥٨
 شوقي ضيف (دكتور) : مع الاقتصاد
 : دراسات في الادب العربي المعاصر

الدكتور السيد رجب حراز :	ثورة ٢٣ وأصولها التاريخية
عبد الرحمن الزاوي :	مصطفى كامل باعث الحركة الوطنية
:	محمد فريد رمز الاخلاص والتفصحية
:	ثورة ١٩١٩ جزآن
:	في اغتصاب الثورة
عبد الرحمن صحتي :	المقاد - دراسة وتحية
:	(مقالة المقاد كما عرفت)
عبد الحى دياب :	عباس المقاد (دراسة ماجستير)
عبد اللطيف حمزة (دكتور) :	أدب القالة الصحفية في مصر (٨ أجزاء)
:	المخل في فن التحرير الصحفي ط ٣ ١٩٦٥
:	مستقبل الصحافة جا - الادب الصحفي
عبد الفتاح الديدي :	عبقرية المقاد
عبد العزيز شرف (دكتور) :	لطفى السيد فيلسوف ليقظ امة
الموضى الوكيل :	المقاد دراسة وتحية
:	(مقالة المقاد ناثرا)
عبد بدوى :	الشعر الحديث في السودان ١٩٦٥
لويس عوض (دكتور) :	في الادب والفن
:	دراسات غربية وعربية
:	ذكريات
محمد طاهر الجبلوى :	في صحبة المقاد
:	ذكريات في صحبة المقاد
محمد خليفة التونسي :	المقاد دراسة وتحية (مقالة المقاد
:	بين أوليائه وأعدائه)
محمد زكى عبد القادر :	محنة الدستور
محمد رشيد رضا :	تاريخ الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده
:	٢ أجزاء ط النار ١٣٥٠ هـ -
محمد حسين هيكال :	تراجم مصرية وغربية
:	مذكرات في السياسة المصرية -
محمد مندور (دكتور) :	جزآن ٥١ - ١٩٥٣
:	محاضرات عن ابراهيم المازني
:	بمعهد الدراسات العربية العالمية
محمد انيس (دكتور) :	وثائق ثورة ١٩١٩

مصطفى عبد اللطيف السحرى :
الشعر المعاصر - على ضوء النقد الحديث المقتطف ١٩٤٨ •

محمد عبد المنعم خفاجى :

رائد الشعر الحديث - جزآن ١٩٥٥ •

- دراسات فى الحديث ومدارسه - جزآن ١٩٧٥ •

- صور من الأدب الحديث - ٤ أجزاء - مكتبة الأنجلو ١٩٥٨ •

- الأدب العربى الحديث - ٤ أجزاء - مكتبة الكليات الأزهرية ١٩٨٥

- ٣ -

مقالات فى صحف ومجلات

١٩٦٣ مجلة آخر ساعة

١٩٦٣ الاخبار (يوميات)

مجلة الهلال - عدد خاص عن العقاد

مجلة الكتاب

مجلة الكاتب المصرى

- ٤ -

الصحف والمجلات

الجريدة	الامالى	روز اليوسف اليومية
المؤيد	المقتطف	كوكب الشرق
الدستور	البلاغ	المؤيد الجديد
البيان	الجهاد	الضياء
مصر الفتاة	الكتلة	الدستور
الاماس	البلاغ الاسبوعى	السياسة الاسبوعية
السياسة	الاخبار (امين الرافعى)	

- ٣٥٠ -

فهرسفت

الصفحة	الموضوع	تقديم
٣		
١٦٨ - ٧	الباب الأول : العقاد والصحافة	
٣٧ - ٩	الفصل الأول : صورة الصحافة في مطلع القرن العشرين	
١٠٦ - ٣٩	الفصل الثاني : العقاد يحترف الصحافة	
٤١	ميلاد صحفي	
٧٢	بين التقليد والتجديد	
٧٥	التعليم واللغة العربية	
٨٥	بعد تعطيل الدستور	
١٠١	في المؤيد	
١٢٢ - ١٠٧	الفصل الثالث : في الحرب المالية الأولى :	
١٠٧	الحماية	
١١٥	صحيفة الأماني	
١٦٨ - ١٢٣	الفصل الرابع : ثورة ١٩١٩	
١٢٣	تماطف العقاد مع الوفد	
١٣١	في البلاغ	
١٤٤	بين السياسة والبلاغ	
١٥٠	بين الأخبار والبلاغ	
١٦٩	الباب الثاني : العقاد والسياسة والاجتماعية	
١٩٠ - ١٧١	الفصل الأول : العقاد والقضايا الاجتماعية	
١٩٦ - ١٩١	الفصل الثاني : اتجاهات جديدة	
٢١١ - ١٩٧	الفصل الثالث : صحيفة جديدة	
٢٣٨ - ٢١٢	الفصل الرابع : بين العقاد والوفد	
٢٤٧ - ٢٣٩	الفصل الخامس : العودة الى البلاغ	

٢٤٨	الفصل السادس: العقاد والاتجاهات الجديدة
٣٤٤ - ٢٥٩	الباب الثالث : العقاد أدبياً
٢٦١	الفصل الأول : العقاد ورواد شعراء مدرسة الديوان
٢٧٧	الفصل الثاني : العقاد وفن المقال الصحفي
٢٨٦	الفصل الثالث : العقاد ومدرسة شعراء الديوان
٢٨٨	شكري رائد مدرسة الديوان
٢٩٨	العقاد فيلسوف المدرسة
٣٠٤	المآزني وحوار المدرسة مع خصومها
٣٠٦	بين شكري والعقاد والمآزني
٣٣٤ - ٣١٦	الفصل الرابع : بناء القصيدة عند العقاد
٣١٦	الأساس الفلسفي لنظريتهم في بناء القصيدة
٣٢٠	عمود الشعر ومدرسة الديوان
٣٢٤	شخصية الشاعر
٣٢٥	الوحدة العضوية
٣٢٩	التجربة الشعرية
٣٣٠	الصورة الشعرية
٣٤٣ - ٣٣٦	الفصل الخامس: صور من شعر العقاد
٣٤٥	الخاتمة
٣٤٧	مصادر الكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ٨٥/٤٢٠١
 ٩٧٧ - ٠٥ - ٠٣١٠ - X